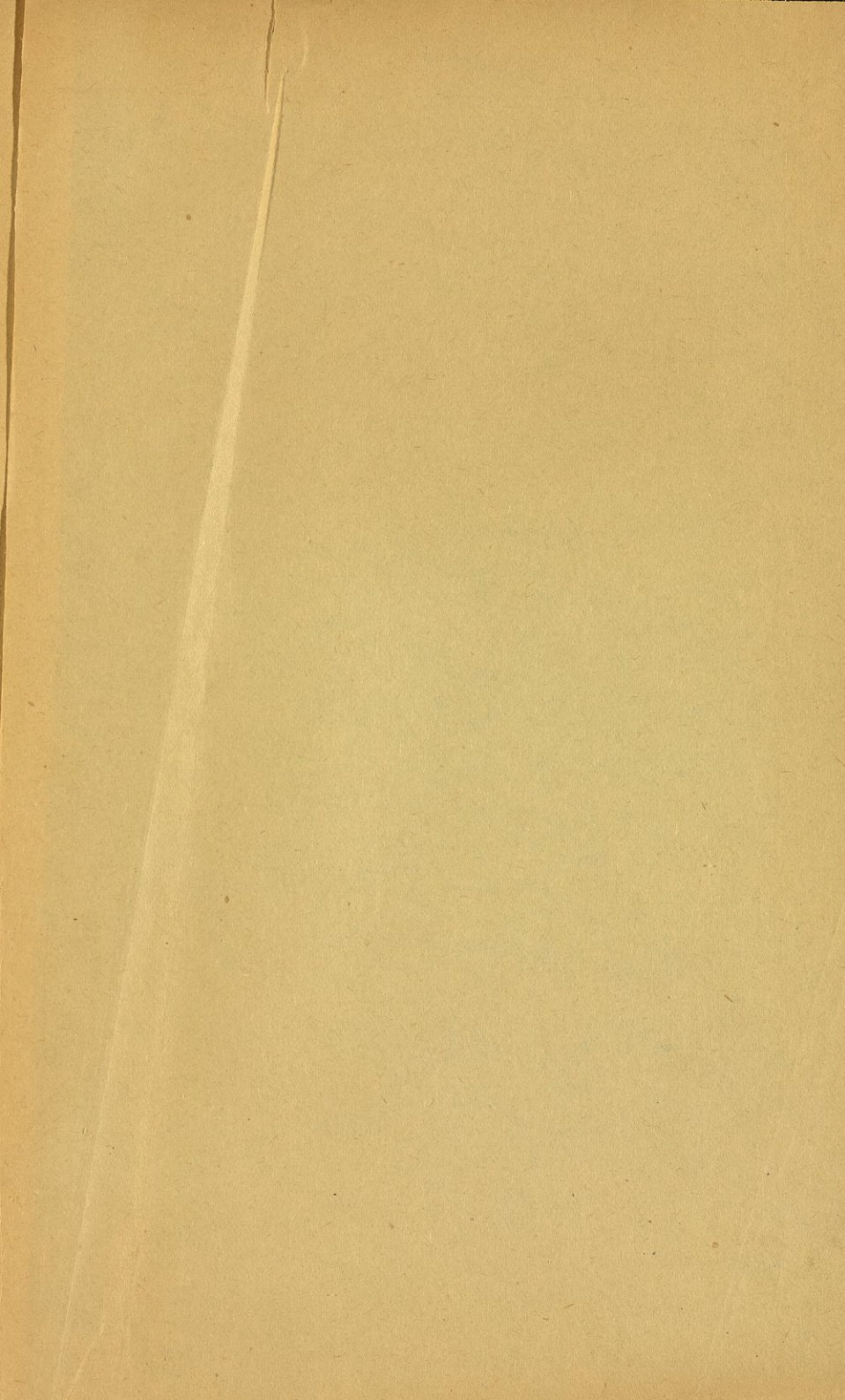


THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY



GENERAL LIBRARY



مَجَالِي الْعُرْدِ

لِكِتَابَةِ الْقُرْبَانِ وَالْمَشْرِقِ

وهو يشتمل على كل ماراق من المقالات المقيمة الشائقة . واخطب النفيسة
الرائقة . التي يستفيد منها الطالب ويستعين بها كل كاتب . مديحة
بيراع اشهر كتاب العصر . الذين لم علينا الفضل ويحق لنا بهم الفخر

﴿ جمعه ﴾

يُوسُفُ صَفِيحَا

وهو يباع في مكتبته المسماة

مَكْتَبَةُ الْمَشْرِقِ

« الكاتبة شرقي ساحة البرج على طريق النهر »

في بيروت

طبع ثانية بالمطبعة العثمانية في بعدا (لبنان) سنة ١٩٠٦

P J

7677

.59

مقدمة

لما كان روح العصر يحدو شبابه الابداء الى تصفح نقات بلغاء
الكتاب والمترسلين لانها سفر يحدّث عن حاجيات العلم ويبحث عن
اسباب العمران وكانت مكتبتنا « المدارس » قد آلت على نفسها ان تحف
بيوت العلم بما يتقف عقول بنينا ويني بحاجاتهم المدرسية مما اوقفنا النفس
له حسرنا عن عضد الهمة بعد ان استأذنا كثيراً من كتابنا الافاضل
وجمعنا من بنات افكارهم ونقات اقلامهم ما ديجنا به صفحات كتابنا
الذي دعونه :

✽ مجالي الغرر لكتاب القرن التاسع عشر ✽

بيد اننا لم نستطع الى تبويه سيلاً نظراً لتلون المواضيع وتنوعها واختلاف
العبارات وطبقات الانشاء فيها . وذلك لا يقض من قدر الكتاب ولا
يكون مدرجةً للانقاد عليه . اذ المقصود نظم شذرات النثر في سلك سطور
الطروس اغتناماً للفوائد المتنوعة على اختلاف طبقاتها . - ولعدم مقدرتنا
على الحكم بترتيب طبقات البلاغة والانشاء تركنا الامر على علاته مع
الاشارة الى كاتب المقالة مصرحاً باسمه

اما الانقلاب فمحافظة

وقد عقدنا النية على توسيع نطاقه الى اجزاء متعددة ولا سيما

إذا حاز القبول لدى أرباب الفضل من رؤساء المدارس ونخبة آل
العلم الكرام

ولا يخفى أن عضد مثل هذا يدفع إلى الإقدام والسعي وراء تعزيز
العلم ومعاهده مما يحمل الطلبة على النقاط فرائده وإدخال منافعهم في خزائن
عقولهم إشارة إلى القول المشهور « لكل عصر رجال » ولدينا من مجموعات
الأقدمين كثير . أهمه الكتاب المزدان بمجموع أفكارهم نظماً ونثراً المشهور
بين الأدباء ألا وهو « مجاني الأدب » الذي اغتنانا جامعه الفاضل عن أن
نطرق هذا الباب من التأليف إذ جمع فاعوى من المطالب الأدبية على
اختلافها مما لا يحيط به وصف فصرفنا همنا إلى جمع آثار فضلاء القرن
التاسع عشر الحافل بأنواع العلوم والأخراعات والفنون على اختلافها
فتكون الفائدة متنوعة إذ يستفيد المطالع إجماعاً عصرية تاريخية أدبية
فنية الخ الخ

فالمرجو من أدبائنا أصحاب النهضة العلمية أن يواظبوا بإفاداتهم بهذا
الصدد وما يرتأونه في مجموعتنا من الأفكار لتكون في الطبعة الآتية وافية
بالعرض . ومن لم نذكر من قلمه شيئاً في هذا الجزء فلا يفوتنا تدبير صفحاته
بمقالاته الشائقة في الأجزاء التالية . والله ولي التوفيق

يوسف صفيح

صناعة الكتابة

« لاديب بك اسحق »

الدرس الاول

حد الكتابة وافسامها

الكتابة صناعة موضوعها التعبير عن الخاطر برسوم معلومة . وفي اللغة الجمع وهي مصدر قولهم كتب يكتب كتابة وكتاباً ومنه قيل لجماعة الخليل كتيبة . ووجه المناسبة بين المعنيين ان الكاتب يكتب اي يجمع الحروف والالفاظ لتأدية ما يمر به من المعاني وما يشعر به من الاتفعالات

وقد جعلها المتقدمون اقساماً شتى بقدر مواضعها والخطط الدائرة عليها في ايامهم فقالوا كتابة الحسبة وكتابة المال وكتابة الانشاء وهلمَّ جرّاً وجعلوا تحت كل من هذه الاقسام فروعاً كثيرة يثبه الذهن في حدودها على انهم توسعوا في معنى الانشاء حتى اطلقه الكثير على مجمل تلك الاقسام فقالوا صناعة الانشاء وهم يريدون الكتابة على الاطلاق

والانشاء في اللغة مصدر قولهم انشأ الشيء ينشئه اذا ابتدأ واخترعه فلعل السبب في اطلاق لفظه على الكتابة ان اختراع المعاني هو الشرط الاول في انقان هذه الصناعة كما سيجيء في بابها . وهو اي الانشاء عند كتاب لغتنا الشريفة نوعان مختلفان وهما النثر والسمع ولكل منهما اصول معلومة وقواعد محدودة وصفات مميزات تذكر في مواضعها تفصيلاً

الدرس الثاني

النثر والسمع

النثر هو الكلام المطلق المرسل عفو القرينة بلا كلفة ولا صنعة الا ما يكون من وضع الكلام في موضعه وايتار ما يأنفه السمع والطبع منه فهو من هذا الوجه مقدم على سائر انواع الكلام بل هو الاصل في الانشاء وما سواه فرع منه فانه طبيعي اصيلاً وما دونه صناعي حادث والاصل في الطبيعة لا محالة . يدل على

ذلك ان هذا الكلام المقفى الذي يسمونه سجعاً لا يكاد يوجد في غير اللسان العربي فلو كان طبيعياً لوجب ان يكون في جميع اللغات او في المعدودة منها اصولاً لا اقل

اما السجع فهو الكلام المقفى على حد الارجوزة من الشعر الا انه غير موزون ولقد سمي بذلك استعارة من قولهم سجع الحمام اذا هدر وسجعت أناقاة اذا مدت حينها على جهة واحدة . وهو وان حسن في بعض الاماكن كصدور الخطب ومقطع الكلام بما فيه من تناسب الالفاظ وتماثل الفواصل التي يحسن وقعها في الاسماع الا انه في الجملة دون المرسل البليغ بهجة وصفاً وموافقة لمقضى الحال لتقيد الكاتب فيه بلفظ لا بد منه او من اخيه فلا ينبغي استعماله في بيان الحقائق العلمية ولا في ايضاح الاصول الادبية ولا في غير ذلك من مواضع النقد والسرد الا اذا جاء عفواً غير مقصود بالذات

الدرس الثالث

لابن خلدون فيما نحن بصدده كلامٌ جدير بالنظر والتأمل والاعتبار وهو قوله . السجع هو الكلام الذي يؤتى به قطعاً ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة والمرسل هو الذي يطلق الكلام فيه اطلاقاً ولا يقطع اجزاءً بل يرسل ارسالاً من غير تقيد بقافية ولا غيرها وقد استعمل المتأخرون اساليب الشعر وموازينه في المنشور من كثرة الاسجاع والتزام النقفية وتقديم النسب بين يدي الاغراض وصار هذا المنشور اذا تأملته من باب الشعر وفنه ولم يفترقا الا في الوزن . واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في الخطابات السلطانية وقصروا الاستعمال في المنشور كله على هذا الفن الذي ارتضوه وخلطوا الاساليب فيه وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصاً اهل المشرق وصارت الخطابات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل جارية على هذا الاسلوب الذي اشرنا اليه وهو غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقضى الحال من احوال المخاطب والمخاطب . وهذا الفن المنشور المقفى ادخل المتأخرون فيه اساليب الشعر فوجب ان تنزه الخطابات السلطانية عنه اذا ساليب الشعر تنافها اللوزعية وخلط الجذب بالهزل والاطناب في الاوصاف وضرب الامثال وكثرة التشبيهات والاستعارات حيث لا تدعو ضرورة الى ذلك في الخطاب والتزام

التقنية أيضاً من اللوحة والتزيين وجمال الملك والسلطان وخطاب الجمهور عن الملوك بالترغيب والترهيب ينافي ذلك وبيان والمحمود في المخاطبات السلطانية الترسل وهو اطلاق الكلام وارساله من غير تسجيع الا في الاقل النادر وحيث ترسله الملكة ارسالاً من غير تكلف له اما اجراًؤها على هذا النحو الذي هو من اساليب الشعر فمذموم وما حمل عليه اهل العصر الا استيلاء العجمة على السنتهم وقصورهم لذلك عن اعطاء الكلام حقه من مطابقته لمتضى الحال فعجزوا عن الكلام المرسل واولعوا بهذا السجع يلقون به ما تفهم من تطبيق الكلام على المقصود ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالاسجاع والالقاب حتى انهم يخلون بالاعراب والتصريف في الكلمات اذا دخلت لهم في تجنيس او مطابقة لا يجتمعان مع صحتها . اه

الدرس الرابع

هذه نموذجات من الكلام المرسل والسجع نوردها تذكراً وبيانا . فمن اطائب ذلك قول ابن خلدون . « ان الامة اذا غلبت وصارت في ملك غيرها اسرع اليها الفناء والسبب في ذلك والله اعلم ما يحصل في النفوس من التكاثر اذا ملك امرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم فيقصر الامل ويضعف التناسل . والاعتماد انما هو عن جدّة الامل وما يحدث عنه من النشاط في القوى الحيوانية فاذا ذهب الامل بالتكاثر وذهب ما يدعوا اليه من الاحوال وكانت العصبية ذاهبة بالقلب الحاصل عليهم تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسبهم ومساعدتهم وعجزوا عن المدافعة عن انفسهم بما خضع الغلب من شوكتهم فاصبحوا مغلبين لكل متغلب ظعمة لكل آكل » . اه

وجل كلام ابن خلدون ولا سيما في مقدمة تاريخه على هذا النحو من السلامة ومناعة التركيب . ومن تبلغ الكلام المرسل قول علي ابن الرماني في وصف البلاغة « البلاغة ما حط التكلف عنه وبني على التبيين وكانت الفائدة اذلب عليه من القافية وجمع سهولة المخرج مع قرب المتناول وعذوبة اللفظ مع رشاقة المعنى »

ومن مستكمل البلاغة قول الفرزدق لحسين بن علي رضي الله عنهما وقد سأله عن الناس في العراق عند المسير اليه فقال : القلوب معك والسيوف عليك والنصر في السماء

ومن جيد السجع مقامات الامام الحريري ورسائل بديع الزمان الهمداني وقطع

كثيرة للقاضي الفاضل وجملة غير يسيرة لكتاب مصر من بعدهم الى اقراض
الدولة الفاطمية

ولم يدخل هذا السجع كلام القدماء في الجاهلية وصدر الاسلام الا ما كان
منه عفو التريجة فواصل غير مقفاة او ما يعزى الى الكهان والمشعوذين مما يراد به
الايهام والايهام فلما استولت العجمة على اللسن وضعت قوة الاختراع في الاذهان
سرى داءه في المكتابة الى هذا العهد فعدل الكتاب عن الكلام الفحل واللفظ
الساذج والاسلوب الطبيعي الى هذه الاسجاع الملققة البالية يتناقلونها خلفاً عن سلف
ويطيلون بها الكلام بلا طائل سترأ القصورهم في ابتداء المعاني وايضاح وقائع الحال
من طريق البلاغة والايجاز حتى صارت من العادات وحصلت بين الملكات فدخلت
في المراسلات الاخوانية والمكاتبات عن الملوك والامراء في عظام الامور وسقط
من ورائها الكلام المرسل الى غاية السفالة والركاكة فصار ما يكتب منه رطانة يفهما
بعض الجهلاء وتعمض عن الراسخين في العلم

قال ابن الاصبغ لا تجعل كلامك كله مبنياً على السجع فتظهر عليه الكلفة ويتبين
فيه اثر المشقة وتتكلف لاجل السجع ارتكاب المعنى الساقط واللفظ النازل وربما
استدعيت كلمة للقطع رغبة في السجع فجاءت نافرة من اخوانها قلقة في مكانها بل اصرف
كل النظر الى تجويد الالفاظ وصحة المعاني واجهد في تقويم المباني فان جاء الكلام
مسيجوعاً عفواً من غير قصد وتشابهت مقاطعه من غير كسب كان وان عز ذلك
فاتركه وان اختلفت اسجاعة وتباينت في التفقيمة مقاطعه فقد كان المتقدمون لا يحتفلون
بسجع جملة ولا ينقصونه الا ما اتت به الفصاحة في اثناء الكلام واتفق من غير قصد
ولا اكتساب وانما كانت كلماتهم متوازنة والفاظهم متساوية ومعانيهم لاصقة وعباراتهم
رائقة وفصولهم متقابلة وجمال كلامهم متماثلة . اه

الدرس الخامس

صفات الكاتب وما يحتاج اليه

قد اشترط بعض المتقدمين في الكاتب شروطاً كثيرة منها ما يلزم في كل
انسان على الاطلاق وفي كل ذي خدمة عمومية بالجملة ومنها يخص بالكاتب ولكن
على ذلك العهد فالضرب الاول خارج عن موضوعنا لدخوله في علم الاخلاق والثاني
من مطالب التاريخ اما شرطنا على الكاتب فهو من جهة الادب الاجتهاد والثبات

والاستقامة ورعاية الحقوق وحفظ الواجبات وموَدَى قول الحكيم^١ الفرنسي الموجه
الى كل اناسي

ذاتك احفظ وتفقّه واعتدل واحي للناس ليحي الناس لك

ومن جهة الكتابة بالذات ان يعلم اصول اللغة ليصمم لسانه عن الخطاء ما امكنت
العصمة لانسان ويحفظ قطعة كافية من العلوم والاداب خصوصاً ما يتعلق توتراً بمخطة
الكتابة ليكون على بينة من الامر فيما يقول اما الكتابة العالية البالغة حد العالمية
فلا تنفق عند حد ولا يحصرها شرط فانها في العلم الذي يعرف اوله ولا يعرف اخره
وليست في شيء مما نحن بصدده وانما شأننا بيان صناعة الكتابة وما يشترط فيها
من حيث ادخال المعاني في الافهام من اقرب واصح وجوه الكلام وهذا اوان الشروع
في ذلك بعون الله

الدرس السادس

الكتابة كما تقدم في التعريف صناعة يراد بها التعبير عن الخواطر والمحسوسات
بوضع صحيح واسلوب صريح فهي ذات ثلاثة اركان: الخاطر المراد ايضاحه وهو
الانشاء والوضع الذي يبدو به ذلك الايضاح وهو البيان والكيفية التي يحصل بها
ذلك هي الاسلوب

فالانشاء او الاختراع هو الخاطر الذي يجده الكاتب ويقف فكره عليه
فيجعله موضوع كتابته فهو من هذا الوجه قوة من الفكر بايجاد الخاطر والموضوع
والنصاحة هي الحكاية او التأثير او الاقتناع ولا بد في كل مكتوب من احدى هذه
الثلاث وقد يجتمعن به والحكاية تحصل ببيان الواقعات والتاثير بالصور المؤثرة
والاقتناع بالبراهين

والوضع هو تنسيق اقسام الموضوع فانه لا يكفي ان يكون هناك خاطر بل لا
بد من ملاحظة النظام في كيفية ايضاحه فانه لا جلاء بلا تنسيق ويفقد الغرض
وعوضاً من الافادة والاعجاب والتاثير والاقتناع يتعب القارئ عبثاً وقبل الكتابة
لا بد من وضع رسم ولورؤوس اقلام فانه اذا لم يوضع الرسم يرتبك الذكي ولا يعرف
كيف يبتدىء وكذلك يدخل في تفاصيل مملّة ويضيع المسألة المهمة المقصودة بالذات
ويصير مظلماً كلما اجتهد في الايضاح ومن اين له ان قارئه يصبرون الى ان يعود
ليرتدي سبيله وفي الكتابة القصيرة لا يستغني البتة عن هذا الرسم ولكن العادة تجعله

مصدرًا في الذهن على الفور بحيث ان الكاتب يسلك سبيله المعلوم بلا دليل وكيف
كان ففي التنسيق ثلاثة امور ضرورية وحدة الموضوع وتلاحم الاجزاء
واستقلالها التدريجي

والاسلوب هو العبارة التي توضح بها الفكر ولذلك يقال لكل انسان اسلوب وهي
تتعلق بانتقاء اللفظ وكيفية سرده . قال فولتير: الاشياء التي نقال تؤثر اقل من
كيفية ادائها فان جميع الناس يتقاربون في الافكار التي هي بمدرء كل انسان والفرق
في كيفية التعبير فانها تجعل الاشياء معتادة غريبة وتقوي الضعيفة وتجسم البسيط
وبلا حسن الاسلوب لا يمكن ان يوجد كتاب جيد في اي موضوع
ويقول غيره: حسن الكتابة فيه حسن الفكر وحسن الشعور وحسن التعبير
فيقتضي الذكاء والدوق . والاسلوب يتضمن استعمال القوى العقلية جميعاً ولا يبقى
من الكتب الا ما كتب جيداً فان الاختراعات والاكتشافات لا يخلد بها الكتاب
ما لم يكن حسن العبارة مكتوباً بدوق ونبالة
والاسلوب وهو النفس هو الدال بالعقل على صفة الكاتب حتى قيل انه مظهر
الكاتب لتعلقه بقوى العقل والنفس وحيث ان لكل انسان صفات تميزه عن غيره
فلذلك اختلفت الاساليب والاتقاس

—>o<—

الانشاء

« للشيخ خليل اليازجي »

الانشاء ملكة راسخة في النفس يعين عليها سلامة الدوق وطول المزاولة .
والناس فيها طبقات متفاوتة مرجعها في الاكثر الى بداهة الخاطر وذكاء البصيرة
وغزارة المادة . وله احكام اذا راعها المجيد نبغ فيه واذا راعها الضعيف استأنس
بها فاعنته على الجري فيه . وقبل البحث في تلك الاحكام يحسن ان نهد لها بما تجمل
به مفصلاتها او تشرح متونها فنقول

لا يخفى ان كل مجموع انما يتألف من مفردات . وان بين كل مفرد وآخر
في ذلك المجموع نسبة . وتلك النسبة لا بد ان تكون اما موافقة او مخالفة . وعلى
هاتين النسبتين تترتب حالة المجموع من حيث حسنه وقبحه وتلاؤمه وتنافره ونحو ذلك

من حالاته . واطهر ما يمثل به على ذلك الالوان فانه قد يكون بين يدك رقعتان
مؤنّتان بالوان واحدة فمستحسن احدها على الاخرى وليس ثمّ من سبب الاّ التلاؤم
بين الوان الاولى . والتنافر بين الوان الثانية . ولقد ترى رقعة اخرى فنقول لو
وضع مكان هذا اللون منها اللون الفلاني لكاف اليق او لزال عيها . وقس على
ذلك الاصوات الموسيقية والطعوم وسائر المركبات على الاطلاق . اذن فاية
الاحكام في كل مركب انما هي الملاّمة بين مفرداته وانما ذلك من قبيل وضع
الشيء في محله

ثم ان لكل مفرد في المركب فضلاً عماله من الاعتبار النسبي اعتباراً آخر
ذاتياً من حيث حسنه وقبحه ينظر فيه اليه مجرداً . فمتى استوفى المفرد حسنه الذاتي
ثم قرن بما يتلاّم واياه فهناك غاية الكمال في المركب وتام الاحكام

اذا عرفت هذا وعرفت ان العبارة انما هي مجموع مفردات الكلمات عرفت ان
حسن العبارة وطلاوتها مترتبان على التلاؤم بين كلماتها بعد استيفاء تلك الكلمات
حقها من الفصاحة على ما هو مقرر في علم البيان . وتبين لك وجه حسن الانشاء
من اين يتاقى وهان عليك ان تعرف سبب ضعفه وقوته وصحته وفساده . ولكن يبقى
عليك ان تعرف موضع الحسن والقبح منه وتعين محل الصحة والفساد فيه وما يتلاّم
وما يتنافر من الكلمات . وهي غاية بعيدة المنال صعبة المسلك موكولة الى الذوق .
واحسن وسيلة لاقتباس هذه المعرفة دراسة اسفار الكتبة المجيدين ومطالعة انقاس
البلغاء والافتداء بهم والتخدي لهم على ما سيأتي ذكره

فاذا وضع الكاتب نفسه من الكتابة موضع المصور من التصوير علم ان اول
ما ينبغي له ان يراعيه في كلامه انما هو حسن اختيار المفردات على ما رسمه علماء
البيان بان تكون سلسلة على السمع سهلة على اللسان مستوفية احكامها اللغوية والنحوية
والبيانية وغيرها . وان لا ينحو نحو الكلم المجهورة الغريبة الا اذا اضطر الى ذلك
للافتقار اليها ويترتب عليه حينئذ ان يضعها موضعاً لا يشكل جهلها فيه بالمعنى ولا يقف
دونه . وذلك يتم بان تشفع بمرادف لها او تنصب قرينة في العبارة تدل عليها
وتكون كالمفسرة لها . وهو استعمال يتخير به بعض الكتبة يقصد به ادراج كلمة ضمن
الكلام المستعمل للاحتياج اليها او لحسن وقعها فيشفعها بما ذكرنا من الدلائل على
معناها فلا يحتاج قارئها الى التفتيش عنها لتفسيرها فيستفيدها في اثناء العبارة غنيمة

باردة ويكون في المقالة المدرجة تلك الكلمات فيها فائدة اخرى لغوية غير المقصود من المقالة وردت عفواً في عرض الكلام . وهي طريقة حسنة في الكتابة ووسيلة قوية لنقل مفردات اللغة المفتقر اليها من بطون الصحف الى رؤوس الافلام واطراف الالسنه توسيعاً لنطاق اللغة المستعملة عند الكتاب وتحسيناً للكلام وتزييناً له بما في تلك الالفاظ من الطلاوة التي اقلها طلاوة الجديد وترفعاً عن الرطانة بالكلم الاجمعية لمعانٍ ومسميات حديثة او قديمة يظن ان اللغة قد دخلت عن الفاظ لها وهي مشحونة بها

كالبجر يقذف بالرّمال وانما أبقى الآليء ضمنه للغائص

ومتى اعد الكاتب لديه من المفردات ما يعده الباني من الحجارة المنقاة للبناء مما استوفى هذه الشروط اخذ في الجمع بين تلك المفردات والملاءمة لها بحيث لا يقع بينها ما يقع بين حروف في الكلمة من التنافر او غيره مما مرّ لان منزلة الكلمات من العبارة منزلة الحروف من الكلمة فلا بد ان يراعى هنا ما يراعى هناك ومتى انتهى الى العبارات عمد لها فتدبرها تدبر المفردات بأن ميز بين ضعيفها وقويها ومبتدئها وغيرها فلم يتغير الوجه المرجوحة من التراكيب ولا الضعيفة من الاساليب . وتجنب اعادة الكلمة المفردة بعينها في العبارة المتجاوزة الالكلمة كالتاكيد وتكرار صورة واحدة من التعبير في اثناء الكلام على ما مرّ . فلا بد له حينئذٍ من حفظ كثير من مترادفات التعبيرات ومتشابهات الصور مع تغاير اللفظ والتركيب نظير حفظه من المفردات ولكي يستخدمها فضلاً عن ذلك فيما تقضي به بعض مقاماته عند الاطناب والاسهاب وتعزيز الكلام وتقويته

ومن الاحكام اللفظية ان يعتمد الكاتب السهولة في التعبير ولا يميل فيه الى جهة الاغراب والتعقيد اعتقاداً انه انما يترفع بنفسه عن اتباع الوجوه المألوفة والاساليب المتعارفة ارادة ان يتمدح طرقاً من الكلام يحدتها لنفسه لان السهولة مع الاجادة خير من الاغراب وبينه وبين الاحسان مراحل . وفضل طريقة لتسهيل العبارات واسلوب الكلام ان يتصور الكاتب نفسه يتحدث بما يريد ان يكتبه ويتبع نسق حديثه الطبيعي واسلوبه لا يجهد عنه الا عند ما تدعو الى ذلك اداب اللغة الفصحى فقط . فيأتي الكلام حينئذٍ طبيعياً مالوفاً لا توجه الاسماع ولا تنفر منه الطباع . وهذا الامر شديد الاهمية كثير الوقوع فانا كثيراً ما نقرأ لبعض الكتبة قصة او

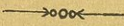
حديثاً نكون قد سمعنا منه يتحدث به فنتنى لو كتبه كما نطق به ولو كان باللغة العامة طمعاً في حسن اسلوبه وطلاوته وفراراً من التعقيد والتشويش حتى يحول ذلك بعض الاحيان دون فهم المعنى

ولا بد للكاتب قبل بري قلمه والالفة دواته من ان يترشح للكتابة زمناً طويلاً يصرفه في مطالعة كتب المنشئين البلغاء كالجاحظ وابن المقفع والبديع والخوارزمي وابن خلدون وغيرهم ويكثر من هذه المطالعات وامثالها حتى تنطبع فيه ملكتهم ويقوى على تحديدهم ومحاسنهم فيتمدد حفظ اساليبهم في ضروب التعبير ارادة ان يستخدم نسق عباراتهم فيما لديه من الكلام لا ان يستخدمها هي بعينها كما يتوهم البعض . ولا يحسب ان في ذلك وضاعاً منه او خطأً لمقامه فان الكاتب مهما ارتفعت منزلته من البلاغة واتسع صدره في مجال الكلام ليعجز عن اختلاق التراكيب الجديدة واستنباط الاساليب المبتكرة آتياً بغير ما اتى به الاولون من ارباب الاقلام الذين تنابوا البلاغة وضروبها والبراعة وطرقها فلم يغادروا ثم من متردماً . ولا يعد اتباعهم في هذا والائتمار بهم سرقة والا كان أكثر الكثرة لوصفاً خطافين . لان الكلام كاللباس للمعاني والصور مهما كثرت لا تزال قليلة بازاء المعاني . ولا بد للكاتب ايضاً من حفظ الكثير من الشعر ولا سيما ما يجري منه مجرى المثل وما يحتاج اليه في مواطن الكلام فان لذلك منافع حجة للكاتب من تزيين كلامه وتقويته حتى لقد بقي الكلام ناقصاً ضعيفاً مهما اجتهدت في اتمامه وتقويته حتى تشفعه بيت من الشعر يحمل به مفصله ويفصل جملة او يضرب مثلاً عليه او شاهداً له ونحو ذلك . ومن الكتاب من كان اذا بلغ من الكلام الى حيث يحتاج فيه الى ايراد شيء من الشعر على سبيل الاستشهاد او غيره مما مر ولم يجد في محفوظه ما يناسب المقام ينظم له من عنده ما يتمثل به مخرجاً اياه اخراج كلام مقول . ولذلك فائدة اخرى وهي ما يسمى عندهم بحل المنظوم وهو ان يعتمد الكاتب الى البيت من الشعر فيمله الى نثر ويدمجه في كلامه تفنناً في الكلام وتزييناً له وهي طريقة كثير من كبراء فحول الكتاب كابن زيدون والبديع وغيرها

وبقي امرٌ ينظر فيه الى الكلام على العموم وهو ان يكون طباق قولهم لكل مقام مقال فمن العاوم ان الكلام طبقات بعضها فوق بعض فينبغي ان يخاطب كل طبقة بالطبقة التي تليق به وان يختار لكل معنى من الكلام طبقة كذلك . فمتى خوطب

العلماء من اهل العربية والمتأقون من ار باب الترسل وفحول الانشاء وحب ان يحتمل
 في خطابهم الكلام الجزل والاساليب البليغة واللفظ المنمق بالاستعارات والكنيات
 وسائر فنون الهاز . وكذلك اذا كان الكلام في معنى شريف يقصد فيه المبالغة
 والتزيين كالمذح والتأبين ووصف العظمة والابهة والنصر وغير ذلك مما يذهب فيه
 مذهب الشعر . ومن هذا القبيل الخطب التي تصدر بها بعض التصانيف الايقة
 وانشاء المقامات واشباهها . ومتى خوطب عامة الناس والاميون منهم خاصة وحب
 ان تحتمل الالفاظ المأنوسة والاساليب السهلة والتراكيب المشهورة وذلك كما في
 المواعظ والخطب العمومية والخبار السياسية واشباهها ولا بد في مثل هذا من اجتناب
 الالجاز والتعميد والتزام الحقيقة دون الهاز والاستعارة الا في ما اشهر امره وصار
 بديهي الفهم واذا لم يمكن الالفهام الا باللفظ المبتذل فهو خير في مثل هذه الحال
 من الفصيح والا فالفصيح اولى

ومما يلحق بذلك ان يطابق المكاتب بين المعاني والالفاظ من حيث الالطاب
 والالجاز والحقيقة والهاز ويتغير الالفاظ الرقيقة والجزلة فيعطي لكل معنى ما يصلح
 له من ذلك على ما نص عليه علماء البيان وجرت عليه فحول الكلام الى غير ذلك
 مما لا تحيط به قاعدة ولا يقع تحت قانون لتشعب مسالكه وتفاوت وجوهه ومرجهه
 اخيراً الى الذوق السليم وهو الحاكم في اكثر القضايا والله اعلم



الخطابة

وهو الخطاب الذي القاه عزتوا برهم بك الاسود مساء الثلاثاء في ٢٤ نيسان

سنة ١٨٩٤ في منتدى مدرسة البنات الاميركية في بيروت

اجابة لطلب عمدة المدرسة

قال بعد المقدمة :

الخطابة في اللغة مصدر خطب وعند المنطقيين والحكماء هي القياس المؤلف
 من المنظومات التي يحكمها حكماً راجحاً اتباعاً لغالب الظن مع تجويز بطلانه . او من
 المقبولات وهي الراء التي يوقع التصديق الجازم صدورها عن لا شبهة في صدقه
 مع كونها قابلة الانكار بنفسها ويسمى قياساً خطايا والغرض منه ترغيب الناس فيما

ينفعهم . وقد جعل احد المتقدمين رأس الخطابة الطبع وعمودها الدراية وحليها
الاعراب وبهاءها تحبير اللفظ

اما اركانها فاهمها الافكار والاساليب وهي كما لا يخفى كالكتابة وصحف الاخبار
اذ تفيد السامعين علم ما جهله بعضهم وتزيل شك ما علمه البعض الاخر بما يقوم بها
من الادلة الساطعة . وترشدنا البديهة الى ان المرء مها اتسع نطاق معارفه وتسامت
مداركه وتعلت قواه العقلية لا يستطيع ان يحيط بكل الامور علماً بل يظل مفترقاً
الى من يرشده الى بعض الحقائق . ولم تقتصر فوائدها على ما مر بسطه بل انها تفيد
ايضاً ما هي السياسة والعلوم والفنون والتجارة والزراعة والصناعة وتبسط تاريخ المتقدمين
وسير مشاهير الرجال وما اتوا من الاعمال الجليلة ولكنها تمتاز عنهما بكونها تناول
حاستي النظر والسمع وهما تقتصران على الحاسة الاولى منها ولهذا تكون اشد تقيراً
للعاني في الافهام لدخولها فيها من باين واسرع تنبيهاً للخواطر لان السامع مهما كان
خاملاً لا بد ان يقع صوت الخطيب منه موقع التأثير ويفعل اللسان ما لا يفعل
السنان . وهي على اختلاف اساليب الخطباء وتفاوت درجات معارفهم وافكارهم تعود
الى غاية واحدة كالغزف بالات الطرب التي لا يخرج عن مقصد واحد على اختلاف
نغماتها وتفاوت درجاتها

اما غايتها فهي اطلاق عنان المتروطين وكبح شكيمة الجامحين وتقويم ما تأوّد
من الصفات وخضد ما تقذ من الاشواك . ولهذا قد امتدت بواسق مجدها وارفع
شأنها واحلها ذور الفضل منهم محلاً مذكوراً فاتخذوها في المعابد مشكاةً للهداية
ومصباحاً للفضيلة وفي المدارس سراجاً يبين الالباب ومروراً للاخلاق وفي الهيئات
الاجتماعية مهزاً لنوي الاظافر الخادشة ومحركاً للجد وراء ما يرفع شأن الوطنية
ويعلي كلمة الانسانية الى غير ذلك من الغايات السامية . ولو لم تكن أكثر تأثيراً في
الاذهان واثبت للخواطر من اقرب الطرق بما يتصل اليه الخطيب من حسن التعبير
والاسلوب الصحيح لاكتفوا عنها بما وعته صدور الاوراق وكفوا الخطباء مؤنة
المشاق العظيمة . لانه مها كان الخطيب جسوراً ومدججاً بأسلحة الخطابة العلية
والعقلية والنقلية لا بد ان تحف به صعوبات خارجة دفعها عن حد امكانه . فما من
خطيب سوى النزر اليسير يقوى على دفع الاضطراب الذي يستولي عليه عند نهوضه
للخطابة حيث يكون بمثابة لدى الالوف المؤلفة من الناس السائدين بينهم الهدوء

والسكينة عرضةً يتهدها من الخواف خشية التقصير والسقوط وجهود القرينة وهدفاً
لاسهم انتقادات سامعية الذين يتعذر عليه ان يرضيهم جميعاً لما هنالك من تباين
الافكار والغايات

وهنا يليق بنا ان نلقي على مسامعكم ايها الذوات الكرام الاسئلة الآتية وهي
ما هو الباعث ياترى على هذه الصعوبات
ولماذا لا يكون مركز الخطيب امام المئة مثلاً مركزه امام الواحد ومقامه لدى
لثيف الاصدقاء مقامه لدى سواهم

ولماذا يروعه اجتماعه بلثيف لا يروعه الاجتماع بكل واحد منهم على حدة
ولماذا يتلثم بعض الخطباء بالخطابة وهم ممن يجرون ذيل الفصاحة على سخبان وائل
ولماذا يستطيع البعض ان يستنضوا بالاحاديث الطويلة العريضة وهم جالسون
ويفقدون هذه المزية اذا اتصبوا على اقدامهم

ولماذا يؤثر بعض الخطباء الانحناء في اثناء الخطابة على الوقوف عمودياً
فكأنهم يحسبون ما من احد يعلم سبباً لهذه الصفات غير ذوبها لاختبارهم

انفسهم

قيل ان احد الخطباء خاتنه الذاكرة بعد انتصابه في منبر الخطابة فجلس قليلاً
ثم نهض قائلاً اقسم بالسماء ان امرأ عذاب اريد الحاقه بالد اعدائي هو وقوفه حيث
انا واقف الان

وحكي ان طبيباً بعد ان خطب في المعرقات وفوائدها وبين انواعها بحسب
تعريف الكتب الطبية قال وقد فات المؤلفين الافاضل ان يجعلوا من جملتها بل اهمها
الوقوف بمثل هذا الموقف الرهيب (وهذا العلاج لا تستفيد منه الصيدليات شيئاً)
وكلاهما قد قال حقاً ونطق صدقاً لصعوبة مسالك الخطابة على ما ذكر

اما الشروط التي لا يتم عقد انتظام الخطابة الا بالتزامها فبعضها تتعلق بسامعيها
وبالبعض الاخر بالخطيب نفسه

فالشروط المتعلقة بالسامعين هي ان لا ينظروا الى من يقول بل الى ما يقال وان
يعبروا الخطيب جانب الاصغاء كي لا تتشوش افكاره . وتبقى جداولها صافية وان
لا يبخسوا الخطيب حقوقه اذا حل قوله محل الحقيقة والقبول

والشروط المتعلقة بالخطيب هي ان يكون قوي التصور والذاكرة رابط الجأش

فصيح اللمجة واضح الصوت ملائمه (لانه اهم سلاح له) قادراً ان يكفيه بحسب كل عاطفة وفكر لتدل درجاته على كل غاية يضطر الى الدلالة عليها ملتصقاً بكل مقام مقالاً لا ينطق عن هوى ولا يلتوي مع الغاية بعيداً عن القول الهراء صادعاً بما يامر به الحق ضاماً شتات المعاني بفقرات مستحكمة العرى ومفرغة بقلب من الحكمة يجعلها حرية بالقبول سارداً المواد بترتيب قويم كاشفاً حجاب الفهم برائق لفظه وشائق ابتكاراته مثبتاً المعاني المقصودة بما تهيب له الحقيقة من الادلة الواضحة بالفاظ ينزل تلك المعاني منها منزلة العرف الطيب من نضير الازهار منادياً بديمومة الاتحاد الذي ينشأ عنه العمران شأن الوطني الحر ناطقاً بالشكر ولكن مستحقيه بما تجتمع عليه الاراء من السجيا الحسنة والمناقب الجليلة التي يرتاح لثناء عليها كل حازم حاذق لان السمع ينبو من وضع اشياء في غير محله متجنباً الاسهاب امل والتسجيع الذي يقع على المسامع احياناً ضيقاً ثقيلاً غير متخذ منبر الخطابة مقاماً يتصدر فيه ليعلم ان صدره مستودع العلوم والفنون وانه واقف موقف بديع الزمان (لان مادح نفسه يقريك السلام) وان لا يجعل الخطابة اسمى من الاذهان ولا يلتزم الكلمات اللغوية التي تضطر اكثر سامعيها ان يتأبطوا معجمات اللغة لحل رموزها . لانه ليس القصد بالخطابة ارسال اصوات تلج ابواب الاذان ولوج تصدية الاكف بل القصد بسط معاني تحرك الاكف لتصدية استحساناً وبالجملة لا يعد الخطيب خطيباً الا اذا تناولت اليه اعناق ساهمه وشخصت فيه ابصارهم واستطاع الاستيلاء على افكارهم والحكم على عواطفهم قال احد الحكماء اذا اردت الخطابة فايك والتوعد فانه يقودك الى التعقيد الذي يشين المعاني ويستهلك الالفاظ وان اردت اذاعة معنى كريم فالتمس له لفظاً كريماً وان امكنت ان تبلغ من بيان لسانك العامة معنى الخاصة بالالفاظ المتوسطة فانت البليغ ولا تجعل كلامك كله منبياً على السجع فتظهر عليه الكلفة وتلتزم لارتكاب المعنى الساقط والكلمات القلقة في مكانها فقد كان الاقدمون لا يقصدون الا ما اتت به الفصاحة في اثناء الكلام واتفق من غير قصد

علوم العرب

« للشيخ ناصيف اليازجي »

لا يخفى ان العرب كانوا قوماً اميين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة الا قليل منهم . ولم تكن عندهم علوم الا قليلاً في النجوم والطب عملاً بالاسنقراء والتجربة . غير انهم كانوا في اعلى طبقة من نباهة الفكر وفصاحة اللسان وسرعة الخاطر حتى كانوا ينظمون الشعر ارتجالاً فياتون فيه بما لا يقدر عليه غيرهم بعد التروية والاستعداد . وهو امرٌ عظيمٌ لا يعرف مقداره الا من كلف نفسه الهجوم عليه . ولم يكن لهؤلاء القوم اعمال يشغلون بها فكانوا يصرفون همتهم الى تهذيب لغتهم والتفنن فيها حتى ذهبوا في ذلك كل مذهب . وساعدهم على التصرف فيها ما عندهم من الحداقة فكانوا يجعلون لكل حكم من احكامها وجهاً سديداً يحكم العقل بصحته . فكانت باعتبار الفاظها منقولة وباعتبار احكامها معقولة . وما زالوا كذلك حتى ظهر الاسلام ودخلت فيه شعوب من الاعاجم فاختلطت اللغات وخيف الفساد على العربية فجعل لها روابط وضوابط تحفظها على اصلها عند ما يقف عليهن . فمن ذلك ما تعرف به مباني الفاظها بحسب الوضع وهو علم متن اللغة ولعل واضعه احمد بن المستنير الملقب بقطرب . ومنه ما تعرف به احكام ابنية الالفاظ المتداولة في المعاني المختلفة وهو علم الصرف وواضعه معاذ المرءاء فيما قيل . ومنه ما يعرف به تركيب الالفاظ الدال على اصل المعنى المراد وهو علم النحو وقيل واضعه علي بن ابي طالب وقيل ابو الاسود الدؤلي . ونسبه بعضهم الى حماد بن سئمة . وهو اجل علوم هذه اللغة لاشتماله على الاعراب الذي هو دليل القاري ومصباح الساري وعليه مدار المعاني واختلاف المباني كما في نحو لا تاكل السمك وتشرب اللبن . فان رفع تشرب يدل على النهي عن الاول واباحة الثاني ونصبه يدل على النهي عن الجمع بينهما دون انفراد كل منهما على حدته وجزمه يدل على النهي عنهما جميعاً . والواو على الرفع للاستثناء وعلى النصب للصرف وعلى الجزم للعطف . فقد تلاعب الاعراب بالمعاني والالفاظ جميعاً كما تلاعب في قولهم ما احسن زيداً . فان النصب يدل على التعجب من حسن زيد والرفع على نفي الاحسان عنه واخفض على الاستفهام عن احسن ما فيه . فتكون ما على الاول تعجبية واحسن فعلاً جامداً وعلى الثاني نافية واحسن فعلاً متصرفاً وعلى الثالث استفهامية واحسن

اسم تفضيل ولو اردنا الاتساع في ذلك لاوردنا كثيراً من الصور المختلفة ولعل هذا لا يوجد في غير هذه اللغة . ومن علوم العربية ما تعرف به مطابقة الفاظها للمعاني المقصودة بها في التركيب وهو علم المعاني وما يعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة وهو علم البيان . وواضعها الشيخ عبد القاهر الجرجاني . ومنها ما تعرف به وجوه تحسين الكلام وهو علم البديع . وواضعه عبدالله بن المعتز . ومنها ما تعرف به احكام موازين الشعر وهو علم العروض . وما تعرف به احكام الاجزاء الملزمة في اواخر الابيات وهو علم القوافي . وواضعها الخليل بن احمد . ويتصل بذلك فنون شتى كعلم الاشتقاق واصول النحو وقرض الشعر وانشاء النثر والفصاحة والمحاضرة والخط ومقاطع الحروف والاحكام المتعلقة بها مما يطول بيانه حتى يكون من لم يدرك منها غير المتعارف بين العامة ممن اصاب سقطاً قد ضربته الريح الى خارج البستان وفاته ما في داخله من الثمار الصالحة الكثيرة المختلفة الانواع . ثم اتسعوا في العلوم الشائعة فتداولوا علم المنطق وكان اسبقهم اليه الشيخ الرئيس الحسن بن عبدالله بن سينا البخاري وهو الذي استوفى حق الصناعة الطبية غير انه كان قد سبقه الى شيء من ذلك الشيخ محمد بن زكريا الرازي . وكثيراً ما تشتمل مؤلفاتهم على فنون من هذه الصناعة كالبيطرة وهي طب الخيل والزرذقة وهي طب الطيور . وقد يتعرضون لشيء من البزردة وهي صناعة الغرس واوقاته والفلاحة وهي صناعة الاغراس ومقارستها وكان كثير من الاطباء المحققين يضمنون الى علم الطب علم الطبيعيات لعلاقة بينهما في الاحكام المزاجية وغيرها وعلم النجوم لتاثير الاجرام العلوية في الابدان وعلم الموسيقى لمعاذته في احكام النبض . ولهم في ذلك مؤلفات لا تحصى . ومما افرغوا كنانة الجهد فيه علم الفقه وهو ثلاثة اطراف . اولها العبادات وهي ما حقق الله على الناس والثاني البيوع وهي ما حقق للناس على الناس في المعاملات . والثالث الفرائض وهي ما حقق للاحياء من الاموات . ومن علومهم ايضاً علم الحساب وهو لازم للفقهاء المحققين لاستخراج السهام المجهولة وقسمة السهام المعلومة ويتصل به علم الهندسة والمساحة . ومن علومهم علم الاهليات وعلم الاداب وعلم الانساب والتواريخ . وبين ذلك فنون قد تعللوا بها كالكهانة والفراسة وضرب الرمل وزجر الطير وقيافة الاثر ونحو ذلك . وكان الملوك ومن يليهم في الايام القديمة يعرفون كثيراً من العلوم ويمكنون منها حتى كان منهم من يخطي العلماء في بعض المسائل . ولذلك كانوا يعمنون بشأن العلم

والعلماء ويعرفون حقهم . وكانوا يقيمون مدارس في علوم شتى حيثما وجدوا لها موضعاً .
ويغمرون المشايخ والطلبة بالعطايا والاحسان . فكان الناس يدخلون فيها افواجاً
وينعكفون على تحصيل ما يستطيعون من العلوم حتى اذا استتم الرجل علمه خرج الى منصب
او وظيفة عند السلطان متمتعاً ببسطة الجاه والمال ومستغنياً عن جميع المهمات والاعمال .
فيتفرغ للتوسع في العلوم وانشاء المصنفات فيها وبذلك يكون مثلاً لغيره في طلب العلم
والتجرد له . وما زال ذلك كذلك حتى سقطت رغبة الملوك في العلم فانقطعت اسباب
الطلب وتعطل السعي في تحصيله ودرثت مصنفاًه وافنى الدهر اهله حتى فقد كثير من هذه
العلوم فلم يعرف لها عين ولا اثر وجرت بقيتها على آثاره لولا ان يتداركها الله بهذه
الدولة المجيدة السعيدة التي احيت ما مات من آداب الاولين والحمد لله رب العالمين
انتهى

—o—o—o—

خطبة

في آداب العرب

« للعلم بطرس البستاني »

ايها السادة

الموضوع آداب العرب وان شئتم فقولوا علوم العرب او فنون العرب او معارف
العرب . ولكن قبل الشروع في الكلام على هذا الموضوع الذي ينبغي ان يكون
لذيذاً ومفيداً لكل من له رغبة في الوقوف مدققاً على حقائق الامور يلزمنا ان نذكر
بعض قضايا نظير مقدمات له وذلك على وجه الاختصار فنقول

اولاً ان العلوم من شأنها النمو بالتدرج كالحيوان والنبات . ومع ان هذا
النمو قد يكون جزئياً في عقل واحد لا بد من اجتماع عقول كثيرة للحصول على
المطلوب على احسن منوال بحيث تكون نتائج بحث وجهاد العقل الواحد في امر ما
ميسورة الحصول لعقل آخر او اكثر . وهذا الاجتماع لا يتيسر الحصول عليه من
دون اجتماع القبائل والشعوب وامتزاجهم معاً بحيث لا يفوت قوماً فوائد قوم آخرين
وكذلك من شأن العلوم ان لا تورث خلافاً للاملاك والنقود بل انما تستلزم اجتهاداً
شخصياً . وهي كالضيوف لا تثبت الا عند من قام بحق ضيافتها

ثانياً ان العقل البشري انما يحصل بالعلوم بواسطة الحواس على سبيل التعلم والاستقراء ومن شأنه ان لا يسع اموراً متضادة في وقت واحد . ومن ثم كان لا يمكن اجتماع العلم والرذيلة معاً . وبما ان العقل لا يبدؤ في تحصيل شيء الا لغاية ولا يحتمل مشقة الا اذا كانت لذة ما يطلبه اقوى منها قلما تطلب العلوم لذاتها . والعقل قد يكون في حالة السبات او الانتباه من هذا القبيل . ولا يخفى ان المناخ والعادات الخصوصية لها تأثير شديد في العقل من هذا القبيل وانه يوجد تفاوت في العقول من جهة الاستعداد للعلوم بين قوم وقوم كما يوجد بين الافراد . وما اشد تأثير الميل والحكم السابق في العقل من جهة تحصيل العلوم ومعرفة الحقائق

ثالثاً لا بد للعقل من وسائط اسماوية خارجة عنه لاكتساب العلوم . فمن اعظم هذه الوسائط الانتقال والسياحة من مكان الى مكان ومطالعة الكتب ووجود الآلات التي لا يمكن الحواس التوصل الى المطلوب بدونها والاسباب المحركة التي تنبه العقل وترغبه في ذلك واثبات والحماسة المنغرسه طبعاً في الانسان . ولا يخفى ان حرية الفكر هي من اكبر المطلوبات لادراك الحقائق وتحصيل العلوم لان الفكر المستعبد لا يمكن ان يكون فيه استعداد كما يجب للعلوم . وبما ان الخطب تحسب وقد وجدت في البلدان المتقدمة من اكبر الوسائط واحسنها لنشر المعارف بين العموم قد تحرك البعض من الذوات المعتبرين من سكان هذه البلدة من افرنج وانباء عرب الى الانتظام في عمدة تعرف بعمدة الخطابات لاجل تمكين الطلبة الراغبين من الحصول على هذه الوسطة . وباستدعاء وطلب هذه العمدة قد وقفت الان امام سيادتكم لاجل صرف حصه من الوقت في البحث عن الموضوع المتقدم ذكره وهو اداب العرب فاقول

اننا كثيراً ما نسمع ابناء العرب يتباهون متفاخرين بكون اجدادهم الاقدمين هم الذين انعموا على العالم بالعلوم والفنون مع ان الاكثرين منهم لم يتيسر لهم الوقوف على الحقيقة . ونحن شديدوا الاعتقاد بصحة قول بعض الافاضل

لا نقل اصلي وفصلي ابدأ انما اصل الفتى ما قد حصل

وبان وصول اجدادنا الى اعلى طبقة من العلوم لا يجعلنا علماء ولا يوجب لنا حق الافتخار اذا لم نكن نحن انفسنا كذلك . فقد رأينا ان نذكر بعض تضايها تاريخية من هذا القبيل يتبين منها مقدار جهاد المتقدمين ودرجة فضلهم في هذا الامر ويستعين بها المتأخرون من ابناء هذا الزمان على الوقوف على الحقيقة وعسى ان تكون وسيلة لثمتهم

وترغيبهم في اقتفاء آثار اسلافهم . وقد قسمنا خطابنا هذا الى ثلاثة اقسام :

القسم الاول في حالة العلوم بين العرب قبل ظهور الاسلام

ان العرب قبل ظهور الاسلام اي في ايام الجاهلية كانوا قوماً اميين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة الا القليل منهم . والعلوم التي كانوا يتفاخرون بها فهي علم لسانهم واحكام لغتهم ونظم الاشعار وتاليف الخطب وكان لهم مع هذا معرفة باوقات مطالع النجوم ومغارها وعلم بانواء الكواكب وامطارها على حسب ما ادركوه بفطرت العناية وطول التجربة لاحتياجهم الى معرفة ذلك في اسباب المعيشة لا على طريق تعلم الحقايق . ومع ان الله لم يمنهم شيئاً من علم الفلسفة ولا هياً طبائعهم للعناية به كانوا في اعلى طبقة من نباهة الفكر وفصاحة اللسان وسرعة الخاطر حتى انهم كانوا ياتون ارتجالاً بما لا يقدر عليه غيرهم بعد التروية والاستعداد . والذي ساعدهم على ذلك شدة محبتهم للغزو والغارات والمفاخرة في الكلام نظماً ونثراً مع حسن البلاد التي قطنوها . وقد كانوا اذ ذاك اهل مدروهم وسكان المدن والقرى وكانوا يحاولون المعيشة من الزرع والنخيل والماشية والضرب في الارض للتجارة واهل وىر وهم سكان الصحارى وكانوا يعيشون من البان الابل ولحومها منتجين لمنابت الكلاً مرتادين لمواقع القطر فيخيمون هنالك ما ساعدهم الخصب وامكنهم الرعي ثم يتوجهون من هنالك في طلب العشب وابتغاء المياه فلا يزالون في حل وترحال كما قال بعضهم عن ناقته

تقول اذا ذرأت لها وضيئي اهذا دينه ابدأ وديني
أكل الدهر حلُّ وارتحالُ اما يبقي علي ولا يقيني

وكان ذلك دأبهم زمان الصيف والربيع فاذا جاء الشتاء واقشعرت الارض انكشوا الى ارياف العراق واطراف الشام فشتوا هناك مقاسين جهد الزمان ومصطبرين على بؤس العيش

قيل وكان العرب في تلك الايام يجتمعون في كل سنة في سوقى مكة وعكاظ يقيمون هناك شهراً وقيل عشرين يوماً يتبايعون ويتناشدون الاشعار ويتفاخرون فيها . وكانوا اذا انتهوا من ذلك يكتبون اشعار الفيئة الظافرة باحرف ذهبية على نسيج من الحرير المصري ويعلقون ذلك على الحجر الاسود في الكعبة . ومن ثم سميت تلك الاشعار بالمذهبات والمعلقات . ومما وصل الينا من اشعارهم المعلقات

السبع المشهورة وهي اشهرها . ولم يزل ذلك دأب العرب حتى ظهر الاسلام في اوائل القرن السابع للمسيح فآمن قوم منهم وحدثت بين من آمن ومن لم يؤمن حروب ومنازعات كثيرة لا محل لذكرها هنا . والتاريخ لا يساعدنا كثيراً على الوقوف جلياً على حقيقة حالهم من هذا القبيل لتقدم عهدهم وعدم اعتنائهم في هذا الفن اللطيف

القسم الثاني في حالة العلوم بين العرب بعد ظهور الاسلام

قال القاضي صاعد بن احمد الاندلسي ان العرب في صدر الاسلام لم تعتن بشيء من العلوم الا بقلتها ومعرفه احكام شريعتهما حاشا صناعة الطب فانها كانت موجودة عند افراد منهم غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس طرّاً اليها . ولا يخفى ان اشتغال العرب في تلك الايام بالحروب وفتح الاقاليم والبلدان وشدة ميلهم الى الغزو والغارات وفرط عنايتهم في توسيع دائرة حكمهم المهتم عن الالتفات الى امر الآداب والعلوم . تيل انه لما فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية سنة ٦٤٠ للمسيح في خلافة عمر بن الخطاب وذلك بعد محاصرتها مدة مستطيلة تقدم اليه يحيى الاسكندري اليعقوبي المعروف بالنحوي وقال له يوماً بعد ملازمته اياه وثقربه اليه انك قد احطت بمجاول الاسكندرية وختمت على كل الاصناف الموجودة بها . فما لك به انتفاع لا اعارضك فيه وما لا انتفاع لك به فحنج اولى به . فقال له عمرو وما الذي تحتاج اليه قال كتب الحكمة التي في الخزانة الملوكية فقال له عمرو لا يمكنني ان امنّ بها الا بعد استئذان امير المؤمنين عمر ابن الخطاب وكتب عمرو الى عمر وعرفه قول يحيى فورد عليه كتاب عمر يقول فيه :

واما الكتب التي ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله غنى عنه وان كان ما فيها يخالف كتاب الله فلا حاجة اليه فنقدم باعدامها . فلما وصله كتاب امير المؤمنين شرع في تفريقها على حمامات الاسكندرية واحراقها في مواقدها فاستوفدت بها مدة طويلة . قيل وكان عدد كتبها اربعماية الف كتاب . قال احد المؤرخين عند روايته هذه القصة فاسمع ما جرى واعجب . واذا سمع ان هذه الخزانة المسماة بخف خاتة سرايون كانت تشتمل على كتب علوم الهند ومصر واليونان كان احراقها بخسارة عظيمة لا يمكن تعويضها . ولا بد من ان العرب عندما استفاقوا من غفلة الجهل والغبوة بعد تلك الحادثة بقليل يكونون قد شاركوا بقية العالم في حاسات

الحزن والاسف على فقد هذه الخزانة المعتبرة التي بذل البطيμισية والقياصرة اموالاً
 جسيمة في جمعها . وذلك برهان على صحة ما ذكرناه من كلام القاضي المذكور من
 ان العرب في صدر الاسلام لم تعتن بشيء من العلوم وانهم لم يكونوا يعتبرون شيئاً
 من الكتب الا القرآن . ولكن تفورهم من الامور العلمية كان يتناقص بالتدريج بقدر
 امتداد ديانتهم وملكمهم . ولا ريب ان امتلاكهم للبلدان السعيدة التي كانت مقراً
 للذوق والرونق القديم ولدت فيهم روح لطف وتمدن فكان تقدمهم في هذا الامر
 سريعاً وعجيباً كما كان في ميادين الحرب . ولما كان الجهل والتبرير مستوليين بسطوة
 شديدة على كل قسم من البلدان الافرنجية وذلك بسبب الحروب الثائرة والمنازعات
 المتكئة بين ملوكها ورعاياها بحيث لم يبق للعلوم والاداب سوق ولا محامٍ وجدت
 العلوم والفنون في مدارس العرب ملجأً تستظل فيه مرتاعةً من غدر تلك الازمان
 وغباوة تلك الاجيال الظلمة . ومع ان آداب اليونان اقتضى لها اتعاب متوالية مدة
 ثمانماية سنة حتى وصلت الى ما وصلت اليه في ايام باركليس نرى ان رغبة العرب
 ونشاطهم في اكتساب العلوم ونجاحها كانا شديدين بهذا المقدار حتى انه لم يمض
 الا مائة سنة او اكثر قليلاً بين اعتمق توحشهم وبربريتهم وبين امتداد العلوم
 واتسارها في ممالكهم المتسعة . فان عمر بن الخطاب امر باحراق مكتبة الاسكندرية
 سنة ٦٤١ للمسيح سنة ٧٥٠ ارتقى العباسيون المحامون عن العلوم الى تحت السلطنة .
 وذلك من اغرب واعجب الحوادث التاريخية حتى ان اوربا نفسها صارت مديونة
 لمخالف ديانتها وحربيتها بائناً مثلاتها في العلوم والفنون

فهذه كانت حالة العرب في الدولة الاموية وفي ايام هولاء الخلفاء كانت حكمة
 اليونان قد احدثت شيئاً من التأثير في عقول العرب ولكن جيل العلوم العربية الذهبي
 لم يبتدىء في الشرق الا بعد قسمة المملكة الاسلامية وقيام بغداد . وذلك عندما
 تبوأ الخلفاء بنو العباس تحت السلطنة العربية سنة ٧٥٠ كما تقدم فحينئذٍ ثابت
 الهمم من غفلتها وهبت الفطن من ميبتها فكان اول من اعنتي منهم بالعلوم الخليفة
 الثاني ابو جعفر المنصور باني مدينة بغداد والمشهور بالفتوحات العظيمة وكان مع
 براعته في الفقه كلفاً في علم الفلسفة وعلى الخصوص في علم النجوم . قيل وكان المنصور
 في اول امره ادركه ضعف في معدته وسوء استمراء وقلة شهوة وكان كما عالجها الاطباء
 ازداد مرضه فقيل له عن جورجيموس بن بختيشوع النيسابوري انه افضل الاطباء

فاستخضره الى بغداد فاخذ الطبيب المذكور يتلطف به ويعالجه حتى برىء من مرضه وفرح به فرحاً شديداً وكان قد احضر معه تليذه عيسى بن شهلاتا واقام عند المنصور حتى مرض ولما اشتد مرضه طلب الانصراف الى بلده فقال له امير المؤمنين اني منذ رأيتك وجدت راحة من الامراض فقال انا اخلف بين يدي امير المؤمنين عيسى تليذي فهو ماهر فامر له بعشرة آلاف دينار واذن له بالانصراف وامر باحضار عيسى بن شهلاتا فلما مثل بين يديه ساله عن اشياء فوجده ماهراً فاتخذته طبيباً . فصارت العرب بهذا الاتفاق مديونة لجنثيشوع الطبيب اليوناني المذكور في دخول صناعة الطب الشريفة بينهم

وكان لهرون الرشيد شهرة عظيمة في الرغبة والهمة والنشاط في احياء العلوم والاداب ونشرها في مملكته المتسعة . وكان هو نفسه ماهراً في الشعر والموسيقى ومغرمًا بهذين الفنين المستظرفين . وقد كتب في ايامه تصانيف كثيرة في علوم المملكة الاسلامية وقد جمع في بلاطه جمعاً غفيراً من اكابر وفحول العلماء فكان اقرب الناس منه واحبهم اليه العلماء . فكان يحسن مثواهم ويجزل عطاءهم ويرفع منزلتهم . فاضحت العرب مديونين كثيراً له في امر تقدمهم السريع في الآداب لانه سنَّ شريعة انه حيثما بني جامع في مملكته يبني بجانبه مدرسة للآداب . وكان كما سافر الى مكان او قصد الحج يستصحب معه مائة من علماء زمانه . وكان يعتبر العلم ايضاً وجد والعلماء مهما كان مذهبهم . فلم يكن يزدري بعرفه من يخالفه في امر المذهب فان رئيس مدارس واول مدير للعلوم في المدارس العالية في مملكته كان رجلاً نصرانياً نسطورياً دمشقياً اسمه يوحنا بن ماسويه وقد اقتدى بهتاله هذا الذي يدل على جودة عقله وكرم اخلاقه خلفاؤه . وهكذا لم يمض الا قليل حتى امتدت الآداب التي كانت تعلم في العاصمة منتشرة الى اقصاء الخلافة

ولكن اوغسطوس الآداب العربية هو الخليفة عبدالله المأمون بن هرون الرشيد . فانه لما افضت الخلافة اليه تم ما بدا به جده المنصور فاقبل على طلب العلم في مواضعه وكان منذ نعومة اظفاره مولعاً بالمطالعة والدرس وقد اتخذ في حيوة والده صحابة له من مشاهير علماء اليونان والحجج والكلدان ولما تبوأ تحت السلطنة لم تلته مهماتها وعظمتها عن الاعتناء بالعلوم والقيام بحق اربابها . فكانت الشعراء والفلاسفة والمهندسون تتوارد اليه الى بغداد من كل بلاد وملة . وقد امر سفراءه

ونوابه في ارمينية وسوريا ومصر ان يجمعوا ما يمكن وجوده فيها من الكتب الاكثر اعتباراً وبعثوا بها اليه . فكانت ذخاير آداب الاقاليم التي تغلب عليها تجمع بكل اعتناء وتوضع امام عرشه كاعظم جزية وانحر الثجف والهدايا عنده . فكانت ترى ميثاق من الجمال داخله بغداد حاملة كتباً من اداب اليونانيين والبرانيين والعجم . وقد داخل ملوك الروم وسالم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا اليه منها ما حضرهم فاستجاد لها مهرة الترجمة وكلفهم احكام ترجمتها فترجمت له على غاية ما امكن ثم حرّض الناس على قراتها ورغبتهم في تعليمها وهكذا كان بلاطه ببغداد مؤلفاً من المعلمين والشرّاح والمترجمين فكانت بغداد مدرسة علمية كما كانت عاصمة مملكة . وكان يجلو بالحكام ويانس بمنابرهم ويلتذّبذكراتهم علماً منه بان اهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده وقد صرفوا عنايتهم الى نبيل فضائل النفس الناطقة وزهقوا في ما يرغب فيه اهل الصين والترك ومن نزع منزعتهم من التنافس في دقة الصنائع العملية والتباهي باخلاق النفس الغضبية والتفاخر بالقوى الشهوانية اذ علموا ان البهايم تشاركهم فيها وتفضلهم في كثير منها . ولهذا السبب كان اهل العلم مصاييح الدجى وسادة البشر توحش الدنيا لقدمهم . قيل ان المأمون اذ كان يعلم بوجود خزائن متسعة من التصانيف العلمية في مكتبة القسطنطينية فلما عقد الصلح مع ميخائيل الثالث ملك الروم جعل احد شروط الصلح والمعاهدة ان الملك ميخائيل يبعث اليه مجموعاً من التصانيف المعبرة النادرة الوجود الموجودة في المكتبة المذكورة وما صدق ان وصل ذلك اليه حتى امر احدق علماء بلاطه بترجمته الى لغته العربية المشرفة . قيل وبعد تميم ترجمة تلك الكتب المعبرة بغيره مفرطة على شرف لغته امر باحراق النسخ الاصلية . وفي ايام المأمون اُنشئت مدارس كثيرة كلية في بغداد والبصرة واماكن اخرى وجمعت مكاتب شتى في مواضع مختلفة . قيل ان المأمون عرض مبلغاً وافراً على ملك الروم ووعده بالصلح الدائم والمصادقة اذا بعث اليه بليون الفيلسوف اليوناني الشهير

وهو من الخلفاء الذين حاموا عن العلم والعلماء وصرفوا الهمة في اكتساب الاداب واثقانها الواثق . وكان ماهراً في فني الشعر والموسيقى وكان له ميل زائد الى التتجيم قيل انه لما اشتد مرضه احضر النجمين فنظروا في مولده فقدروا له انه يعيش خمسين سنة مستأنفة من ذلك اليوم الا انه لم يعيش بعد قولهم الا عشرة ايام . واخر خليفة

التي اخرونور على ابناء بلادته هو المستنصر فانه زين بغداد بمدرسة عظيمة سماها
 بالمستنصرية قيل ولم يكن في الممالك الاسلامية نظير تلك المدرسة في صورتها
 وآلاتها واتساعها وزخرفها وكثرة فقهاءها ووقفاتها وقدرتها فيها جمعاً غفيراً من المدرسين
 والفقهاء وبنى لهم داخل المدرسة حماماً خاصاً ورتب للفقهاء طيباً خاصاً يفتقدون كل
 يوم واقام لهم من المشاهرات والخبز والطعام ما يكفيهم ويفضل عنهم

هذا وان كثيراً من الوزراء والنواب حذوا حذو ملوكهم في تقوية العلوم
 وامتدادها في الاماكن البعيدة عن العاصمة . فان مصر مثلاً بقيت اجيالاً كثيرة
 مزينة بالعلم والعلماء حتى كنت ترى فيها مدارس للعلوم في كل مدينة وبلدة وقرية
 قيل ان احمد بن طولون نايب مصر كان يوزع كل شهر على مشايخ بلاده الف دينار
 وكان يرسل الى بغداد لاجل التوزيع على علمائها وقرائها نحو ٢٢٠٠٠٠٠ دينار .
 وكانت فوايد التعليم في هذه المدينة تمتد في اوقات مختلفة الى ستة الاف تلميذ من
 كل رتبة من ابن الشريف الى ابن الصناعي . وحسن مدارسها يظهر من كثرة عدد
 الشعراء والمؤرخين والاطباء والمنجمين الذين خرجوا منها . فقد كانت تنشأ مدارس
 صغيرة وكبيرة ومكاتب في كل بلدة . والبصرة والكوفة كادتا تساويان العاصمة نفسها
 في الشرة نظراً الى عدد المعلمين المشهورين الذين خرجوا منها وكثرة التصانيف
 المعتمدة التي ألفها علماءؤها . وكذلك دمشق وحلب وبلخ واصفهان وسمرقند كان بها
 كثير من المدارس والمكاتب المعتمدة وقد خرج منها جمع غفير من فحول العلماء
 المدققين الذين لا يسعنا الوقت لذكرهم . ولا ينبغي ان تغفل عن ذكر القيروان وفاس
 ومراكش من اعمال المغرب التي كانت مزينة بمدارس سامية ومكاتب معتبرة لاجل
 تعليم المغاربة الذين كانوا قديماً ولم يزالوا الى الان في اعلى طبقة من الخلق والنباهة
 وبواسطة مدارس المغاربة ومكاتبهم المشهورة قد حفظ للغة الافرنجية في القرون
 المتأخرة ذخاير ثمينة وكنوز فاخرة من العلوم والفنون

غير ان البلاد التي تلالأت فيها الاداب العربية باكثر لمعان واشراق وبقيت
 فيها مدة طويلة بعد ان درست في البلدان الشرقية هي بلاد اسبانيا . فان كردوفا
 وسيفلي وغرناطة كانت تفاخر احداها الاخرى في عظمة مدارسها ومكاتبها . وقد
 كان في مدينة كردوفا وحدها نحو مائة وسبعين رجلاً من فحول العلماء من اهاليها .
 وكان فيها مكتبة عظيمة تحتوي على نحو اربعمائة الف كتاب . وكان في حوزة المتوكل

الذي تسلّم زمام الحكومة في الجيل الثاني عشر مكتبة معتبرة تحتوي على كتب نفيسة كان منها مائة وعشرون مؤلفاً في الالهيّات والتاريخ والفلسفة ولم تنزل نسخ منها محفوظة الى الان في مكاتب اوربا المعتبرة . وكان في مملكة الاندلس وحدها سبعون مكتبة وسبع عشرة مدرسة كلية .

فما تقدم بيانه يتضح لنا شدة حرص العرب في تلك الايام على اكتساب العلوم والاداب واجتهادهم في نونها وانتشارها . واذا حققنا النظر في ما وصل الينا من فضلات علومهم وآثار جهادهم نرى انهم وان كانوا قد اخذوا علوماً وفنوناً كثيرة من اليونان والعجم والكلدان بواسطة الترجمة والاقتباس لا يمكن ان نسلّم بانهم انما كانوا منقلدين لا مخترعين كما يزعم بعضهم . لاننا نرى ان نفس العلوم التي سبقت الاشارة الى انهم ترجموها من لغات اجنبية قد اخترعوا فيها وزادوا عليها اموراً كثيرة جداً . فان فن الطب مثلاً الذي وجد قبل انتباه العرب الى العلوم باجيال كثيرة وينسب اختراعه الى ابقراط اليوناني وتوسيعه الى جالينوس كان لم يزل ناقصاً حتى كمله ابن سينا بعد ان كان الرازي قد جمع ابوابه المتفرقة في كتاب سماه بالحواوي . وصناعة الكيمياء فانها كانت قبل العرب فناً قد سرت اليه الاوهام الفاسدة وداخلته الشبهذيات الكسدة فاخذته العرب واخترعت فيه اموراً كثيرة حقيقية وادخلته في علم الطب مع انه كان قبل ايامهم من ابواب السحر يستخدم لاجل تحويل المعادن الى ذهب بواسطة حجر الفلاسفة الذي كان الاقدمون يظنون انه ذو خاصية لسحر الارواح الخبيثة وشفاء الامراض واطالة الحيوّة الى ما شاء الله وهكذا القول في اكثر العلوم الاخر التي اخذتها العرب عن الاجانب . واما العلوم التي لا يشك في كونها من اختراعات العرب فهي كثيرة يحتاج الى وقت مستطيل لتعداد مفرداتها وتفاصيلها . فاننا اذا معنا النظر في العلوم المتعلقة باللغة العربية التي كانت قبل الاسلام لغة عديمة الضوابط والقوانين ومتفرقة على السنة قومٍ لم يكن لهم اللغات الى العلوم والفنون ولا حظ في صناعة الحروف والتاليف نرى ان العرب قد صرفوا الهمة في ايجادها . فوضعوا لهذه اللغة العجمية ضوابط وقوانين لاجل صيانتها من الفساد ورتبوا لها كتب لغة مشهورة قد جمعوها عن السنة العرب لاجل حفظها وجعلوا لها فنوناً كثيرة مستظرفة كالمعاني والبيان والبديع والعروض وهلمّ جرّاً لاجل تهذيبها وتحسينها . وكذلك الاشعار التي وجد عند العرب منها اكثر مما وجد عند باقي شعوب العالم جميعاً لم تكن الا من نتائج اجتهادهم

وجوده قريحتهم . ومن الغريب انه مع وجود اشعار هوميروس وورجيلوس وغيرها من شعراء اليونان واللاتينيين المشهورين لا يوجد في اشعار العرب شيء مقتبس منها . وقد الفوا كتباً شتى في علم الفلك والتاريخ ورسم الارض والفلسفة والاهليات والطبيعات والحساب والجبر والمساحة والخطب والزراعة والنباتات والموسيقى والفقه وبين ذلك فنون قد تعلموا بها كالكهانة والعرافة وضرب الرمل وزجر الطير وقيافة الاثر والسحر والطوالع ونحو ذلك وقد كثرت في جميع ذلك تصانيفهم ومحاوراتهم كما يتضح لمن وقف على فهرست التأليف العربية التي بقيت مع مرور الايام ونقلت الازمان محفوظة لتكون دستوراً ومنحساً للمتأخرين . قيل انه يوجد في مكتبة باريز الملكية اكثر من مائتي مؤلف في صناعة النحو وحده . ومن كان فرد زمانه في فنه ابو بكر الصديق في النسب وابن ابي طالب في القضاء وابن كعب في القراءة وابن ثابت في الفرائض وابن عياش في التفسير ووهب في القصص وابن سيرين في التعبير وابو حنيفة في الفقه ومقاتل في التاويل والخليل في العروض والمنتبي في الشعر والاشعري في الكلام والحريري في المقامات والرازي في الطب وابن حنبل في السنة وابو مشعر في النجوم وابن نباتة في الخطب والقاضي الفاضل في الانشاء والاصمعي في النوادر وابن سينا في الفلسفة وابن جابر في الكيمياء وابو الفدا في التاريخ والفارابي في الطبيعيات والادريسي في الجغرافيا والغزالي في الاهليات وغيرهم في غيرها . هذا ولا ينبغي ان ننسى اخوتنا الاعجم الذين تعلموا لغتنا العربية وزينوها بتصانيفهم المدققة ومع ان الافرنج قد اخذوا تلاماً لا بل جبلاً من الكتب العربية مما لم يبق له عين ولا اثر عند العرب نرى ان تصانيف التي ابقتها لنا صروف الايام هي وحدها كافية لان تبرهن لمن وقف عليها الامور الاتية وهي

اولاً جودة العقل العربي وحسن استمداده لتحصيل العلوم ولا سيما ثلاثة انواع منها وهي العلوم الطبيعية والعلوم الرياضية والعلوم اللغوية حتى انه لا يوجد في العالم قوم يقدرون ان يفوقوا العرب حتى لا نقول ان يدركوا طبقاتهم فيها ثانياً ثبات العرب وتجلدهم في مقاساة المشقات والمصاعب المقترنة طبعاً بتحصيل العلوم وذلك لدى وجود الاسباب المحركة اليها . ويزيد ذلك وضوحاً اذا اعتبرنا قلة الوسائط وضعفها في تلك الايام . فان البخار والسيال الكهربائي كانا حينئذ غير خاضعين للانسان وكانت المطبعة التي تحسب من اكبر قوات العالم والنظارة المكبرة

التي قبلت كثيراً من مبادي الاولين من اساساتها لم تنزل مستورةً تحت ظل الغوامض
 وكانوا مع فقد صناعة الطبع يلتزمون ان يوجدوا كل ما وجدوه من هذا القبيل
 بواسطة راس قناة صغير الجرم ضعيف العزم . وكذلك قوة الاتي التي هي اكبر قوة
 في الدنيا كانت في تلك الاعصار محصورة في ليج بحار الجهل العميق والغباوة الشديدة
 وكثيراً ما كانت هذه القوة تستخدم لاجل الضرب على راس العلم في نعومة اظفاره .
 وعدم تحزب هذه القوة للعلم والعلماء كان من اكبر الاسباب لفقد العرب العلوم بهذا
 المقدار من السرعة

ثالثاً فضل العرب على العالم في هذا الامر وذلك من اوجه عديدة . منها انه
 فيما كانت العلوم والاداب في خطر الفقد والتلاشي بسبب الحروب والمنازعات والفتن
 الاهلية في العالم الغربي وجدت لنفسها في مدارس العرب ملجأً تأوي اليه فحافظ العرب
 على الحلقة المتوسطة من سلسلة العلوم التي تربط العلوم القديمة بالعلوم الجديدة ولولا
 وجود هذه الحلقة لكانت ترى خلافاً متسعاً بين العلوم القديمة والحديثة لم يكن سبيل
 الى ملئته . ومنها انه فيما كانت اوربا غايصة في ليج الجهل والغباوة في اجيالها المظلمة فتح العرب
 مدارسهم لقبول شبان الافرنج عندما استفاقوا من غفلتهم ووصلت العلوم تحت ظل وحماية
 العلم الاسلامي الى حدود بلادهم . وهناك ناولتهم الاسلام اليد اليسرى اضعاف
 ما كانوا قد تناولوه منهم منذ نحو خمسمائة سنة باليد اليمنى . وهكذا شربت شبان
 فرنسا وايطاليا وجرمانيا وانكلترا في مدارس اسبانيا من ينابيع آداب العرب المتدفقة .
 وفي سالرنو ومنبيل وثفت تلاميذ النصرى المتواردة الى هناك من جميع اقسام اوربا
 لاجل تعلم الطب على تصانيف ابقراط وجالينوس حتى ان اليهود واليونان لم يانفوا
 من تعلم صناعة الشفاء من العرب . ومن ذلك ان العرب هم الذين بواسطة قدوتهم
 وحسن صناعتهم نبهوا الافرنج في اجيالهم المظلمة من سباتهم الثقيل الى طلب العلوم
 والصناعات وذلك يسلم به الافرنج انفسهم ولا ينكرونه

رابعاً فضل اللغة العربية وظوعيتها في قبول العلوم من دون احتياج الى استخدام
 لغات اجنبية الا في ما ندر . وبما ان اللغة هي من اقوى الوسايط لوجود الاداب
 وانتشارها بين اهلها لا باس اذا توسعنا قليلاً في الكلام على اللغة العربية وما يتعلق
 بها على وجه الاستطراد فنقول

لا سبيل الى الشك بان اللغة العربية هي من اقدم لغات العالم واكملها واشرفها

ولولا الخوف من ان تطلب مني البينة لكنت ادعي لها بانها هي اللغة التي انزلت
على قلب ايننا دم في الفردوس الارضي . وقل ما ارغب ان ادعي لها به هو انها مع
اختيها اللغة السريانية واللغة العبرانية اغصان متفرعة او فصالات باقية من تلك اللغة
الآدمية المنزلة . والباين من تاريخ هذه اللغة ان الله قد حفظها بنوع عجيب لغايات لا تدرك
من ثقلات الايام وصوروف الدهر . ومع ان اصحاب هذه اللغة وصلوا الى احط درجة
من الجهل والبربرية بقيت اللغة محفوظة عندهم بواسطة التقليد والنقل مصونة من
من الفساد والتشعب الى لغات شتى بخلاف لغات اوربا . وبعد ان خضعت لسلطان
القلم الاسلامي صار بذل العناية وصرف الهمة باختراع وسائل قوية لحفظها سالمة
صحيحة . واتساع قاموسها وغناها في الالفاظ والمعاني يجعلانها في الرتبة الاولى بين
اللغات حية كانت او ميتة . وكثرة عدد المتكلمين بهذه اللغة وكون الاراضي
والاقاليم والبلدان التي هي منتشرة فيها من اوسع واحسن ما يوجد لاي لغة كانت
يجعلان مستقبلها اهم واعظم من باقي اللغات في العالم . واعتبار اهلها لها واحترامهم لقدميتها
وفضلها صيرها غير قابلة للتغيير كعادات اهلها . ومع ما نراه من شدة ميل ابناء
العرب ولا سيما في هذه الايام الى اللغات الاجنبية وعدم التفاتهم الى لغتهم الشريفة
لا نخشى عليها من حوادث الدهر لان ذلك وقتي ناتج عن اسباب توجب زهداً
في اللغة العربية ورغبة في اللغات الافرنجية . وهذه الاسباب سلبية كانت ام ايجابية
لا بد من زوالها وبذلك يزول ما تسبب عنها . وما دام القرآن من الجهة الواحدة
والكتب العربية في فنون مختلفة من الجهة الاخرى مظلمة على هذه اللغة يغلب الظن
بانها تثبت غير منحصرة في دائرتها الحالية وهي الهند وجزيرة العرب وشمال افريقية
بل ستمتد شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً بين اقوام آخرين ممن يقرون لها بالفضل وان كانوا
لا يستطيعون التكلم بها ومع اننا نرى العجم والعترة والافرنج من الجهة الواحدة آخذين
في توسيع دائرة لغاتهم وادخالها بين العرب والمتفرنجين من الجهة الاخرى آخذين في
افساد واماتة لغة امهم بواسطة ابدالهم كلماتها المانوسة بكلمات اجنبية نافرة لا تلبق للغة
العربية كما ان ملبوس اهلها لا يلبق للعرب لا بد من قيام اناس من ابناء العرب
الغيورين على لغتهم يسقون مقداراً كافياً من الافيون للكومسيون والسيكورته وسكوزي
وافندم وما ضاهاها فيغمي عليها بحيث لا يبقى امل في صحوها ويضعون قنينة من روح
النشادر امام انف العمالة والضمانة ولا تواخذني وياسيدي وهلمّ جراً من الكلمات

العربية التي تدل على المعاني المدلول عليها بالالفاظ المذكورة فتستفيق من سبائها .
 وبهذه الوسيلة يزول الفساد الطاريء على اللغة العربية والذوق العربي من هذا القبيل .
 على انه كما ان الناس تحتاج الى الناس كذلك اللغات تحتاج الى غيرها ولكن يجب
 الاقتصار على ما لا وجود له في اصل تلك اللغة مما يزيد قوة وحسناً لا تنافراً وثقلاً
 هذا ولا ينبغي ان تغفل عن تلك الكلمات النافرة الميثة الموجودة في قواميس اللغة العربية
 مما لا فائدة منه للعرب الا التثقيب على الذم العربي والقلم الشرقي . فهذه الكلمات
 يجب الحاقها بالكلمات الاجنبية المار ذكرها او استخدامها لمعانٍ او مواد جديدة لم
 يصل اليها العقل العربي ولا الصناعة العربية او ابدالها بكلمات من اللغة الدارجة مما
 جعل له الاستعمال قوة لا يمكن تحصيلها بغيره

ومما لا يشك به ان منبع الكلمات المترادفة الكثيرة الوجود في اللغة العربية المكتتبه
 هو اختلاف القبائل التي تكلمت بهذه اللغة . ولا يصدق ان بني قريش اصحاب اللغة
 الفصحى كان عندهم خمسمية اسم للاسد . والظاهر ان الذين جمعوا متفرقات هذه اللغة
 عن السنة العرب فلاجل شدة اهتمامهم وحرصهم على حفظها كاملة دون من ان يفقد منها
 شيء جمعوا كل ما وجدوه من موادها بين العرب الذين كان لكل قبيلة منهم لغة خاصة
 واصطلاحات جارية عندها دون غيرها . والبعض يحسبون ان كثرة المترادفات في
 العربية غني لها والجمال ان ذلك لا يجب ان يحسب غنى لانه لا يفيد زيادة في المعاني
 التي هي المقصود الاصيلي من اللغات . واللغة التي يوجد فيها الفاظ كثيرة لمعنى واحد
 مع انه يوجد معان كثيرة لا يوجد لها فيها الفاظ لتعبير بها عنها هي في الحقيقة فقيرة
 لا غنية واهلها فقراء لا اغنياء . وينتج مقصودنا في ما تقدم مما يأتي

قيل مرّ ذات يوم ابو علقمة ببعض طرق البصرة وهاجت به دابته مرة فوقع الى
 الارض فوثب عليه قوم يعصرون ابهامه ويؤذّون في اذنه فافلت منهم وقال ما بالكم
 تكأ كأتّم عليّ تكأ كؤكّم على ذي جنة افرنقوا عني (اي ما بالكم اجتمعتم عليّ اجتماعكم
 على مجنون اعتزلوا عني) فقال بعضهم دعوه فان جنيته تشكلم بالهندية

قيل ان اعرابياً اصطاد ذات يوم سنوراً ولم يعلم ما هو فلقيه رجل فقال ما هذا
 السنور ثم لقيه آخر فقال ما هذا القط ثم لقيه آخر فقال ما هذا الهرث ثم لقيه آخر فقال
 ما هذا الضيون ثم لقيه آخر فقال ما هذا الخيدع ثم لقيه آخر فقال ما هذا الخيطل
 ثم لقيه آخر فقال ما هذا الدم ولولقيه آخر في هذه الايام لقال ما هذا البسين .

فقال الاعرابي في نفسه احمله الى السوق وايعه فسيجعل الله لي فيه مالا كثيرا . فلما اتى السوق قيل له بكم هذا قال بمايتي دينار فقيل له انما يساوي نصف درهم فاحتجى الاعرابي غضبا ورمى به الى الارض وقال تبا له ما اكثر اساءة واقبل ثمه
 وبما ان العرب كانوا يكرمون الابل ويعظمونها لانهم كانوا يكتسون بوبرها ويغتدون بلحومها ولبنها وكانت هي تقوم بكامل خدمتهم الارتحالية بمنزلة عربات برية او مراكب بحرية ترى لغتهم مشحونة من الالفاظ المتعلقة بهذا الحيوان الهائل الجسم العظيم القدر فلا يوجد عضو للناقة الا وله اسم خاص ولا توجد لها حالة او معنى الا وقد اوجدوا لها كلمة تدل عليها حتى صرنا اذا راجعنا قاموس العربية نجد فيه الوفا من الكلمات التي تنبعث منها رائحة النوق والجمال ويمكننا ان نقول على سبيل المبالغة انه يوجد في اللغة العربية عبارات للناقة تكاد تساوي وبرها عددا . فما هي الفائدة للحضر من هذه العبارات مع استغنائهم بالعربات عن خدمة الابل وبقرقة دواليب المراكب النارية عن عيجها وبرائحة الفحم الحجري عن رائحتها . فهنا محل واسع للاصلاح ونقل ما يمكن نقله من تلك العبارات البدوية الى موضوعات حضرية يضطر الى وسائط التعبير عنها كل من القاه الدهر في وسط جماعة متمدنة

هذا وان حالة العلوم المتعلقة باللغة العربية كالصرف والنحو مثلا ليست باقل احتياجا من اللغة نفسها الى الاصلاح من هذا القبيل . فانها في حالتها الحاضرة لا توافق الذين يقصدون العلوم طلبا لنوال ما يترتب عليها من امر المعيشة . وذلك لان كامل حياتهم بالكدي يكفي لتحصيلها على حقها وهذا من جملة الاسباب التي تجعل اهلبا يهملونها بالكلية او يتخذون لغة او لغات اجنبية ضراير لها . وهل يليق بالانسان الذي انما جعلت له اللغة واسطة وبابا للعلوم ان يجعلها غاية ويصرف حياته كلها واقفا امام ذلك الباب يتفرج على نقشه وزخرفته الخارجي مع ايقانه بانه يوجد وراءه تحف قديمة وحديثة تسلب القلب وتجلب الالباب . وصاحب العقل السليم لا يسعه الجهل بان منهج الاقدمين في وضع قواعد هذه اللغة ونظامها وادخالهم بين تلك القواعد ابوابا من كل العلوم والفنون وتعليقاتهم المستطيلة التي يحسبها البعض منزلة مع انها ليست الا مناسبات حصلت بعد الوقوع تلهي ابناء هذا الزمان عن الالتفات الى الامور الحقيقية وتشغل وقتهم عن الوصول الى الفنون المفيدة . ولا شك ان ذلك هو من جملة الاسباب التي اوجبت فقد العلوم من بين العرب . وبما لا ريب فيه بانه يجب وضع قاموس اللغة

العربية والعلوم المختصة بها بالذات في قالب يجعل تحصيلها في ظرف سنة ميسوراً لاهلها الذين نباهتهم في اكتساب اللغات الغربية في المدة المذكورة يشهد بانه لا يجب ان يصرفوا اكثر منها في تعلم اصول لغة قد رضعوها مع اللبن . ولكن اذا وجد قوم من اصحاب الغنى والخطر يلذ لهم الفحص عن الامور القديمة والتفتيش على المواد السالفة ويقصدون ذلك بالذات فلنترك لهم الحرية التامة في هذا الامر ونكفلهم بالحفاظة على اللغة القديمة ولنذع تكاً كَوّ الاعرابي واشاجيع الحريري وفيروزاباديات الفيروزابادي موضوعات لتاملاتهم الدائمة ودرسهم الابدي . والظاهر ان هذا الاصلاح محفوظ للاجيال المستقبلة

وهو مستغن عن البيان ان اللغة من شأنها ان تنمو بنمو معارف اهلها وفنونهم وصناعاتهم ومتاجرهم واختراعاتهم ومن ثم كان وضع حد للالفاظ والمعاني في لغة قوم مما لا تجوز محاولته ولا يمكن اجراؤه . لانه اذا وضع حد معلوم للالفاظ لغة ما كما هو الحال في اللغة العربية التي منذ اجيال كثيرة قد دخل فيها ما دخل ولم يبق باب لدخول غيره يلتزم اصحاب تلك اللغة عن امتداد المعارف والصناعات عندهم لاجل التمكن من استخدام الفاظ التعبير عما هو في انفسهم ولقضاء مصالحهم ان يلتجئوا الى لغة اجنبية او يخترعوا كلمات جديدة حوشية . وهكذا تولدت عند العرب لغة دارجة بينهم تختلف كثيراً عن لغة الكتب . وهذه اللغة الدارجة تراها تبهتد دائماً اللغة الاصلية . واذا طال الحال عليها هكذا تمت كثيراً من الفاظها فوق ما امانته فيلتزم العرب في اخر الامر ان يفعلوا باللغة العربية كما فعل اليونان والارمن بلغاتهم الاصلية ويعطوا اللغة الدارجة محل اللغة الاصلية . فتصير اللغة الاصلية لغة العلماء واصحاب التفتيش فقط كاللغة اللاتينية عند الافرنج . ولا يمكن ان يتصور حصول خسارة للعرب اعظم من هذه . ولكن ازدياد عدد المدارس والمكاتب والمطابع في هذه الايام واملنا بالزيادة على زيادتها في ما ياتي بجعلان لنا شيئاً من الطمأنينة من هذا القبيل لقد تقدم القول ان ابا علي الحسين بن عبد الله الشيخ الرئيس المشهور باهت سينا كان فرد زمانه في الفلسفة ومما حكاها الشيخ المذكور عن نفسه يظهر لطلبة العلم لزوم الاجتهاد في تحصيله . قال : ان ابي كان من اهل بلخ وانتقل منها الى بخارا في ايام نوح بن منصور واشتغل بالصرف في قرية حزمطين وتزوج امي من قرية يقال لها افشنة وولدت منها بها وولد اخي . ثم انتقلنا الى بخارا واحضرت معلم القرآن والادب

وكلت العشر من العمر وقد آتيت على القرآن وعلى كثير من الادب حتى كان يقضى مني العجب . واخذ والدي يوجهني الى رجل كان يبيع البقل ويقوم بحساب الهند حتى اتعلم منه . ثم جاء الى بخارا ابو عبدالله الناطلي وكان يدعي الفلسفة وانزله ابي دارنا رجاء تعلي من فقرات ظواهر المنطق عليه واما دفايقه فلم يكن عنده منها خبر ثم اخذت اقرا الكتب على نفسي واطالع الشروح وكذلك كتاب اقليدس فقرأت من اوله خمسة اشكال او ستة عليه ثم توليت حل الكتاب باسره . ثم انتقلت الى المجسطي وفارقي الناطلي . ثم رغبت في علم الطب وصرت اقرا الكتب المصنفة فيه وتعمدت المرضى فانفتح علي ابواب المعالجات المتقبسة من التجربة ما لا يوصف وانا في هذا الوقت مناهز ست عشرة سنة ولم ازل كذلك حتى احكمت علم المنطق والطبيعي والرياضي . ثم عدت الى العلم الاهلي وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة فما كنت افهم ما فيه والتبس علي غرض واضعه حتى اعدت قراءته اربعين مرة وصار لي محفوظاً وانا مع ذلك لا افهمه وايست من نفسي وقلت هذا كتاب لا سبيل الى فهمه . وفي ذات يوم حضرت وقت العصر في سوق الوراقين ويبد دلال مجلد ينادي عليه فعرضه علي فرددته رد متبرم معتقداً ان لا فائدة في هذا العلم فقال لي اشتر مني هذا فانه رخيص ابيعهك بثلاثة دراهم وصاحبه محتاج الى ثمنه فاشتريته فاذا هو كتاب لابي نصر الفارابي في اغراض كتاب ما بعد الطبيعة فرجعت الى بيتي واسرعت قراءته فانفتح علي في الوقت اغراض ذلك الكتاب بسبب انه قد صار لي على ظهر القلب وفرحت بذلك فلما بلغت ثماني عشرة سنة من عمري فرغت من هذه العلوم كلها . وكنت اذ ذاك للعلم احفظ ولكنه اليوم معي انضج . الى هنا ملخص ما حكاه الرئيس ابن سينا عن نفسه . ولنرجع الى ما كنا بصده من تاريخ اداب العرب فنقول

وما زالت العرب كذلك حتى سقطت رغبة الملوك والاكابر في العلم فانقطعت اسباب الطلب وتعطل السعي في تحصيله ودرست مصنفاته حتى فقد كثير منها فلم يبق لها عين ولا اثر وكسدت بضاعة العلم وافنى الدهر اهله واستولى الجهل بسطوة عظيمة على الناس حتى صاروا يظنون ان تحصيل العلوم امر فاسد وسعي باطل . فلما رأت العلوم كساد بصاعتها وعدم رواج سوقها بين العرب اكبتت بثياب الحداد وسارت كاسفة البال قاصدة بلاد اوروبا عن طريق المغرب واسبانيا لتلجج هناك تحت الاولية الغربية . واذ كان الافرنج قد زاروا البلدان المشرقية واختلطوا بالعرب

مدة مستطيلة وهناك استفادوا ذوقاً جديداً ورغبة جديدة في المعارف والعلوم واطلموا على فوائد التمدن فتحوا لها ابوابهم وقلوبهم مترحين بذلك الصديق القديم الذي كان قد فارقهم منذ اجيال كثيرة لعدم قيامهم بحقه . ففعل كرلوس الكبير ملك فرنسا بالعلوم العربية كما فعل المامون بالعلوم اليونانية . فامر بترجمة اطيب تصانيف العرب الى اللغة اللاتينية محافظاً على نسختها الاصلية خلاف لما رُوي عن المامون . وهكذا العلوم التي انتقلت من الغرب الى الشرق من جهة القطبة الشمالية رجعت بارباحها الوافرة من الشرق الى الغرب من جهة القطبة الجنوبية واخذت تنتشر في البلدان الغربية حتى وصلت الى اقصى اطرافها . وهكذا اخذ نورها يتناقص في الشرق ويزيد في الغرب منذ الجيل الثاني عشر حتى وصل الى ما وصل اليه الان عند العرب والافرنج . ولا يخفى ان الافرنج فضلاً عظيمًا على العرب في امر المحافظة على كثير من التصانيف العربية الاصلية ولولا ذلك لكانت فقدت بالكليّة

فاين كان العرب واين هم الان . قد مضى جيل ادايهم الذهبي وخيم عليهم جيلها المظلم . وكان ابتداء جيلها المظلم اواخر الجيل الرابع عشر وما زال ينمو ويزيد حتى عم البلاد والعباد . اين الشعراء . اين الاطباء . اين الخطباء . اين المدارس اين المكاتب اين الفلاسفة اين المهندسون اين المؤرخون اين الفلكيون اين كتبه هذه الفنون . اين العلماء المحققون والادباء المدققون . نعم انه قد بقي في كل ملة ومذهب علوم بالكبد تكفي لبقاء نوعها والمدافعة عنها عند الاقتضاء ولكن ماذا ذلك بالنظر الى محيط العلوم الحقيقية . اين مجد بغداد اين فخر حلب اين زينة الاسكندرية ورونق الاندلس وبهاء دمشق . اين المامون اين المستنصر اين المنبئي اين ابو الفدا ولكن اما تذكر هذه العلوم الالفة القديمة وترجع قنزور ديارنا وتحفف شقاء العرب وتصلح بلادهم واحوالهم . اننا اذا نظرنا الى الجيل التاسع عشر نفتح لنا باب اللامل . فلتبشر بنو سام لان اولاد عمهم بني يافث قد ابتداءوا يرجعون لهم ما اخذوه منهم مطبوعاً وعلى ظهوره اكتشافاتهم المتاخرة نظير فائدة لارباء عن مدة اربعمائة سنة وان يكن في اكثر الاوقات منعصاً ومعاقاً بما يظهره البعض من اولاد عمنا المذكورين من العتو والاستكبار على جنسنا الشرقي والاستهانة به . نحن سنناهم العلوم من يدنا اليسرى عن طريق واحد واما هم فاخذون في ارجاعها لنا بيدهم اليمنى عن طرق شتى . ويجب ان نضع المرسلين الامركان والرهبان والراهبات اللاتينية وعلى الخصوص اليسوعية منهم

والغازية في الرتبة الاولى من هذا القبيل لان حسن قدوتهم وفضل مساعيهم في هذا الامر بواسطة مدارسهم ومطابعهم ظاهران لا ينكرها الا من كان منكرًا الجميل او من اصحاب الغرض والتعصب . وقد فعل المخذل الذكر محمد علي باشا في هذا الجيل بكتب الافرنج ما فعله كرولس الكبير بكتب العرب فامر بترجمة اطابها الى اللغة العربية وسلمها مع كثير من الكتب العربية القديمة للمطبعة المعتبرة الموجودة في بولاق من الاقليم المصري فخرج منها كتب شتى في اللغة والطب والطبيعات والتاريخ وهلم جرا فزين لغته العربية بكامل الفنون والصناعات من العربية والافرنجية وعسى ان يخذو انجاله وحفدته حذوه في هذا الامر . وهكذا ترى العلوم والفنون الافرنجية المبنية على مبادئ حقيقة قادمة اليها من كل فج عميق . وما مكث فيه الافرنج السنين العديدة والمدد المديدة يمكن العرب ان يكتسبوه في اقرب زمان مع غاية الاتقان والاحكام . فالعلوم اذاً قد اتمت دورتها بوصولها الى العرب عن طريق الاسكندرية واسلامبول والهند وبيروت . وكما ان الافرنج لم يستخفوا بأداب العرب في ايام جهلهم لاجل مجرد كونها منسوبة الى العرب كذلك لا يلقى بالعرب ان يستخفوا بعلوم الافرنج لاجل مجرد كونها افرنجية . بل يلقى بنا ان ترحب بالعلوم من دون نظر الى من يعطينا اياها سواء كانت آتية من الصين او الهند او العجم او اوربا . وادعاء البعض بان العرب يوجد عندهم كل شيء يحتاج اليه من العلوم والفنون لا يوجد برهان اقوى منه على عمق جهلهم . وكما ان العرب لا ينافون ان يكتسبوا الصناعات من الافرنج وياخذون عنهم العادات من الحسنة والمستهجنة لا ينبغي ان يستنكفوا من ان يكتسبوا منهم العلوم التي هي واحدة عند الجميع

ان الافرنج يشهدون للعرب بالذكاء وسرعة الفهم ويمدحون تدماءهم ويعترفون لهم بالعلوم والمعارف ولكن شتان بين علومنا التي كنا نعرفها وبين علومهم الان كما هو مشاهدًا حساً . مثلاً علم الحساب فان ما نمكث في حساباه ساعتين وثلاثاً هم يحسبونه في دقيقة واحدة بحساب اخترعوه يسحق بالانساب اي اوقاف الاعداد . ونحن لا نعرف الا سبعة كواكب سيطرة واليوم عندهم تنيف على الاربعين ولا نعرف الا اربعة عناصر واليوم عندهم نحو خمسة وستين والهواء الذي نحسبه بسيطاً عندهم مركب من بسيطين ويفرقونها بالمشاهدة بالآلات اخترعوها لذلك وكذلك الماء عندهم مركب من عنصرين وقد كشفوا كثيراً من المعادن التي لم تعرف سابقاً وما كشفوه

في هذا القرن من نتائج الكيمياء والعلم الطبيعي والهندسة وجر الاثقال والمناظر لم يعهد سابقاً ولا اطلع احد من قدماء اليونان وغيرهم على اقله وذلك كسفينة البخار وطريق الحديد ونواعير المعامل والزبد الفحمي لوقد المصاييح والموصل البرقي الذي يوصل الخبر في دقيقة واحدة الى مكان بعيد بينهم وبينه صحارى وبحور وغير ذلك من المنافع التي لا تحصى والاكتشافات العجيبة التي بواسطتها انقلبت عناصر الاقدمين وانتقضت مبادئ علومهم الطبيعية . وذلك لان العلوم كانت قديماً في سن الطفولية واما الان فقد ادركت . وستفعل الاجيال الاتية بكثير من فنون هذه الايام ما فعله ابناء الزمان بفنون المتقدمين وذلك لانهم سيستفيدون منها ويتدثرون من النقطة التي وصل اليها اسلافهم بعد جهاد طويل كما يكون غالباً في كل شيء ابتدائي ولا يخفى ان آداب الاقدمين كان بها شوائب كثيرة وطريقة الانشاء عندهم كانت غير تامة وقد اعتمدوا على التعقيد في كل تصانيفهم ودخلت الخرافات اكثر فنونهم وبنوا اشياء كثيرة على مبادئ فلسفة اليونان التي جعلت اصحابها في عالم الوهم وكانوا يدعون بانهم يعرفون كل شيء بعلمه ولهذا كثرت سفسطاتهم وتزايدت اغلاطهم واوهامهم واذا قابلنا علومهم وادابهم وطبهم وطببياتهم وهلمَّ جراً بما يوجد عند ابناء هذا الزمان يظهر لنا الفرق ظهور الشمس في رابعة النهار والذين لم يتيسر لهم الوقوف على علوم الافرنج وتصانيفهم يقررون لهم بانهم الهة الصنایع زاعمين ان عقولهم في ايديهم ولكن من وقف على الحقيقة لا يسعه الانكار بان الافرنج هم الهة العلوم ايضاً وبان عقولهم في رؤسهم كعقولنا

القسم الثالث في اداب العرب في هذه الايام

لو كلفت الوقوف امام سيادتكم لاجل الكلام عن هذا الموضوع نحو ثلثين سنة قبل الان لكنت انجمل نظير ابن وطن من فتح هذا البحث الذي كشف مكنوناته يوجب عاراً وخزياً على ابناء بلادي عند الاجانب لانني حينئذ كنت التزم ان اجول في اسواق هذه المدينة (حتى لا اتول في كامل البلاد التي كانت في الازمان السالفة مرضعة للاداب وسريراً للتمدن) وافتمش باجتهاد على من يقدر ان يقرأ مكتوباً او كما يقال يفك الاسم . واما الان فانه يوجد امور كثيرة تقوي آمالنا في المستقبل ومع اننا مديونون في اكثر هذه الامور للغرباء يمكننا ان نرفع رؤوسنا بما وجد منها

عندنا مع قطع النظر عن مصدرها لا على سبيل عدم الشكر وانكار الجميل بل لاجل
 التقوية والتشجيع . وبما ان هذه الامور هي طائفة ونادرة الوجود لا يجب ان تغفل
 عن تبيين الحق والاحوال الحقيقية لان الحكم على الاغلب والافراد لا تعتبر . وفي
 الكلام عن هذا البحث يلزمنا اجتناب التطويل والتنصيل والاكتفاء بالاختصار
 والاجمال بقدر الامكان اعتماداً على ما تقدم وعلى معلومات سيادتكم

انه يمكننا النظر الى البحث الذي امامنا من اوجه عديدة تقتصر على اربعة منها
 وهي حالة العرب بالنظر الى الاداب وحالة الاداب نفسها عند العرب وحالة الوسائط
 لاكتساب الاداب وامالنا في المستقبل فنقول

اولاً ان العرب في ايامنا هذه فتوعون جداً في امر الاداب . فانهم يكتفون
 باقلها ويحسبون انفسهم انهم قد وصلوا الى اعلى طبقات العلم مع انهم لم يقرعوا بابه
 ومن تعلم منهم كتاب الزبور والقرآن يقال انه قد ختم علمه واذ تعلم شيئاً من اصول
 الصرف والنحو يقال فيه انه قد صار علامة زمانه واذ نطق بالشعر فلا يبقى عندهم
 لقب يصفونه به . وما ذلك الا لان ظهور النور قليل في العاقل كافٍ لان
 يغشى على عيني الجاهل ولا يلمح الى الان لم يقفوا على شاطئ اوقياوس العلوم ويروا
 عظمتها واتساعه . ومع اننا نعتقد بان عرب هذه الايام هم من نسل العرب
 القدماء لا نرى فيهم ما رأيناه في اولئك المجاهدين من الثبات والجهاد في ميدان
 العلوم . ولا نقدر ان نسلم بان النسل قد فسد وذلك لان جودة عقول العرب وحسن
 استمدادها في هذه الايام لتحصيل العلوم يبرهنان التقيض ولكن ذلك ناتج من احوال
 كثيرة واسباب متنوعة نود لو سمحت االالاوقات لبيانها لكي نخفف عنهم هم
 لحنا ودمنا اللوم الواقع عليهم من الاجانب الذين لا نشك بانهم كانوا وصلوا الى حالة
 ارداء من حالتنا والقاهم الدهر في ظروف كظروفنا . ولكن مهما كانت الاسباب
 فلا سبيل الى انكار كساد بضاعة العلم عند العرب وعدم رواج سوقها بين جماهيرهم
 وعلى الخصوص اكابرهم

ثانياً ان الاداب عند العرب في هذه الايام هي في حالة انحطاط كلي . اما
 العلوم اللغوية فاننا قلما نجد احداً من ابناء العرب يمكن ان يشار اليه بالبنان بانه يعرف
 لغته وقواعدها حق المعرفة . فانهم في الاكثر يكتفون من علم اللغة بحفظ بعض
 كلمات غريبة ميتة يدرجونها في كتاباتهم واشعارهم بقصد اظهار معرفتهم والتمويه

على الجمهور وما تلك الا حصى صغيرة يتلاعب بها الجليل في ايام طفوليته . ومن قال
 منهم سلسلة والزي وهزا ومنهي وفيهو (اي ثلثه والذي وهذا ومنه وفيه) وما اشبه
 من افساد اللغة فهو ناح . واما المعاني والبيان وما يتعلق بهما فمتروك حل مسائلها
 وفهم مؤلفاتها النفيسة التي لم نقتد من العجز الى همة ونشاط اجيال مستقبلية ما علم
 لمنطق فيكفيه اعتباراً وحفظاً عند اكثرهم قولهم فيه من تمنطق فقد تزندق . واما
 العلوم التعليمية كالحساب والهندسة ومعلقاتها فهذه يكتبون منها بالجمع والطرح
 ومن زاد عليهما الضرب والقسمة وحفظ بعض مسائل باجوبتها مما اوجده لهم الاقدمون
 يذبح اسمه في الافاق انه من فحول العلماء . ويستغنون بالمقومين عن المساحين
 وبالبنائين عن المهندسين . واما علم الفلك فلا يوجد له من محام ولا حافظ وكأنه علم
 لا فائدة به للعرب لانهم يعلمون ان الشمس تغطس في البحر وان الكواكب فوق
 رؤوسهم من دون افتقار الى اجتهاد ولا درس ولا عناء . واما علم الطب فهو صناعة
 قد فحمت ابوابها عفواً لمن اراد ان يدعيها لنفسه وان كان لا يعرف القراءة بشرط
 ان يكون في حوزته ريشة ماضية لتقطع اوصال العباد . وهي الصناعة الوحيدة التي
 يمكن الانسان ان يتعاطاها من دون ان يتعلمها من استاذ . والحق بالطب علم
 الكيمياء تانه قد تفقر عند العرب الى حالته التي كانت له قبل ان مدوا اليه ايديهم
 كما سبق القول . واما صناعة الانشاء فهذه منحصرة في نقل بعض كتابات قد
 ورثاها من المرحومين . واما الخطب فهذا ميدان الديني منها المنابر وميدان الديوي
 القهاوي ولا يدخل في هذا الميدان الا من كان خشن الصوت حسن الذاكرة يحفظ
 بعض حكايات من قصص السندباد البحري وبنو هلال وما اشبه ذلك من الحكايات
 الموجودة في كتاب الف ليلة وليلة وغيره ويحكيها على من حضر في القهاوي تكملة
 للكيف على حقه ولكي تكون دليلاً على اصل متروك . واما علم النبات فهذا متروك
 لرعاة المواشي والفلاحين . واما علم الزراعة الذي وصل الى اعلى طبقاته عند اجدادنا
 فهو الان متروك لرحمة النقل والتقليد . واما علم التاريخ فهذا مفقود ليس من يعتني
 به . واما علم الجغرافيا فيكتفي الواحد منهم بمعرفة اسم بلده و طريق بيته ويحشى
 ان يصيبه دوار اذا تعلم ان الشمس ثابتة والارض تدور واما الشعر الذي من شأنه
 ان يتقدم جنازة الآداب او يبشر بولادتها فبابه مفتوح عفواً لمن اراد الدخول
 وكل من حافظ على القوافي واللبس معاني الاقدمين اخلاق ثياب فهو شاعر ولكن

اذا ابداعه بانه اتى بكلمات غير منبوهة واطهر مهارة وبراعة في التضمن والاعتباس حتى لا اقول في السرقة من الاقدمين فهو خنذيد . وهكذا القول في باقي العلوم . وما دام العرب يكتفون بالتقليد والنقل ولا يريدون ان يتعبوا انفسهم بالفحص والتحقيق لا يؤمل تقدمهم في العلوم والفنون . لا تهج ايها الدم العربي ولا تعتظ من الحق عندما تسمع واحداً مشتركاً فيك بين لك حقيقة حالك لا على سبيل التقرير والطعن بل لاجل ايقافك على الحقيقة عسى ان يكون ذلك واسطة لانتباهك وتقويتك في طلب العلم والتجدد في ميدانه . وسوف تسمع مني كلاماً لطيفاً يستر شيئاً مما تقدم كما ان حالك الحاضرة تبطل حثك في الافتخار بما سبق ذكره من فضل اجدادك

ثالثاً ان الوسائل لاكتساب الاداب كثيرة تقتصر منها على ما ياتي ومما سيرد بيانه توضح حالة هذه الوسائل بين العرب

فمن الوسائل التي قصدنا ذكرها المطابع ولا يخفى ان عدد المطابع وقوتها قد زاد كثيراً في هذا الجيل الا ان كثيراً منها طائفي مشتمل في طبع كتب دينية . والبعض منها الى الان لم يعط الجمهور برهان وجوده . فانه في نفس هذه البلدة توجد خمس او ست مطابع يخرج منها كتب واوراق متنوعة ولا ريب ان هذه المطابع لو اشتغلت حق الشغل واعتنت في طبع ما من شأنه ان يفيد الجمهور بوجه العموم اداً بآباً وتمدناً لكانت في مدة قصيرة تغني ابناء العرب بالكتب والمكاتب . ولا ينبغي ان نغفل عن القوة العظيمة الموجودة فوق رؤوسنا التي استخدم لها المرسلون الامركان البخار ولا شك في انها فادرة على نشر المعارف والتمدن في هذه البلاد في برهة قصيرة . وقد خرج منها كتب نفيسة في العلوم الرياضية والتاريخية فضلاً عن الكتب الكثيرة المتعلقة بالمذهب ولو اطلق لها العنان وجرت بكامل قوتها في ميدان الآداب والعلوم لاغنت هذه البلاد في التصانيف المفيدة . ولا عن المطبعة السورية التي خصت بحديقة الاخبار . وما لا يشوبه ريب ان الجرائد من اكبر الوسائل لتمدن الجمهور وزيادة عدد القراء اذا استعملت على حقها والامل ان هذه الفتاة التي هي اول مطبعة عربية خصت بالجرائد تثقوى وان اتعاب مالكمها ومدبرها العزيز خليل افندي الحوري تكمل بالنجاح فيجلد ذكره عند ابناء الوطن كفاتح لهذا الحصن الحصين الذي اغفل المتقدمون عن فوائده . وكافي به واقفاً على شاطي البحر الكبير الفاصل بين العالم القديم والعالم الجديد يستشرف تارة على الجديد ويلحظ اخرى على القديم

ولدى انتشار ديوانه الموسوم بالعصر الجديد الذي افرغ فيه الشعر القديم في قالب جديد يتضح المعنى المقصود . وتوجد مطابع اخرى كثيرة عربية في قزحيا والشوير وحلب والقدس وبلاد المغرب ولكن المطبعة التي تستحق الذكر وقد اغنت الجنس العربي بالكتب المتفنتة هي مطبعة بولاق . ونستدل على حسن نظام هذه المطبعة وعظم فائدتها من الكتب الكثيرة التي خرجت منها من اصلية و مترجمة . وقد ابتداءً مترجموا ونظروا هذه المطبعة يتجنبون بقدر الامكان استعمال الفاظ اجنبية في ما يترجمونه من اللغات الافرنجية مع انهم في ابتداء الامر عندما كانت المطبعة في سن الطفولية كانوا يكتبون من الالفاظ الغربية مع وجود الفاظ في العربية تقابلها . ولا يخفى ان المطابع العربية في اوربا وامركا اكثر منها في هذه البلاد وانه لولا عناية هذه المطابع لما بقي عين ولا اثر لكثير من تصانيف الغرب النفيسة وهكذا نرى كثيراً من كتبنا العربية راجعاً اليها بعد غربته الطويلة مطبوعاً بحرف جميلة وباليتنا تقدر ان نقول بالضبط التام والصحة الواجبة

ومنها المكاتب . ومع انه يوجد مكاتب كثيرة خصوصية في هذه البلاد ترى بحل مقتنياها او متوليها من الجهة الواحدة وعدم امانة مستعيري الكتب من الجهة الاخرى يقفلان عليها ابواباً حديدية ويتركها لرحمة العث وماوى للغبار . ولكن ما الفائدة من تكثير الكتب اذا لم يكن من يقرأها وهذا يقتادنا الى ذكر واسطة اخرى من وسائل اكتساب الاداب وهي المدارس

لا يخفى ان عدد المدارس قد زاد كثيراً في هذا الجيل . فانه يوجد في هذه المدينة مدارس كثيرة لكل ملة ومذهب منها لتعليم اللغات ومنها لتعليم القراءة البسيطة وهل هي في حالة مناسبة لنوال الغاية المقصودة منها . فان من نظر الى نظامها ومعلميها واكثر كتبها واماكنها لا يشكل عليه الجواب واستخفاف الاهالي بالمدارس البسيطة وتسليم اولادهم لمعلمين غير مقتدرين على تعليمهم كما يجب هو مما يوجب فساداً في اداب الجيل ومعارفه منذ طفولته . وتوجد مدارس بسيطة في اكثر المدن والقرى وكثير منها بسعي الاجانب لان اكثر اهالي بلادنا الى الان متغافلون عن اعتبار قيمة العلم فلا يشاءون ان يفتحوا له باباً في دفاتر مصاريفهم وهم تكون قليلة عند الوالدين والاولاد قيمة العلم الذي يكتسب مجاناً من دون ان يكلف الوالدين شيئاً . واما المدارس العالية فهي قليلة تقتصر في الغالب على علوم تتعلق بالمذهب حتى انه لا

يمكننا ان نقول بالصحة انه توجد مدرسة كلية ينظر فيها الى العلوم باعتبار ذاتها .
 ومن المدارس العالية الوطنية النصرانية مدرسة عين ورقة المشهورة التي يسوغ لنا
 ان نقول بحق انها ام المدارس الوطنية في هذه البلاد وقد انشئت في اواخر الجيل
 الماضي . ومن اطلع على شدة غباوة الازمان التي انشئت فيها واقترار الاهالي قاطبة
 في تلك الايام الى العلوم يتبين له فضل المطران يوسف اسطفان منشئها ويزيد
 اعتبار فضله عند ما يقف على المقاومات التي حصلت له عندما رفع الراهبات من دير
 عين ورقة ووزعهن على الاديرة ووضع مكنهن فتياً يتعلمون بنية الافادة والتعليم
 ولا ينبغي ان ننسى فضل مساعي سيادة المطران يوسف رزق رئيس المدرسة المذكورة
 حالاً فانه قد زادها قوةً بواسطة زيادته اوقافاً على اوقافها ورتقاً بواسطة الابنية
 الجديدة والاصلاحات العديدة التي احدثتها همته ونشاطه فيها وقد امتد فضله الى
 الواقف امام سيادتكم اذ قد صرفت عشر سنين في المدرسة المذكورة اتعلم واعلم محفوقاً
 بزيد غيرته الخصوصية عليّ ومشمولاً بانظاره وعنايته . وقد اقتدى بالمطران يوسف
 اسطفان غيره فاخذت عايلة بيت صفير دير الرومية وعايلة بيت آصاف دير مار عبدا
 هرريا من الراهبات اللواتي من شأن طريقتهن ان يقتصرن على ما به افادة انفسهن
 ووضعتا مكنهن اولاداً يتعلمون هناك ما من شأنه ان يقوي اركان الطائفة المارونية
 ويهذب شعبها . ولهذا الطائفة فضل الاسبقية في هذا الامر . ولها غير المدارس
 الطائفية العمومية المذكورة مدارس اخرى عالية ابرشية توجد في اكثر الابشيات
 لتعليم اولادها . وكذلك الروم الكاثوليكيمون قد اقاموا في هذا الجيل مدرستين
 عاليتين الواحدة في دير المخلص وهي مختصة بالرهبان الخلصية والاخرى في عين تراز
 لاجل تعليم العوام انشأتها غيرة البطررك مكسيموس المشهور . وهذه الاخيرة لم تبق
 الا سنين قليلة . واملنا ان هذه الطائفة التي هي مع قلة عددها بالنظر الى باقي الطوائف
 طائفة معتبرة في غناها ووجاهتها وتمدها تنتبه الى هذا الامر بقدر ما تقتضيه حالتها .
 واما الروم الارثوذكسيون فقد انتبهوا في هذه السنين الاخيرة وهم الان باذلون الهمة
 في تكثير المدارس وتوسيع دائرتها خلافاً لما نعهده من سلفائهم . ومن يستحق الذكر
 منهم نظراً الى عالي همته وشدة غيرته في هذا الامر المرحوم نعمة الله طراد الذي
 بقي سنين كثيرة وكياً على مدارس هذه الطائفة وتسلم الطائفة المذكورة ادارة مدارسها
 في هذه الايام لعمدة من معتبري ابناء الطائفة في الغنى والوجاهة والمعرفة كانخواجا حبيب

جرحس بسترس وارفاة الوكلاء يفتح لنا باباً للامل بان هذه الطائفة التي عدد اعضائها
 في هذه البلاد يساوي عدد باقي الطوائف النصرانية جميعاً ستكون في مقدمة جيش
 طلبة العلم ومدخلي التمدن بين اهالي بلادنا. ولا ينبغي ان نغفل عن مدرسة السريان
 الكاثوليكين في دير الشرفة ومدارس الارمن ومدرسة الرهبان العازارية في عين
 طوره ومدرسة الامركان في عيبه ومدرسة الرهبان اليسوعية في غزير فان فوائدهن
 لا تنكر. ولكن في جميع المدارس المذكورة محل متسع للاصلاح ولا بد ان الاصلاح
 سيدخل رويداً رويداً مع تقدم الجيل

واما الاسلام فمن مدارسهم الشهيرة المدرسة التي انشأها مامون الجيل التاسع
 عشر محمد على باشا في بولاق من الاقليم المصري ونرجوانها تبقى محفوظه بعبايا الخديوي
 سعيد باشاوالي مصر حالاً ومشمولة بانظاره. وقد خرج منها تلاميذ معتبرون
 وجهابذة مدققون اشتهر فضلهم بواسطة التأليف والترجمات العديدة الدالة على جهادهم
 ودقة عقولهم وزيادة تحقيقاتهم. ولهم مدارس اخرى لا يسعنا الوقت لذكرها غير ان
 الاكثريين منهم الآن يقتدون بابن سينا في طريقة اكتساب الاداب كما علمت من
 روايته السابق ذكرها عن نفسه. وعسى ان يتحول كثير من المزارات والخلوات
 الى مدارس لان احوال هذا الجيل تعلن ان القلم قد تقدم على السيف خلافاً لقول المتنبي

حتى رجعت واقلامي قوائل لي المجد للسيف لبس المجد للقلم
 فاكتب بنا ابدأ بعد الكتاب به فانما نحن للاسياف كالخدم

وبذلك حصل التقدم لاصحاب المعارف والعلوم على اصحاب الشجاعة والسيوف لان
 دولاب العالم يدور على رأس القلم وما احسن ما قاله الامام علي في هذا المعنى
 ما الفضل الا لاهل العلم انهم على الهدى ان استهدى ادلا
 فقم بعلم ولا تبغي به بدلاً فالناس موتى واهل العلم احياء

فيا ابناء الوطن يا ذرية اولئك الافاضل وحفدة معاشر السريان واليونان الممتطين
 سنم الجيل التاسع عشر جيل المعرفة والنور جيل الاختراعات والاكتشافات جيل
 الآداب والمعارف جيل الصنائع والفنون هموا استفيقوا انتبهوا استيقظوا شمروا عن
 ساعد العزم ما الاداب وائفة من كل جهة على ابوابكم تفرع طالبة الدخول الى جبالكم
 الشامخة البرية واوديتكم وسهولكم وحاريكم التي زينتها الطبيعة بجلاها الفاخرة فانبدوا
 عنكم تعصباتكم وتحزباتكم واغراضكم النفسانية وقدموا لها يداً واحدة لمصاحفتها وافتحوا

الابواب لهذا الصديق القديم الا تي اليكم بعد غربة مستطيلة وترحبوا به واقبلوه بكل فرح وحبور فيملا بلادكم راحة ورفاهية ويكسوها رونقاً وفخراً

ولا ريب ان التقدم المتصل الذي حصل في هذه البلاد في السنين القليلة المتأخرة مما يقوي عزائم كل من له رغبة وغيرة على انهاض الجنس العربي من حالته الساقطة وان اتعاب الذين صرفوا السنين الكثيرة في ادخال الاداب والتمدن بين العرب من ابناء الوطن والاجانب ستكمل بالنجاح . وسامي هممة حضرة الذات الشاهانية حضرة سلطاننا الاعظم السلطان عبد المجيد خان ذي النية الخيرية نحو راحة ورفاهية وامنية ونجاح ونقدم كامل اصناف تبعته وارادته الصالحة نحو اعطاء الحرية وانشاء المدارس وتوسيع دائرتها في مملكه المحروسة مما يجب ان يحرك عواطف كامل رعاياه الى محبته والى رفع الدعاء الى الله سبحانه وتعالى ان يطيل بقاءه ويوطد اركان دولته . ولا يخفى ان ذلك مع امتداد المتجربين العرب واختلاطهم بشعوب متمدنة وازدياد عدد المطابع والمدارس وانتظام حالة المجالس والمحافل وتقدم رجال الدولة في المعارف وفتح باب ميدان الانشاء والخطب والمحاورات الادبية والدينية والسياسية واطلاق زمام العقل وعنان الارادة والانتباه الى تعليم النساء وعلى الخصوص في هذه المدينة التي كانت في الازمان السالفة مرضعة للفقه ويؤمل انها ستكون في ما ياتي مرضعة للاداب كل ذلك يقوي عزائمنا واملنا بان العلوم ستمتد بين ابناء العرب وتملا ديارهم وترجع الى رونقها القديم وبان هلال الاداب الذي ولد في اوسط الجيل التاسع عشر سيصير بدرأ . انتهى

قدم ملخص هذه الخطبة ارتجالاً بحضور عمدة الخطب واما حفل حافل من افرنج وانباء عرب في بيروت وذلك في اليوم الخامس عشر من شهر شباط سنة ١٨٥٩



العربية والعرب

« لتعلم عبدالله البستاني »

لا بد للمرء من احد ادلة يستظهر بها على ابراز سرائر وهي الاشارة والكتابة والكلمة ومحور كلامنا مقصور على الكلمة وهي ما يعلن للمخاطب مراد المتكلم تلازم النوع الانساني من لدن دروجه الى ان احتضاره وبها يستميز عن سائر الحيوان .

وليس من لازم الامر ان تستمر كما نشأت بدأت بل قد تمذهب وتسطلح كما استوسعت دائرة الهيئه الاجتماعية لانها الذريعة الكبرى التي يستخدمها الانسان في تصوره وتصديقه وهي عنوان عقله وقلبه تدل على ما يسره ان علماً وان جهالة . وهذه الكلمة انما هي اللغة التي بها تتوثق الالفه وتنتشب في بعضها وهي مفردة في البدئية يتعسر على مبدوع ان يبدعها لانها شريكة الفكر هبطت على ايينا الاول فانطلق بها لسانه وتناقلها اخلافه . الا انها لم تثبت واحدة بل تنوعت وتشعبت لانفساد عرض لها لان القوم اذا ما اطالوا الثبار على المعاني التي تدل عليها الالفاظ الوضعية فلا حذر على اللغة ان ييادها فساداً او تضمحل لكننا ذلك من فساد طرا على افكار متكلميها فغيروا المعاني وصحفوا الالفاظ وحرفوها والبواعث على ذلك شتى منها تشعث الشعوب وتباينهم واختلاف القرائن واسباب المعاش والملاذ وغير ذلك فبعد ان انهلت على البسيطة شآبيب الطوفان واقتسم اولاد نوح بينهم الارض اجزاء فطن سام سوريا فتكلم بنوه لنته لكنها تشعبت بتشعب متكلميها وقصوهم عن بعضهم وتفرعت فكانت فروعها العربية والسريانية والعبرانية والفينيقية والكلدانية . وذهب الاكثرون الى ان العربية اصل هذه الفروع وقيل ان اول من نطق بها يعرب بن قحطان وهو الذي ذكره حسان بن ثابت الانصاري بقوله

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب ايينا فصرتم^١ معربين ذوي نفر
وكنتم قديماً ما لكم غير عجمة كلام^٢ وكنتم كالبهايم في القفر

واختلفت الناس على تسمية العرب فقبل انهم شقوا اسمهم من يعرب نسبة اليه وقيل من عربة جزيرتهم وسميت بذلك لكثرة الامم التي مرحت عليها قديماً اولما فيها من البوادي والصحارى الشاسعة ويستدل على ذلك من ان معناها الكثرة والفيضان مشتقة من عرب النهر اي فاض وكثر ماؤه واول من قطنها قريش وذكرها شاعرهم ساكنة الراء ضرورة بقوله

وعربة ارض^٣ لا يحل حرامها من الناس الا اللوذعي^٤ الخلاحل^٥
ومها كان من الامر فان^٦ هذه اللغة التي عليها مدار كلامنا كانت بداءة بدء لهجة اقوام حصونهم صهوات خيولهم ومهاذم الارض وسقوفهم السماء لا يعترى السنتهم لكينة او لثغة بل كان الواحد منهم فتيق اللسان كمانياً وبنات افكاره غير مؤودة كلهم يفقهون لجة اللغة وسدادها وتعصبيهم السنتهم اذا تعمدوا ان يتكلموا خطأ

ومع ذلك فكانوا اميين الا النادر منهم يدركون كل ذلك بالسليقة . فلبثت اللغة في عهدهم روضة جنية الازهار يفخر العربي القحاح بقلائد قريضا . ولقد طالما تماهر الشعراء بذلك فاقاموا بين نخلة والطائف سوقاً دعوها عكاظ كانت القبائل تنداعى اليها من كل قطر ومصر ويتبايعون ثمة الشعر علماً بان ذلك يكسبهم حسن الاحدوثة وطيب الذكر . فكانت اللغة وقتئذٍ تحتال في بجبوحه العزيمع المنافسون اليها سرايات وياتونها بما يزيدها رونقاً وكالاً واستمروا يكببون على الافتنان فيها يجعلون لكل حكم من احكامها وجهاً سديداً يضافهم على ذلك الزكن والحصافة . فكانت باعتبار الالفاظ منقولة وباعتبار الاحكام معقولة ولبثت على هذه الحال الى ان تزئيل الاسلام عن الحجاز وخالطوا الاعاجم ففسدت اللغة وكاد السمع يزيل تلك الملكة الراسخة في السنة متكلميها . فتولد اللحن والامالة في غير محلها فشق ذلك على ذوي النهى والحذق وخشوا من ان تنقلب هدفاً للتهمين والتنقص فاستنبطوا لها روابط وضوابط تكفل برعاية اصلها وذلك باستقراء كلام العرب والاشعار المروية عن قدماء القوم وجاهليتهم وجعلوها صناعة اصطلاحوا على تسميتها بعلم النحو . ومع هذا فلم يقص ذلك الجلبة عن بعض الالسنه لان العرب لفطرتهم على الفصاحة كان النطق بالاعراب سجية فيهم من غير تطبع كما قال الشاعر

فلست بنحوي يلوك لسانه ولكن سليقي^١ اقول فاعرب^٢

واول من انتبه لهذا الفن في صدر الاسلام ابو الاسود الدئلي^٣ واصدق الروايات في سبب انتباهه لوضعه انه دخل يوماً داره فقالت له احدى بناته يا ابت ما احسن السماء فقال يابنية نجومها فقالت اني لم ارد اي شيء منها احسن بل اني اتعجب من حسنها فقال فقولي اذا ما احسن السماء ووضع حينئذٍ النحو . فلا يذهب عنكم ايها السادة ان النحو من اجل علوم اللغة لان عليه مدار المعاني واختلاف المباني فيتلاعب باللفظ والمعني كما في ما احسن السماء فلو اقتربنا مثل ذلك سايرين غور اللغة لاوردنا صوراً كثيرة مختلفة كقولهم هذا بسر^٤ اطيب منه رطب^٥ وغير ذلك فلعمري ان ذلك ليس له نديده في لغة غير العربية ومن فاس الامور بمعيار البصيرة رأى ان النحو ذو جداء عميم لكل من رام الخوض في عباب المعارف ولو كانت في لغات الاعاجم . فلنك نري كثيرين من الذين يبيعون هذه اللغة بالغبن والحطيطة يرمون الكلام على اواهنه اذا تجددوا ترجمة قطعة الى العربية او كتابة مقالة فيها . وقد ارتنا

الايام عديداً من الناس يقضون الانامل ندماً لانهم تركوا الفتور يعلق باذيالهم
 وقت الصغر ففاتهم فيض هذه المزنة الصيبة . فلا ريب ان من خاض في بحر هذه
 اللغة وعثر على ما في لجه من الفرائد رأى عجباً عجاباً واقتر اقرار الارض بعدالقطار
 ولا سيما من صرف شطراً من الزمان في البحث عن دقائق البيان فانه علم جليل القدر
 جم الفائدة فان الكاتب العاري منه قاصر عن مدارج الكمال يجيد ولا يدري علة
 الاجادة فلو سئل عن علة معنى استحسنه او تركيب استجاده لم يقدر على الاتيان
 بدليل هينة كما قال بعضهم

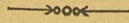
يا ابا جعفر اتحكم في الشعر - وما فيك آلة الحكم -
 ان نقد الدينار الا على الصر - في - مع فكيف نقد الكلام
 قدراً ينالك لست تفرق في الاشعار - بين الارواح والاجسام

ولذلك قيل ليس لمنقوص البيان بهاء ولو حك ييافوخه عنان السماء فيه لا يؤتي
 القائل من سوفهم السابح ولا يؤتي السامع من سؤييان فهم القائل لان خير الكلام
 ما لم يفتر بعده الى كلام وقيل ان عثار القول اتكاً من عثار الوعث . فليس لنا ايها
 السادة من الوقت سعة تمكننا من ايراد نوادر او قضايا حجة تشهد له بحسن الجودة ورقعة
 الشان بل تقتصر على سبب وضعه فنقول ان تسمية علم البلاغة بالمعاني والبيان حادثه من
 المتأخرين وكان الاقدمون يدعون علم نقد النظم والنثر وفيه الف العسكري كتاباً
 سماه الصناعتين اي صناعة النظم والنثر والف قدامة كتاباً سماه نقد الشعر .
 واول من دونه ابو عبيدة البصري وبعثه على ذلك سؤال اقترح جوابه
 عليه احد الكتبة وهو طلعهما كانه رؤوس الشياطين قائلاً انما يقع الوعد
 والايعاد بما يعرف مثله وهذا لم يعرف فقال ابو عبيدة انما كلم الله العرب على قدر
 كلامهم اما سمعت قول امرء القيس . ايقملي والمشرقي مضاجعي ومسنونة رزق
 كانياب اغوال . ولم يروا القول ولكنه لما كان امره يهولم اوعدوا به وازمع منذ ذاك
 الحين ان يضع كتاباً لمثل هذا وعند نجاحه دعاه مجاز القرآن وهو عمدة في هذا
 الفن . فمن نقصي في لآلىء منظومها ومنثورها عثر على كلام يتجدد تجدر النمير
 على الكبد الحرسي وعلم انها نشأت في الايام الخوالي افاضل لم السنة تكل عنها الشفار
 الصقيلة . ولا لبسة انها كانت في عهد الخلفاء عديمة الكيفية يتهافت عليها جهراء
 العصر يستورون ازنادهم فياتون بالدره اليتيمة . فقد لاذت بها الفلسفة القرن السابع

في عهد الخليفة هرون الرشيد العباسي وفي عهد ابنه المأمون الذي كان اشد رغبة
 من ابيه في ذلك فلقد كان يستدرج اليه العلماء فيكرمهم ثمواهم ويحزل عطاءهم رجاء ان
 تنهل اكايب العلوم من السنة اقلامهم فسعى في ترجمة كتب اريسطو واقليدس
 وهيبوقراط وبنى في بغداد مرصداً يرصد منه الظواهر الفلكية وقال احد المؤرخين
 ان علماء العرب كانوا يبلغون في عهد الملك المنصور ستة آلاف ونيقاً واقدم كانت
 مكتبة اسبانيا تحوي ستائة الف كتاب وبعد ان تخطى العرب الاحياء في
 القرن الثاني عشر واثنوا فتوحاتهم في الامصار التاسعة واقاموا في الخفاء متباينة
 سبعين مكتبة يعز وجود مثلها في ايامنا . واحرقت في طرابلس مكتبة كانت تحوي
 مائة الف كتاب وكان فيها من النساخ مائة ينسخون كتباً يتنافس فيها . وقد اسندعي
 احد الخلفاء حكيماً عربياً فنبط القدم عن النزوع اليه لافتقاره الى اربعائة من
 الابل تنقل مكتبته . ولقد طالما قال اهل اسبانيا ان العرب تبؤوا ارضنا واتخذوها
 غنيمة لكنهم عاشونا من ذلك نضاراً (عنوا بذلك علماء) وعمرى ان كثرة المكاتب
 العربية كانت في ذلك العصر روضة خصيبة ترعرع اغصانها بنضارة وازدهاء .
 وقد كانت تعز بانائها الذين كانوا يعرفون عزتها ويعتقدون صهوة الجهد لتكون
 وارفة الظلال فالولا لك هم الرجال كل الرجال يعضون على جذم الكد بنواجذ الجذ
 وتعقد على اعمالهم الخناصر . فليت شعري علام لا تنسن بهم تسناً تهش اليه لتتنا
 الخطيرة فقد نرى في ايامنا هذه بعضاً من ابناها اعقة ينكثون عنها غير حافلين بما
 كانت ترضعهم من لبن الادراك وهم يدرجون . فانها وايم الله يشق عليها ان تراهم
 لا يستوكفون ديمة فضلها بل يرون لهم مندوحة عنها ويعتزون بانهم لم يتخذوا درسها
 ولم يستظهروا من الفاظها طرفاً يسيراً . ورب منتقد يجهر بان يقول اننا طالما رأينا
 لثيفاً من المتادبين اكبوا على درسها واستمروا يفرغون سواد ليل اليراع في بياض نهار
 المهارق ومع هذا فلم يلكوا من حطام الدنيا نصيباً وافرأ بل تراهم تلهوا بها عن ان يحيط
 علمهم ببعض لغات الاعاجم التي تسعدهم على ان يحرزوا من الثراء شيئاً كثيراً وان
 لغة تؤدى الى الانضاء قبل حفظها ليس لنا اربة ان نقتلها خبراً او نتجامل في نقصي
 او ابد قريضا . اما نحن فاذا اتاح لنا النقاد مجالاً اجنبا مجنبيين الوقيمة قائلين لم
 يخطر في بالنا ان نغري يوماً احد الطلبة بان يحجم عن كل علم ويعتلق باهداب العربية
 وحدها لكننا نقول ان من شاء ان يكون خواصاً في لجة المعارف يندبه الى استنضاض

دره وقوفه على كنه لغته ولا سيما لغةً نبتاها في اللسن والبلاغة والا فلا يدرك قدير
بغيته ولا تستكين لعقله المعوصات ولو كان احوذياً كبيراً . فبناءً عليه اصبح من لازب
الامر ان يتعلم العربي لغته ولو تجشم في المدرسة تلداً طويلاً فلدن ذلك يتسع
عليه نطاق الفهم وينفسح له مجال الاقتباس والا فيكون كمن يود لو يرتقي الى شرفة
شاهقة دفعة واحدة غير متممداً سلماً يتدرج عليه الى ممتناه . ولست ايها السادة
ازوتق في امتداحها كلاماً او ازلف في اطنابها فانها غنية عن شهادة امثالي فثلي
في محاولتي تقريرها مثل من يري الناس محاسن البدر فيستظهر بان يوقد نبراساً .
ولست ذا نخلة في ادراك اسرارها لاخطب فيكم بما يجعل العيفان لهيف القلب لدرسها
بل اتمتل باعرابي قال اني اراني كالمسن اشخذ ولا اقطع . ولذلك اطفل على ذوي
الحصافة والحدق بابرار طرفة صغيرة تشف عن بعض طرائق درسها علماً بان بعض
عصابات من التلامذة يباينون المدارس احياناً وقد عرضوا من الصرف والنحو كتباً
كثيرة وسلاهب افلامهم تكبوا في حلبة الانشاء فعلى الدارس ان لا يقصر فكره
في معرفة الصرف والنحو فقط وقت تلبثه في المدرسة بل لا بد له من ذرائع يتذرع
بها الى الحصول على ملكة الكتابة التي قد تنلف في ما غير كثير من ذويها الى
ذرى المجد يسر بيانهم وتلمص غيرهم من حبال التبريح بحسن التنصل ورقيق
الاستعتاب . فيكفي الطالب ان يتفهم من الصرف والنحو والبيان القواعد الراهنة
كلها غير عالى بمنازعات بصري وكوفي وعلية فيلزمه ان يعمد الى اجل كتب ثرية
ويستظهر افصح مقالاتها فان ذلك مما يفتق الذهن في الاممية ويشخذ غرب القرائح
ويتريث في خزانة الفكر الى ان ينصب وقت الحاجة على لسان اليراعة . وان يحفظ
كثيراً من اشعار العرب مستكشفاً عن عويص الفاظها وكادحاً في حل ازرار معانيها
وعاكفاً على ما تجير منها العلماء لما في ذلك من صحة الاستشهاد وانتزاع الامثال
والاضطلاع من النوادر والشوارد وصقل مرآة البصيرة فمن اطال العكوف على ذلك
فلا يلبث ان تعنوله البلاغة فتمسي ثغور الطروس متمسمة من بكاء اقلامه واصداف
الاذان رائقة من جواهر كلامه . وان واظب على ذلك كثيراً فلا يستحيل ان يصير
لجبهة العصر غره ولعين الدهر قره . فاليكم يا اولي الالباب درة براءة بئمة تبلج بها
صبح النجاح في العصر الخوالي وافخر بها قوم ادبتهم نفوسهم ورفعتهم همهم وذهبت
ذكرى اعمالهم في الخافقين ومع ذلك كله فلا يفضلونكم ولا يؤثروهم عليكم القرن التاسع

عشر الذي قد اصبح غض المتحتم بكل حي الفؤاد وضاءت على صلت جبينه درر
المدارس والجرائد



اقرن التاسع عشر

« لفرنسيس فتح الله مرآش الحلبي »

من هذا الفتي المقبل من عالم الانوار . اللابس سربال المجد والاقطار . المثنطق
بنطاق السطوة والانتصار . من هذا الفتي المتلالي بالبهاء والجمال . الرافل بذبول
الوقار والكمال . المختال في السعادة والكرامة والاقبال . من هذا الفتي المتزين بالعلم
والادب . المتجمل بالتمدن والتهذيب والذهب . والمتحلي بجلي الوطر والادب . من
هذا الفتي البالغ في مرقاة الاجتهاد الى اقصى درجات السمو والارتفاع . الواصل
الى اشم قسم الفلاح والانتفاع . هذا هو القرن التاسع عشر الذي اطلع على غرته
كل شموس القرون الغابرة . ولبس كل كرامة الاعصار الغابرة . وتمنطق بكل قوة
الازمان الدابرة . هذا هو القرن التاسع عشر الذي تلاً بانوار محاسن
الخليقة وجمال اسرارها . ورفل بمهابة الطبيعة وكال اطوارها . واختال في كل المقدره
والظفر . وتناهى بالغنى والثروة والقدر . هذا هو القرن التاسع عشر الذي تزين
بعلم الموجودات ومعرفة الكائنات . وادراك الواجبات . وتجميل بتنظيم النواميس
والشرائع . وضم شمل الهيئه والمواقع . ورفع صولجان العقل القاطع . هذا هو القرن
التاسع عشر الذي بلغ اعلى مراتب الكمال وارتفع درجات المعالي والفخار . وجلس
على رؤوس الادهار . فماذا جعل هذا القرن سلطان القرون . والبسه تاج المجد المصون
وما الذي اطلعه في هذا الوجه الوسيم . واكسبه ذاك النور العظيم . وكيف قد بلغ
هذا المحل البازخ . وتبواً ذيك المقام الشامخ . هو العلم الذي مهد له المسالك .
واوصله الى ذلك فهلّموا بنا يا بني الوطن الى اكتساب العلم والاجتهاد في فلاحه
ونجاحه وتشييد مدارسه وتوطيد مكاتبه ولا تلتفت الى اعدائه واخصامه الذين اما
لجهلهم او لبعض اغراض لهم يسعون في تدمير العلم وكل مبانيه لانه ولئن كانت
انوار العلم والادب في هذا القرن الجديد قد درات غياهب جهالة القرون العميقة

وحمايتها وانه ولئن كانت رياح التهذيب والتمدن في هذا الجيل الخاضر قد قشعت
 غيوم خشونة الاجيال الماضية وتوحشها فمع ذلك لم يزل الان يوجد قوم من مردة
 الفلاح وباغضي الصلاح يسعون في سد سيل الاداب عن البشر وحجب كل نور
 عن ابصارهم فما كانوا ليخلصوا انسانهم العتيق ذي الطباع الخشنة والسجايا الوحشية حتى
 ان العامة تخالمهم بقيمة من جماعة القرون الوسطى فبولاء القوم لما رأوا ان انتشار العلم
 وفلاح الاداب ياول الى الضغط على شهواتهم وكشف بهت جهلهم اخذوا يحاربون
 العلم والعلماء ويقذفون على كل ساعٍ بتعليم الجهلاء وتفتيح بصائرهم وقد بلغ منهم بغض
 العلم اعلى شأؤٍ حتى ما عاد يمكنهم النظر الى عالم او طالب علم بحيث اذا وقع نظرهم
 على هكذا انسان اخذتهم رجفة الاضطراب وبرقت وجوههم صفرة الموت وغشاوة
 الغضب واخذت فرائصهم ترتقص وترتعد ولو امكنهم لوثبوا عليه وثوب المفترس
 وعاملوه حسب جهلهم وغباوتهم وما ذاك الا لان العلم خصم اغراضهم وعدوا احتشارهم
 فلا بدع انهم يرومون هدم كل مدرسة بفاس الجهل وبخل كل هداية بمنجى الضلالة
 ولكن السماء والارض تزولان وحرفٌ من ارادتهم لا يتم لان بينهم وبين سعاد
 قم الجبال ولجج الاهوال فليخنقوا على العلم حتى الخنافس على النحل وليغضبوا على
 العلماء غضب الخيل على الخيم وليضربوا في حديد بارد حتى نرى متى يصيب سهمهم
 الثقرة . وهيئات فالعلم للانسان كالثمر للاغصان والهدى للبصائر كالنور للابصار
 فاننا اذا نظرنا الى الانسان من حيث فطرته الطبيعية فلا نراه الا حيواناً محضاً كسائر
 الحيوان على انه يغتذي وينمو ويعيش ويتحرك نظير كل نوع من الجنس الحيواني
 وهكذا بالنظر الى وظائفه واعماله الطبيعية . ثم اذا نظرنا الى الانسان من حيث مزيمته
 الادبية نراه يختلف عن سائر الحيوان اختلافاً لا مزيد عليه واذا اخذنا نبحث
 على سبب هذا الاختلاف العظيم فاننا نجد ناشئاً عن تلك القوة العجيبة المزين هو
 بها اعني العقل النطقي اما هذا العقل فلا يوجد في الانسان مخلوقاً في نفس فطرته بل
 يوجد فيه على طريقة الاكتساب المتدرج مع تدرجه في العمر . وجل ما يوجد في
 الانسان طبعاً اي في نفس فطرته انما هو مزية القبول لهذا العقل وهذه المزية توجد
 في نفسه الناطقة فينتج مما يحصل ان العقل لا يحصل في الانسان الا بالاكتساب .
 اما هذا الاكتساب فانه يتم مما يدركه الانسان بحواسه ويتلقنه من اشباهه ويطلع
 عليه من اثار اسلافه واعماله فاذا تكون سعة العقل بمقدار سعة الاكتساب وهذا

ما يقال له العلم وهكذا بمقدار زيادة العلم يزيد الفرق بين الحيوان والانسان وبمقدار نقصانه ينقص ذلك الفرق

اما الانسان بدون الاكتساب والعلم فهو حيوان بهيمي ووحش ضارٍ وربما كان افزع حالة من كل البهائم والوحوش الضارية ولنا على ذلك دليل مما يقصه علينا سواح الامصار المنقطعة ومكتشفو قارتي اميركا وهولندا الجديدة عن احوال البشر المتوحشين الذين ياهلون تلك الجهات فهم والوحوش يسكنون غواب عراة ويتضايفون لحوم بعضهم ويتكلمون بلغات تشبه رُئْم الوحوش ولهم كما للوحوش مع انهم بشرٌ نظيرنا ولا امتياز ما بين طبيعتهم وطبيعتنا ولكن انقطاعهم عن عالم مخالطتنا في شسع بعيدة كان سبباً لعدم تخليق الانسانية فيهم اذ ان المزية الاكتسابية منهم كانت فاقدة كل مهذب ولذلك يوجدون على اصل الفطرة . فكما ان الاكتساب النقلى ينقل الانسان من الحالة الوحشية الى الحالة الانسية هكذا العلم ينقله من حالة الغفلة الى حالة النباهة ومن قيود الجهل الى حرية العقل على ان كلاً من البشر يعود بالعلم حرّاً فلا يتسلط عليه عدوٌ معتصب . ونبيهاً فلا يخدعه الغشاشون . وحازماً فلا يميل مع كل ريح . وشجاعاً فلا يخشى تهديد الطماعين وتوعد المتخسدين وقويماً فلا يبالي بصدمات الاعداء وزعازعهم . وفقهاً فيميز الحق من البطل والصواب من الخطا والعدل من الظلم ويعطي كل ذي حق حقه ويعلم اين مرتبة كل من اشباهه البشر ومدارها هذا وان العلم من شأنه ان يهذب الانسان ويحسن تربيته ويصلح فساد فطرته ويجمل ويزين اعماله ويكبره ومقداره ويعظم افكاره ويجعله انساناً لا بهيمة وبشراً لا وحشاً ويفتح بصره وبصيرته ليرى الحقائق ويميز الطرائق

فعلى كل السعي وراء العلم والجد والجهد به دون اكرثات باعدائه الذين لرعاية اغراضهم يوسوسون في دور الناس على مقت التعليم لان من هولاء الاعداء من يرى ان العلم يضر بتسلطه وتسوده ومنهم من يرى انه يضر بجرافاته التي يرغب زرعها في حقل الانسانية ليحصد ما يروي شهواته ويشبع مطامعه ومنهم من يرى ان العلم يضر باكاذيبه واضاليه التي يتاجر بها في سوق الجهل لربح الثروة والرفاهية ومنهم من يرى ان العلم يضر بمراياته ومداجاته بحيث اذا اميط هذا القناع عن وجهه لدى البشر تظهر حينئذٍ شوائب نفاقه التي كان ينصّبها سراكاً لتقنص سداحة القلوب وسلامة الضمائر فيعود بصفقة المغبون مصفوعاً بالخجل والوجل ومنهم من يرى ان العلم

اذا عم يضر باختصاصه به فيعمله الحسد الجهنمي على كرهه وابعاد الناس عنه . فلا ريب اذاً ان مثل هولاء بغضون العلم لكي يمكنهم الجهل من تقييد الناس بقيود اغراضهم وخفض الاعناق تحت نير شهواتهم لانهم يرغبون ان البشر تكون كالثيران لحراثة حقول او طارهم واطاعهم وربما حمل البعض هذا اللؤم والرياء على الضرب والطعن في ابائهم وامهاتهم بدون مراعاة حقوق التربية والاصل . فيكون مثلهم كمثل العفو الذي وهو يرضع لبن امه ينطح ضرعها ويشخبه فحذار ياطلبة العلم حذار وبدار يا بني الاوطان بدار

ولسد السمع عن كل مهذار ولتقطع رباطاتهم وناق عنا نيرهم واعلموا ان العلم وحده لا يفيد الطالب شيئاً اذا لم يكن مقروناً بالعمل . لانه يكون عقيماً كالشجر العديم الثمر . ولما كان الغير متمر غير مفيد كان العلم بلا عمل غير مفيد وهكذا فيكون صاحبه على هذه القضية المعدلة عقيماً وغير مفيد للناس . ولا ريب ان العمل هو زينة العلم كما ان الثمر هو زينة الغصن وجماله اذ به تحصل الفائدة ويتم المراد . اما العمل فهو يقسم الى ثلاثة اقسام الاول عمل الانسان نظراً الى ذاته والثاني عمل الانسان نظراً الى بقية الناس والثالث عمل الانسان نظراً الى الخالق

فعمل الانسان نظراً الى ذاته انما يتم بمراعاة خيره الذاتي وما يؤول الى صالح وجوده بين الكثيرين ولا بد ان يكون لهذه المراعاة ناموس تجري عليه وهذا الناموس هو الصواب والفضيلة . فالصواب يدعوه الى محبة ذاته وهذه المحبة تدعوه الى الجد في سبيل عيشته لحفظ حياته والى السعي وراء الاتعاب والصعوبات لنوال الراحة والترفيه والى الجهاد في سبيل العزائم والعظائم للحصول على الاعتبار والصيت فيما انها تلويه عن الكسل حذراً من العوز وذل السؤال . وتحميده عن الخمول والفتور فراراً من ازدراء الجماعة به وعن الضعف والجبانة دفعا لعدوه هملاً وسقطاً وذليلاً وتناه عن الانهاك والافراط خشيةً من هجوم العاهات والافات عليه والفتنة ت امره باصلاح سلوكه بين الآخرين وبالمسير في طرق الحق والاستقامة وبجبه القريب وتناه عن الفساد والنسب والمكر والختل والكذب والنفاق والمراياة والمداجاة والاعتبال والغدر والنهب والسلب والعدوان والعنفوان والصلف والغرسة والتجبر والشطط وذلك ليكون محبوباً من الناس ومقبولاً . لا مبغوضاً منهم ومرفوضاً وكل ذلك يكون نتيجة محبة الانسان نفسه على ناموس الصواب والفضيلة . ومن لا يعمل هكذا يكون باغضاً ذاته لان من عمل

صالحاً فلنفسه

اما عمل الانسان نظراً لبقية الناس فهو يتم بمراعاته خير الكثيرين وصالح هئتهم
 وذلك يجري على هذا المبدأ العام افعّل مع الناس ما تريد ان يفعلوا معك . فاذاً يجب
 صنع المعروف بين الناس اذ على ذلك يقوم هذا القسم الثاني وهذا المعروف الذي
 يرغبه الانسان لنفسه طبيعياً انما هو الاحسان الى المحتاج والاخذ بيد المظلوم والبائس
 ومواساة المنكود وعون المنكود ومداراة العميد والمريض وجبر الكسير والمهيمض
 والشفقة على الملهوف والمتلوف وتعليم الجاهل وثقيف الغافل وارشاد الشديد وغوث
 الطريد واشهار التصانيف والصحف التي من شأنها ان توالف بين قلوب البشر وتلقي
 الوفاق عند الشقاق والصلح عن القتال والحب عند البغض والخير عند الشر . اما
 عمل الانسان نظراً الى الخالق انما يتوقف على الايمان بعزته تعالى وهذا الايمان لا
 يصح ما لم يكن مقروناً بالاعمال المطلوبة منه عز وجل على انه بدون الايمان تكون
 الاعمال مائة كما ان الايمان بدون اعمال يكون مائة ومن شأن العلم والعمل استظهار
 الحق والصدق بين البشر والاتصار لها لايجاد العدل والسلامة قال النبي والمملك داود
 الحق والعدل تلاقي والصدق والسلامة تلاثما

فلا يصلح العلم والعمل ما لم يكونا مرتبطين بالحق والصدق لا يقع العدل والسلامة
 فاذا خامرهما الزور والنفاق عادا فاسدين وكان ربهما جائراً وضائراً فالحق خليق بان
 يكون الدعامة الاولى التي يقوم عليها ببيان كل شيء على انه بدون هذه الدعامة الاولى
 يكون كل بنية سخيفاً ومقللاً . ولا بد من هبوطه ومن عادة الحق الا يخفي ولا
 يستحي ولا يماري ولا يلوي وجهه ولا يهلع ولا يهجع . فلا يمكن لجميع غيوم الزور
 والبهتان ان تبرقع بحياه مهمما تكاثفت وتراكت اذ لا بدوان يتخللها نوره ويمزقها ويقشعها
 ليبدو جبينه ضاحياً صحيحاً فيقتبس منه المستهدون . ولا يمكن لجميع التمليق والمداهنات
 والملاسنات ان تحمر وجهه او تتلاعب به . ولا تستطيع جميع ثروة العالم ان
 تجوله عن الصواب . ولا تقدر جميع المزجمات ان ترده وتقهتره . ولا تطيق جميع
 مضارب السيوف ومطاعن الرماح ومواقد النار وسلاسل الجبوس والسياط والقيود
 ان تذبجه او تعزیه او تحرقه او تعلمه او تجلده او تقيده . ويستحيل على جميع مسكرات
 الاغراض او مخدرات الشهوات ان تغمض اجفانه الساهرة . وهكذا فالحق حق هو
 ويستحيل زواله . ومنى وجد هذا الحق وجد العدل . لان الحق والعدل يلتقيان

ومتى زال الحق زال العدل لان الحق والعدل لا يفترقان . فاذا عدل الانسان رضى الحق عنه واثابه الفلاح وحسن الرجعي . اما اذا ظلم وتعدى اقر بفساد سيرته وسريته وكان للحق جحوداً ومن الله مردوداً ومن ضميره مرضواً ومن الناس مرفوضاً اما الصدق فهو ابن الحق وهو كايه يستنكف ان يجتثني ويسخمي وترفح ان يماري ويحابي ويانف الملع ويسام الهجوع ولا يمكن للمقاومات والقوامع ان تقاومه او تقمعه وكل قوات الكذب والنفاق توجد امامه كالهباء الذي تذر به الريح على وجه الارض . وهكذا فمضى حصل الصدق حصلت السلامة . ومتى زاغ الصدق زاغت السلامة . لان الصدق والسلامة يتلازمان ولا يتنافران

فاذا لم يضع الانسان في بناء علمه وعمله قاعدتي الحق والصدق كان كل بنيانه وهناً واقل صدمة تهوى به الى الخضير وهكذا يكون جانياً على نفسه لا يتلف صيته ومقامه . وجانياً على الناس لانه ينشهم ويفري بهم . وجانياً على الله لانه يكون من اولئك الذين يخادعون الله وهو خادعهم ولا يجحدون الا انفسهم فبالصدق اذا تحصل صيانة المعيشة وراحة الضمير وهدو الصيت . كما انه بالكذب تنفلق تلك ويتبايل هذا ويضطرب ذلك ولنا دليل على ذلك من الذين يرتكبون النفاق والكذب مراعاة لزمانهم واغراضهم بحيث يظهر للناس كذبهم بكل حرف من كلامهم وبكل خطوة من اقدامهم وبكل حركة من وجوههم مهما تظاهروا بالصدق وجروا ذيل العجب والخيلاء . فتكون والحالة هذه معرفة الناس باحوالهم اشد عقاب واعظم قصاص لجرائم سجايهم وقد قلت -

كذبت فاحترت في الدليل ومذ صدقت كان الدليل في النطق
ومرر شئرا الخطا بنجوت ولا بدع فان النجاة في الصدق
وقال الحريري في مقاماته

عليك بالصدق ولو انه احرقك الصدق بنار الوعيد
وابغ رضى الله فاغبي الورى من يستخط المولى ويرضى العبيد

فهبوا من رفادكم يا جميع ابناء الوطن وادخلوا في مراسع العلم ومسارح المعارف والاداب لتكونوا اولاد هذا العصر الجديد وابناء بجدته واخلموا عنكم اسمال الجهل والغفلة والبسوا سربال الهدى والنباهة لتوجدوا اخصاء ومختارين في عرس هذا الفتى الميمون اي القرن التاسع عشر الذي يزف على عروس الفلاح والنجاح

الكون العاقل

« لفرنسيس مرآش »

ما كنت ابها الكون العاقل لتجد في الوجود نعيماً وعلى الارض عيشاً سليماً . فقد
استحدثت بمزاياك حوادث الضياء . واستوجدت بسجاياك كوارث العناء فكن طريداً
بسياط اعمالك وشريداً بزياط افعالك . انى استقبلت واستدبرت وكيفما تاملت
وتدبرت . حتى مَيسرك الغنم وهو اب الغنم وعلى ما يسوك الغنم وهو ابن الغنم فما
اقتراكَ الا عبارة قرب وجومك . وما اسفرارك الا اشارة غرب نجومك . عقلت
فكان عقلك حميم جهلك . وجهلت فكان جهلك نعيم عقلك . وقد استشارتك جوائج
الطمع حتى تروت على الممكن والمتمتع . ومذا استطلعت طلع كل حال وعلمت ان
الدوام محال رجعت كالمعمود المتجود مصروفاً بصراع هذا الوجود . فما الخلد باعمرى
منك حساً وما الفراش بارمى منك نفساً . تدم مكأرد الدهر وانت ابنه وتشين افعاله
وفي راسك ذهنه فلا تدمن الافلك ولا تشينن الا عقلك . خلقت على الارض
سلطان الجميع يسجد لك كل رفيع ووضيع . قترفت على الخليفة وتبهنت ونوعت
ظلمكها وجنست فافسدت وسحرت وعقرت ونحرت واستخدمت وسخرت وتدمت واخرت
وامتريت وحزرت وهصدت وهزرت . واتمتنصت الوحش من الغاب واصطدت الحوت
من العباب . ورهقت النسر من السحاب . حتى نسفت الجبال فكانت مهاداً وانشات
المهاد فكانت اطواداً . وانضبت وانبتت وسددت وترعت فما راقك كل ذلك وحصص
الكبر في بالك وقلت انى اعيش والوحوش سوياً واكون مثلهن وحشياً فما كنت
لاسكن الاوكار الصغائر وما خلقت لاعشو الى المغائر . حيث ترعدني القواصف
المنقضة وتفرقني السحب المنفضة . وتصرعني الزواجع المجامحة وتصفعني الرياح الراححة
وتصليني الرضاء نارها وتكسيني الحصباء شرارها . فلي ببيت المضارب لا من كل
مضارب . فاكون في عشيرتي اميراً وعلى قومي كبيراً . وهكذا فقد نصبت خيامك
ورفعت مقامك . ولما قطعت الزعازع تلك الاوتاد والاسباب واودت الانواء بهاتيك
القباب . قلت ما هذا البيت الواهي والمقام الداخي . فلابنين مدينة ذات اسوار شماء
ولارفنن برجاً ينطخ رواقه السماء . فاتمعت السرادق المحمئة واتمتع المعائل الحصنة .
وارتدي الصوف واخز واتوسد الريش والجز . واكل مرياً واشرب هنياً حتى ادراً صمة

الحيوان واسم سمه الانسان . فكون ابن بجدة العادة واخا كل سطوة وسيادة .
 فلما ابنتت ايها الكون العاقل ورفعت وتمتعت وتمتعت وارادت وتوسدت واكلت
 وشربت وتهذبت وتادبت . وصلت صولاً وظلت طولاً . سالت جوامد نفسك
 على شفات اعمالك وجمدت سوائل انفسك على زفات اميالك . فاطماً جواخلك
 جفاف الفجر وخامرت جوارحك شوائب النجر . حتي غدوت مرشحاً للملاعب الخطوب
 ومسرحةً لدباب الكروب . ومسقطاً للامراض الوافدة ومهبطاً للاعراض الفاسدة
 فانرضت راسك وانقبضت نفسك . وقلت بس التمدن والانضمام ونعم الشتات
 والانقصام . فالى م ايها الكون العاقل تروغ في خيمك السقيم وتزيغ عن السراط
 المستقيم وان فاطرك رب عظيم . بينا تستطيب سؤلك تستعيبه وتجهه وريثاً تشكو
 حرثك تشكوه وتجهه . قل ناشدتك الله ماذا يجديك ويسديك واية حالة ترضيك
 ولا ترديك . فان تكن في املاق ثقل حقاً ان لو اثريت لقتذت العناء بالغنى وخلبت
 بالاماني مخالب المنى . وقطفت ثمر اللذات من يوانع المال . واستطلعت من شمس
 الدينار انوار الامال . ولكنك هصرت غصون السعد وعشت كل رغد فانج من
 لفحة الضراء وانعم في ظل السراء حيث لا وصب ولا نصب ولا تسهد ولا وجع
 ولا حزن ولا تنهد بل طرب وارب وسرور وفرح ومرح وجبور حتى اذا
 ما بلغت غناك واصبت منك اخذت تنازعك عوامل الاطماع وتصارحك شواغل المتاع
 وتخاصمك اخصام المقام وتهب عليك كوامن الاسقام . فيلازمك بلبال البال وتخاصرك
 اخطار الوبال . ولما رضى ثقل النضار رضوى طاقتك وخسف ظليل الغرور شهاب
 حذاقتك . ولم تذكر ايام وعث فقرك وآلام حرث فقرك . قلت ما اكثر هموم همي
 واشد غموم نعمي فقد صرت اسير مقامي وعبد ارقامي وليف خدم وحليف حشم .
 وقد ارتبطت بقيود العادة ووقعت تحت حدود السادة . والتزمت برفد المسترفدين .
 ونجد المستجدين . وترويح الكاسدين ومداراة الحاسدين وقطع لسان النمام وردع
 مين الهمام . وحذر الغالب وخوف السالب اه لو كنت سيداً كبيراً وعلى قومي
 اميراً لكنت اصلحت شأن الامم واهبطت الفساد هاوية العدم ولم ادع للشر من قدم
 ولكنك رفعت منابني على مناكب القدر واثبت كوري على الشمس والتمهر واريت
 كل عين خير الاثر فاكون خلو البال من مكائد الكبير والصغير ومرتاح الفكر
 من وخز شوكة الضمير . فما لبثت ايها الكون العاقل ان سطوت على القوم باموالك

وسحرت المعوزين بأقوالك . ولم تزل تزرع في القلوب مواعيد القضاء حتى حصدت
 اصوات الرضاء فانتدبك القوم اميراً واصبحت كما تمنيت كبيراً . فشرعت تفسد في
 الارض شر الافساد وتجور على رقاب العباد . وتغترض غرائض الظلم وتعلق راحة
 السلم . حتى جعل الناس عليك يا تمرن وللروس يحركون . فجن جيشك وتنقص
 عيشك . فقلت ما اتعس عيش الامير وانحس حظ الكبير . ويحي فمن لي بان
 استميل كل القلوب واستعطف الدهر المقلوب . فكيف وقد خلق البشر في خلف
 الطبايع يدخلون في وفق الشرائع . فلا استطيع تغيير فطرتهم وتبديل بشرتهم .
 حتى بيض سواد جلد الحبشي ويزول تبقيع النمر الوحشي . ولكن الجهل اذا فشا
 فعلت بهم ما اشاء . واذا سرت البغضاء بينهم اسرت دينهم ودينهم . وان عضت
 افاعي الضلال اعقابهم ملكت رقابهم وعقابهم وقلبت اسماءهم والقابهم . فقاتل الله
 العلم والتمدن انهما اصل العنت والتغون . وهذا عدو السيادة وذاك خصم العبادة
 فمنها التمرد والعصيان وعنهما الشغب والعدوان . فويلاه من ضعفي في قوتي وعجزتي
 في سطوتي . وكيف لم يصدق حدسي وحلي اذا رأيت الناس خلقوا لحكمي . فلا
 ارتاح من هذا المرض والقرض ما لم اقبض كرة الارض . فاقلب شرع البشر وانفذ
 امري في القدر حتى ارى الانام تحت رجلي والايام تنعوني لدي . فاكون في حياتي
 مفراحا وعلى عرشي مرتاحا . فطفقت ايها الكون العاقل تشن الغارات الشعواء وتسنب
 الحرب والهيما . وتطلق هدوء الاكوان وتسقي الارض دم الانسان . حتى ظفرت
 بوطرك وغلبت بظفرك . وقبضت الصولجان وحكمت الانس والجان ولم تلبث ان
 ثاقلت على الثقليين ودعيت بذوي القرنين . وهكذا فريثا كانت نسور الظفر تتحقق
 عليك وشهد المجد يقدم لديك . واذا النعش يصحج امامك والعرش ينحج مقامك .
 واسد الموت يزار حولك ليلتقم طولك وصولك والقصر ينفر عنك والقبر يدنو
 منك وديناك تمر كالسحاب ونعماك تباد كالضباب . فاضجعت على فراش الزوال وعلمت
 ان الخلود محال . وقلت ليتني لم اخلق ولم اذق هذا الحكم المطلق . فما هذي الدنيا
 الغرور وهذا السرور المشوب بالسرور . فالكل يطبخه تيار الزمان تحت رحي
 الدوران . اين الغنا والحطام اين السنا والمقام . اين المجد والسعادة اين الولاية
 والسيادة . اين العرش والصولجان . اين الاكليل والتيجان . اين النهي والامر اين
 الفوز والقهر فهل كل ذلك قد عبر ومضى وغبر وانمحت العين والاثر . فما جهل المرء في

الوجود . وما اشقاه في الخموس والسعود . كل يزول ويفر ولا شيء يدوم ويقر .
 وما جهد الفتي الانسيم الامل تستلذه النفس في حر الملل . وما الخطام الا ظلال
 الغرور البهيم ان امتد فالنعيم واذا تقلص فالجحيم . فاعلموا ايها الملوك وتادبوا وافهموا
 يا قضاة الارض وتهذبوا . وانت ايها الكون العاقل كن صبوراً في محلك وشكوراً
 في ندادك وافنع بما كسبت يدك . ولا تنذر على الله اذا وطاك ولا نتعال عليه
 اذا علاك . وكن ماضياً بين يديه وراضياً بما انت عليه . ولازم النفع والهجر الضير
 وحد عن الشر واصنع الخيز . واعلم انك زائل ايان ترحل او تحل وما حياتك الدنيا
 الا دخان يتعالى قليلاً ثم يضمحل

الحقوق والواجبات

« لاديب بك اسحق »

تمهيد

اقدمت على البحث في هذا المطالب والسادج الفطري مقدم
 اعلم من تسمي العجز ومن ذهني الضعف ولا اجهل صعوبة البحث واختلاف
 الطرق وتنوع المذاهب فيه الا اني اجد من النفس ارتياحاً اليه ومن الفكر انبعاثاً
 عليه واخال ولعلني من المصيبين ان على كل من الناس واجباً من النظر والبحث في
 كل ما يتعلق بذاتية الانسان والهيئة الاجتماعية بما يأمل منه حصول النفع لها جميعاً
 وان وجوب هذا الامر مستلزم لحق القيام به فانما فيما احوال اخطأت فيه او كنت
 مصيباً ذو واجب ينهض بما وجب عليه وذو حق ياخذ بما حق له
 ولا التمس لنفسك عذراً فيما عساه ان يؤخذ علي من ضعف حجة او فساد بيان
 او ضيق معرفة او التواء معنى اني اعرض لآخواني في الانسانية ما علمت وما علمت
 وليس الذي علمت وعلمت كثيراً فان اصابوا بين السقط الذي يلفظ شيئاً يحفظ
 فلا اسف على الجهد والا فلست اول مخطىء في الناس ان اولهم اول ناس

البحث الاول

في تلازم الحقوق والواجبات

البقاء من لازم الوجود . فالانسان من حيث انه موجود مكلف بحفظ ذاته

ترشده البدهة الى معرفة النواميس الطبيعية الضامنة لذلك الحفظ
والحيوان الناطق داجن مؤلف بالطبع فالانسان من وجه انه مدني مكلف
بمحافظة نوعه تهديه القوة العاقلة الى الاحكام الادبية الكافلة لذلك الحفظ
فلذلك هو الواجب الذاتي وهذا هو الواجب النوعي وهما طبيعيان لازم وجودها
في الناس لزوم العلة المبقية للعلة الموجدة

فاذا تبين ذلك علم انه لا بد للانسان من الحرية الطبيعية في القيام بذنك
الواجبين فثبت له بذلك حق واضح وهو حق اجراء ما وجب عليه
فالحق والواجب من حيث الطبيعة متلازمان لا يقوم ولا يكون احدهما بدون الاخر
فمن استلب ذلك الحق يريد الحرية الطبيعية فقد منع الانسان من قضاء الواجبات
واهان النوع البشري وخالف ارادة الخالق الحافظ سبحانه وتعالى اذ كيف يستطيع
المرة حفظ ذاته اذا منع مما لا بد منه للبقاء وكيف يحفظ نوعه اذا قطع عما لا ندحة
عه في الاستبقاء

وهذا الحكم وان كان ظاهره مقصوراً على الواجب والحق الطبيعيين في حفظ
الوجود الانساني ذاتاً ونوعاً الا انه يتناول لا ريب الواجبات والحقوق في الحالة
المدنية فان احتياج الانسان الى هاته الحالة في حفظ الذات والنوع قد اوجب عليه
صيانتها بقانون ادبي على مثال الناموس الطبيعي فكانت احكام ذلك القانون كما قال
منتسكيو حكيم الفرنسيين بياناً للصلوات الضرورية الناتجة من طبائع الاشياء فلزم
من ذلك ان يكون على المرء في مدنيته واجب يقضيه بحق يعينه على القضاء
فانضح من هذا الذي بسطناه ان الواجب غاية واسطتها الحق فن اوجب الاول
لزمه اعطاء الثاني . ان الله تبارك وتعالى لم يمتخ الانسان حقاً من حيث انه فرض عليه
واجباً فالحق ملزم بالواجب والواجب مستلزم للحق

المبحث الثاني

في اقسام الواجب والحق

تبين مما سلف ان الحق والواجب متلازمان لا يكون احدهما بدون الاخر
في حال من الاحوال فكل ما نعمينه من واجب يتناول حقاً وكل ما نيننه من
حق يحتمل واجباً

ومعلوم ان كل موجود عاقل كلف بذاته حريص على حفظها فان اول ما يظهر من عواطف النفس الشاعرة بالوجود انما هو حب الذات ومن احب شيئاً حرص عليه وان حفظ النوع من احكام الطبيعة . فطر الانسان على الرغبة فيه كما هدت البدهة سائر الحيوان اليه . فهذا الحكم الطبيعي منتج بالضرورة للحالة الزوجية التي ينقاد الانسان اليها بالفطرة الحيوانية ثم يراها من حيث انه عاقل فرضاً واجب القضاء فتبت في قلبه ميلاً جديداً يتجدد بحب الذات فينشأ عنه في النفس لذة لا تنال ولا تدرك في العزلة نريد الحب الجامع بين الجنسين الواصل بين الزوجين الذي تنوعت مظاهره في عالم الوجود والم على اختلاف تجلياته بكل موجود فهو في الزوج عشق وفي الوالد حنو وفي الولد بر وفي الاخ وداد وهو هو في كل حال يفعل في النفس الطاهرة ويؤثر في انقلب السليم الى حد ان يلتبس امره على الانسان فلا يدري اكان قائماً بواجب من الطبيعة ومتولياً من ذلك الواجب حقاً ام كان مائلاً مع الشهوة ساكناً الى اللذة آخذاً بما يجلب له الرضى والسعادة

فهذا الحفظ النوعي وذلك الحفظ الذاتي يتعلقان بالانسان من حيث هو اي من النوع البشري . فهما منشأ الحق والواجب الطبيعيين وهذا هو القسم الاول من الحقوق والواجبات

وظاهر ان للانسان في الحالة الاجتماعية شأنًا جديداً ينتقل فيه من الزواج الى الاسرة وهي العائلة ومن الاسرة الى الامة ومن الامة الى الانسانية فانه له من هذا الوجود حقوق معينة وعليه منها واجبات معلومة . فما يختص بالعائلة من هذه الحقوق والواجبات من وجه المعاملة الشخصية والحدود الملكية . وما يمس الامة من حيث اقامة الامور وصيانة الاستقلال ووجود المساواة . وما يتعلق منها بالانسانية من حيث تقريب الصلات وتأمين الوفود وتيسير التجارات وتمكين السلم وحفظ المصالح العمومية . كل ذلك يعرف بالواجبات والحقوق السياسية

وما كان من هذه الحقوق والواجبات متعلقاً بالمعاملة بين الافراد من وجه كف الظلم ومنع الاعتداء وحفظ الحق وصيانة الضعيف من القوي ووقاية الفقير من الغني ورد المال المسلوب ومعاقبة الظالم وارضاء المظلوم واجراء سائر انواع المعاملة على محور الاستقامة والعدل . وكل هذا يسمى بالحقوق والواجبات المدنية ولهذه الاقسام الكلية فروع كثيرة نذكرها في عرض ما يجيء تفصيلاً او تحصيلاً

المبحث الثالث

في الحقوق والواجبات الطبيعية

وهي احكام الشرائع الطبيعية النافذة في النوع الانساني مستقلة ومنفصلة عن كل شريعة دينية وكل سياسة مدنية

وقد وجد هذه الاحكام في كل زمان ومكان اعداء الداء من اهل القوة الحسية والقوة المعنوية ممن يتسلطون بايديهم على الابدان ومن يستولون بالستهم على الازهان . اولئك لم يعترفوا بغير الاحكام التي هم اربابها وهؤلاء لم يخذوا بغير القوانين التي هم اصحابها . وما بين الفريقين معظم النوع الانساني حاشية يتبعون او عبيد يطيعون حتى استنارت الافهام ونشطت من ربق الاوهام فصار او كاد يصير لكل من الناس حد لا يتعداه وخط لا يتخطاه

ومن المعلوم ان الخالق الحكيم القادر العليم منزه عما يخالف الحكمة ويغاير القدرة ويناقض العلم الحق فالاحكام الطبيعية الناشئة عن عنايته الازلية ان هي الاكلمته الحق المعروفة من ازل الباقية الى ما لا يزال الكفالة لحفظ الوجود بوقاية كل موجود ولذلك عرفت في كل زمان ومكان وما اختلف فيها اثنا . فقد بدت لارسطو كما ظهرت لبسكال وراها افلاطون كما شهدها نيوتن وتبينت لشمسرون كما علمها فولني وانجملت لسائر المتبصرين فائقة على القدرة الانسانية غير متغيرة في حال من الاحوال حية في قلب كل انسان منقوشة على الواح الصدور واحدة في كل الازمنة والامكنة والاشخاص بقدرة الذي اوجد الازمنة والامكنة والاشخاص

فهذه الاحكام الطبيعية المقدسة تصل الانسان بذاته صلة قوية ينشأ عنها واجب الحفظ الذاتي فتصدر عنه العاطفة المسماة بحب الذات وتصل بين جنسية فينشأ عن هاته الصلة واجب حفظ الجنس فتصدر منه العاطفة التي اذا كان موضوعها الزوجين سميت حباً وان كان موضوعها المولود سميت حنوًّا او حباً والدياً وان كان موضوعها الوالدين سميت برًّا او حباً ودياً . وتصل بينه وبين ابناء نوعه فينشأ عن هذه الصلة واجب حفظ النوع فيحصل منه العاطفة المسماة بحب الانسانية

فما اعظم حكم خالقه وما اعم العناية الرحمانية ان الله سبحانه وتعالى ما فرض علينا الواجب الا من حيث تميل النفس وتنعطف الارادة ويسكن الطبع فقد كانت شرائعه الطبيعية عواطف نفوس وشهوات قلوب قبل ان تكون احكام فكر وعقل فهي الحب

الجاذب الواصل الحافظ الذي ذكره الشاعر الثاني في (وليجب بعضكم بعضاً فهذه هي الشريعة وهذه هي النبوت) ولا ريب انه جدد النواميس القديمة جملة بهذه الكلمات وايضاً فقد وصلت الاحكام الطبيعية بين الانسان والاشياء فكان المرء حرّاً في استعمال ما يحتاج اليه في واجبات الحفظ فهو في حالة الطبيعة مالك للعالم باسره الا ان هذا الحق غير مخصوص بواحد من النوع وانما الناس فيه سواء لكل منهم ما للآخر بلا فرق ولا استثناء . فالعالم من حيث انه لكل لا يكون لواحد منهم بالذات وانما يتمتعون به على حد سوى . ولكن لما كان موضوع هذا التمتع الحفظ كان من حق الانسان استعمال كل شيء فيه ولم يكن من حقه الافراط في شيء هذه اصول الاحكام الطبيعية متضمنة لما يختص بها من الحقوق الواجبات اوردهاها جملة كما رأيت وسنصلها في المباحث الآتية كما سترى

المبحث الرابع

في الحقوق والواجبات الذاتية

فصل

تبين في المبحث السابق ان حفظ الذات راس الحقوق والواجبات الطبيعية فثبت بذلك ان الانتحار اي قتل المرء لنفسه مخالف للحكم الاول من القانون الطبيعي الا ان هذه القضية وان كانت مسلمة لانطباق نتيجتها الصريحة على المقدمة الصحيحة فلم تسلم من اعتراض الفلاسفة المغالطين فقد راينا منهم جماعة يميزون الانتحار ويبرئون مرتكبيه بادلة مما يلائم ضعف الفطرة البشرية فتألف الازهان ما يقولون وان كان مخالفاً للحق . فلولا ان تكون هذه المباحث مقصورة على المبادئ الاولى والاصول الكلية من الحقوق والواجبات لاوردنا الكثير من ادلتهم مشفوعة بما يظهر ضعفها من اقوال الناقدين . على اننا نذكر من ذلك ما لا يخرج بنا عن حد الاجمال والاختصار مستوعبين فيه اهم ما استدل به على جواز الانتحار يقول نصران هذه الجريمة ان الحق الطبيعي قائم بالناس الخير ودفع الشر فيما لا يضر باحد من الناس فاذا صار الانسان الى الحال التي تكون فيها الحياة شراً عليه ولا تكون خيراً لسواه حق له الانتحار بل كانت واجباً عليه ونقول ان في هذا الدليل فرض محال لامتناع تجريد الانسان من خيرية الوجود

في حال من الاحوال على ان هذا المستحيل بتقدير امكانه لا يجيز الانتحار للواقع
فيما يحسبه شراً مطلقاً بما كان فيه من ضعف النفس وما طراً عليه من اليأس فان
الشقاء حادث عارض على المرء بما كسبت يده لا جناح ولا تبعه فيه على وجوده
الطبيعي فليس من الحق ان يؤخذ ذلك الوجود بما لم يصدر عنه وان تكون الطبيعة
مسئولة عما ليست منه في شيء

فان قيل كيف لا يجوز الانتحار للمرء على خطر العار والرجل على خوف الالهانة
والوطني على اليأس من سلامة الوطن وكيف يخطأ من مات جليلاً كراهة ان يعيش
ذليلاً او ليس ان كاتون الروماني العظيم الشان قد انتحر فراراً من الذل وحرصاً
على الشرف الذاتي فهل منع ذلك من ان يعد من عطاء الرجال

قلنا ليس الشرف الطبيعي الا كرامة الذات فهو من هذا الوجه فرع من الحفظ
الذاتي لا يسه شيء من العوارض المعنوية ولا يحق التصرف فيه لتغير الارادة
الطبيعية فاذا نصبت للمرء حبال من الحوادث او طرأت عليه عادات من الظلم او
المت به عوارض من الفساد المدني فانتحر بسبب من هذه الاسباب فاما ان يكون
ذلك منه عن خوف من المصاب والضعف عن احتمال الالم فهو جبان يخرج من ساحة
الحرب قبل انحسام القتال . واما ان يكون عن قوة الفساد الحادث فيه فهو ضحية
لشرف المدني والراي العمومي فما نحسب كاتون وان كان رفيع الشان علي المكان الا
الا مجرمًا مذكوراً ومخطئاً مشهوراً ولا نراه وان عد شديد الوطنية عظيم الهمة الا
مجباً للسطوة حريصاً على السلطة لم يمت كراهة للحياة بعد حرية رومة وانما مات اسفاً
على زوال السطة عن مجلس الشيوخ

وجملة القول ان استبقاء الذات من الواجبات الطبيعية ترشد اليه البداهة وتبعث
عليه العواطف النفيسة مما يخالفه الانسان الا اذا طراً عليه من الفساد ما ينسيه كل
حق ويشغله عن كل واجب

وكما ان وقاية الذات من الهلاك واجبة على كل موجود من الانسان كذلك يجب
عليه صيانة تلك الذات عن كل ما يجلب لها الالم او الضعف او النقص او الشوه كائنًا ما
كان وفي اي سبيل كان مما يخرج عن جد افتداء الكل بالجزء كما سنبينه في الفصل الآتي

فصل

يقرر فيما سلف وجوب حفظ الذات وحرمة قتل النفس ومن المعلوم ان ذلك

الوجوب قاضٍ بصيانة الذات عن كل ما يجلب اليها الضعف والحطة والفساد وان
هاته الحرمة ملازمة بوقاية النفس من كل ما يعود عليها بالضرر والهلاك فان حفظ
الوجود يتناول لا شك معنى استبقائه صحيحاً كاملاً سليماً كما وجد وحرمة القتل
تشمّل لا ريب حرمان الافراط والتفريط في حاجات الوجود من وجه انهما
مثلقتان للوجود

فكل ما يؤلم البدن او يضعفه او ينقص منه شيئاً لازماً فهو مخالف لحكم الطبيعة
مباين لحكمة الخالق لان الهيكل الجسماني الناهض بالواجبات الطبيعية اما ان يكون
(على راي اهل المادة) قائماً بذاته حياً بتركيبه غنياً عن كل مدد روحاني فضعافه
او ايلامه او اذلاله مغاير لمبدأ الحفظ الواجب طبعاً واما ان يكون (على راي
الروحانيين) بمنزلة الآلة لقوة روحانية تحار فيها الافكار ولا تدركها الابصار فافساده
على هذا الوجه مضر بالنفس مناقض لخالتها الكالية مباين لمبدأ الحفظ المفروض شرعاً
وهذا الهيكل الحيوي على الوجهين سواء كان قائماً بذاته او بما فيه لا يكون انساناً
ما لم يقم بالواجبات الطبيعية الانسانية ولا يستطيع ذلك ما لم تحصل له الحرية فكل
ما يذهب بالحرية الطبيعية تقييداً او اضعافاً او محواً كلياً فهو اختلاس او جهل
بماهية الوجود لان العبودية اما ان تكون اجبارية فهي من جانب المستعبد سرقة
واتلاف لا قدس حقوق الوجود واما ان تكون اختيارية فهي من جانب العبد جهل
وعمى قلب يخرج بهما عن ان يكون انساناً

فمن عرض نفسه لعاديات الطبيعة من الحر والبرد والجوع بما يوسوس فيه الجهل
مختاراً في ذلك غير مضطر له ولا ملتمس منه نفعاً قريباً معلوماً . ومن عدا على البدن
بما يؤلمه من ضرب وجلد وقمزيق واهمال بما يزين له الوهم راضياً في ذلك غير مكروه
عليه ولا مستفيد منه له شيئاً . ومن شوه الجسم او اسقط منه عضواً لازماً سعيداً
كائنماً كان ذلك العضو بما يموه له الطمع او الخيال الفاسد عامداً في ذلك غير مجبر
ولا مفقدي سائر البدن بذلك الجزء كمن يقطع اليد المتغفرة وقاية لبقية الجسم . ومن
اتزأ على حريته الذاتية بالمحو او الانقاص او الاضعاف بما يبعث عليه الكسل او
الغباوة او دناءة النفس راغباً في ذلك غير مقسور عليه . كل هؤلاء مخالفون لاحكام
الطبيعة مناقضون للحكمة الالهية الازلية التي هي عين الجمال ومظهر الكمال ومصدر
الوجود وعلّة البقاء . فسبحانك اللهم ما خلقت فينا شيئاً عبثاً ولكن نحن بانفسنا عابثون

ولا رضيت لنا شوهاً ولا عذاباً ولا امساكاً عما لا يضر ولا قيداً ولا ذلاً ولا عنتاً
ولكن أكثرنا لا يعلمون

— . عودٌ على بدءٍ . — اما الافراط الذي هو استعمال الشيء من وجه الزيادة
فيه والتفريط الذي هو استعماله من جانب الاتقاص منه فهما تابعان لحرمة قتل النفس
بما يجلبان عليهما من اسباب التلف فكل ما يضر بالوجود الانساني من الاطلاق والامسك
والبسط والقبض والاباحة والمنع والافعام والافراغ مماثل لقتل الذات حرمة ونكراً
فمن ترك الوسط العدل فيما يحتاج اليه البقاء والنماء واخذ منه بجانب الزيادة والنقص
فلا فرق بينه وبين المتحرر الا ان هذا يهلك النفس دفعة وذاك يقتلها تدريجاً

المبحث الخامس

في الحقوق والواجبات النوعية

فصل

تبين في المبحث الثالث من هذه المطالب وجوب حفظ النوع الانساني من وجه
ملازمته لبقاء الذات . فهذا الواجب ملزم بالعتام الحسنين على صورة يحصل منها
البيت او العائلة . وله في ذلك مظهران اثنان مظهر الزواج وفيه الواجبات والحقوق
الزوجية ومظهر النكاح وله حائتان الحالة الوالدية والحالة الولدية وفي كل منهما
حقوق وواجبات

فالعائلة والمراد بها في هذا المقام جماعة الزوجين وما يلدان هي الاساس الاول
والركن الفرد في بقاء النوع ونماء الانسان وهناء الحياة وكمال الوجود بل هي في العالم
البشري بمنزلة مركز نور تنبعث منه اشعة الحياة فتغير القلوب وتسر النفوس وتحيي
الابدان وترشد المرء الى المقام الرفيع المعد له في عالم الحيوان

فهي من هذا الوجه جرثومة الكمالات الطبيعية وارزمة المحاسن المدنية ومعدن
الفضائل الالهية لا تحصل بدونها في النفس عزة ولا تشا غيرة ولا توجد رحمة
ولا يكون اجتهاد ولا يكمل شيء من السجايا الانسانية والمزايا الاجتماعية . بل لا
يكاد الانسان يلتمس من خبايا الارض وكنوز الطبيعة وثمرات الحمل ما يفضل عن
حاجته الذاتية الا ان يكون ذا عيال من ضعيفات محبات صابرات وصبية صغار
عاجزين آملين جميعاً فيه متوكلين عليه يخاف عليهم ان يمسهم ضمير ويسره ان يراهم

راضين عنه معجيين به داعين له بالبركات.

نعم ان حب الانسانية على وجه الاطلاق او المجد الخيالي على حكم التصور قد يكون هو الباعث الاول لبعض الانفس الزكية والعقول السمية على اقتحام المصاعب واحتمال المتاعب في القيام بما يترتب عليه الاثر النافع العميم . الا ان ذلك فضلاً عن كونه حادثاً طارئاً على الجمعية الانسانية غير اصيل في الخلق الطبيعي فهو مقصور على دون القليل من الناس . اما السواد الاعظم فلا يعانف مناعب المعاش ولا يصبرون على شقاء الحياة الا يبعث ادنى الى الحس واقرب من الطبيعة واطهر لعين الفطرة الساذجة . وبعبارة اوضح لا بد للانسان في الحالة المعاشية من عيال يشعر بحبهم له وحاجاتهم اليه واعتمادهم عليه من دون سائر الناس فيخرج باجتهاده في تحصيل المنفعة ودرء المضرة عن حد ما يحتاج اليه مع ذلك الاجتهاد منحصراً على نوع ما في الحاجة الذاتية من وجه ان الولد قطعة من ذات الوالد بل هو عين تلك الذات تقمصت رونق الشباب واعيدت خلقاً جديداً فهي تقوى به ما دام لها البقاء وتحيا فيه بعد اذ يدركها الفناء

فاتضح مما تقدم ان الزواج واجب طبيعي لازم في بقاء النوع ملازم لحفظ الوجود ولعل هذا هو الاصل في جميع الاحكام القديمة المانعة من التبتل وطول العزبة من وجه ان الذين هم على من تينك الحالتين يكونون في مثل العزلة عن سائر النوع قتمو فيهم العواطف الانوية التي لا تخرج من حد قولنا « انا » فينشأ فيهم عن ذلك خلق الاثرة الموجب للوحشية المعروف بحب الذات

فاذا تقرر ذلك لزمنا بيان حد الزواج وماهية ما يجب فيه وما يحق للزوجين وايضاح ما يترتب عليه من الحالة الوالدية والولدية وما يلزم في هاتين الحالتين من الواجبات والحقوق

فصل

ظهر مما سلف ان حفظ النوع ملازم بالتثام الجنسين على الصورة المسماة زواجاً فذلك الالتئام لا يكون الا بالارادة ولا يتم الا بالاتحاد فاذا حصل كلاماً تعين فيه على الزوجين ان يسعيا فيما يعود بالفائدة عليهما جميعاً فان اتجاهاها بالارادة يشبه ان يكون ميثاقاً على الاشتراك في اللذة والالم والصفو والكدر والسراء والضراء

غير ان حفظ النوع وان كان من الواجبات الطبيعية فلا يلزم الا حيثما لا يضر
بالذوات شيئاً ولذلك وضعت للزواج حدود مبينة واوقات معينة في بعض القوانين
وكان في الحالم الصغير والعاجز الكبير مكروهاً على الاطلاق

ولما كان حفظ النوع هو الغاية الطبيعية في التثام الجنس لزم ان يكون هو المقصود
بالذات فيه فاذا جرد القران عنه عمداً كان بمقتضى التاموس الطبيعي جرماً ولذلك
جاءت الشرائع الدينية بالنهي عن الزنا وافامت على مرتكبيه حداً من عقاب هذه
الحياة علاوة على ما توعدهم من عقاب الآخرة . اما القوانين المدنية فقد اتت بمثل
ذلك على حين كانت قربة العهد من الطبيعة فلما ان تقدم الناس فيما نسميه الفةً
وقدناً رفع ذلك الحد من قوانينهم فتاب الادب عنه في ذوي النفوس الزكية
والاخلاق الكريمة والعلم الصادق

فاتضح من هذا الذي قدمناه ان الزواج ميثاق اشتراك واتحاد يبرم بين الجنسين
قضاءً لواجب حفظ النوع فهو من هذا الوجه وعلى هذه الصورة واجب لازم بالذات
كما يؤخذ من ما آل الحديث الشريف « زوجهم فان لا تفعلوا تكن فتنة في الارض
وفساد عريض »

فاذا تقرر ان الزواج ميثاق مبرم بالارادة لزم من ذلك ان تمت مخالفة شرطه
من قبيل الخيانة . فهذه الخيانة تكون في جانب المرأة افطع منها في جانب الرجل
من حيث انها ^(١) تقضي عليه بان يعول الولد ^(٢) في حالة كونه ليس منهم في شيء
فهي لذلك من موجبات نقض الميثاق في كل شريعة . مأثورة الا ان ذلك النقض
يكون في بعض الشرائع طلاقاً وفي البعض فصلاً وابعاداً ليس غير

فالطلاق حكم يعيد لكل من الزوجين حرته الذاتية بحيث يحق له موثقة من
شاء بمثل الميثاق الاول والفصل قضاءً يفرق بين الزوجين حساً مع بقاء الصلة المعنوية
بحيث يكون الزواج محظوراً عليهما جميعاً

وليس من شأننا بيان حدود الطلاق وشروط الفصل على ما وضعت في الشرائع
والقوانين المرعية لذلك يخرج بنا عما التزمناه من الايجاز في هاته المباحث ولكننا ننظر

(١) اي المرأة

(٢) غير الشرعيين

الى ميثاق الزواج من وجه الحقوق والواجبات الطبيعية مجرداً عن كل عقيدة دينية
تجيزاً في موضوع البحث وحدود المطلب

فالزواج من هذه الحيثية عقد معلوم الشرط والعقد المشروط فيه لا يلزم الا ما دام
شرطه محفوظاً فان ضيعه احد المتعاقدين او ابطله او اهمله عمداً كان الاخر في
حل من العقد وهو الطلاق على اختلاف انواعه تجيزه بعض القوانين المدنية بعد
ظهور موجبه ووضوح وجه الضرورة فيه وتامين الولد من سوء عقابه . وتجمله بعض
الشرائع المطهرة صادراً من جانب الرجل لعيب معين ومصالحة ظاهرة بعد وفاء النقد
على انه ابغض الحلال الى الله . وتقف به بعض سائر الشرائع والقوانين عند حد
الفصل على ما ذكرناه اعتقاد انه مما عقد الله على لسان رجال الله ولن يحل لانسان
حل ما عقد الله او مخافة ان يتقوض به ركن البيت ويفسد الولد بافتراق الوالدين
ولكل ادلة من النقل والعقل فيما يختلفون عليه

فصل

بالزواج يحصل النتاج فتنشأ عنه السلطة والواجبات الوالدية وهي وسيلة استمرار
النوع . فالنتاج مؤدى الطبيعة البشرية واستبقاء المولود متعين على الولادة فهو واجب
تفرضه طبيعة الاشياء فلا مفر للوالد منه ولا عذر له في القعود عنه
ولقد وضع الحد في بعض القوانين على الذين يبذون ولدهم ولا شك ان اهمال
شان الولد بعد الولادة يكون من ذلك القبيل فان دعوة الموجود في عالم القوة الى
الوجود في عالم الفعل هي الميثاق على حفظه بتيسير ما يحتاج اليه وانماء قواه البدنية
والعقلية الى ان يشتد ساعده فيصير كفواً لذاته فن اهمل ذلك بلا موجب من
الطبيعة ومن اقدم على تلك الدعوة مع تحقق العجز عن المترتب عليها فقد ارتكب
ذنبا يشبه في بعض احواله القتل

فاذا تبين استبقاء الولد من احكام الضرورة الطبيعية ثبت انه لا يوجب السلطة
في جانب الولد الا بمقدار وجود تلك الضرورة ولذلك فالواجبات الوالدية تنتهي
من الوجه الطبيعي ببلوغ الولد سن القوة والرشد فلا يبقى بينهما من بعد ذلك الا
رابط الهيئة الاجتماعية والالفة البيتية كما سنينه في مكانه
وبما تقدم يعلم ان استبقاء الولد بانماء قواه البدنية والمقلية من الاحكام اللازمة في

حفظه فالوالد كائنًا من يكون وفي آية حالة يكون مأمورًا من قبل طبيعة الوجود
 بحفظ مولوده وتوجيه العناية اليه وسد حاجته الطبيعية بالغذاء والوفاء وانماء قوته العقلية
 بما يلزم من العلم والجاهة الى قبول ذلك منه ان اباه ولذلك وضع الحد على مسقط
 الجنين عمدًا وفرض العقاب على قاتل مولوده وحكم بالقصاص على النابذ وتقررت في
 الكثير من هيئات الاجتماع الزامية التعليم

على ان هاته الواجبات وان كانت كثيرة الفروع ثقيلة الحمل عظيمة التبعة فلا
 ينبغي ان تعدل بغير اهل الثروة عن الزواج والنتاج فانه لم يفرض على كل والد ان
 يجعل مولوده من ذوي المقامات السامية وارباب الثروة الوافرة واهل العلم الواسع
 وانما يلزمه القيام بالضروري من حاجاته الحيوية واصلاح شأنه واعداد حسن المال
 له بما تصل اليه يد الامكان قال منتسكيو حكيم الفرنسيين . على الوالد ان يطعم الولد
 ويحميه ويحسن تربيته وليس عليه ان يجعله ذا ميراث . ١٠

ولرب ما هن فقير وفاعل لا يملك شروى تقير يث في قلب ولده روح الشهامة
 والاستقامة ويعني به ما استطاع انماء واصلاحًا فيكون في ذلك افضل واحسن سعيًا
 من غني يهتم بالميراث ولا يهتم بالوارث

وقد مر بنا ان الواجبات الوالدية لا تقف عند حد الغذاء وسد الحاجة البدنية
 ولكنها شاملة لتهديب الفكر وانماء العقل — وبعبارة اوضح — ان للانسان من حيث
 انه حيوان وجودًا بدنيًا ومن حيث انه ناطق وجودًا عقليًا فن دعاه الى حيز الوجود
 بالفعل فقد وجب عليه حفظه في الحالتين وبناءً على ذلك فالتعليم فرض واجب على
 الوالدين بلا استثناء الى حد ما يستطيعون . ومن المعلوم ان الحالة المدنية تد وسمت
 نطاق الضروري من العلم بما نشأ عنها من تفرع الحاجات وتنوع الحالات حتى عز على
 كثير من الناس ان يلقوا بولدهم حد اللازم من المعرفة والضروري من العلم فصار
 من الواجب على هيئة الاجتماع ان تعينهم على ذلك بانشاء المدارس المجانية فقامت الدول
 المتقدمة بها الواجب فلم يبق فيها للوالدين من عذر في النفاق عن تهذيب اولادهم فان
 فعلوا عنادًا او عمى قلب تعين على الهيئة الحاكمة المختارة ارشادهم الى الواجبات الطبيعية
 بالدعوة والحث والاغراء والالزام يجب عليها ذلك من وجه ان المولود ليس ملكًا
 للوالد يتصرف فيه كيف شاء وانما هو لله علة الوجود ثم لنفسه ثم لهيئة الاجتماع وهذا
 هو الاصل في قوانين التعليم الازامي

ومن الناس من لا يجد للسلطة الوالدية حداً فيحسب الوالد حراً فيما يجب عليه
 للمولود يفعل من ذلك ما يشاء ويهمل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل . ومنهم من يقول
 ان الولد ثمرة الولادة فمن ملك الشجرة فقد ملك الثمر يريد تقرير استعباد المرأة
 واستبعاد الوالد . ومنهم من يعد سلطة الولد قبلاً من استبقائه للمولود فهو لاء جميعاً
 يرومون تاخير هيئة الاجتماع وارجاعها الى ما وراء قرون الظلمات الى العصر الذي
 كان فيه الولد ملك الوالد يبعه ويتصرف في وجوده استعباداً وقتلاً كيف شاء .
 الى عصر الخشونة والجهل . الى زمن الاستبعاد والظلم . الى عهد الحيف والفساد
 قفل يا اهل الظلمات حذار فقد جاء ملك الانوار

الجماعة العثمانية

« لسليم بك ثقلاً »

(في ١٤ ديسمبر سنة ١٨٨٩)

جوزيت يا صروف الزمن خيراً عن الشرق ولئن بلغ سيلك فيه الربى وفاض
 منه الوطاب لانك امطت لثام الجهل والغرور عن البصر والبصيرة فشاهد الصور
 وادرك مادتها . اعدت له ذكرى ماضيه ايام كان يجز ذيل العجب والتهيه ويتعثر
 بالسط السندسية ويرفل بمطارف الاجلال ويزدان بجلى الفضل ويعتضد بجماعة
 الكلمة ويشنف السمع بنغيات الاتفاق . ثم نقلت به الى ايام اخذ يجز فيها ذيل الفقر
 ويتعثر بشوك القتاد ويرفل بعباءة التحقير ويزدان بجلى الجهل ويعتضد بتفريق الكلمة
 ويشنف السمع بنغيات الاختلاف فتبين بالمقابلة ما هنالك وبضدها تبين الاشياء
 ايها الشرق قد عشت بك الغير والغير حتى لم تبق ولم تذر واخني عليك دهرك
 واناخ بكلكم وهو له من طبعه وعادته عذر لانه لا يدوم مسلماً كما لا يدوم محارباً
 وسبحان من يصرف الافعال في خلقه كيف يشاء فوهنت عزائمك تحت وقرائنه
 واستسلمت الى الصبر مكرهاً حتى ملته او ملك ثم قلبت له ظهر المجن واستبشرت
 بصادق القول « دوام حال محال »

ذلك هو القول الصادع بالحق والدافع الى التنصل من تهيب الصروف والباعث على
 تلقي وقعتات السيوف بدرق الحكمة والعزيمة ودفع طارئات الكوارث بساعد الهمة

والثبات فلمره لا يكون رشيداً الا اذا حنكته التجارب والفارس لا يستقيم على
صهوات الصانعات الجياد الا اذا استقام له موقع الطعن في ساحة الجلال
ايها الشرقي الذي روعتك طائرات الايام وطارقات الليالي قد شاهدت والعهد
غير بعيد ان ذاك الزمن الذي نافرك وناصرك قد انت ساجدته على غاية شوطها ثم
رجع بها خبيهاً وهو يناديك ليسالمك ويصافيك وقد رفع لواء النصر في ساعده مرسوماً
عليه شكل (الهلال) فانست وقلت هذه بشارة الخير ومبدأ الهدى ثم تهمل وجهك
بشراً وانت تدعو بفضل المولى الحميد

تلك هي دولتك العثمانية الباذخة الشان . وذلك هو جلالة مولاك ومولاها
السلطان عبدالحميد خان . فقد عاهدها الله به فاعزك واعزها وبشر المشرق بارجاع
جليل شانها اليه فاقبل ما وصل اليك بيمين الشكر

ولا يغرب عنك ان لكل اجتماع جامعة يقوم بها ويستند في ثباته على رعايتها
وتلك قاعدة شاملة جامعة بتبدي من عائلات المنازل مع قلة عديدها الى ضوابط
المالك مع سعة حدودها وهذه الجامعة هي الحافظة لذك الاجتماع والداعية الى حرمة
وحفظ مقامه وبها قامت الممالك على اختلافها وبسببها تهيأ النظام ورسمت الضوابط
والروابط بين الحكومات

واذا رجعنا الى تاريخ الماضي وجدنا ان هذه الجامعة كانت تختلف بحسب
اختلاف احوال القرون وبنائها بان كانت القربى او الجوار او البطن او الفخذ فالعشيرة
فالقبيلة ثم انتقلت مع الايام الى الديانة فاللسان فالجنسية فالوطن وهذا هو الشان
المرعي الان في غالبية الدول العظمى فان الجامعة فيها انما هي الوطنية فاوستريا مثلاً
تشتمل على عناصر عديدة بين هنغارية وسلافية والمانية وغيرها ولكل لفته فضلاً عن
اختلاف المذاهب ولكن الجامعة الوطنية فيها انما هي النمسية وقس على ذلك المانيا
والروسية وانكثرا وغيرها . وكل منها تجري احكامها على وتيرة واحدة وتخضع لقانون
واحد ولو لم ترع هذه الجامعة في كل من الدول المذكورة لتفرق شملها وثل عرشها
ونسخ ظلها وذلك هو مبدأ نجاح الغرب واستفحال كلمته ونفوذ امره فانه يجمع ما تفرق
في ممالكه من العناصر والمذاهب الى جامعة الوطنية

وعلى هذا المبدأ القويم وبهاته الجامعة ايضاً قوام دولتنا العثمانية ايدها الله فان في
ممالكها المحروسة عناصر عديدة بين تركية وعربية وارمنية ويونانية وغيرها وكذلك

مذاهب مختلفة ولكنها تجتمع كلها جامعة واحدة وطنية هي العثمانية وهي دون استثناء
تخضع لجلالة سلطانها وتصعد بامرہ وتنصاع الى احكامه وهذه الجامعة كانت وتكون
الحصن الحصين للرعية دون اطماع الدول وما وراء العتب فيها الا الخسران والضياح
واذا تبين هذا وهو الحق الصراح كان ابن مصر وابن الحجاز والعراق والشام
وارمينيا والاناضول وطرابلس الغرب وكريد والبلغار اخوة لام هي دولتهم العلية
واب وهو جلالة السلطان بل كان العربي والتركي واليوناني والارمني والشركسي واحداً
في الوطنية ولقبه عثماني بل كان المسلم والاسرائيلي والسبيحي والدرزي وغيرهم واحداً
في الوطنية ولقبه عثماني

ذلك هو المبدأ الشريف الذي يجب على كل عثماني ان يراعي حرمة وتلك
هي القاعدة الراسخة التي تقضي على كل عثماني بحفظها والانتثار باحكامها فان الشرق
لم يتنزل عن منزلته الرفيعة في سابق الايام الا لما نسي هذه القاعدة ونسخ آية
الوئام والوفاق وفرق في الوطنية بين عنصر وآخر وجنسية واخرى . ثم لم يعد
اصلاح الحال الا لما ادرك الخطا الفاضح وفرق التفريق وجمع الشتات بجامعة الوطنية
وبناء على ما اوردناه فاي عثماني سواء كان صورياً او سورياً او اناضولياً او
غير ذلك من الممالك المحروسة يجرأ على التفريق بين صنف الرعية الخاضعة لجلالة
مولانا السلطان او يجاهر بالنصل والتمهيز الوطني بين هذه البقعة او تلك الجهة مثلاً
وكتابها عثمانيتان . بل اي سوفة او امير او وزير او مشير من تبعة الدولة العلية
كيف كان مسقط راسه ومنبت غرسه ووجهة دينه يهجم على قحة وجهل على انكار هذه
الحقيقة او العتب باحكامها . اجل لا يقدم على ذلك الا من خان دينه خيانة تربو
مساويء اخراه فيها على مساويء اولاه وباع وطنه بيع السماح في سوق النذلة والهون
وتجرد عن كل خلق سليم وطبع مستقيم وكان من ذلك الجسم العثماني بمنزلة العضو
الفاسد لا علاج له الا القطع

ايها العثماني قد وضع لك ان حفظ قوامك موكل الى حفظك حقوق تابعيتك
وما وراء الاخلال بها عن طيش وحسب الا ايغار الصدور وتوليد الفتنة وبالتالي
التفريق والانقسام وبئس المصير وانى لك ان ترى غير ذلك بل اي قانون يميز
لك ايها المصري او السوري او الاناضولي ان تنزل اخاك في التابعة منزلة الاجنبي
عنك كلابطالي والسربي وغيرها

بل اي مبدأ سياسي او اداري اصلي او فرعي وضعي او حملي يجيز لك ذلك
 اليس سلطانك سلطانه . اليس لواءك لواءه . اليس قانونك قانونه . اليس شعارك
 شعاره . اليس جنديك جنده . اليس دولتك دولته . اليس معاملتك معاملته .
 اليس تابعيتك تابعيته

قل لنا بعيشك التخطب انت في جامعك وتدعو في كنيستك بغير ما يخطب
 هو في جامعه ويدعو في كنيسه . اتشاهد على دنائرك ودرهمك غير الطغراء
 السلطانية التي تشاهدها على ديناره ودرهمه . يتحقق فوق سفنك في البحر وحصونك
 في البر لواء غير لوائه

بل قل لنا من الذي اباح لكبارك القاب الشرف اليس الذي اباح لكبار اخيك .
 وباسم من وصلوا الى الرتب والمقامات السامية . اليس باسم الذي وصل اليه كباره .
 وباي النياشين تزدان صدورهم ومن احسن اليهم بذلك اليس بمثل ما تزدان به صدور
 كبار ذاك وان المحسن اليهم واحد هو جلالة السلطان

بل قل لنا باي قانون تاتمر اذا ذهبت الى صنع اخيك ومن يكون حاكمك والى
 اين مصير امرك ومن يدافع عنك . ألك حاكم غير حاكمه وقانون غير قانونه وهل
 له اذا نزل ارضك غير حاكمك وقانونك لانكما كليهما في التبعية سواء وهي الجاهة العثمانية
 بل كيف لا تتفخر معه بهذه التبعية الجليلة وانت عثماني في حين ترى الدول
 الاوروبية تتسابق الى صافاة السلطنة ومحالفتها كما اوضحنا لك في لمحة سابقة وكيف
 لا يكون منك ذلك وانت ترى اخوانك في المذهب دون التبعية يشدون بجمد
 جلالة مولانا الخليفة الاعظم واليك بياناً واحداً بشأن ما لقيته السفينة العثمانية التي
 محرت في بحر الهند اثناء ذهابها الى اليابان تشبته لك منقولاً عن جريدة الحقائق
 الغراء وهو بنصه السائق

ورد تلغراف من رئيس المدرعة العثمانية المساة ارطغول اوضح به ما لقيه من
 حسن القبول والاحتفال بمقابلته من الطوائف الاسلامية وهرعهم الى زيارة تلك
 السفينة وانه من عهد وصولها الى سنغافوره الى الان لم تكذب نخلو من وجود الزوار
 طرفة عين ولقد زاره من مدينتي بومباي وكولمبو نحو الثلاثين الف زائر ما عدا
 من تسارع الى زيارته من كبار وعظام جهات ملقه وسوماطره والجاره حتى قال انه
 وعموم من بيعته من ضباط السفينة لا يمر عليهم يوم الا وهم مدعوون فيه لضيافة

حافلة وانه عاجز عن بيان ما شمل عمومهم من الفرح والسرور وابداء شعائر الوداد والمحبة القلبية وتوالي الدعوات في المساجد ببقاء مولانا الخليفة الاعظم امير المؤمنين «
ليس هذا كافياً لوئامك ووفائك . وليس هو برهاناً ناصعاً على ما اوردناه
المرّة بعد الاخرى من سمو تقوّد الجناب السلطاني على جميع العثمانيين اولاً ثم على
جميع المسلمين ثانياً بصفة كونه امير المؤمنين

واليس ذلك برهاناً على قوة الدولة العلية وشوكتها وضربة قاضية على اولئك
المنافقين الخائنين المارقين الذين ينكرون حقوقها واليست الدول كلها تعترف لها
بذلك حتى ان انكلترا نفسها من عهد رجالها بيل وبالمرستون حتى اللورد سالسبري
لا ترتاح الا الى السياسة التي يكون من ورائها استمالة الدولة العلية اليها مما سناتي
على بيانها في لحة ثانية

ايها العثماني قد صحّص لك الحق فاصدع به وثابر على هذا الوفاق والوئام وافض
القضاء الصارم على من عق وخان . وانت ايها المصري العثماني الذي كنت في مقدمة
من اخلص وحافظ على هذه التبعية وعلم انه خاضع ديناً وسياسة لجلالة سلطانه
احتفظ على هذا المبدأ الشريف وتمثل بسمو عزيزك واميرك الوكيل الشرعي عن
جلالة سلطانتك والحاكم على بلاد هي من جسم السلطنة بمنزلة القلب بل هو العضد
الاكبر للدولة والوطن ومقر ثقة العظمة السلطانية ومحط التفاتها وميلها . واسأل
الله ان يصونهما ويعزز شان الامة والوطن ويزيل داعية الشقاق وتفريق الكلمة
ويؤيد الاتحاد والالفة فيهما العزة والمنعة وحسن الختام

الاعمال بالعمال

« له ايضاً »

(في ١٨ يناير سنة ١٨٩٠)

سئل بزرجمهر الفيلسوف عن الانسحاب التي اودت بدولة بني ساسان بعد ان
كان لها من بسطة الملك ونخامة السلطان واستتمحال الكلمة ونفوذ الشوكة ما لم تصل
اليه دولة فاجاب بقوله « لان ملوكها قلدوا كبار الاعمال لصغائر العمال »
ذلك لعدم الحق جواب قاطع مانع بلغ من البلاغة حدّها واصاب سممه من

الحقيقة كدها . وهو ولا مشاحة من اهم المواضيع التي تستلزم من مطالب البحث
والشرح ما يفي بالغرض ويستلقت ارباب الكلمة التي تدبره والتنبيه اليه وقد تخيرناه
موضوعاً للمحتنا هذه ندمج في سلكها من مبناه ومغزاه ما يحتمله المقام ولا تفوت
فائدته فنقول

لا يغرب على الافهام ان الوجود نفسه لم يحفظ الا بالنظام على نحو ما شاءت
ارادة واجب الوجود جل جلاله وتلك العناصر والنواميس لا يكفل حفظها الا بقاء
ذاك النظام السامي الشامل دقائقها واحكامها اصلاً وفرعاً وهذا النظام العام كان علة
لنظام الخاص من قبيل الميل الغريزي الطبيعي الى المحافظة على البقاء . وعن ذلك
تولد نظام الشخص الفرد فالعائلة وما فوقها بسلسلة صاعدة الى الدول والممالك . وهذا
النظام لم يبق الا بما تبينه العقل من القواعد والنواميس الضامنة ادراكه والكافة رعايتها
حفظه وهي ولئن اختلفت مبدئاً باختلاف العادة او المكاتب لا تختلف غاية وهي
الاحتفاظ عليه لقيام العمل به

واذا وضح هذا كان ذلك النظام الكافل حفظ تلك العائلة المنضوية الى رعاية
ربها في منزله هو نفس النظام الكافل حفظ تلك الحكومة الباذخة الشان برعاية
اربابها . وكما ان ارباب العائلات مسئولون لدى هذا النظام عما يفعلون بالنظر الى
عائلاتهم كذلك ارباب السلطة مسئولون عنه لديه بالنظر الى شعوبهم ورعاياهم
وهذه المسؤولية تعظم ان نقل نسبياً قرب العائلة تطالبه اسرته فهو مسئول لها ولذمته
واما الحاكم فتطالبه رعيته كلها فهو مسئول لها ولذمته ولوطنه لعائلته ايضاً فواجبه من
هذا القبيل اعم من مواجب رب العائلة ولقد كان له تلقاء اهمية ما عليه ما ليس
لثاني من احكام الحرية قرب المنزل يضيق عليه في سبيل حفظه لنظامه ما يفسح معه
مجال الحاكم في سبيل حفظه لنظام حكمته لان النقطة لدى الفريقين واحدة وهي التعاون
تتبع مما ذكر ان نظام كل حكومة او مملكة يقوم بعالمها وهؤلاء يصلحون لحفظ
ذاك النظام الا برعاية امور ثلاثة وهي حسن انتقاد وانتقاء وتعيين فبالاول وقوف
على حقائقهم وبالثاني نزوع الى تخييرهم وبالثالث احكام في استخدامهم والى هذا المعنى
اشار الحكيم بزرجهر في جوابه فكفى بكبار الاعمال عن الخطيرة منها وبصغار العمال
عمن يصغرون ادارة لا عمن يصغرون سناً فكم فتى بلغ حلم الشيخ وشيخ في حلم الفتى
وما كمال الفتى بالشيب في شعير لكن كمال الفتى بالشيب في الخلق

وتحرير عبارته اهمهم فلدوا الوظائف لمن لا يصلح لها فوضعوا الشيء في غير موضعه وهو مبدا الخلل

وانه ليسهل علينا ادراك هذه الحقيقة اذا التفتنا الى مراجعة حوادث الامم السالفة وتواريخ الممالك الماضية وحسبنا من ذلك وقوفنا على حالة الشرق ايام كان يجر ذيل العجب والتهيه ومقابلته بجالته ايام اخي عليه الزمن فتشاكل متعتراً بذيل الفقر والخلول اما الاولى فكانت له يوم رعاه رعاة مقسطون مدركون انتقدوا الرجال وانتقوم وقلدوم من الاعمال ما ياهل لهم . واما الثانية فكانت يوم ساسه ساسة اضلم الجبل واعمال الغرض وفرطوا وفرطوا فاودوا بهم وبالرعية وساءت الحالة مصيراً . ومعلوم ان العالم درجات وان التفاوت من احكام الطبيعة وبه تقوم مصلحة العباد والله در من قال

لولا التفاوت في البرية لم يكن امر بمصلحة العباد يقوم
وكم من امة ذليلة اعزها شخص واحد وكم من مملكة عظيمة اذلها شخص واحد
فالقول باعمالها وهذه بعالمها . وقد تنبه رجال الممالك في هذا القرن الى المبدأ الجليل واعملوا الفكرة في تمهيد المسالك الموصلة الى المحجة البيضاء وبالاستنقاء ادركوا الوسائل الكفيلة نيل هذه الغاية وهي محصورة في مطلب واحد هو تعميم العلم
فالعلم انما هو المراقبة التي ترقى بها الحكومة والرعية الى قمة العظمة والمجد والكمال لان تعميم العلم يتيح تكثير الرجال الصالحين للعمل فنترين بهم مصالح الحكومة فهي مع تشعبها ليست الا بمثابة سلسلة محكمة الحلقات فلا بد من رعاية كل حلقة منها لان انتشار الواحدة يؤذن بانتشار الاخرى فيفسد النظام ويتسلط الخلل . واذا دققنا في احوال كل دولة من دول هذا العصر وجدنا ان الاسمى نظاماً بينها هي الاكثر رجالاتاً والعكس بالعكس واليك البرهان

قلنا ان مصالح الحكومة متعددة وكل فرع منها منفصل عن غيره لفظاً متصل معني فسلامة نظام مجموعها موقوفة على سلامة نظام افرادها ومعلوم ان الانسان كيف كانت درجة ادراكه اكفى لاثنان عمل واحد منه لاثنان عمليين اثنين لان في الاول توجيه القوى مجموعة الى نقطة واحدة وفي الثاني توجيهها متفرقة الى نقطتين والجمع حليف القوة كما ان التفريق حليف الضعيف . فاذا قل في الحكومة عدد العمال الصالحين للعمل اقتضي ان يقلد بعض مصالحها لمن لا ياهل لها وذلك يستلزم من كبار العمال

النزوع الى واحد من اثنين اما الاعضاء واما الالتفات فان كان الاول فلا بد من وقوع الخلل الذي لا تحصر دائرته في مشتملات ذاك الفرع من المصلحة فقط بل تحيط بغيره لما هنالك من ملائمة الصلات وان كان الثاني اقتضى بالطبع توزيع القوى على جهات متعددة ونقط متباعدة فتفوت العناية حقوقها مما يستلزمه المهم من تلك المصلحة لاضاعة الفرعة في مناظرة ما هو اقل اهمية وقد قلنا ان الضعف حليف التفريق. فنج اذاً ان كل حكومة كثر عمالها الصالحون المدربون اسنقام نظامها وقل خللها او امتنع وهذا هو محط الرحال

وان لنا من وراء ذلك ايضاً مطلباً خطيراً يؤيد عزة كل حكومة ومنعة كل دولة وهو احتفاظ الرعية على وطيدها بثقتها باهلية حكامها ووكول امرها اليهم وارتياحها الى اجراءاتهم حتى لا يعود بهمها فصل هذا الموظف سواء كان وزيراً او وكيلاً او مديراً او قاضياً ولا يروعه استغفاره او مبادلته غيره في وظيفته او تقاعده او موته لتأكدها ان رجال الحكومة الصالحين للعمل كثيرون فلا يخشى ان تتعطل مصالح دولتهم او تسقط بعلة فصل وزير او استعفائه (الا في ما ندر كما لو كان الموظف نادراً في صفاته بين الرجال والنادر لا يبنى عليه حكم) لان تقليد الوظائف لا كفائها يتبع لهولاء تدبير الشؤون على وتيرة واحدة تساق اعمالها بالنظام الاستقرائي ولذلك لم يرع انكثرت موت ديزرائيلي كما لم يهلهما نفي غلادستون وقس على ذلك غيرها من الدول التي كثر رجالها العظام وكان لها الحظ الاوفر من تعميم المعارف

واذا تبين هذا وجب على كل حكومة متيقظة ان تصرف منتهى العناية وغاية الهممة الى تمهيد السبل المبيحة تكثير الرجال الصالحين للعمل لكي تحافظ على نظامها وتدرأ عنها غائلة النقص والذل وتكون امينة من مستقبلها كما انها من حاضرها لعدم وجودها تحت رحمة واحد فرد فان الخلود لله جل جلاله . بل وجب على كل رئيس كيف كان مقامه ومركزه ان يدرب من يرأسهم على العمل ولا يستنكف من تعليمهم وثقتهم وافادتهم وتشجيعهم وان ينبذ ذلك المبدأ الذي اتخذه بعضهم حاجزاً دون اعداد الرجال وهو الخوف من المزاحمة فان الخدمة العامة مفضلة في كل حال على الخاصة وليس للانسان الا ما سعى . وما افضل ان يقال ان زيدا لم يخدم وطنه وهو في الوظيفة او في حياته فقط بل خدمه وهو بعزل عنها او بعد موته ايضاً وذلك بين علمهم من ابناء الوطن واعدهم رجالاً عظاماً ومدبرين حاذقين وساسة محنكين

فالوطن يحفظ له ولا له الذكر الجميل والاثر الجليل
واذ قد تبين لنا ان سلامة النظام في الحكومات والدول موقوفة على اكفائها
من رجال العلم والعمل وجب ان نرى في الشان الذي ينبغي ان يراعى لهم لدى
وجودهم . فنقول ان الواجب في هذه المسألة من وجهيها انما هي واحدة فكما انه
يجب النظر في تكثير العمال الصالحين حفظاً للنظام كذلك يجب النظر في تعيين كل
عامل للوظيفة التي يصلح لها حفظاً لنظام تلك الوظيفة والا فسدت النتيجة لفساد
مقدمتها واستوى العالم والجاهل والقلة والكثرة ولقد ذكرنا آنفاً انه يجب على المقلد
الوظائف ان يكون حسن الانتقاد والانثناء والتعيين اما الاول فيقضي على المنتقد
ان يكون عاقلاً لان نقد الرجال من اصعب الدروس وان يكون مستقبلاً لئلا يتغلب
الغرض والصنعة على معرفته . واما الثاني فيقضي عليه بان يحسن التخيير لان مجرد
العلم دون العمل لا يعني فضلاً عما يستلزم ذلك من رعاية الاخلاق والصفات . واما
الثالث فيقضي عليه برعاية النظير اي بتقليد الوظيفة لمن له سبيل الى بلها اذ لا يسوغ
ان يقلد الطبيب وظيفه مهندس ولا هذا وظيفه كياوي الخ ولكن اذا سلمت الوظائف
لاربابها حسنت الحالة وقاموا بواجباتها قياماً مشكوراً لانهم يعلمون بما يعلمون
فلا تقوتهم اوجه المنفعة ولا يصعب عليهم درء المصرة وذلك ولا مرأه هو الشان المهم
الواجب التنبيه اليه والتعويل عليه بل هو قوام كل حكومة وميزان كل دولة
ومن هذا المطلب يساق توجيه التنبيه الى كل حكومة قل عديد عملها الصالحين
الى الاحتفاظ عليهم بما يصل اليه وسعها والى حسن انتقائهم وتقليدهم الوظائف
وتدريبهم على العمل وتعويدهم على النشاط واعدادهم لرياسة المصالح المهمة لدى الكفاءة
دون النظر في اعمارهم اي يجب ان يجعلهم كباراً في الاستعداد والادارة ولو
انهم صغار في السن لبتكثروا من خدمة الوطن وهم في حدة الشباب ونشاطه
قبل ان يدركهم عجز القوى العقلية والبدنية فتفوت المزية المطلوبة منهم في
خدمة البلاد

على ان النظام المطلوب في بياننا هذا لا تدرك غايته الا اذا روعي فيه ما على
ارباب الوظائف ولا سيما كبارهم من الواجب المهمة وهو ما نلم به في ختام بحثنا
هذه لتكون محيطة بالموضوع من جميع اطرافه
فمن ذلك اولاً وجوب ثقة رئيس المصلحة بمن يرأسهم لبتكثروا من التفرغ

الى المهم من وظيفته فيوفيهما حقها والا التبتست عليه اشغالها واستوى الاعم منها المهم فانقص من واجب الاثنين . ودليل ذلك ان الناظر مثلاً لا يمكنه ان يكون ناظرًا ووكيلًا ورئيس قلم ومديراً ورئيس ضبط وناظر قسم فاذا لم يثق بعمال نظارته بل وجه عنايته الى هذه الفروع توجيهاً عملياً قصر بالطبع عن القيام بهام النظارة الاولى واقعد العمال عن العمل جنباً واستياءً وكان بما اتاه مشتغلاً بما يمكن لغيره ان يشتغله وتاركاً ما لا يباح لغيره ان يشتغله فالثقة اذاً واجبة على شريطة ان تقرن بالمناظرة العامة ثانياً يجب ان يقتدي المصلحة العامة بكل مطحة خاصة وهذا الواجب يقضي عليه برعاية مطالب عديدة منها عدم اتخاذه المنصب ذريعة لتليل اغراضه الخاصة . ومنها عدم تحقير من يرأسهم اثلاً يسأموا . ومنها عدم استنكافه من مشورة من يتبين كفاءته منهم في حين لا يحسن ان يكون آله في ايديهم . ومنها اعطاء كل ذي حق حقه وتقديم المستحق وثقيف المستعد ونبد المتأخر وما شاكل ذلك

ثالثاً يجب عليه ان يشرف المنصب بشريف اعماله فالخير في من تصدر في المجالس لا في من صدرته المجالس وذلك يقضي عليه بان يقرن العزة بالخلم والعظمة بالانضاع والوقار بالوداعة والعدل بالرحمة والشدة باللين . وفي هذه الحالة ينبغي عليه ان يترفع عن الدنيايا كترفعه عن العار رعاية لحرمة وحرمة منصبه . وان يجعل مقامه اسمي من ان تصل اليه وشاية واش او نقل ناقل حتى لا يكون للغرض عنده مجال حذر ان تحركه العوامل النفسانية الى ما لا يؤذن به سمو المنصب وهو الانتقام الذي لا تدانيه كبار رجال ولا تتنازل الى تصوره ارباب المناصب السامية

رابعاً واخيراً يجب على رب المنصب ان يتخلق بجميع الاخلاق الحميدة الشريفة فهو من الرعية بمثابة مثل الاقتداء ونبراس للاستضاءة فلا يحسن به ان يكون عبوساً فينفر عنه ولا ضحوكاً فيهزأ به ولا كاذباً او مخادعاً او منافقاً لثلاً يفقد ثقة العالم به ولا سكيراً او بذياً اللسان لثلاً يحتقر او يهان بل يجب عليه ان يحافظ على كرامته بحافظته على كرامة غيره وان يكون ثابت الراي لا عنيداً فيه وان يعلم فضل الاخلاص والولاء والود ليشوق الناس الى رعايتها وان يحترم الحسنة ومن اتاها ويقسو ليؤدب لا لينتقم يحنو ليستميل لا لينفر فاكنتساب ميل الناس وثقتهم من اهم واجبات الموظف وبالتالي ينبغي ان يكون مثخلياً بالاخلاق التي يستلزمها المنصب ويقضي بها ناموس الانسانية

ذلك ما عنّا لنا ان نعلقه في هذا الموضوع العام المهم ونحن على حالة نحمد الله
لوصلنا اليها في شرقنا فقد اقتضت حكمة جلالة سيدنا ومولانا الخليفة السلطان الفاري
عبد الحميد خان الاعظم ابن يعزز السلطنة السنية بعزة عاها وتكثيرهم وتقليد
الوظائف التي يستحقونها ومثابرة التنيبه والوصاية للنظر في مصالح الرعية التي تدعو
بتأيد ملكه ودوام نصره

وهكذا اقتضت حكمة سمو امير مصر وعزيزها وتوفيقها فانه حفظه الله لازم
المسهر في سبيل الوقوف على احتياجات الرعية وتمهيد العقبات الحائلة دون نجاحها
وصرف العناية الى تعميم المعارف بين ابناء البلاد واعزّ شأن المدارس وادام التفاته
اليها فاكثر بذلك عدد العمال الصالحين للعمل واحكم في حسن انتقادهم وانتقادهم
وتعميمهم وفتح لهم ابواب التقدم وسهل مضمار المباراة فشادت القلوب بحمده ونطقت
الاسنة بمدحه واشتركت في الدعاء له بطول البقاء وحفظ الانجال الكرام

هل عندنا رجال

له ايضاً

(في ٨ فبراير سنة ١٨٩٠)

اجمع ارباب الحجي على ان الشرقي قد افاض الله عليه من بركات الحجي ما
اتاح له الاندماج في سلك المرتبة الاولى بين مراتب بني آدم
واتفق المؤرخون على الحكم بسمو مقام الشرقيين بما استدلوا عليه من بدائع
اثارهم واوايد اخبارهم

وقرر المدققون ان للايام اطواراً والاحكام اقداراً وللزمن ادواراً تنجفع
لنواميس الطبيعة بين اقبال وادبار ايماء الى حركة الوجود
وقضى الحكماء بان العقل كالجسم في قابلية النمو فلا مندوحة عن رطابة
الوسائل والوسائط

واجمع العالم عن ان العلم حياة العقل فهو غذاؤه وقوامه وملاكه وبه نشأته
وعليه معوله

وحكم الطبع بان المصري هو من فريق الشرفيين وان له من الاثار ما يربو
 على اثار غيره عدداً وعظمة ونظاماً واحكاماً وعملاً وصناعة . وان الايام قد دالت
 على هذه البلاد فاتسبها من رائعات العوادي وعاديات الروائع ما قلب لها ظهر الجفن
 وغمزها بسنان النكد والقهر حتى اذا انتهى طور ادبارها بسم لها ثغر الزمان مبشراً
 بطور اقبالها وذلك من يوم عاهدتها العناية بعهد المغفور له الرجل العظيم محمد علي
 باشا ومن تضاف بدمه من اعضاء اسرته الكريمة حفظها الله

فمن ذلك العهد هدمت حصون الاستعداد ودكت صروح الجهل . وشيدت
 على اثرها قصور المدارس . وخفقت فوقها بنود المعرفة والعلم . وعمرت دور الطباعة
 وولفت السنة الافلام في دماء الحابر وجرت ساجحاتها في ميادين الطروس وثقفت
 العقول بالفنون . وارسلت الطلبة الى البلاد الاجنبية للوقوف على معارفها واختراعاتها
 وعجائب اعمالها . وترجمت الكتب المفيدة ببراءة ارباب البراعة . وامم مصر الرواد
 والسياح والنزلاء يخالطون ابناء البلاد ويمازجونهم ويعاملونهم . ذلك فضلاً عما كان
 للقطر من دانيات القطوف في جنان الفضل وزواهر العلم من بستان الازهر بل
 حرم العلوم الذي كان ويكون وسبقني الحافظ الاكبر لعلوم الامة العربية
 وموضوع فخرها وموطن مجدها وهكذا مر على البلاد نصف ونصف قرن وهي
 جانحة الى التقدم ناهجة منهج السداد سائرة الى المحجة البيضاء . تذكر مجد اجدادها
 وما آلت اليه بدمهم فتحتمز الى القيام لارجاعه وتشاهد عناية الاسرة العلوية بها تحفظ
 على جميلها وتداب السعي في اجابتها لرغائبها . وترى تسابق غيرها الى توسيع نطاق
 الادبيات والماديات فتائف من السكون الى الخمول . وتبين انعطاف سمو اميرها
 وتوفيقها الى تأييد عزها وتشديد دعائم مجدها قشيد بمجده وتنب من رقدتها ناشطة
 من عقل الحطة والخسف

تلك هي حالة مصر وما وليها من ذرائع التقدم مضافة الى ما انشأته يد الحوادث
 فيها من طور الاقبال من مدارس التجربة وسطوته من دروس الاختبار ورسمته من
 مشاهد الاعمال وصور العمال على صحائف السياسة والواح الادارة فضلاً عما انتبذته
 من مطالعات ساقطة ومطالب ضاغطة . وقد اقررنا وليس من يعنفنا او ينكر علينا ان
 قد صحت عقول ابنائها لصحة هوائها ومائها فنالوا بالاسرة الكريمة والفوز بالعلم الاطبيين
 بعد ان ذاقوا بسوء الحكم وتسلط الجهل الامرين . فهل بعد ذلك يسوغ لنا يا ترى

ان نسأل (هل عندنا رجال)

لقد مرّ علينا بضعة اعوام اختلط خل حوادثها بخمرها والتبس خيرا بشرها . فنظرنا من بادي السياسة ما نشر عن خافيا وتبيننا من خافيا ما شد عن باديها حتى اذا ما وصل مستطلعوها السير بالسرى وقفوا وقد تفتتت استارها وقوف من اذله ما لم يحظر له بالبال اذ شاهدوا يد السياسة قد كتبت على صحيفة الاعتذار سطرًا ملخصه (هل عندنا رجال)

ولكن من تري هم الرجال الذين يقصدون في هذا السؤال . افلاحون يخذون الارض ويسمدونها ويمرعونها التجماعاً للمورد الخصب . ام مزارعون يبدرون الدرهم لاستغلال الدينار ويحكون الزرع لاستدرار الضرع . ام تجار يردون ويصدرون ويوردون ويصدرون ويبيعون ويشتررون . ام مضاربون يستزقون بالحركة وتقذفهم عوامل الايام بين خوف من العناء وامل بالاكتفاء . ام محترفون يسلطون المادة على مثلها لايجاد الصور فينقدهم مساوهم ما ينفقه صاحبهم . ام موسرون كفاهم غناهم مؤونة النصب فاخذوا الى الراحة وجانبوا شظف العيش — كلا ان السياسة بسوءها لم تقصد الرجال الذين من هذا القبيل اذ ليس لهؤلاء فعل موثر في احكامها ولكنها تقصد رجالاً تقوم بهم الهيئة الحاكمة لمساند اربعة وهي السياسة والادارة والحقوق والجنديّة اما السياسة فهي الركن الاول من اركان كل حكومة وبلاد بل هي الدعامة الوحيدة للمسائد الثلاثة المنوه عنها فكل حكومة لا سياسة لها لا قوام لها وليس يخفى ان الحوادث قد قضت بان يكون للسياسة في مصرنا شأن مهم لا ينكره الاكل من لا يعلم من السياسة غير اسمها

واما الادارة فشانها معلوم وهي محط رحال العمل ومهيح النظام وموئل الاتقان وبها تمهيد عقبات الاشغال والصلة الثابتة بين الحاكم والمحكوم والمنهج الواضح اما الى محجة العمار او الى هدة الخراب . وان لهذا المسند في مصرنا شأنًا يربو عظمة واهمية على مثله في بلاد اخرى لاسباب عديدة لا تحتملها عجالتنا هذه بل لا بد من الافاضة فيها في لمحة ثانية قريّة العهد

واما الحقوق فاسمها يعني عن تبيانها فهي ميزان العدالة بل هي الكفالة تبادل الحقوق وصون الحياة والرزق وقد كان لها في مصرنا شؤون تترى يانف ذو الشامة من ذكرها ثم انقلب الشيء الى ضده لئناهيه فامسى هذا المسند موضوع اهتمام

القريب والبعيد ومرمى سهام النظر من الصديق والعدو
 واما الجندية فيكفي وصفها بانها سياج الحكومة والامة ولها فضل الامن الداخلي
 ودفع الطاريء الخارجى ولم يكن لها في ماضى الشان الذي امسى لها الان عندنا
 بعد ان ساورتنا الايام بمصائبها او اكتنفنا الحوادث بنواصيها فباتت وهي نقطة الدائرة
 لخطوط مستقبل القطر

تلك هي المساند الاربعة التي تحتاج الى رجالها في قطر يبلغ نحو السبعة ملايين
 نسمة عدأ وقد جرى من نيف ونصف قرن في المنهج الواضح علماً ودرية ولابتائه
 من الذكاء الطبيعي ما يؤهلهم الى ادراك المرام بسرعة الاكتساب فهل يسوغ لنا بعد
 ذلك ان نقول « هل عندنا رجال »

نقول ولا نخشى في الحق لومة لائم ان عندنا لهذه المساند اكفاءها من الرجال
 في حين لا تتناول الى القول بان عندنا منهم عدأ ومقماً ما عند انكلترا او فرنسا
 او غيرها ولكن لدينا اكفاء الله لما اهم من المصالح . واننا موردون للمطالع برهاناً
 ناصعاً على صدق ما اثبتناه وهو يشمل النظر في مسندي الحقوق والجندية فنقول
 لا يغرب على المدققين ان الوطنيين كانوا في ما سلف يبيعون دعاويهم او يرفعونها
 باسم الاوربيين لكي تقام امام المحاكم المختلطة اذ كان لهم من الثقة فيها ما يحاكي عدم
 ثقتهم بالمحاكم الوطنية السابقة وكانوا يعذرون في ذلك . ولكن لما سمحت ارادة
 الجناب الخديوي التوفيقى باشاء المحاكم الجديدة على السنن والقوانين العادلة وبدا
 للناس من احكامها وحرية ضمائر قضاتها ما حسنت بدايته وشرفت غايته عدل
 الناس عن منهجهم الاول وثقوا بالمحاكم الاهلية وثوقاً جاء اصدق برهان على اهلية
 رجالها ولا سبيل للشكول عن هذا الوثوق الا اذا تبينوا ما يعث به واهمه الخلل
 بالاستقلال

اما رجال الجندية فنكتفي بالبرهان على اهليتهم ما كان منهم في مواقع الحدود
 ولا سيما موقعة طوسكي التي ابوا فيها ولستا ننكر فضل قادتهم عليهم بقدر بهم ولكن
 الفائدة التي وصلت الى الجندي البسيط كانت اسمى ولا مرء عند الضابط فكما ان
 ذاك احكم القيام بمواجهه كذلك امكن لهذا ويمكنه ان يحكم بها اكثر من الاول
 لسموه عليه في الاستعداد فالتفاوت امر طبيعي وحسبنا شاهداً على ذلك ما قاله
 رؤساء الجند من الانكليز في هذا الموضوع . واذا كان لمسندي الحقوق والجندية

المهمين جداً أكفأوها فكيف لا يكون أكفاء للمسندين الآخرين
 وبذكر المطالع انا ابنا في لحة سابقة عنوايتها (الاعمال بالعمال) ان القيام
 بالمصالح يستلزم وجود العمال وهذا يستلزم رعاية ثلثة امور وهي حسن انتقاد وانتقاء
 وتعيين وقد ثبت لنا الحصول على الاول فاذا اقررنا برعاية الثاني كان لنا عند ذلك
 ان نقول انه لا يسوغ ان نسأل (هل عندنا رجال)

بل كيف يسوغ ان نسأل ذلك ولا نخشى ان تسالنا العدالة وما الذي ينقصكم
 من معدات النجاح او من لم يستوف حقه من العلم والعمل . الم يقم منكم شبان طورا
 اردية الشباب باحراز العلوم ثم نشرها في سبيل العمل . اليس فيكم ارباب السياسة
 الذين اتاحت لهم الايام سهولة المطالعة والمراقبة والمعايشة والمجالسة . وتلقي الحوادث
 سيئة وحسنة والتثقل في المناصب عظيمة ووضعية اليس فيكم ارباب الادارة الذين
 اعد لهم الاستحقاق او الحظ مقاماً في الخدمة وتمكناً من المنصب ونقلباً في الوظائف
 ودرسا في صحف الخبرة والتجربة وتوكؤاً على عصي الحوادث . اليس فيكم المهندسون
 الذين رسموا مقدمات اقليدس على الواح افكارهم واناؤوا عليه بما اربى على متونها
 من شروح المتأخرين اليس فيكم الاطباء الذين احيوا ذكر بقراط وجالينوس والشيخ
 الرئيس وقرنوا العلم بالعمل اليس فيكم الاقتصاديون الذين يحكمون النقد في العمل
 والمعاملة فلا يلبث ان يسي درهمهم ديناراً — بل فيكم كل هؤلاء وكيف لا يكون
 ذلك وطور اقبالكم في عهد الاسرة المحمدية العلوية اتاح لكم الوصول والحصول على
 هذه المطالب فلذلك هل يسوغ ان نسأل (هل عندنا رجال)

نعم يسوغ هذا السؤال ولو ان هنالك رجالاً في ما اذا انتفى حسن الانتقاء
 او قصر العمال في العمل ويمن حصر ذلك في امر واحد لا غير وهو تفضيل
 المصلحة الخاصة على العامة فان ذلك من ادعى الاسباب الى هدم كل نظام ومنع كل
 اصلاح ولا سيما في البلاد التي قام للسياسة فيها شؤون واغراض واشربت اليها
 اعناق الاطماع والغايات وهيئات ان يقوم للمقصر عذر او تقبل منه حجة في حين
 انتدب لخدمة وطنه واستلم زمام الامر والنهي وعلم انه انتظر ان يسمع من وراء
 حجاب الحق صوت الدمة والشرف يسأل ذاك العامل ما عذرک في صرف همتك
 الى تحقير من ترأس وتفریق كلمتهم والقاء الشقاق بينهم وارتكابك الدنيايا واهتمامك
 في الانتقام من زيد واعداد الشر لعمر وبنذك اوامر رئيسك واستعمالك الجفوة

والقسوة وجهلك مواجيك ولزومك الخداع والرياء والمخاتلة وعدم الوفاء والعفاف
وتوجيه جميع قواك في سواد ليلك وبياض نهارك الى شر تدنيه وخير تقصيه في
حين يجب ان يقودك عقلك الى انك باستلامك وظيفتك قضت عليك ذمتك وشرفك
ودينك بان تكون اعمالك كلها لوطنك ولا ميرك ولا ميرك . وانك في مقامك بمثابة
مرآة لمن هم يصدعون بامرك فيقتدون بك ويعلمون ان القيام بواجبهم فروض
مقدسة وينقادون الى اشارتك عن ميل ورغبة لا عن ازورار ورهبة وان ليس
للانسان الا ما سعي وان سعيه سوف يرى

فماذا تجيب عزة النفس وانت تسعى الى الذلة والحطة وباي حال تقابل الشهامة
والانفة وانت تسعى الى رعاية الصعائر . وكيف تسال الاخلاص من غيرك وانت
غير مخلص لغيرك بل غير مخلص لنفسك . بل كيف تشكو من وطأة المراقب
وانت تفتح بفتح تقصيرك افعال منزلك . وكيف تشكو معاملة رئيسك وانت
اكرهته عليها بماملتك

ولكن ان للعدالة ان تشكوك اول صوت الحق ان يعنفك وقد اعززت مقامك
باعزاز نفسك وشرفت منصبك بشريف اعمالك واوجبت على الغير احترامك برعاية
مواجبك فنفرت من الدنيا وتمسكت بالعظائم ولزمت حرية الضمير واستقلال الفكر
وقوام الارادة وصدق الاخلاص فايبت ان تكون آلة صماء تديرها يد الاهواء كيف
تشاء اتفضيلاً للصالح الخاص على العام

بل كيف لا يكون لك ذلك وانت تعلم ان شمس الحرية في هذا العصر قد
نسخت ظلام الاستبداد والرق وان مشكاة العلم قد انارت الابصار والبصائر فالاعين
بك شاخصة والاذهان مراقبة والاقلام مسطرة والتاريخ حافظ
بل كيف لا يكون منك ذلك وانت ابن بلاد ينعشك هواؤها ويرويك ماؤها
وتدر عليك ارضها ومساؤها وقد ربيت في احضانها وصدرتك في ديوانها وعلمت
ان شأنك يقوم بشأنها

بل كيف لا يكون منك ذلك وانت الذي لزمته دار العلم من يوم اميطة
عنك الثائم ونقدت جديد الشباب درساً لتحافظ على درهم المشيب ادارة وتبرهن
لاقرانك انك ذاك . ولوطنك انك غير عاق . وللقريب انك من انسال اولئك
وان في البلاد رجالاً من امثالك ياهلون لاجل المناصب فلا يكون للفكر مجال في

ان يسأل « هل عندنا رجال »

بل كيف لا يكون ذلك منك وانت تستوهب نعم تلك الاسرة المحمدية العلوية
وتعيش في ظلها وتترف من نيل جدواها وترى التوفيق بالتفات سمو توفيقك العزيز
الذي وقف نفسه خير وطنك واسعاده وهجر الوسن في سبيل النجاح مقاصده وتحقيق
امانيه . فاعرف واعترف بجود يديه . وكل امرك في مهام الامور اليه . اعز الله
به البلاد . وبلغها بطول بقاءه المراد . حتى لا تبرح نتجاذب بوجوده اطراف الفوائد
ولا تنفك تهصر لمكارمه اعطاف المحامد

من استقلت ارادته استقامت ادارته

« له ايضاً »

(في ١٥ مارس سنة ١٨٩٠)

نصور فتريد فنعمل فنجازى فالجزاء مترتب على العمل وهذا موقوف على
الارادة . وقد ذكرنا في لحة سابقة ان سلامة الوجود العام تكفلها سلامة النظام
العام . وان سلامة الموجود من ادنى فاعلى يقوم بحفظ النظام المترتب على حسن
العمل وذلك ما لا يكفله الا ادارة مستقيمة تصدر عن ارادة مستقلة فمن استقلت
ارادته استقامت ادارته

نتج اذن ان سلامة كل فرد بل كل حكومة موقوفة على سلامة نظامها وذلك
مترتب على حسن ادارة . فالادارة اذن ميزان كل حكومة وقوام كل مملكة . ورجالها
هم الكافلون صون بلادهم والقائمون بشؤونها والذابون عن حوضها والدارئون طوارئها
والذاهبون بها من غمرات الخلل والضنط الى سواحل النظام والسعة بل هم سياجها
الضامن استقلالها والصائن حقوقها . ولذلك وجب ان يكونوا اكفاء لها وبالتالي
اكفاء للقيام باعباء تلك المسئولية او التبعة التي تلحقهم اصلاً وفرعاً من وراء قبضهم
على ازمة العمل واستئثارهم بتصرف الفعل فيما اندبوا اليه ومطالبة كل منهم بما
تستلزمه قوانين ادارته لان التصدر لتحمل اعباء تلك التبعة هو الذي اباح لذلك
العامل ان يتصدر في ادارته ويمتاز اديماً ومادياً عن هم دونه

ذلك ولا مرء هو الناموس الذي قضى بالرضى المتبادل بين ار باب المراتب على اختلاف النوع والكيفية . والا فكيف يحكم العدل على ذاك العامل بالسكوت وقد دأب على العمل مكلفاً بحمل الانتقال ومعرضاً حر وجهه لحر الشمس وضاعطاً على قواه البدنية ضغطاً اقل نتأجه شق النفس وعرق القرية وله جزاء ذلك من نقد معدود ما لا يتيح له الا الحصول على كسرة من خبز اختمر بحجارة التعب وعجن بعرق الجبين ولكنه رزق حلال وكفى به انه يغني عن ذل السؤال بينا يرى ناظره او رئيسه مكتفياً بالايماء والاشارة نهياً وامراً غير مكلف بمشاق العمل وله جزاء ذلك من نقد معدود ما يتيح له بسطة العيش والتأنق بالمأكل والمشرب والتدثر بخير الملابس . وقس على ذلك كل مروؤوس تلقاء كل رئيس وكل مرعي ازاء كل راع . فالاول قد رضي وحكم العدل برضاه لان مسؤوليته لازمة به فهو لا يطالب الا باتمام ما امر بعمله ولا يهمله عمل سواه واما الثاني فمسؤوليته لازمة ومتعدية لانه مشول عن العمل من حيث هو وعن كل من قام من اعماله بذاك العمل فهو اذن في موقف لا تثبت فيه الا قدم اقدام وثبات ونشاط وكلما بعدت همة رب الادارة زادت همومه وجسمت اعماله لان الهموم بقدر الهمم

ولا يفوت الخبير ان هذا المطلب الخطير كان له في شؤون الحكومات الخطيرة شأن مهم ترتب على رعايته نقد الرجال واختبارهم ومعرفة مقاديرهم لان الوظيفة محك للموظف ولا سيما ما تعلق منها بالادارة فهي تقضي على اربابها بالابانة والاظهار فمجدق الابصار بتلك المشاهد وتحكم البصائر عليها اولها . ولما كانت نتأجها متعلقة بالعموم من حيث الضرر او النفع استلزم الطبع ان يكون اربابها عرضة للملاحظة العموم وهدفاً لرمي نبال التنديد واللوم او موضوعاً لعبارات الثناء والشكر . فالموقف والحالة هذه هائل مهيب لا بد من ان تدرك صاحبه هزة اما عن طرب يولده الشعور باتمام الواجب لوجود الكفاءة واما عن وجل يولده الشعور بالعجز عن الاتمام لفقد الكفاءة وهنا منشا الفرق بين الرجال

وان لنا من وراء هذا لبحث مبحثاً جديداً في شان الادارة بين جانبي الصعوبة والسهولة بالنظر الى الشعوب فهي كما لا يخفى اما متمدنة او متبدية او بينهما وعندنا ان ادارة شؤون الطرفين المتناقضين اسهل من ادارة الطرف المتوسط لان التمدنة تعلم واجباتها وواجبات غيرها فتعطي كل ذي حق حقه وتحفظ للحرية المعتدلة مقامها

وتحول دون من يروم العبث بها ومتى كان لها هذا الشأن تنبه رب الادارة الى مواجهه
وعلم ان عليه من الرعية عيوناً وارصاداً وانه مسئول ومطالب بما يعمل فلا يركب
من الباطل ولا يخطر بشوب العجب والتيه ولا يجمع قواه العقلية لتوليد الاضرار
ودره المنافع بل يصرها الى حيث الفائدة ويرتاح الى الرضى عن نفسه لقيامه بمواجهه
كما يرتاح الى اقتناع نفسه بان هنالك من يعلم نتائج عمله فيقابله بترطيب اللسان في
الثناء فضلاً عن رعاية الحرمة وحفظ الكرامة

واما المتبديه فهي حليفة الازهاب وآلة القوة وبها يسهل قيادها لتعودها على
ان تدب لريئسها وتخضع لاشارته وتقتنع بان رضاه عنها كافل حفظ وجودها فاذا
احكم رئيسها العمل تمكن من قيادتها كما يحب ويختار ولم يخامرهم وجل من الانتقاص
عليه او العبث باحكامه وبلاستقراره سن لها من الشرائع ما يراه موافقاً لمزلتها

اما الصعوبة كل الصعوبة فهي ادارة الشعوب المتوسطة بين الجانبين فهي لم تبق
لها اخلاق البداوة لتعامل بما يناسبها ولم تتخلق باخلاق الحضارة على ما يجب لتعامل
معاملتها . ويغلب على الشعوب التي في مثل هذه الحالة انها تنبذ محاسن البداوة في
حين لا تاخذ من عوائد الحضارة الا ما بدا من مظاهرها الساقطة وهنا محط رحال
الصعوبة امام الادارة لانها اذا عاملتها بموجب البداوة نظمت وشكت وارجعتها الى
الوراء . واذا عاملتها بموجب الحضارة تمردت وعتت وحكم هذا الشأن في الشعوب
حكاهم في الافراد فالعالم ابن الحضارة سهل الاتقياد لانه يعلم واجب نفسه وواجب
غيره فلا يؤذن له علمه بالتقاعد عن الوفاء فهو من قبيل من يدري ويدري بانه
يدري . والجاهل يسهل اتقياده بحكم الفطرة لاستعداده الى قبول العلم فهو من
فريق من لا يدري ويدري بانه لا يدري . واما التوسط بينهما فحكم الاحمق
فهو من قبيل من لا يدري ولا يدري بانه لا يدري

على ان الادارة بجميع انواعها لا يستأثر بها مديرها استئثاراً يكفيه مؤتمرها
على واجب امرها وفريضة حكمها الا اذا استقلت له ارادة تنصرف فيه بالرشاد والسداد
والحكمة والمعرفة وتسيره في الجادة المصونة بالقانون والمضبوطة بالقواعد العامة حتى
يحتاط باوامرها ونواهيها ويضمن سلامة مياديهما وغاياتها اجابة لارادة الوازع - واننا
بما نذكره عن استقلال الارادة لا نعني به الاستبداد فان بين الطرفين بوناً شاسعاً
وبعداً صحيحاً وما الاستبداد الا الآلة الموثرة على هدم كل ادارة وتخريب كل عمل

بل هو جرثومة الظلم ومنشا الثورات وعلّة التأخر وذريعة الانحطاط وقد قضى عليه الجيل التاسع عشر المزدهر بالعلم والمعرفة قضاءً صارماً بجزءه في دركات الهاوية . ولكننا نفي باستقلال الارادة ان يكون لمستلم الادارة ارادة له تعمل في تلك الادارة بموجب قانونها لا ان يكون خلياً منها بمثابة آلة لارادة غيره فمن لا ارادة له لا ادارة له

فولئك هم ساسة الحكومات والممالك والقابضون على زمام ادارتها يسرون مع من دونهم من العمال على وتيرة واحدة في الخطط التي اختطها القانون ولا يتخطونها بوسع الخطي حتى لا يخرجوا عنها ويلعبث بالقانون فيفسد النظام فكلمهم خاضع للقانون فهو الرئيس العام والاصغر منهم خاضع بموجب هذا القانون لمن هو اسمي منه ولكنه مستقل ارادة ليسعه القيام بادارة ما اتاحت له السلطة تدبير شؤونه فللمامور مثلاً هو رئيس على رجال ماموريته وله من السلطة اختصاصات صرح بها القانون ثم هو مرووس من المدير يتلقى منه التعليمات وبادلها ما عنده من اعمال ماموريته . فللمامور اذاً بصفة كونه رئيساً ان يستقل ارادة للقيام بمواجب ادارته والا سقطت حرمة عند من يأتمرون بامره . وعليه بصفة كونه مرووساً ان يرفع الى رئيسه شرح متن اعماله . ولرئيسه في هذه الحالة ان يطالبه بما يقضي عليه القانون وان يكلفه بما لا يقضي به وقس على ذلك حلقات السلطات بفروعها فضلاً عن حلقات الاعمال على اختلافها حتى يرجع الجميع الى القانون العام المشروع لتلك الحكومة او الدولة فاذا اترنت هذه المطالب ولم يعثورها نقض وابرام ازدانت الادارة بسلامة احكامها واقبل العمال على العمل وهم عالمون مواجبههم ومسترشدون بدليل النظام ومعتضدون باستقلال الارادة والارحموا في يبداء التيه واعتسفوا سبل الضلال وركبوا متن الفرور وبالتالي اخلدوا الى الرضى بالحاصل احسن او اساء اضراوا افادوا واستكانوا الى القبول بما طالما غادروه عن انفة وعزة وشرف وكرامة فافتنعوا والحالة هذه من مرارة حقيقة المنصب بجلاوة ذكراه وهزوا المنكيين وقالوا لنا جعل نستوليهِ ولا يعيننا ما هنالك . ومن هذا المبدأ نشأت الصنيعة او ما يطلق عليه بين العموم لفظ « المحسوية » التي تحمل رب الادارة على نبذ القانون ظهرياً والتداول الى ما لا يعنيه في سبيل تركه ما يعنيه فيضغ الاشياء في غير مواضعها ويستوي لديه الحق والباطل ولا يلبث ان يسي آفة على ما تمكنه الايام من الاضرار بهم

اجابة لاغراضه اولدعوة مرديده ثم آلة تحركها يد القوة الضاغطة فيعمل ولا ارادة له . وفي مثل هذه الحالة يعلم المدقق الخبير ماهي مزية استقلال الارادة في شؤون الادارة

وان رعاية هذا الشأن كانت ولا تزال الذريعة الباعثة على صون الادارة في غالبية الممالك الغربية فاستتب نظامها واستقامت شؤونها كما كان عدم رعايته في شرقنا وصلة للاخلال والعبث فافضى الى هدم النظام والتلاعب في الحقوق والاحكام حتى ادركته المناية بعهد رب الجلالة والشوكة مولانا السلطان الغازي عبدالحميد خان فجلا بشموس حكمته دياجي المظالم وانار ابصار الرعية وبصائرهما بمشكاة عدله ورحمته فانتميه الحاكم الى مواجبه وعلم المحكوم حقوقه وبالأستقراء نالت البلاد ما اعد لها القانون وحق ان تناله فرتلت الالسنه آيات الدعاء بحفظ جلالته وتأييد مملكته

ولقد كان لهذا الفطر العزيز من سمو عزيزه وتوفيقه ما ادرك به الغاية من هذا المطلب المجيد وحقق برعايته امانيه من نحو هذا المبدأ القويم فاخذ الاهلون الى جنان الرضى ولازموا حظيرة الاخلاص اذ وجدوا في سمو اميرهم ذلك الامير الذي عاملهم بالاحسان وقابلهم بالانصاف فهادوه قلوبهم وسأوا الله ان يطيل ايامه عليهم محفوفاً بسلامة الانجال وصون الآل

الامة والوطن

« لاديب بك اسحق »

الامة الجميل في كل حي ومن الرجل قومه وفي عرف اهل السياسة الجماعة المتجنسة جنساً واحداً الخاضعة لقانون واحد وليس المراد بوحدة الجنس التوفيق بين الانساب لتعذر ذلك في كثير منها ولما طرأ على انساب الناس ولا سيما الحضرة من المفساد الكثيرة ناشئة عن تخالط الاقوام مختلفة انسابهم وتوالي الحروب والغارات وتوطن بعض الفاتحين فتوحهم وتزوجهم في اهلها الى غير ذلك مما جهلت به الانساب وخفيت به الاحساب الا ما حفظ بمناعة اهلها عن ان يدانيمهم فاتح غريب وهو قليل لا يقاس عليه وانما المراد بوحدة الجنس اتفاق الجماعة على الاعتزاء الى جنس واحد

يتوالدون فيه ويسمون به كالجنس الاميركاني لسكان الولايات المتحدة الاميركية سواء كانوا انكليزاً او فرنسويين او اسبانيين او اميركانيين اصلاً والعثماني لسكان البلاد العثمانية في اوربا واسيا سواء كانوا تركاً او عرباً او تترأ واصلاً والاوستري لسكان سلطنة اوستريا سواء كانوا الماناً او صقالبة او ايطاليين اصلاً وهلم جرا

وقد زعم بعض الناس ان من لوازم وحدة الامة وحدة لغتها وهو وهم لانه اما ان يراد بذلك الاستدلال باللغة على الجنس اولاً فان كان الاول فهو فاسد لانه قد يلد الانسان بين قوم وينبت فيهم فيتكلم بلغتهم وهو بعيد عنهم نسباً ولان ما ذكرنا من تحالط الاقوام واعتراب الفاتحين قد احدث في لغات كثيرة من جماعات الناس فساداً بحيث صار مزيجاً يعجز ابرع الكباويين عن تحليله كما في لغة اهلي مالطة مثلاً فامتنع بذلك الاستدلال باللغة على الجنس وان كان الثاني فهو من قبيل ايجاب ما ليس بواجب ولو اقتصر اهل هذا الرأي على استحسان وحدة اللغة في الامة لاحسنوا فقد ثبت بما ذكر ان الامة هي الجماعة من الناس تتجنس جنساً واحداً اي تنسم

بسمة واحدة على اختلاف اصولها ولغاتها وتعارف باسم تنسب اليه وتدافع عنه اما الرطن فهو المسكن يقيم به الانسان وفي عرفهم البلاد يتوطنها سواد الامة الاعظم ويتوالدون فيها ولا يشترط فيه مساحة معلومة بدرجات معينة او اقليم واحد يتقوم معروفة وانما تعريفه ما ذكر من توطن معظم الامة به وقد يضاف الى الوطن بلاد لم تكن منه وهي اما ان تكون فتوحاً ضمت اليه عنوةً واما ان تنضم اليه برضى اهلها فان كان الاول فاما ان يكون ضمها قديم العهد وتكون معاملة حكومة الوطن لها معاملتها لسائر اهلها فتثبت الملكية واما ان لا تكون هذه ولا ذلك فلا تثبت وان كان فلا مشاحة في صحة الانضمام

وقد اختلف في سبب حب الوطن فقيل ان السبب فيه اللفة فان الانسان اذا الف شيئاً احبه واجيب بانه قد يخرج الانسان من وطنه صغيراً فينبت في آخر ولا ينسى مع ذلك حب وطنه وقيل ان حب السكان يورث حب المكان كما قيل

وما حب الديار بهيج وجدي ولكن حب من سكن الديارا

واجيب بانه قد ينتقل الانسان عن وطنه بمعظم اهلها واصدقائه ولا ينفك مؤثراً وطنه بالحب وعندنا ان ياء الاضافة في قولي وطني هي السبب في حبي لوطني كما ان

بآء النسبة في قولنا فرنسوي هي السبب في حب الفرنسي لأمته فتأمله . فله من
 ياءين ياء نسبة و ياء اضافة يدعون الى فضيلتين حب الامة وحب الوطن
 ولقائل انك قد جعلت مصدر حب الوطن والامة الانانية (حب الذات) وهي
 نقیصة فكيف صح في قياسك صدور الفضيلة عن تقيضها وجوابه ان الفضيلة هي
 الدرجة الرفیعة في الفضل والفضل ضد النقص اما الانانية فهي نسبة لضمير المتكلم على
 غير قياس وفي عرفهم ايثار الانسان نفسه بما يراه خيراً سواء جنى بذلك على غيره
 خيراً ام شراً وليس في حب الوطن او الامة شيء من ذلك كما ترى
 اما وجه كنههما فضيلة اي درجة رفيعة في الفضل فهو لانهما يقضيان على
 صاحبهما بخدمة الارض التي يغتزي بخيراتها والانسانية التي جعلته في جماعة من نوعه
 يعينونه على استحصال حاجاته ويدفعون عنه اذى سائر الانواع ولعلك لا ترضى بهذا
 تعليلاً فنقول ان خدمة الانسانية والارض لا ينبغي ان تنحصر في جماعة من الانسان
 او في جهة من الارض وانما يجب ان تكون عامة فيهما والجواب انه لما رأى الانسان
 من نفسه عجزاً عن القيام بجميع حاجاته الطبيعية ودفع اذى سائر الحيوان تالف
 جماعة تفرقت فيها تلك الحاجات فصار هذا زارعاً وهذا حاصداً وذاك طاحناً وذاك
 عاجناً والآخر خابزاً وهلم جرا وكل منهم في شأنه ساع فلما كبرت هذه الجماعة عن
 ان يسعها قسم واحد من الارض تفرقت فيها فصارت جماعات منفصل بعضها عن
 بعض حساً من توصلها بالنوعية واقبلت كل جماعة منها على الاشتغال في الارض
 التي اختارتها مقاماً استحصالاً لحاجاتها واخذ كل من اهلها في الاشتغال بما ارتضاه
 لنفسه من الصناعات ليعين بمصنوعه ورفيقه مستعيناً بما يصنعه ذلك الرفيق ولو حاول
 الانسان الاشتغال في جميع الارضين بجميع المهن والمشاكل لفتي عمره ولم يات بفائدة
 تامة بخلاف ما اذا اقتصر على الاشتغال بمهنته في جماعته اذ تيسر له اسباب الاعانة
 والاستعانة فحصل الفائدة التامة في الجماعة وينتهي ذلك الى حصولها في النوع لما بين
 الجماعات من علاقات الانسانية وهذا وجه الفضيلة في حب الامة وحب الوطن فليس من
 اسمهما على صفحات كل قلب ويليجن بذكرها لسان كل انسان فانما المرء باصغريه
 القلب واللسان

الملك والرعية

« له ايضاً »

(كتبها في جريدة مصر التي انشأها عام ١٨٧٧)

الملك اما استبدادي او شورى والشورى اما جمهورية او ملكية وهذه مراتب الملك منذ كان القانون ووجب حفظه وخرج عن هذه المراتب الحكومة الفوضى ان صحت تسمية الفوضى بحكومة

وما كل ملك بلائم لكل قطر وما كل قطر بصالح لكل ملك فالجمهورية لا تصلح للصن كما لا تصلح الملكية الاستبدادية لانكثرا فان تلك وهي حكومة الشعب بالشعب لا يحسن ان تكون في قوم تولاهم الجهل وهذه هي حكومة الشعب بواحد منه لا يصلح ان تكون في قوم بلغوا من التمدن والمعرفة غاية نبيلة وان كانت فلا تلبث ان تنقلب شر منقلب كما جرى لحكومة لويس السادس عشر وشارل العاشر وفابوليون الثالث في فرنسا فان حكومات هؤلاء الملوك وان سمت بالشوروية ظاهراً فقد كانت استبدادية باطناً وذلك ما دعا الى نقضها وثل عروشها

ومعلوم ان مصلحة الملك متعلقة بمصلحة المملكة فلا بد للملك الحريص على مصلحة نفسه ان يحرص على مصلحة بلاده لان عمرانها يقضي برفعة شأنه وتوطيد ملكه والعكس بالعكس وعمران البلاد ينشأ عن حسن قانونها والعدل في افاذه وهذا وذاك متعلقان بالحكومة فهي التي اذا ارادت عمران بلادها جعلت لها قانوناً يلائمها واقامت على انفاذه قوماً لا تاخذهم في الحق لومة لائم ومن الحكومات من تراعي ذلك فتجربه ايثاراً لمصلحة بلادها وحرصاً عليها ومنها من تمتنع عنه فتكره عليه ومثال هذه حكومة انكلترا وفرنسا واسبانيا ومثال تلك حكومة الدولة العلية والحكومة الخديوية فانهما ايدهما الله قد جعلتا حكومتهم شوروية ولا حامل لها على ذلك الا الرغبة في عمران البلاد واحياء العباد شان الحكومة الحكيمة من قبلها ومن بعدها وليس الشورى في الحكومة او الحكومة بالشورى بدعة جديدة فان شواهد النقل مؤيدة بدلائل العقل تثبت قدمها فمن ذلك التواريخ على علاتها وقوانين الامم على اختلاف عاداتهم ومشاربهم وكتب الشرائع واقوال الشارحين العظام وفي (وشاوروم بالامر) نعم الدليل

ولقد عرف الناس الان شرور الاستبداد وترفعت نفوسهم بالعلم عن الرضي
به وصار الامر شوروي عند جميع الدول المتمددة الا الروسية وذلك ان صحت تسمية
الدولة المسبدة مطلقاً بدولة متمدنة

ولم يكف الروسية بقاءها مستبدة على حين تحول سائر الدول الى الشورى حتى
كانت سبباً في توقيف غيرها عن ذلك القصد النبيل فانها قد منعت الدولة العثمانية
حيناً عن انجاز ما شرعت فيه من اصلاح داخليةها وتنظيم شوراها بهذه الحرب العنيفة
التي دعا اليها الغرور على ان الدولة العثمانية لم تكن لينتها من ذلك مانع فانها لم تهمل
ذلك الشأن مع اهتمامها بالدفاع عن وطنها ولم تغفل عن ساعة مع انها كما في نازلتها
المهمة وحسبنا على ذلك دليلاً ما رأيناه في مخاطبة مولانا السلطان الاعظم للعساكر
المحافظة التي عرضت عليه حيث قال (لقد ملأ قلبي سروراً ما رأيت من اهتمامكم
واتمظامكم وارجوان يكون لكم مثل ذلك بعد الحرب حين اجراء الاصلاح) واصرح
من هذا ما حكاه مكاتب (الدالي تلغراف) حظي بمقابلة مولانا حفظه الله فلاطفه
بكلام شف عن حسن النية ودل على نبالة القصد وقد رأينا ان نعرب كلام هذا
المكاتب مشرفين هذه المقالة بتعريب ذلك النطق اثره قال المكاتب ما مفاده

تمكنت من اجتياز خطوط الروس الى صوفيا ومنها قصدت الاستانة فبلغتها
واستأذنت في الدخول على السلطان الاعظم فاذن لي فرفعت اليه ما عاينته من شجاعة
العساكر العثمانية ورئيسهم سيفي بليفنا فسر بذلك وانسي كثيراً ولاطفي بالحداثة
ثلاث ساعات متواليات فاذهلي ما رأيت من الدعة في سلطان امة عظيمة منتصرة
وادهشني قوله كلما ادى الكلام الى ذكر الانتصار ما النصر الا من عند الله وما توفيني
الا بالله وقد خلا كلامه بجملته عن كل ما يشف عن الكبرياء او ما يدل على الخقد
واني ناقل منه ما يأتي . قال مولانا . جاءني اللور سالسبورى قبل الحرب بلائحة
تضمن صنوف الاهوال التي تتعرض لها الدولة العثمانية برفضها قرار المؤتمر فاجبته انك
يا عزيزي لم تجعل لله مقاماً في لاأحتك ولم تفكر في انتقامه للعثمانيين على حين
بؤسهم ولقد كان لساني حينئذ يترجم عن قلبي فاني كت على يقين من حسن ظني
بالله وتوكلي عليه

وقد جاءت الحوادث بما اثبت لي الاصابة على اني مع التوكل على الله كثير
العناية بامري شديد الاهتمام به ولا اغفل عنه ساعة

اول ما في نيي اجرأؤه بعد ابرام الصلح تنظيم المالية لوفاء الدين واصلاح حال الزراعة وغيرها من اسباب العمران وغاية ما ارجوه ان ارى حكومة الدولة العثمانية حكيمة شورية والله اسأل ان يوهلني لصنع الخير في قومي ويجمع على محبتي فلو بهم ويعينني على ان اقيم في بلادتي بعد هذه الحرب الظلمية حكومة جيدة تضمن لها مستقبلاً حسناً

فكيف لا تجتمع قلوب الرعية على ولائه ولا ينتظمون تحت لوائه وهو يعدم بما لم تعدم الاماني من جعل حكومتهم شوروية حكيمة لا تأخذ بالوجوه وتصرف عنايتها الى اصلاح شأنهم باستخراج المعادن من ارضهم المهملة وصيانة اراضيهم الصالحة للازدراع من افساد المعتدين وجلب الصناعات ونشر العلوم وكيف لا تحب سلطانها امة كالعثمانيين رأت في الكثير من سلاطينها المتقدمين كبراً وافراداً حين ترى فيه من الدعة ولين الجانب ما ادesh الاوريين فضلاً عن الشرييين ودعاهم الى الثناء عليه

فهذه الصفات مضمومة الى ما تقدم ذكره من حسن النية ونبالة القصد ايدت ثقة الامة بسلطانها وجددت قديم هممتها وسابق فتوتها واحيت في قلوبها حب الوطن بعد موته فبادرت الى بذل النفوس وكل نفيس لتدراً عنه كل من رآه بشرّاً ولقد وهم من حسب هذه الغيرة محض تعصب للدين فان العثمانيين جميعاً على اختلاف مذاهبهم ومراتبهم قد جادوا بالارواح والاموال للدفاع عن وطنهم ولو صح ما قيل من انهم فعلوا ذلك تعصباً للدين وحده لما قام به غير فئة منهم فان قيل ان الجائدين بالارواح مكرهون على ذلك بالقرعة العسكرية والجائدين بالاموال مكرهون عليه بالفرض المحتوم قلنا فابن المتطوعة الذين تسارعوا الى الانتظام تحت اللواء العثماني قادمين من جهات شتى واين الاعانات المرسله من كل ناحية ليستعان بها على نفقات الحرب بل اين جمعية الصليب الاحمر في ضمن الهلال الاحمر التي انشئت في ازمير لجمع المتطوعة والاعانات فجمع فيها من اولئك عدد غفير ومن هذه شي كثير بل اين متطوعة الارمن والروم وغيرهم من العثمانيين اكان تطوعهم في الجندية العثمانية تعصباً للدين ام اكرهوا عليه لعمري انهم لم يكرهوا وما كانوا بمغتصبين وانما هي غير وطنية تجددت فيهم بما رآوه من حسن مقاصد حكومتهم على اننا لا ننكر ما حاجته هذه الحرب من عواصف التعصب في افكار بعض الناس ولا سيما الجاهلين غير ان جاهلنا

قد تعود الاقياد للعاقل بخلاف جاهل بعض الاجيال فانه مع جهله شديد التمسك
برأيه ولذلك لا يتعذر على العاقلين منا ان يزيلوا آثار التعصب من افكار الجاهلين
فنكون جميعنا امة واحدة لا نتعصب الا لوطنها ولا تطلب الا صيانتها وتنقش على
صفحات قلوبها (فلتحي الامة) (فليحي الوطن)

من نحن

(لسليم افندي البستاني)

نحن ذرية قوم افاضل قد اشتهروا قديماً بالمعارف والصنائع والتجارة والحماسة
والشجاعة والفتوحات والفصاحة والحكمة فمنا من ينتسب الى العرب الذين سادوا ومادوا
شرقاً وغرباً وتملكوا بلاد العرب والعجم وافريقية واقصى المغرب والهند وامتدت
فتوحاتهم الى اسبانيا واكثر بلدان اوربا ونشروا الوية العدل والمعارف والصنائع
والتجارة والزراعة في كل صقع ونادى امتدت سلطتهم اليه واخترعوا اموراً شتى
والفوا كتباً لا تحصى وانشأوا مدارس لا عدد لها في كل مكان خضع لسلطتهم
القاهرة . ومنا من ينتسب الى السريان والكلدان اصحاب الفتوحات والشجاعة والسطوة
الذين امتدت سلطتهم في الشرق الى جهات مختلفة واشتهروا بمجى العلوم والمعارف
والحكمة حتى وصلوا فيها الى الدرجة القصوى . ومنا من ينتسب الى اليونان الذين
اشتهروا بالفلسفة والحكمة والصناعة والتجارة والشجاعة والاقدام حتى اخضعوا لسلطتهم
كل الكرة المعروفة حينئذ شرقاً وغرباً . ومنا من هم اخلاط متسلسلون من امتزاج
تلك الشعوب العظيمة بعضها مع بعض . ونحن سلالة الذين اعطوا العالم الاديان
وعلموه الصناعة واخترعوا له اصول ما له من الامور النافعة واكسبوه مبادي ما له من
التمدن واسباب الرغد والراحة وفتحوا له ابواب المتجر برأ وبجرماً واقفحوا الاخطار
والاهوال العظيمة لكي يكسبوا بلادهم ثروةً وصولاً وشهرةً وهيبةً . ومنا الشرفاء
والاكابر واشهر الكرماء ونحن نكرم الضيف ونحسن مشواه وبلادنا احسن البلدان
هواءً وماءً وتربةً ورغداً ولقمتنا افصح اللغات واوسعها
ولكن واسفاه اين كنا واين صرنا الآن اين مدارسنا اين علومنا اين كتبنا

اين مكاتبنا اين آلاتنا اين تجارتنا اين زراعتنا اين صناعتنا اين نخوتنا اين ثروتنا
 اين قوادنا اين تمدنا اين اكابر رجالنا اين معاملنا اين مراكبنا اين سككننا اين شعراؤنا
 اين علماؤنا اين محبو وطننا اين الرغد والراحة والكرامة التي كنا فيها . ان اكثر ذلك
 قد صار اثراً بعد عين وكثير منه صار لا اثر ولا عين . نعم انه قد بقي لنا الافتخار
 بكوننا كنا وكنا ولكن اين هذا من ذلك . وقد ابتدأت انوار المعارف تشرق
 ثانية في بلادنا ولكن اين هذه من تلك . وقد ابتدأنا نرى هنا مدرسة وهناك فئمة
 قليلة من التجار ولكن ما هذه بالنسبة الى تلك وعلى الخصوص اذا كان قيام هذه هو
 على مصروف الصناعة والزراعة التي هي من اعظم اسباب الثروة ولا سيما في بلاد
 كبلادنا . وما نحن الا مريض سئمت نفسه الاكل بحيث صار يفتذي من شحمه
 ولحمه . وقد كثرفينا الوعاظ والمندرون الذين ينهوننا الى ما نحن فيه من الخطر وما
 قدامنا من الخراب والوبال ولكن ماذا ينفع الوعظ من دون عمل وماذا يفيد الانذار
 اذا كنا كمن يضرب في حديد بارد او لم يكن من يسمع فيبادر الى معالجة ما بنا من
 الادواء والامراض المتنوعة التي كثير منها عضال واكثرها قد اختلفت عليه الاسباب
 وتناوبته العقاقير والعناصر الضدية التي لا تحصى بحيث تجعله عضالاً بعد ان كان قابل
 الشفاء واختلفت فيه اراء الاطباء الذين هم من بلدان ومشارب ومآرب مختلفة
 متضادة وآراء ومذاهب ومطامع متباينة وعلى الخصوص حين يكون المريض كما يقال
 كميته بين يدي مغسل . هذا على اننا لا نقول اننا لسنا على تقدم ولكن نخشى جداً
 من ان يكون تقدمنا خطوة من الجهة الواحدة يرجع بنا خطوات من الجهة الاخرى .
 ولا نشك بان المدارس مثلاً هي من اكبر وسائل التقدم ولكن ماذا يفيدنا اذا كثر
 فينا العلماء والمتكلمون باللغات ولم يكن لهم مراكز يحصلون منها على اسباب معيشتهم
 وراحتهم وكذلك لبس الجوخ وتحسين الاثاث والتفنن في الاطعمة هو مما يناسب
 الجميع ولكن ماذا يفيدنا ذلك اذا كنا نلتزم ان نبذل عنه ذهباً اصفر ونغرب اموالنا
 عنا حتى نصبح بعد قليل في حالة الفقر ولا يبقى لنا الا التمتع بتلك الملابس والاثاث
 الى ان يملوها البلى فلا يعود لنا اقتدار على تعويضها . وهو معلوم انه كما ان الاسماك
 الكبيرة تفتذي بالاسماك الصغيرة كذلك الاقوام المتمدنون واصحاب السطوة
 يعيشون على كد وتعب من هم دونهم في ذلك ولهذا ما دمننا على ما نحن فيه من
 التواني وعدم الاتحاد والالفة والجهل والتعصب والاعراض والانقياد الاعمي للذين

يحاولون ارتفاع سطوتهم وراحتهم على كيس جهلنا وغباوتنا مكثفين بما ورثنا اياه
 المرحومين من المغروسات والآلات والثروة لا يمضي الا القليل حتى نرى انفسنا قد
 وصلنا الى اسفل السافلين ونرى جيراننا قد سبقونا في ميادين التجارة والصناعة والسطوة
 على مسانة فراسخ كثيرة بحيث لا يبقينا لنا امل بان نلحقهم ولا نحفظ مركزنا الحالي
 وما دمنا نرى اهالي اوربا مع ما لهم من الوسائل والثروة والصولة يجدون ليلاً ونهاراً
 ولا يدعون شيئاً من وقتهم الذي يحسبونه ذهباً يذهب سدئ كيف يسوع لنا ان
 ندعي بكوننا نحن وياهم في ميدان واحد من ميادين السباق حال كوننا لا نصرف
 ثلث الوقت الذي يصرفونه في الاشغال سياسية كانت او دينية او صناعية او تجارية
 او كيف يكون لنا امل في مزاحمتهم حال كوننا نسير على ظهر الجمال والحمير وهم
 يسرون على ظهر الرياح والتجار . واني يدرك الظالم شأو الضليع . او كيف نؤمل
 نجاح صناعتنا وتاخر صناعتهم في بلادنا حال كون كل عربي يمدح صناعتهم ويطعن
 في صناعة بلاده ويفضل ما كان افرنجياً مهما كان على ما كان عربياً ولو كان احسن
 وارخص وكيف يمكن ان ينجح ناسجو الحرير عندنا مثلاً ما دامت السيدات لا
 يعجبهن ان يلبسن الا الاطلس الافرنجي وعنق الحمام وما اشبه من الاشياء والحلي
 الافرنجية . واذ كان الافرنج يقدمون لنا الابرة والدبوس والحيط والكشيتان والمغزل
 والصنارة والحبر والورق والاقلام والرمل المصبوغ وكل ملبوسنا واحذيتنا وزيقتنا واثاث
 بيوتنا وآلات صناعتنا وتجارتنا ومطابعتنا ومعاملتنا الى غير ذلك مما لا يحصى افلا يحق
 لنا ان نندب حالة بلادنا التعيسة وعوضاً عن ان نقول من نحن ومن كنا وابن كنا
 بقول ابن نحن الآن

لماذا نحن في تاخر

« له ايضاً »

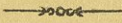
اذا سقط شيء من فوق الى اسفل او ارتفع من اسفل الى فوق نقول ان قوة
 جاذبة جذبته او قوة دافعة دفعته واذا دمدت الرعود ولمعت البروق نقول ان الغيوم
 قد حك بعضها بعضاً والرياح تصدمها . واذا نجح زيد وتاخر عمرو نقول ان ذاك

جداً وسعى واغتنم الفرص وهو اهل للقيام بحق العمل وهذا تكاسل وتهامل وهو غير اهل لذلك . واذا تاخرت الامم او نجحت نقول انه لا بد لذلك من اسباب . اما ادراك حقيقة تلك الاسباب والوقوف على ينابيعها فمع انه صعب فهو ضروري لمن اراد ان يستأصلها . لانه لا بد من معرفة المرض واسبابه قبل اعطاء العلاج . وهذا هو سر التطبيب . لان معرفة العلاج سهلة بالنسبة الى معرفة المرض ولا سيما اذا كان المرض داخلياً غير ظاهر . وهذا هو الذي اعيا اعظم فحول اطباء السياسة واحذق علماء التاريخ الذين دأبهم البحث عن امراض الامم واسبابها . وعلى الخصوص لان هذه الاسباب وتلك الامراض لا تكون واحدة في كل الشعوب بل تختلف باختلاف الزمان والمكان والدين والذوق والفترة والاحكام اما ادراك اسباب امراض امة فهو صعب على من ليس من اهلها كما ان من كان مريضاً لا يحسن تطيب نفسه ولذلك يلزم ان يستعان بما من شأنه تسهيل السبيل الذي يقود الى معرفة تلك الاسباب وهذا انما يتم بالبحث المدقق الخالي من الغرض والتعصب في مرآة العالم وهي التاريخ . لانه بمقابلة ماضي امة بمحاضرها ومعرفة اسباب ارتفاعها وسقوطها ينكشف الحجاب الكثيف الذي يحجب حقيقة الحاضر . ويصبح كل مستور مكشوفاً . لان المقابلة بين الاشياء تظهر جيدها من خبيثها . لانه لو عم الظلم امة بدون وجود ما تقابل به مما هو احسن منها في غيرها او في نفسها في زمان حاضر او ماضٍ لظنت تلك الامة ان من عندها هو كل ما يمكن الحصول عليه . اما اسباب تاخرنا فسهل ادراكها على من ينظر اليها بعين التاريخ العادلة . وهي كثيرة تكاد لا تحصى وقد ذكرنا بعضها فيما سبق من الجنان وسندكر بعضها الان وفيما ياتي ان شاء الله تعالى لعل ذكرها وتعداد اضرارها يحملنا على الابتعاد عنها وسلوك سبيل يسوقنا الى الاتحاد والاشترك في الاعمال . لاننا منذ انقسمنا الى عصب دينية واخذ كل منا يحاول عضد عصبته وتنكيس غيرها قد عمنا التاخر وخسف ظلام الجهل بدرنا

هذا ومن بعض واكبر اسباب التاخر الانشقاق الداخلي . فاننا لانكف عن رشق ابناء مذهبنا بسهام الحسد والملامة والقذف . على اننا نتكاتف معهم في رشق امة اخرى بها . وذلك لاننا لا نطبق ان نرى احداً من ابناء ملتنا وغيرها في صدور المجالس ومراتب الاحكام بل احب اليانا ان نخسرها نحن واياهم من ان نراهم متمتعين بها دوننا . وهذا هو من اخبت واعظم اسباب التاخير . لان الامة التي شأنها ذلك

تكون منسقة تجارب نفسها وغيرها بدون راحة ولا فتور . ولذلك لا امل لها بالنجاح
ما دامت على تلك الحال

اما الدواء الذي يشفي ذلك الداء فهو العلم (وليس المقصود مجرد معرفة العلوم
المتعلقة باللغة) الذي يطرد من ذهن الانسان المبادي الفاسدة ويرسخ فيه المبادي
الحقيقية . لان كل من نظر الى الامور نظر عادل محقق يرى انه لا يسوغ له ان
يحتقر غيره ويحكم عليه بفساد الدين مثلاً حال كونه صاحب دين لانه ذو غرض
هذا مع قطع النظر عن الايمان المبني على التسليم . ومن نتائج العلم الاتحاد والمحبة
وتضحية المصالح الخصوصية للصالح العمومية . ونتيجة ذلك الشفاء من تلك الامراض
العضالة ورجوع الصحة التي هي اعظم بركات الله . فعلينا بالاتحاد واليئنا عن الانشقاق
وكل يمين حاولت تكدير هذا الدواء نخير لها ان تثل وان يحسب صاحبها جيفة
تكرر اريج الاتحاد الذكي وتعكر صافي كوؤس الالفه والاتحاد



التردد

« لاديب بك اسحق »

اذا كنت ذا رأي فكن فيه مقدماً فان فساد الرأي ان ترددا
ووال الزمان اذا والاك وخذ منه ما اعطاك فهو ملول يألف الصد وبخيل لا
يانف الرد وانتهز فرص الحوادث فالعمر وان طال قصر من ان يسع المطال
واعتبر بالذين يقتلون الايام بين الاحجام والائدام ويؤجلون للغد ما امكن
بالامس الى ان يمتنع الامكان بما يحول دونه من مصاعب الزمان كيف تلاشت احوالهم
وساء ما لهم فصاروا الى الضعف بعد القوة والهرم بعد الفتوة والخمول بعد التباهة
والخسف بعد الوجاهة حتى عاد مجدهم صفارا ومسح فضلهم عارا
وانظر الى الذين ينيطون الاقوال باطراف الاعمال ويستلبون الاوقات من
مخالب الآفات وينتهزون الفرص كيف سنحت ويدخلون ابواب السعي متى فتحت هل
زلت بهم الاقدام ام ندموا على الاقدام ام اسفوا كما بأسف المهملون ام خسروا كما
خسف المترددون

او ما نراهم في ذروة المجد وربوة النعمة وعقوة الحرية لا يبلغ شأوم الساعون
ولا يسهم الشقاء ولا ينالهم الظالمون بسوء فهم القادرون اذا رغبوا والمدركون اذا
طلبوا والعالمون اذا نطقوا والسابقون اذا لحقوا بتسم الحياة لشبوخهم كما يتسم الموت
لقتياننا ويروق الوجود لفقراهم كما يروق الغنى لاغنيائنا حتى كان الزمان عاهدنا على
الراحة وواعدنا باستمرار الهناء كما واثقنا على الجهد واستقرار البلاء

فبتنا نعاني صنوف العناء ولسنا نرى في الانام معينا
ودارت علينا رحي نكبة تظل الحجارة فيها طحينا

فيا قوم : لقد مرت بكم الايام باسباب النعمة والنعمة والراحة والتعب واليأس
والرجاء فلم تستوقفوا الرغائب ولم تجنبوا النوائب ولكن وقفت بين الجزع والكسل
والامل والملل ففر المرغوب وفر المرهوب فلم تحببوا خيبة الساعي لتعذروا ولم تصيبوا
اصابة المتثبت لتتكروا ولم تدركو الارب اتفاقاً لتذكروا

وتلك حالكم شاهدة بما اقول فقد بليت بما يذيب الشمم ويقرض اللحم وينقي العظم
وانتم صابرون ومنيتم بما وفر النعم وغير النعم واهلك النعم وانتم صامتون ورزقتم بما جلب
المصاب وهتك الحجاب وبرز الكعاب وانتم خاشعون فما الذي تخافون . بل اية
عناء لم تعانوه واي بلاء لم تقاسوه واي فناء تجذرون بعد هذا الوجود ام اي وجود
ترجون من هذا الفناء

لا جرم ان مثلكم في الصبر على هذا النكر كمثل بخيل ينفق العمر في التماس المال
ثم يجبسه عن نفسه وعن العيال راضياً باسواء حال

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر
تقولون لا نرضى بهذا الخسف ولا تقوى على احتمال النذل فقد صار تاجرنا عاملاً
ونبيها خاملاً وعالمنا سائلاً فلم يبق فينا غير الاجير والتابع والشحاذ والزارع والجندي
منخفض الجانب والشرطي منقطع الراتب

بل زارعنا الذي يدفن مع الحبة قوة يمينه ويسقي الغرس بئاً جبينه نزيل في
دار ابيه وغريب في ارض ذويه يحدد مما زرع ولكن لسواه ويجني ما غرس ولا
يذوق جناه

وجملة الامر ان الشدة قد بلغت في امرنا حد الحدة فصار ومن دونه الخوف
بعد الامن والسقم بعد البرء واليأس بعد الرجاء والفقر بعد الغنى حتى لو استزدنا

الدهر بلاءٌ لما وجد الى ذلك من سبيل وحتى عذب الموت بافواهنا والموت خيرٌ
من مقام الدليل

تقولون هذا وانتم في مراتع الاشمال ومرابع الآمال تحرصون على القناعة حرص
النجيل على درهمه وتضنون بالاندام ضن الجبان بدمه

وهل ينفع الخطي غير مثقف وتظهر الا بالصقال الجواهرُ
وكيف ينال المجد والجسم وادعُ وكيف يحاز الحمد والعزم فاترُ
بل ما اجدر القائلين من غير فعل بان يفعلوا من غير مقال . أجل ولسوف
تفعلون

وكأني بكم عصابة من اهل الهمة والاصابة ترفعون الاصوات في طلب الحق
المسلوب وتمدون الاكف لالتماس الممال المنهوب وتجعلون الابدان للوطن سوراً يرد
عنه العدو مذعوراً

وانتم الكلمة المتخدة والقوة المتجمعة هي اقوى من العدد الكثير

الآنكم تترددون

ياخذكم فيما ترومون عدل الخائفين فتنسون ماضي الزمان على رجاء آتية فيومكم
ابداً مستهلك في غده والغد فيما يليه فيا حليف الصبر ويا نضو العناء نداءً مشارك
في بلواك وسامع لنجواك دع التردد ان اردت النجاح والنجاة واقدم قرب حياة تكون
في طلب الموت ورب موت يجي من طلب الحياة

ولا تبع عاجلاً منها باجل ما ترجو فذلك امرٌ شأنه الطولُ
ولا يصدك عن امرٍ هممت به من العواذل لا قال ولا قيلُ
تغير يومك يوم انت فيه اذا ميزت والناس محمود ومعذولُ

السياسة والاخلاق

له ايضاً

قال احد حكماء الفرنسيين: اتى على الناس الوف من السنين وهم يتصورون
ويقولون فما ترك الاول للاخر وجاء السلف باحسن ما يمكن ان يقال في الاخلاق

(والسياسة) ففأيتنا جمع ما نثروه والتقاط ما اسقطوه . ونحن في هذه المطالب
مصداق ذلك القول فهي شذرات لبعض حكماء العصر بلحمة من خدرات الفكر
تنسج على هذا المنوال وتنشر تحت هذا العنوان

(١)

قالوا دع السياسة لاهل الرئاسة فهم فيها احق وبها اعلم وعليها اقدر
لا يعرف الحكم الا من يكابده ولا السياسة الا من يعانيتها
وتقول هل اتى على الناس حين من الدهر لم يروا واحداً او غير واحد من ذوي
الاقلام والافهام يبحثون عن حقائق السياسة من خلف ستور العزلة وينظرون الى
آداب الاخلاق من وراء حجب الخفاء ألف الكاتب الفرنسي (روسو)
كتاب الميثاق الاجتماعي في السياسة وشعر من اهل زمانه بمثل ذلك الاعتراض
فاجاب : يقولون أ انت امير ام انت حاكم لتكتب في السياسة واقول لا ولكنني من
اجل هذا كتبت فاني لو كنت اميراً او حاكماً لما اضعت الزمان في كتابة ما ينبغي ان
افعل بل كنت افعله او التزم السكوت

ولكنه مقال يشف عن حسن الظن بالنفس فان قبل من مثل روسو فلا يقبل
من سائر الناس ولذلك لسنا نتخذ حجة على حقيقة خوضنا في هذا البحث ولكن مجتئنا في
ذلك انه لا يلزم الباحث في الاحكام والقوانين السياسية ان يكون اميراً او حاكماً
او وزيراً كما لا يلزم المؤرخ الناقد ان يتولى كل خطة ويشهد كل واقعة ويحضر
كل حادثة يقع نقده عليها بل من حقوق الانسان الطبيعية بل من واجباته ان
ينظر فيما يمس وما يحيط به من الامور الدنيوية والاحوال الاجتماعية ولقد جاز للمرء
ان يبحث عن اسرار الوجود ويستكشف نواميس الطبيعة في حالة كونه لا يستطيع
تغيير شيء من نظامها ولا يقوى على مخالفة حرف من احكامها فكيف يحظر عليه
النظر في النظام الذي هو جزء منه والاحكام التي هي من وضع الانسان

نتم وقاية النظام وانفاذ الاحكام واجراء ما يتعلق بذلك من الامور منوط باهل
الحكم لمقدرتهم عليه واستحكام ملكتهم فيه واختصاصهم به من دون سائر الناس الا
ان تقرير اصول الاحكام وتحديد شروطها وتبيين انواع الحكومة وتعيين الحقوق
والواجبات كل ذلك من باب العلم لا الحكومة فان اهل الحل والعقد مشغولون بالعمل
عن التصور ولو راموا الدخول في المباحث الخلافية والمسائل الخيالية لاهملوا الشؤون

واضعوا المصالح التي يجب عليهم حفظها من الضياع ولكن اهل البصيرة والرشد منهم ينظرون الى ما يقال في ذلك بعين التأمل والاعتبار فيأخذون بالنافع منه وينبتدون ما لا نفع فيه كما هي الحال في رجال حكومتنا الحرة واولي امرنا الراشدين في هذه الايام

فاذا تبين ذلك مما ذكرناه ثبت وجود علم باصول تعرف به احوال السياسة والحكومة لا احوال حكومة معلومة مقصودة بالذات ولكن الحكومة على الاطلاق بالنظر الى طبائعها وقوانينها واشكالها الاصولية وما يجب عليها وما يجب لها وما ينشأ عنها من الآثار وهو ما سماه بعضهم بالفلسفة السياسية

(٣)

على ان السياسة وان كانت من حيث هي علماً منفرداً بقواعد معلومة متعلقة بنظام امور وممط شؤون لا ينبغي ان تختلط بغيرها في حال ما الا انه من النافع اللازم الاتصل عن العلم الذي تمسه من كل ناحية وتصل به من كل سبيل وتبني عليه في كثير من الاحوال الا وهو علم الاخلاق المسمى في بعض مظاهره ادباً وفي بعضها تربية وحكمة

ولم يكن الاقدمون في ريب من وجوب هذا الاتصال بل بالغوا في تمكينه وتقريبه حتى جعلوا السياسة والاخلاق علماً واحداً لم يفتلوا بينهما ولم يميزوا احدهما من الاخر بشيء تدل على ذلك تصانيفهم في الحكمة والسياسة بما بنيت عليه من وحدة الموضوع وان كتاب السياسة منهم هم الحكماء الافاضل المرربون الباحثون عن آداب الاخلاق كافلاطون وارسطو وشيشرون

غير ان اتساع نطاق المعارف والعلوم في العصر الاخير بانفساح مجال التصور وتوفر مادة الاختبار واجتماع اشتهات الاثار قد اوجب اختصاص كل من هذين العلمين بفريق من الباحثين يقتصر على النظر فيه غير مبال بالذي يليه كما حصل في كثير من الفنون التي كانت فيما سبق فروعاً من اصل واحد معلوم ثم صارت الآن بمنزلة الاصول يختص كل منها بطائفة من العلماء كالطب الذي كان يشمل الجراحة وعلم الطبائع والامراض الباطنية وعلل العيون والاسنان وسائر ما يتعلق بهلم الابدان وهو الان علوم مستقلة على نوع ما بقدر هذه الفروع ولكل علم منها رجال يقومون عليه فيقال لزيد فيسولوجي ولعمرو طبيب اسنان ولبكر طبيب عيون وخالد طبيب

نساء وهم جراً

ولكن اختصاص اهل الحكمة والتربية بعلم الاخلاق تفرغاً له واستيفاء لما
 اقتضاه الاتساع واختصاص اهل الادارة والتدبير بعلم السياسة تجرّداً له واستيعاباً
 لفروعه الكثيرة غير مانع من تلازم العملين واتصال احدهما بطرف الاخر وجوباً كما
 يتصل طب النساء بالسيولوجية وطب العيون بالامراض الباطنية والكل باصول
 الطب العمومي . وذلك لان السياسة نتناول حتى التربية والتهديب والتأديب لغة
 واصطلاحاً وفي واقع الامر وعلى اتصالها بعلم الاخلاق حجة نظرية وحجة واقعية
 الاولى ان علم الاخلاق والحكمة الادبية هو الذي به الفلسفة السياسية وتعلم
 غايتها الحقيقية لما انه مبني على العدل الذي هو قسطاس الاعمال والفضيلة التي هي
 حد الكمال كما سيبيء

والثانية انه لا قيام للامة ولا قوام للدولة الا بآداب زاجر للانفس عن السوء
 واخلاق كافلة بحفظ النظام وتربية عمومية يتيسر معها نفوذ الاحكام والادب
 وحسن الطباع والتربية من فروع علم الاخلاق وهي من لوازم السياسة فهو وعلم
 السياسة متلازمان

(٣)

تفصيل الحجة النظرية والحجة الواقعية على اتصال علم السياسة بعلم الاخلاق
 الاولى اذا صرف النظر عن التربية واحوال الطباع والحكمة التي هي البحث
 عن الحقيقة والعدل تاه الفكر في اصول الحكومة وعجز عن معرفة الواجب والجائز
 والمحظور والمكروه لامتناع العلم بذلك من التاريخ او الآثار ولانه لو حصل هذا
 العلم الممتنع لما دل على احسن تلك الاصول لامكان وقوع الخطأ والظلم وخلاف الحق
 في الاصل الاول كما امكن وقوعه في الكثير مما تفرع عنه . فلا بد والحالة هذه ان
 يكون الحكم في ماهية الحكومة الحققة مبنياً على المقابلة بينها وبين موجب العدل ومقتضى
 الفضيلة وهو علم الاخلاق فان الحكومة ليست بألة مركبة من اجزاء معلومة تدار
 على اعمال معينة غير قابلة للتغيير وانما هي جسم مؤلف من رجال ذوي طباع واخلاق
 فهي بمنزلة موجود واحد له غاية ادبية وحقوق مدنية وعليه واجبات فغاياته حسن
 الحال وحقوقه اجراء الحق وواجباته اقامة العدل وكل ذلك لا يحصل الا بالفضيلة
 في جانبه وفي جانب الامة معاً (والفضيلة غاية علم الاخلاق)

والثانية ان الحرية التي هي غاية الحماية السياسية والكمال المدني لا تكمل ولا تحصل الا بالفضيلة فان المملكة الحرة ان هي الا بلاد تجوز فيها امور كثيرة محظورة على الناس في بلد غير حر من مثل الاجتماع والخطابة والكتابة والغدو والرواح والادلاج واطلاق الارادة في اهواء الانفس المتعلقة بها بالذات وهلمَّ جرّاً فان وجدت هذه الحرية مع فساد الطباع وسفالة النفوس واستحكام الجهل وانتشار الرذيلة وضياع الفضيلة كانت مدرجة للخلل والفساد وذهاب الحقوق وقيام بعض الناس على بعض يتنافسون ويتقاتلون فيغلب القوي الضعيف ولا يبقى من فارق بين الانسان وسائر الحيوان اذ تغلب الشهوة على الشهامة ويستولي الشره على العفة ويستعلي حب الذات على الحق فتتقلب الحرية استبداداً اييد الاقوياء وتنبو التحزبات على الراي العمومي فينسى الذين تولاهم الفساد واجباتهم الذاتية والوطنية والانسانية ويبيعون انفسهم ووطنهم وحقوق الانسان بشهوة القلب ينالونها وحاجة في النفس يقضونها والجملة ان السياسة لا تصح الا اذا بنيت على الحرية والحرية لا تحصل الا بالفضيلة (والفضيلة غاية علم الاخلاق)

(٤)

تبين بالحجة النظرية والشاهد العملي ان علم السياسة متصل بعلم الاخلاق شير انه لا يلزم من ذلك الاتصال كون الفضيلة هي الغاية المقصودة بالذات من الحكومات فالحكم لم يكن الا ل حفظ الحق اما الفضيلة فهي واجبة على الافراد . وغاية الدولة العدل ولا عمل الا مع حرية الامة ولكن استعمال الحرية لا يخلو عن الضرر الا اذا اهتدى الوطني فيه سبيلاً مستقيماً فعرف شأن اخيه واعترف حق دولته ومواطنيه ولم ينس واجبات الوطن فالسياسة من هذا الوجه محتاجة الى علم الاخلاق وان لم تكن مبنية على الفضيلة

أرأيت لو ذهبت الامانة وعمت الشجاعة وزالت الاستقامة وضاع حب الوطن فكيف تكون احوال الدولة والامة . . توجد في اهل القضاء ما يعني عن النزاهة . . اتحدث للحامية ما يعوض من الاقدام اتبدي لاهل الادارة ما ينوب عن العفاف او تبعد للكافة ما يكون بديلاً من المحبة الوطنية . فان قلت تقيم على اهل القضاء رقباء ونجعل لذوي الادارة رؤساء قلنا اذا لم يكن رقباءك ورؤساوك من الفضلاء فما هم بمصلحين فالحاجة الى الفضيلة واقعة على كل حال . وان حسبت نظام الجند كافياً

في تعويد الشجاعة وقانون الاحكام مغنياً عن الادب الوطني فاعلم ان النظام والقوانين عوامل غير محرّكة وحوارج غير حصينة لا تجلب حسنة معدودة ولا تدفع سيئة في النفوس وانما نظام الشجاعة في القلوب وقانون الوطنية في الاحشاء فليصلح القلوب من رام من الجند الحماية وليطهر النفوس من رام من الامة حفظ القانون فانه لا تنتهي الانفس عن غيرها ما لم يكن منها لها زاجرٌ وغاية النظام في الجيش انه يحفظ البسالة الموجودة ولا يقوم مقام المفقودة . واثّر القانون في الامة انه يكف عن بعض الاثم الظاهر ولا يمنع من اركاب الباطن الخفي فما الجند ولا الامة باقل حاجة الى الفضيلة من ذوي الادارة والقضاء فانه اذا ضاعت الشجاعة فمسير المملكة الاستعباد واذا فقد حب المصلحة العمومية فآلها الضعف واذا عدم الاتحاد والاخاء فغايتها التفرق واذا اهمل السعي فحتمتها الفقر واذا نبذ الاقتصاد فآبها الخراب واذا ماتت العزة والشهامة فعاقبتها الظلم وجميع تلك الفضائل داخلة في علم الاخلاق

ومن اجل ذلك رأى الحكماء الفضلاء الذين نستمد من فيضهم هذه الاراء ان يجعلوا البحث في السياسة تابعاً للبحث في الاخلاق فاقفينا اثرهم في ذلك ليعلم الوطني منا ما يجب عليه لنفسه ولا لبيته وللحكومة والوطن فاذا حصل من هذا العلم في ذهنه صورة غير خادعة فانه ينظر حينئذ الى السياسة نظر الراشد البصير والله ولي التدبير

خطرات ألباب

« له ايضاً »

دع الحريري بين حارثه وهامه والمنتبي لدى سيف دولته وحسامه وابونواس عند ظييه وجامه وقف بنا نندب وقتاً اضاعوه وذكاءً في غير محله صرفوه فالوقت هو التبر الثمين ولكننا نتلقاه غير مكترئين فنبدد الاعوام واحداً بعد واحد لا نستفيد منها نفعاً ولا نحسن فيها صنعاً

فقل لمن يصرف الايام بين الاوهام والاحلام ان كنت تجهد مقدار ما تضيع فقف بالقبور ملتسماً من سكانها برهة من الوقت تعلم انه العزيز الذي لا يملك من

اضاعه واشترى به ثمنًا قليلاً فاولئك هم الخاسرون

الا ان الطبيعية لحكيم يهذب الافكار بدروس الاعتبار وانا نموت في كل حين
ثم نحيا ثم نعود امواتاً فلنا في كل يوم عمر جديد ولكن اكثرنا لا يشعرون
تمر بنا الاوقات سرعاً وتكر الايام تبعاً فنذهل عن تعاقبها كالخدق بالكرة
الدائرة يحسبها ساكنة او كالمفتسل في النهر يمر به الماء جارياً فلا يميز بين
منصرفه وآتية

والحق انا لفي ضلال مبين لم يكفنا القعود عن شراء الوقت المفقود حتى نشري
بكل نفيس ما يضيع به الموجود

نبدد كنوز الايام غير شاكرين فاذا بدا الشاغل قلنا ما ابطأ الزمان متحركاً
وما اثقله نزيلاً واتمسنا الى الفرار منه سبيلاً ولا نفر الا من انفسنا فالزمان عين الوجود
فمل البقاء ونرجو الفناء فاذا جاء نذيره وددنا لو نكون من الخالدين ويتمثل لنا
الوقت شيئاً ثقيلاً الوطأة فاذا تولى راينا طائراً عظيم الجناحين فنسعى في طلبه فلا
ندرك له اثرًا فنعود عنه آسفين

فما سر هذا التناقض وما بالننا نرى اليوم الحاضر بغيضاً فاذا انقضى بكيناه وقلنا
ان الزمان بمثله لضنين . ولا يرض الزمان بالايام وانما نحن بها مسرفون وما كان ندمنا
الا عقاباً على الاسراف كذلك يجزي المترطون

تفيض دنايا اوقات فننفق منها بغير حساب ثم نحسبها على المسير فاذا انصرفت
ناديناها غير مسمعين فنحن نسعى الى الموت ثم نفر منه كعاشقة حمقاء تغضب من
تهواه سعيًا الى الهجر فاذا رماه الله مستغفرة انها من التائبين

وفمل الاعمال ولا راحة الا بالاعمال فالهناء ثمرة لا تثبت الا في حقول الاشغال
والحياة ان لم تكن مقرونة بالهناء فهي عين العناء

فقل لمن يلتمس الملاهي لصرف ما يحسبه بطيئاً من وقته السريع اي هذا المسترجل
طفلاً المستطفل كهلاً القاعد عن النعمة سهواً نراك تجسب اللهو حياة فهل تجسب
الموت لهواً

تنام ملء عينيك على وساد الفساد تحت ظلال الوبال ولا تسمع حركة الرجود
كانك بمن اجروا فاكتنفتهم الانواء تجر سحاباً يظن عذاباً فحل دويها باذانهم فهم
لا يسمعون

ففيه طرف الفكرة من رقدة الغفلة واحرص على يومك حرص البخيل على الدرهم
 فربا مررت النعمة تحت جناح ساعة منه وانت لا تعلم
 وأعد بما تعد من الفضل ما صار من وقتك منسياً فلما آثرت تعيد مائة الزمن
 حياً واعلم ان من اضاع شيئاً من الرقت فقد سرق التبر بل سلب العمر وكان من
 القتلة الظالمين

الحرب

« لسليم افندي البستاني »

لقد نذبت سوء حظ الانسان منذ كشف سن البلوغ عن عيني سيار الغفلة
 والصغر . واملت نظري عن شره منذ عرفت الخير من الشر . وكمن مرة حملني
 جهل نفسي وجهل الانسان عن ابراز سن الاستهزاء والضحك على ما نبديه من
 الافعال التي تجل بالمباري الصحيحة والاعمال الصالحة . وكمن مرة قلت في نفسي
 ان ابن آدم هو اجهل مخلوقات الله سبحانه وتعالى . وكمن مرة نظرت الى كوكب
 الليل وهو في كبد السماء يرسل اشعته المنيرة على نجاد وبطاح هذا العالم . فقلت هل
 نستحق ان نستبهر بهذا البدر الجميل . وهل تستحق الدنيا الغرور التي طالما خدشت
 وجناتها ايادي العدوان والشرور ان تكون مستترة تحت كف كرة لا تلوح على
 سطحها غير لوائح السلامة والهدو . وهل يستحق الانسان الذي مال طبعاً عن سبيل
 الاستقامة والصلاح ان يكون قاطناً ربوع هذه الدنيا الجميلة وان يتمتع بملذاتها
 ومحاسنها المكتسبة والطبيعية . ان في التأمل في ذلك حزناً وكدرًا وعناءً تجامر
 قلب اولاد حواء التي لم تقطع غير مسافة قصيرة من حياة هذا العالم حتى رأت دم
 ابنها قانياً على سطح الدنيا التي كثيراً ما برهنت لها ان بناتها سوف يجريين من الدموع
 انهاراً تحاكي انهار فردوسها الذي خرجت منه بخروجها من حالة الميل الى الصلاح
 وسلوكها سبيل حالة في وسطها اشواك الطلاح . كيف لا نرفع اصوات الويل والحرب
 ونحن الذين ندعي اننا في رتبة ثانية بعد الانبياء والملائكة قد امسينا على ما نحن
 عليه . كيف لا تندب سوء حظنا وآثار القرون السالفة نقيم لنا شاهداً يشهد باجلى
 بيان بان حالتنا بئس الحالات . كيف لا نخسر حزناً ونبكي دماً وفي ايدينا ما يهدم

بناءً الله ويحمد انفس اخوتنا بني البشر . من ذا الذي يقدر ان ينظر ما حوله من هذا العالم العجيب التركيب والحسن المنظر ويقول ان هذا ربع الذين يجيدون عن السبل المستقيمة ويسلكون سبيل البغض والحسد والنميمة والطمع والكبرياء والكذب حال كوتهم قادرين ان يقطعوا سراطاً مستقيماً يذهب بهم الى جنان السعادة والحبور وراحة البال . من ذا الذي لا يسرُّ بالزوال متى كدرت راحة اذنيه دمدمة رعود اسلحة الويل والهوان . واهرت عينيه بروق لوامع الاسياف العجمية والعوالي المشرعات التي لا تأتي العالم الا بما يرجع به الى الوراثة ويكدر كؤوس راحته وتجارته وصناعته وزراعته وعلمه . من لا يميل عينيه عن ميدان القرطاس الذي يأتي بخبر هلاك الوف ومئات الالف . من ذا الذي لا ينفطر قلبه حزناً وحنواً وشفقةً متى تصور ساحة الحروب وارى عينيه الوفاً من جثث الشبان الذين منذ برهة كانوا يفخرون بقواهم ومحاسنهم وشرفهم ومالم وشجاعتهم ونسبهم وكانوا مقيمين في احضان الراحة العائلية يقبلون المحبة الابوية والحنو الاممي والتعلق الاخوي وعلاقات الوداد والمحبة رابطة قلب كل منهم بنت من بنات حواء اللواتي كانت امهناً تبسم لمن عن ثغر عيشة رضية في جنات محبة من يحبهن من اولاد ادم . وامسوا بواسطة شر الفطرة البشرية والمطامع الفارغة تراباً يكاد لا يجد من يكرمه بوضع قليل من التراب فوق بقاياهم . كيف يطيق الذين في ايديهم زمام الامور ان يفعلوا ما يأتي رعاياهم بهذا الخطب . كيف يطيقون ان يروا دموع الوالدة والارملة والاخت واليتيمة والمحجوبة تجري كالسيل الهاطل وفي قلوبهن من نيران الحسرة والويل ما لا يطفئها غير رطوبة القبر الموحشة . كيف لا يبكي القريب والبعيد وانين الجرحى وتنهيدات المصابين بسهم الحرب وصرخات المتوجعين تمزق احشاء السماء وارجل سوابق الفرسان تقع في اجساد الذين كتب لهم الدهر عذاباً من اطول عذاب الذين تزور رسل الموت مقاتلهم ويحمد ما كان باقياً لهم من رمق . من يطيق ان ينظر هنا شاباً متمرغاً بدمائه يسلم الروح . وهنا جريحاً يصرخ طالباً النجدة والاسعاف . وهناك جثة بلا راس وهناك راساً بلا جثة ويداً بلا جسم وجسماً بلا يد ورجلاً بلا ساق وساقاً بلا رجل . وصدراً مطعوناً ودمماً مهرقاً وراساً مشقوقاً واحشا خارقة وجثة لم تبقى لها يد الشر صورة ولا هيئة . ودخان جنود الموت قد حجب نور الشمس والفتام قد زاده كثافة . ودمدمة رعود الاسلحة وصواعق المدافع الرثة ونيران البنادق

المهلكة وبروق البارود اللامعة وبرد الرصاص الساقط وانين كرات المدافع وخصاص
البنادق واصوات وقع حوافر الخيل وصهيلها وحركة دواليب المدافع ومركبات المهات
والآلات طرب الحرب واوامر القواد وصليل الاسلحة تؤكد للناظر ان داخل تلك
الغيمة الكثيفة لا تلعب الرجال بجنود الشطرنج ولا يجحارة الدامة بل اللعب انما هو
الموت الاحمر والهلاك المخيف . ما اشر الانسان وما اصاب قلبه رب سائل يقول
ولماذا تفعل هذا الشر . هل ذلك لنقتله او لنُدفع عنا الذين هاجمونا ليسبوا نساءنا
ويبتثوا اولادنا ويسلبوا اموالنا ويتركوا اوطاننا خربة خالية . فمن يقدر ان يقول ان
هذا سبب الحروب . ومن ظالع التاريخ منذ وجد الانسان الى الدقيقة التي يقرأ فيها
هذا الكلام يرى ان اصل كل حرب انما هو احد امرين . وهما الطمع والحسد . وهما او
احدهما ما حمل سمراميس ملكة اثور على قيام الحرب على الهند . والاسكندر على فتح
الدنيا . ونيورلنك على تخريب الشرق واورليان على تخريب تدمر وغيرهم كثيرين
من الذين اتزلوا في العالم جنود الويلات والهوان . وما وصفنا من ساحة الحرب هو
جنة بالنسبة الى ما يرى في المدن التي يفتح المدفع فمه المهلك ليفتح ابوابها لدخول
المهاجم . فان هناك يصيب النساء والاولاد والشيوخ والاطفال ما يصيب الرجال في
ساحة المعارك فترى ما ينفطر منه القلب شفقةً وحزنًا ويحمل صاحب المرؤة والحنو
على لعن طمع الانسان وشره . واين ذلك من الضيق الذي يحمل الوالدة الجائعة على
ذبح ولدها واكله ولو كان وحيداً انه يصعب علينا ان نتصور حق التصور مصائب
ورزايا الحروب من دون ان نجهد قوة التصور ونضع انفسنا في ظرف الذين يطرحهم
الدهر في حفر هذه المصائب الشديدة . وفضلاً عن ذلك يقوم من اجتماع
الجيوش امراض بكل القلم عن وصفها وتفتك باولاد الناس فتكاً لا يستطيع امره
الكتاب التعبير عنه . فانهم يهجرون ربوع الراحة والرفاهية ويعرضون انفسهم للبرد
والحر والتعب والجوع واين ذلك جميعه من المعارك البحرية فانه يرى فيها المراكب
كانها جبال نارية في حالة الهيمان تُقذف حديدًا وخصاصاً فيه موت مخيف . وكم
من مرة تنزل تلك الجبال الى قاع البحار بمن فيها وليس من مجير . من يطيق ان
يسمع الشكلي تصرخ فائلة واولاده والاين الذي يرى نفسه في فم اسد الموت يصرخ
فائلاً يا اماه . قتل الانسان ما اكفره . ولا ريب ان كل من تأمل في هذا الامر
كما تتأمل فيه الان يشعر بما شعرنا به نحن والذين يطالعون سواد المداد على هذا

القرطاس . على انه اذا اوصلنا الزمان الى ساحة الحرب نفعل كما يفعل غيرنا . لان
الشنشنة البشرية تغلب في ظروف كتلك على القوة العاقلة وحاسيات الحنو وتصير
الانسان كالوحش الضاري . ولكن لو كان الذين في ايديهم عقد السلام وفتح الحروب
يسمحون لحاسيات الحنو والقوة العاقلة ان تثشف لديهم في قبول السلام ورفض الشر
لغلبت الانسانية على الحيوانية وانقطعت اسباب الشرور . ومن نتائج الحرب توقيف
دواليب الاشغال وطرح كثيرين من الذين كانوا في عز وسعادة في لجة بجر العناء
والفقر . والظاهر ان الحرب لا تسع معها شيئاً فانها تضعف قوة اسباب ارتقاء المعارف
وتخرب التجارة وتؤخر الصناعة وتضر جداً بالزراعة وبكل اعمال البشر . ولما كان
العالم متصلاً بعضه ببعض بعلاقات قرب المواصل وبسلاسل الصوالم التجارية كان
شوب نيران حرب في قسم منه يؤثر فيه اجمع . والشواهد كثيرة منها مثلاً التأثير
الذي اثره في الدنيا حروب اميركا الاهلية فانها غيرت حالة التجارة عند ابتدائها
وعند نهايتها وفي مدة شوبها كانت في ارتباك دائم . وكذلك الحرب الحالية قد اوقفت
مسير قدمها وربما تطرحها في ما يضرها ضرراً شديداً . والخلاصة انه يصعب
علينا ان نفهم كيف يقيم الناس الحروب وهم يعرفون نتائجها واضرارها . فنسأل الله
سبحانه وتعالى ان يغير السياسة التي تاتي بالحروب و يقيم سياسة مبنية على اساسات
الصلح والسلام . فتقر عيوننا ويرتاح بالنا و يطيب عيشنا ونعيش عيشة رضية لا يتخامرها
مخاوف واحزان ومخاطر عيشتنا الحاضرة فهو حسبنا ونعم المسئول

الحرب

« لاديب بك اسحق »

(كتبها عام ١٨٧٧)

عرف الانسان مزار الحرب ولم يتجنبها فهل تلك طبيعة وجدت في كيانه
الحيواني ام عادة تمكنت فيه بالاستمرار فصارت ملكة يتعذر التخلص منها وهي مسألة
تؤدي الى النظر في هل طبع على الخير او الشر او كان من عجائبه ان اجتمع فيه النقيضان
يجني على نفسه الحرب وهي بلية حتى اذا بلغت منه مبلغها بادر الى تخفيف مضارها
فمنه الداء والدواء والسقم والدرىاق وهو بالجملة ابو العجب اما تراه قد فتح في القرن

التاسع عشر سوق حرب راجت فيها النفوس ولم يكن سببها السباق ولا البسوس
وانما هي ثمرة الهوى ونتيجة الغرور فلما انشبت فيه اظفارها واضرمت في حماء نارها
طلب الماء لاطفاء الלהيب فهو الهادم والباني والزراع والجاني

يحمل على ابن نوعه مقاتلاً ثم يدعو الى اعانته فهو يجلب الداء ويطلب الدواء
ويجرح باليمين ويضمد باليسار او ما تراه في جنوبي البلقان وفي اسيا الصغرى مضمراً
نيران البلاء وفي سائر الارض طالباً اخمادها

فلو رأيتَهُ وهو في ساحة القتال يطلب فرناً يصوله وخصماً يطاوله وفارساً ينازله
بطلاً يقاتله لانكرته في ديار السلم يطلب ذا مروءة يساعد من جرحه وينهض من
طرحه فهو في الجهة ينادي الانسانية الانسانية وما ادراك ما هي صفة تقوم بمن
ضعف فيه الميل الحيواني فقوي الميل الانساني وهو الترفع عن الحاجات الحيوانية
الى المطالب العقلية وتجريد النفس عن دنى شهواتها لرفعها الى سامي غايتها وفي جهة
ينادي الحرب الحرب وما ادراك ما الحرب هي باعث الهول والكرب اولها شكوى
واوسطها نجوى واخرها بلوى او هي كما قيل فيها

الحرب اول ما تكون فتية تسعى بزيتها لكل جهول
حتى اذا حميت وشب شرارها عادت عجوزاً غير ذات حليل
شمطاء جزت رأسها وتنكرت مكروهة للشم والتقبيل

جرحى الحرب

في معترك اومضت فيه بروق المرهفات ولعلعت رعود المدافع فتلتها عيوث الكرات
وسكرت السيوف بنجر من الدم فعربدت في الرؤوس وعقد العشير لملك الموت
مرادق مطنبة بالقنا والخليل ساغبة تقبل ثقلاً وتعود خفافاً وكانها وقد اعياها
الفارس حباً قد غضبت على الانسان فداست هامه انتقاماً وقد استجيت الشمس من
خشونة الانسان فاحتجبت بحجاب الضباب وتلملت الارض من اعماله فزلزلت زلزالها
وكادت تخرج اثقالها فارتعد الرعيد وثبت الصنديد ونادى منادي الحرب من فر
من الموت في الموت وقع ومن كان ينوي اهله فلا رجوع . طريق على الارض جريج
ذو كبد حرى يستجير باحدى يديه وفوق الكبد الاخرى يذكر خليمة او حليمة
المه فراقها مع امل الرجوع فما الظن به وقد اختفى نور ذلك الامل والودة تالت به

جنيماً وارضعته طفلاً وربته يافعاً وسهرت عليه حالمًا ووالدًا واساه في كآبته وسلاه
في حزنه وتوجع له في مصابه ثم نجلني له الدنيا بزخرفها وزينتها فيرى مرير عذابها
حلوًا وكدر مشاربها صفوًا فهذا هو الانسان الجريح بسلاح الانسان المطبوبة
مساعدته من الانسان

اعانة الجرحى

من يسير ما تنفقه على الملاذ في المطاعم والمشارب ومن قليل ما تصرفه في اقتناء
الملابس الفاخرة جد على ابن جنسك الساقط في ساحة البلاء حيث ينكر الاخ اخاه
والابن اباه امها المعطر اردانه المفاخر اخوانه المعجب بلباسه الجائر على ناسه الراكب
العربة يقودها زوج من الخيل العتاق الساكن القصر المشيد اللابس الحرير الآكل
الفالوج الشارب انواع الراح ومن قليل ما تنفقين على باطل الزينة وزائل التحسين
ونزر ما تبدلين في اقتناء الحللى والحلل ابنتها المفاخرة بزيتها المنافسة في حلها جودي
الجريح يحارب عنك ويحمي حماك وابسطي يدك البيضاء بالعظيمة البيضاء واحسني
وانت حسناء فخير الحسن ما كان مع الاحسان وخير الاحسان ما كان في
اعانة الانسان



من جرى في عمان امله عثرت رجله باجله

« لسليم بك نقلا »

(في ٢٨ مارس سنة ١٨٩٢)

جاء في امثالهم . اذا سلمت من الاسد فلا تطمع في صيده . وقال الشاعر

الم تر ان المرء تدوى يمينه فيقطعها عمداً ليسلم سائره

من ناموس الطبيعة ان الشيء يتولد فينمو فيتم اطوار وجوده حتى ينقضي

وهو سر مودع في الطبيعة يجري في هيولاها مجرى الدم في المفاصل فليس هنالك سكون

ولا اخمول بل حركة استيعابية دائمة على تفاوت في الاجال بين الطول والقصر من

فرع واصل ووضع وحمل

وإذا اجلنا لحاظ التنقيب والتنقيب في هذه الحقائق تراجعنا الى الوثوق بسلامة

مجرها واطراد مبداهها فالفناها لمناسبتها الطبع ونحن على اكد الاعتقاد ووطيد التصديق
 بان ما انعكس منها وعنها ان هو في كاس الحياة الا ملح اجاج يجه الفم
 كل من خالف الطبيعة لم يح بل لذوق وانما مجه الفم
 بل ليس للنفس فيه الا انفة وانكار ولو تبينت منه النفع ورحم الله القائل
 وكل ما عن منهج الطبع التوى تنكره النفس ولو نقعاً جنى
 اذن على رسلك يا عاذلاً غير عاذر وقد اجمع كل عاقل عادل على ان مسألتنا
 المصرية قد اخرجتها احكام السياسة الغائية والاعراض النفسية والاطماع الاشعبية
 من حظيرة تلك القاعدة ودائرة ذلك الناموس فقد اولتها الايام لتكون ابنة عام ثم
 فيه اطوار حياتها على مبدأ الطبع فاذا بها قد تلبست اطوار غيرها مضيغة الى عمرها
 اعماراً بل اتنا بالعجيب الغريب من دوران حركتها ذلك اننا لم نرها متجاوزة اطوارها
 الاولى الى الثانية حتى رأيناها رجعت الى حيث بدأت فكأن في بها لزمت طور الحضاة
 فالعام الواحد والعشرة اعوام لديها سواء

اذن من تراه يلوم السلطنة السنية على ما اتته وتأتية في هذه المسألة على علم منه
 بخطارة مصر لديها ديناً وسياسةً فالبلاد اسلامية تعترف في السر والنجوى بخلافة
 رب الخلافة جلالة السلطان الغازي عبد الحميد خان فهو عندها امير المؤمنين وخليفة
 رب العالمين وهي لديه قلب مملكته وطريق بيت الله الحرام والاثر الشريف من
 الافتتاح الجليل الذي اتاه ساكن الجنان السلطان سليم في حين لم تكن من يوم
 افتتاحها عمرو بن العاص الا حكومة اسلامية بين موطن خلافة او تابعة لخلافة . ثم
 هي لدى جلالته القسم الخطير المتم جسم المملكة سياسياً يقوم باسمه بتديره وترتيب
 احكامه وكميله الشرعي سمو الخديوي على ارتباط قويم واتلاف امين يؤيد بهما
 الحفظ والصيانة فاما مصر اذاً الا الاثر الماثور للسلطنة بل الجمة الضررة فيها وما
 سياجها الا السلطنة السنية وما جلالة السلطان الا المالك الامر والمالك ان يتصرف
 في ملكه كما يشاء

واننا نقصد ان تأتي في عجبالتنا هذه بالشروح الضافية عن ذلك فقد اودعنا في
 الملحات السابقة ما يكفيننا مؤونة الاضافة فضلاً عما في الموضوع من الجلاء المغني عن
 البيان ولكننا نقصد الالمام الى ما شاب الماخرجات الحديثة من وافدات الملل على اثر
 الانقلاب الاخير حتى حدا ذلك الى تضارب الظنون وتباين الاراء

قالوا اننا لا نريد بمصر سوءاً وقد انحصرت غايتنا في توطيد امنها داخلاً وخارجاً
 وايصالها الى محجة الاصلاح المرغوب بين سعة في المالية وراحة في الشؤون الادارية
 ومتى نلنا ذلك تركنا البلاد وشانها رب شأنها . قلنا قد وثقنا بالغاية وصبرنا ثم راينا
 اقراركم ان الغاية قد حصلت فاكمروا بانجاز الوعد ولكم علينا جميل يعرف ويحفظ .
 قالوا ان الغاية لم تدرك كلها فالارتحال لم يثن وامره لنا

تلك هي نقطة مسالتنا المركزية ولكنها ليست بالطائرة او الحديثة بل هي القديمة
 من عامين وثلاثة وخمسة وسبعة وفي ذلك عود طور الحضارة يتصل بها شرط ليس
 من اجل لجوابه وتشوبه علل تؤذن الحكمة للسلطنة السنية بالسكوت عنها لان النتيجة
 مترتبة على مقدماتها وكيف نتحدى جانب الوثوق وهي ترى الممانعة في منع حق لها
 كالمسائل الجارية في شان العقبة ولحققاتها وقد حالت انكلترا بينها وبين مصر فيها
 فاذا اعترض عليها قالت ان مصر لا تريد ذلك واذا اعترض على مصر برئت من هذه
 التبعة لقاء نفوذ المحتملين فالمسئلة على حد قوله

اذا ضاع شيء بين بنت وامها فاحداها يا صاح لا شك آخذه

واي عدل يتبع لامرئ ان يهب او يعطي ما ليس له كما جرى في مصوع والسودان
 ثم يمنع عن ذي الحق نيل حقه كالجارى في امر العقبة بعد العلم بان السلطنة السنية
 لم تعبت قط في الامتيازات الممنوحة للقطر فاذا قيل ان انكلترا انما تروم ذلك خدمة
 لمصر قلنا ان خدمة مصر تقوم بالمحافظة على الرضى السلطاني الشريف وهو لا يريد لها
 الا الخير ولا يتمي الا سلامها وحفظ امتيازاتها وصونها من الاطاع الخارجية
 وتأيد تابعتها لمقام الخلافة السامي . فاذا قيل ان ذلك انما ترومه انكلترا رعاية
 لمصلحتها . قلنا اذا قد انتفت الغاية التي اعربت عنها وكان للباب العالي حق الرفض
 للمقدمات مع انتباز ما يسوق الى الاخلال والعبث . ومهما يكن من الامرين فليس ثم
 وجه للارتباب في مقاصد السلطنة السنية كما ان ليس ثم من وجه لفقده لدى مقاصد
 انكلترا واذا تبين ذلك حال الحق دون اللوم الموجه من ذوي المآرب والاغراض الى
 اجراءات الباب العالي في هذا الشأن وغيره لم يبق لانكلترا سبيل تعترض عليه به
 من كونه لا يستمسك بعروة الثقة بها والاعتماد على سلامة نياتها

ولسنا وقد بدا لنا من هذه الشؤون الخطيرة ما كشف القناع عن حيا الحقائق
 نتوقع لسلامة العاقبة الاحزم سمو خديويينا فهو بما اودع الله فيه من الروح الشريف

يجلوه الذكاء والنباهة يقوى على حل المشاكل ويزيل العقبات المعترضة دون الوصول الى المحجة فالقطر قد وكل امره الى تدبيره على مبدا وثوقه بما شب فيه من التعلق بجوهر التبعية والارتياح الى رضى جلاله الخليفة مولانا السلطان الغازي عبد الحميد خان الاعظم فضلاً عن طهارة ذيله من غوائل الايام الماضية وثبات جاشه في ما يبرمه من الامور لتوقيعها على حكم الحق والعدل ومن اتبع هذين كان ظافر دون مرأء ولم يكن من حجة للمناضل في شأنه تمثلاً بما جرى مع عبد الله بن الزبير وذلك ان عمر رضى الله عنه مر بعصبة فيها عبد الله بن الزبير ففر افرادها من الطريق الا ابن الزبير فقال له عمر . كيف لم تفر مع اصحابك . فقال لم اجترم فاخافك ولم يكن في الطريق من ضيق فوسع لك . وذلك سيكون لسان حال سمو الامير لمن يحول دون ما يقصد في هذا المنهاج الواضح ايده الله معززاً بالتبعية الشريفة ليظل مظهر التعطفات الشاهانية وحصناً حصيناً من معادل السلطنة السنية بجوله وطوله

سعادة الحياة

« اسعيد افندي الخوري الشرتوني »

خطبة القاها سنة ١٨٩٣

احمد الله اليكم يا ايها الذين علموا ان لا اطمئنان لمن زاع عن الشريعة . ولا سعادة لمن عاج عن سواء السبيل ولا هناء لمن عصى الله بل يا ايها الذين ان سئل عن ذوي الآثار الحسنة كنتم على أسلات الالسنه . وان قيل اين احباء من لا يرجي خيره . واخلاء من لا يخشى شره أشير اليكم فيما حبذا مكان حفل بكم ومدينة انتم من رجال الخير فيها ولا اكتمكم ان لنفسي اكبر لذة بمشهد يشهده نواصي الناس ادباً وحباً خير ونزاهة نفس وطهارة خلق كهذا المشهد الذي نرى فيه اشجار الفضائل الطيبة وينابيع الرأفة العذبة بل جنة يسقيها فرات التعاليم الانجيلية فتوئي اكلها اخوان المسيح ذوي البؤسى الذين يتبررون خالقهم فلا برحت ظلال فضلها وارفة ومياه حسناتها دافقة

اما بعد فقد سئلت الكلام في هذا المشهد الحافل باهل الذكاء والفضل المزين

بأمير الخطباء ولباب الالباء مصباح الحكمة ونسمة الحياة لكل مشروع حميد مطران
 هذه المدينة الزاهرة فسوّفت الامر لتزاحم الاشغال وتنازع الاعمال حتى اذا كانت
 ليلة امس وقد دنا موعد الالتمام راجعتُ كتاب الايام وتصفحت احوال الزمان وهو
 المصباح الذي استصبح به في خطبي ومقالاتي فجمت بالكلام في الامر الذي
 عليه الاتفاق وفي الاتجاه اليه الاختلاف . وهو «سعادة الحياة» هي رغبة كل
 حي وافصى امانيه ولها يقاسي الاهوال . ويعاني الاشغال . ويتقحم الاخطار .
 ويبرّ ويحجر ويغير وينجد ويشرق ويغرب

اما وقد اتفق الآدميون من لدن الخلق على الجد وراء الحياة السعيدة الهنيئة
 غير انهم اختلفوا في وجوه التماسها وطرق تحصيلها اختلافاً طويلاً عريضاً . وذلك
 لتباعد افكارهم في رسم صورتها . وتباين آرائهم في تعقل حقيقتها . وقد افضى بعضهم
 الامر الى ان طلبوا السعادة من معدن الشقاء والطائنية من موضع الاضراب كاللصوص
 والقتلة وزرّاع الاحقاد وداسي الدسائس ومحفظي الناس بسوء الصنيع وللناس في ذلك
 مذاهب يكاد يعي الطالب حصرها . واليكم الان مذاهب بعضهم في السعادة

منهم من ذهب الى ان السعادة انما هي توفر المال لدى الانسان فسعي وراءه
 سعي المجد واصلاً عمل النهار بعمل الليل لا تاخذه فيه سامة وقد كفت نفسه
 الكسب والادخار واولعت بالشع الى حد ان حرم ذاته من كل ما تشبهه نفوس
 المكثرين من التائق في المعظم والمشرب والملبس والمركب حرصاً على الدينار وفراراً
 من التالم بلوعة فراقه ووحشة بعباده . فكان الواحد من اهل هذا الوهم انما يتمتع
 ويتمجد وهو في قبره بقول الناس توفي عن كذا وكذا الفأ من الدنانير واخص
 اوصاف هؤلاء انهم الوكلاء الامناء لوراثةهم

ومنهم من يعد السعادة كلها في رخاء العيش والتوسع في النفقة وابهة المظهر
 فيسكن الدار الشاهقة ألفيحاء المزخرفة بالنقوش المزينة بانفس المتاع ويلبس
 الثياب الفاخرة ويتخذ المراكب البهية المزخرفة واخيول المطهمة ويسكن من الخدام .
 ونحو نفسه ان ينفق وجده في سبيل ملاذه قتره بصرف اللذة اذنه العشرة الالاف
 والخمسة عشرة الفاً في الليلة الواحدة وقد يكون في جوار بيته بل في انسابه من
 تمن نفسه الى اكلة من العدس فلا يرضخ له بشيء . وهذا صنف المنغمسين في
 الترف الذين لم يعرفوا من اطوار الحياة الا الطور الجسماني . ولم يدوقوا شيئاً من

لذات الحياة المعنوية بل اكتفوا ان ينقلبوا على بساط الطور الجسماني المبسوط على
 وحول البهيمية . رفعنا الله واياكم عنه وقصارى الكلام ان الواحد من هؤلاء يبذل
 وسعه حتى يستوفي جميع ملاذ الطور البهيمي قبل خروجه من الدنيا . ومن كانت
 حقيقة السعادة عنده الترف ماتت فيه الاخلاق الفاضلة وفارقتهم الهمة العالية واصبح
 كالبهيمة السائمة لا يهتما من الدنيا الا علفها

ومنهم من يقولون ان السعادة انما هي السلطة فيطلبونها ويستحقرون في سبيلها
 كل نفيس وهم رجلان رجل يتغنيا فصدّاً الى تقويم الأود باحياء الحقوق واسعاد
 الرعية . فيكون ولا ريب من اكبر نعم الله على عباده واغزر بركاته على خلقه ورجل
 يطلب السلطة ليطلق يده في حقوق الناس ويقيم فيهم شريعة مطامعه وينفذ عليهم
 احكام اهوائه فيكون اكبر نعمة تحل على الرعية واعظم نذلة تنزل بهم ولا ينتصف
 من هؤلاء كالتاريخ فانه يصورهم بكال شناعتهم ويمثلهم بهول هيئتهم فيخلد لهم في
 الناس افبح ذكر

ومنهم من يحصر السعادة في الصيت الحسن والذكر الطيب . وهؤلاء لا يرون
 لوجه الحياة جمالاً الا باتيان ما يمدح ومجانبة ما يذم فيبدلون الاموال ويكابدون
 العناء في خدمة الناس ومصالحهم حتى ترى البلاد كأنها السنة يتحدث بحامدهم وتنطق
 بمكارمهم ولا يخفون بما جاء في الامثال من قولهم «سمن الكيس ونيل الذكر لا يجتمعان»
 الا وهم الذين يوقنون ان من يعطي المسكين بقرض الله والله سبحانه لا يجاود . فمن
 بذل في سبيله واحداً اعم عليه بعشرة

ثم ان هذا التصور للسعادة لهو من معادن الآثار الحسنة ودعائم الاعمال الخيرية
 واصحابه احمد الخلق ذكراً واعزهم في قلوبهم حكماً فهم موضع ثقتهم ومحل امانتهم
 واياك ان تضم اليهم من يتحيلون حتى يعرفوا بالخير ويوصفوا به ثم يتخذوا
 ذلك الذكر سلاحاً يستعينون به على اختلاس الاموال وقرض الاعراض فهم
 كالذي قيل فيه

صلى وصام لامر كان يطلبه حتى حواه فما صلى ولا صاما

ومنهم يقولون انما السعادة تطبيق السيرة على وصايا الله تعالى فهؤلاء يتحامون
 المنكرات صغيرة وكبيرها وياتون المعروف قليله وكثيره لا يبتغون لذلك عوضاً الا
 اطمئنان ضمائرهم ورضوان خالقهم وهم الذين يحرمون على انفسهم القذف والغيبة وزرع

الشقاق ودس الدسائس . وهم الذين لا تطوع لاحد منهم نفسه ان ييذل قرشاً تعجلاً
 للوصول الى حق وان كان اكرم الكرام وانما ذلك وقوفاً عند نهي الشريعة وان دعي
 احدهم الى منصب اكتفى باجرته وقال لمن يحمله على مخالفة الشريعة ما قال الامام
 عليّؑ لآخيه عقيل وهذا نص مقاله « والله لان ايمت على حسك السعدان مسهداً
 وأجرّ بالاغلال مصفداً احب اليّ من ان القى الله ظلماً لاحد من الناس » وهو لاء
 هم عملة الخير الظافرون بالسعادة الحقّة الاتقياء الصدور من ضرر الاحقاد المنزهة
 ضائرهم عن هواجس المفاسد ومن لبابهم ان شاء الله اعضاء هذه الاخوية الصائرة
 في سبيل الاحسان الفائزة لحسن صنعها برضا السيد السند يوحنا بطرس البطريرك
 الانطاكي والسيد المفضل يوسف الدبس رئيس اساقفة بيروت الذي على يده قامت
 عندنا هذه الاخوية يتبارى اعضاؤها في المحامد ويتنافسون في المبار . ويشيرون
 بسيرهم الحسن الى افضل ما تصور به سعادة الحياة واخص ما تعرف به والله المسؤول
 ان يرينا الجميع قد تصوروا السعادة كما تصورها القائلون انها تطبيق السيرة على شريعة
 الله عزّ وجلّ

ادب المدارس بعد المدارس

وهو الخطاب الذي لفظه حضرة العالم العلامة المحقق والغوي المدقق

الشيخ ابراهيم اليازجي في اثناء توزيع الجوائز على طلبة المدرسة

البطريكية للروم الكاثوليك في بيروت يوم الاحد

الواقع في ٢٠ تموز سنة ١٨٩٠

ايها السادة

قد دعيت للكلام بين ايديكم بما يتنزّل منزلة خطاب اصرف به مسامعكم الى
 غير ما يتلى عليكم من هذه الاسماء المتتابعة والاعلام المتناسقة استدعاءً لجمام اخواطر
 ودفعاً لما ينشأ عن مثل ذلك من ثقل الملل وان كان ولا ريب مما ترتاح اليه نفس
 كل وطني يرى سباق فمياننا الاذكياء ومباراتهم الى نيل قصب السبق في مضمار

الفلاح . غير ان ضيق الوقت واشتراط الاجياز في القول يمنعني عن تخير غرض ذي
بال افيض فيه في هذا الموقف الحافل ولا سيما ونحن في معمعان الفصل وتوقد وطيسته
مع اعترافي بقلّة البضاعة وقصر الباع ولذلك رأيت ان اوجه كلامي الى الحلقات
الاول من طلبة هذه المدرسة المائتين في هذا المقام مقام الوداع ليكون بمنزلة درس
اخير القيه عليهم في هذه السنة تثبت في محفوظهم آثاره ولا يذهب من نفوسهم
تذكاره والله المسؤول ان يتولاني واياهم بهدايته وتسديده

فانكم ايها التلامذة النجباء بل الاخوان الاحباء قد قضيتم هنا الشهور بل الاعوام
حتى بلغتم الحد الذي فيه عرفتم من انفسكم معنى تحملكم مشاق الدرس والسهر وحمل
طبائعكم على الجهد والنصب وفطم انفسكم عن ملاهي الحداثة واعطاء قياد اهوائكم
لمن يسوسها دونكم ومهاجرة المنازل التي القموها والاهل الذين نشأتم بينهم والاخوان
الذين جمعتم واياهم دار المولد والفت بينكم وبينهم عشرة الصباء . وما فيكم من
يجهل ما في انشاء هذه المدرسة من مهات التكاليف بين تشييد بنائها واعداد محلاتها
وتوفير الرجال فيها على سياستكم وتهذيبكم والقيام عليكم في دروسكم وغذائكم ومنامكم
وسائر احوالكم وما يتجشم اولياؤكم من النفقات الطائلة والاهتمامات المتواصلة وان
ذلك جميعه وقف على مصلحتكم وسعي في شؤون آتيكم وتبليغكم الطور الذي
تكونون فيه اهلاً لان تقبضوا على ازمة عصركم وتحلوا المحلات الاولى من مجتمعكم
وتكون لكم القدم السابقة في نشر المدنية وتعزيز شأن الوطنية والسعي فيما يعود نفعه
عليكم وعلى البلاد

فاذا خرجتم من هذه المدرسة وفي ايديكم الاجازات الموزنة باستكمالكم
دروسها فاول ما اوصيكم به المثابرة على درس ما تلقيتموه فيها وتعهد الذاكرة به
مخافة ان يسرع اليه النسيان فان آفة العلم كما قيل اهماله . فاجعلوه حديث النفس
في خلواتكم وتذاكره في مجالسكم وروّضوا باساراه خواطركم حتى تستحکم ملكته
في اذهانكم وترسخ مسائله في مخيلاتكم وتمثل صورته في بدائهمكم ولا تقنعوا منه
بالتقدير الذي بلنتموه في حلقات الدرس ولكن استزيدوا ما وصلت اليه ايديكم
منه وخذوا انفسكم بادمان البحث والاستقراء لادراك كنه المسائل والاحاطة
باطرافها واستظهار ناداتها وغربها فان المدرسة لا تضمن لاحد من تلقى علومها ان
يخرج منها عالماً ولا ذلك في غاية شيء من المدارس ولا في طوقها وانما العالم يصير

عالماً في بيته وفي مقام شغله وهو استاذ نفسه على الحقيقة يبلغها الكمال بادمان الجهد
 وتكرار المطالعة والاشغال . ولست انكر على آحاد منكم بلغوا في التحصيل مبلغاً
 عزيزاً واحصوا من الاصول والقياس حظاً جليلاً غير اني لا اطرىء احداً منهم
 بانه قد استولى على شيء من غايات العلم ولا تقرب من حدود الكمال ولكني ابشر
 الذين بلغوا هذه المنزلة وانتهوا الى آخر درجة من سلم الدروس بانهم قد صاروا
 اهلاً لان يضعوا قدمهم في اول درجة من سلم العلم ورجائي بما عهدت من ذكاء
 افئدتهم وثبات عزائمهم انهم سيحصون عن قليل في سواد اهل العلم القائمين برفع مناره
 والتطريس على آثاره اذا لم تهب عليهم ريح الكسل التي تطفئ نور الذكاء وتنسف
 حصون الثبات الا وهو الافة التي احذرهم شرها واسأل لكم العافية منها واذا
 جاوزتموها لم اخش على عزائمكم ان تكسح بوهن ولا على جهدكم ان ينال بضياع
 ولست ازيدكم بياناً ان العالم لا ينفع بعلمه الا اذا كان راسخ القدم فيه مستبطناً
 لاسراره ودخائله محيطاً بما تشعب من فروعه ومسائله وذلك مما لا ينال الا بطول
 المزاولة وتكرار المراجعة وتفريغ الذهن لما يتوخى حفظه واخلاء الذرع لاحصائه
 ولذلك فاني انصح للمستزيد منكم ان لا يتعرض لما لا يعنيه من العلم ولا يتجاوز ما
 درسه الى غيره قبل ان يستوفي حظه منه ويرسخ في ملكته وان وجد من نفسه قدرة
 على التوسع وميلاً الى المزيد فليكن فيما يجانس مأخذه وينضم في سلكه بحيث لا
 يكون انتقال الذهن بعيداً ولا تتعارض فيه صور العلوم بما يضعف ملكتها فيه وتضييق
 الحافظة عن احصائه على ان المرء مفطوراً على التظالم مولع بالاطلاع على ما لم يعلم
 ولكل علم فائدة تتوفر بهامادة العقل ويتسع مذهب الفكر وبعده مرمى البصيرة فلا
 يمتنع على من شاء منكم ان يزين علمه بما يضم اليه من سائر العلوم ويشد ذهنه بما
 يصل اليه اطلاعه من المدارك ولكن ليكن ذلك بحيث لا يصرفه عما هو فنه الجدير
 بالتوسع فيه وليقتصر فيه على حد المشاركة دون التبحر وقصد الاحاطة لئلا يقصر
 باعه عن تناول كل واحد من العلوم التي يتوخاها فيخرج مختلفاً في الجميع . وان سمعتم
 ان فلاناً المنعوت بعلامة العلماء وفيلسوف العصر قد احاط بمتفرق العلوم واصبح في
 كل منها اماماً فانما هو تزيين المحال وتلقين الغرور وهو لاء مشاهير علماء المتقدمين
 والمتأخرين لا تكادون تجدون واحداً منهم ممن يشار اليه بالسبق والتبريز الا
 وهو قد اشتهر بجنس من العلم ولم يكن له في سائر العلوم الاخر الا مشاركات

واذا ضمكم مجلس ادب وتشرتم للبحث فيه فلا تنفروا للنقد والتخطئة والتذية على
 هفوات اهل العلم ارادة ان تكاشفوا الناس بمبلغ علمكم وتوهموهم انكم ارفع من تخطئونه
 مقاماً واوسع علماً فان ذلك يبعث النفار منكم في النفوس والاشمئزاز في الصدور
 وتلحظون بعين الكراهة من رصفائكم وانما طمكم وتصبون انفسكم اغراضاً للقارضين
 واهدافاً للطاعنين وتفرون الالسنه بالفض من مزيتمكم واحسانكم فيكون ذلك سبباً
 في حط مقامكم ونصب العداوة لكم والوقوف لكم بالمرصاد فيما تتوخونه من المقاصد
 وتجيئون اليه من الرغائب . واحذر كل التحذير من الطعن على من اشتهر بفضل او
 مزية واعترف له سواد الناس ولا سيما اهل العلم بالتقدم فانكم ان فعلتم جعلتم انفسكم
 غرضاً لكل من تشيع له فاكثرتم اعداءكم ومناصبيكم في حين انتم على حدثان
 امركم احوج الناس الى الاستكثار من الصحابة والاصدقاء . والمشايخين في احوال
 الدنيا والدافعين الى التقدم في مراتب الشهرة والفضل . ولا تحسبن الناس سواء
 في معرفة الصواب فان ذوي العلم فيهم تفر معدود والمصنفون من اولئك قليل وفيهم
 من لا يهيمه ان يعرف موضع الحق فلا يتفرغ للبحث في دعواكم وانما يحكم بمجرد ما
 تقرر في علمه او سبق الى وهمه من افضلية الاشهر فلا تحصلون منها على طائل . واذا
 كان ذلك حال العلماء . وهو الواقع في كثير من الامر فما الظن بغيرهم ممن لا اداة له
 للحكم ولا موقع عنده للفصل

واذا جالستم اهل العلم ولا سيما ذوي التبريز منهم فليكن مقعدكم منهم مقعد
 المستفيد واياكم والاعتراض عليهم ولو غلطوا فان في علمهم ما يخرجهم مما اخذتم عليهم
 ولا تأمنون ان يرموك فيما لا تخرجون منه . واذا اعترض عليكم عارف واطهر لكم
 خطأ بدر منكم فلا تسرعوا الى الاحتجاج والمكابرة انفة واستكباراً بعد ما عرفتم
 الحق فان ذلك يذري بملككم ويرميكم بالجهل ووهن التمييز ثم يكون سبباً في حرمانكم
 فوائد جمة . واذا دفعتم الى جدل فتحاموا الصلف والتحقير واخذ الخصم بالعنف
 والاستعلاء لاقتناعه بالحق فان ذلك مما يضيع الحق ويخفي وجه الصواب ويعود عليكم
 بالتهمة لان الصلف من سلاح العاجز واياكم ومساجلة من هو دونكم علماً والاشتغال
 بمغالطته وجداله ولكن ينبغي ان ترشده الى الصواب ارشاد المفيد فان ابى وكابر
 فاقبلوا عنه اقلعاً جميلاً لئلا يشين علمكم ويستدرجكم الى ما يستزل اقدامكم
 فتؤتون من الطريق الذي اخذتموه عليه وترجعون عنه بصفقة المغبون

واحذركم الدعوى فانها آفة الفضل ومحل النكير ولو كانت حقاً وقد اعتادت النفوس ان تنفر منها وتبخس صاحبها من حقه حتى لو كانت له عشرة وادعي عشرة اجتهدوا ان يجعلوها له تسعة فما الظن بمن كان له عشرة وادعي خمسين . واياكم والتمويه في العمليات والخلط فيما لا تعلمون حذار ان يقوم لكم في المرصاد من يزيف علمكم ويرد بضاعتكم عليكم فتقعون في النقصان من حيث تطلبون المزيد . ولا تحسبن ان العالم لا يسمي عالماً حتى يحسن الجواب عن كل شيء ولو في العلم الذي تجرد له وقضى عليه ايامه فان العلم لا ينتهي الى حد يقف عنده بل قد تقرر ان من اعظم فضائل العلم ان يبصر ربه بقصوره ويطلعه على جهله ومن اعتر بنفسه وظن انه وسع كل شيء عالماً فقد دلّ على قلة بضاعته وضعف مداركه . فلا ينجلنّ العارف منكم اذا سئل عن شيء فلم يحضره ان يقول لا ادري فان قول القائل لا ادري خير من ان يقال له اخطأت بل قد عدّ ذلك من جملة ما أثر ذي العلم وادلة كماله فيه حتى ان السيوطي عقد باباً في كتابه المزهر فيمن سئل من العلماء عن شيء فقال لا ادري فذكر عدة من مشاهيرهم وكبرائهم كالاصمعي وابن دريد والاخفش وابي حاتم وغيرهم من اهل هذه الطبقة : قال ابو عبدالله الزعفراني كنت يوماً بحضرة ابي العباس ثعلب فسئل عن شيء فقال لا ادري . فقال له بعض من حضر : اتقول لا ادري واليك تضرب اكباده الابل واليك الرحلة من كل بلد . فقال : لو كان لامك بعدد لا ادري تمرّ لاستغنيت قال : وسئل الشعبي عن مسألة فقال لا ادري فقيل له : فبأي شيء تاخذ رزق السلطان . فقال لا قول فيما لا ادري لا ادري . انتهى بمعناه

ويقرب من ذلك ما حكاه بعض علماء العصر من الفرنسيس قال ان احدى خواتين الاشراف تصدت يوماً لاحد مشاهير العلماء في مجلس حافل فقالت له امطرُ يكون بعد الهلال ام صحو . فقال : لا ادري . قالت : اذن فماعة اتصال الغيث في هذا العام . قال : هذا مما لا نعلمه . قالت : اتظن ان سكان المشتري يكونون على خلقتنا . قال : ايها السيدة اني لا اعلم شيئاً من ذلك . فقالت يا عجبا فلم يتجر المرء في العلم اذن . فقال : حتى يقول احياً اني لا اعلم شيئاً

واذا انتدب احدكم للتاليف في علم من العلوم فليتوخّ الفائدة والنفع دون الشهرة ومكاشفة الناس بما اوتيه من فضل علم او سعة اطلاع لئلا ينصرف همه الى التشاغل

بما لا تدعو اليه الفائدة المقصودة عن تاليه ويحشو كلامه بما يفوت طور الدارس
من غامض المسائل وغربها فيمينا هو يريد اثبات براعته وطول باعه اذ يطرح المستفيد
في لجج لا يدرك لها ساحلاً ويصبح كتابه ضرباً من المعاينة . وهذا مما سقط فيه
كثير من اكابر العلماء وجلتهم فاضاعوا فضل علمهم في سبيل امثال هذه السفاسف
ورغب الناس عن تاليهم الى غيرها فطرحت في زوايا المهملات

وسواء الفتم او حاضرتم فاياكم والتسرع في اثبات الاحكام العلمية خصوصاً من
رزق ثقة الناس منكم واطمئنانهم الى الاخذ عنه لثلا يشو الوهم وتفسد الحقائق
العلمية ولا تثبتوا حكماً قبل الوقوف على صحته ومعرفتم من انفسكم القدرة على ايضاحه
متى سلتم عنه لثلا تضطروا ان تقولوا هكذا نقلنا فتكون منزلتكم منزلة الناسخ الذي ينقل
صور الحروف ولا يعلم ما وراءها . واعلموا انكم متى اجتم لتقسكم نقل ما لا تعلمون
ورطكم ذلك في شعاب حرجة واوردكم موارد وييلة لما تعلمون من كثرة المتهافتين
على التاليف بقصد الشهرة او الكسب افهموا ما ينقلونه او لم يفهموه فاذا لم تعتمصوا
بالبحث في كل مسألة تلتقونها عن غيركم لم تامنوا الوقوع فيما يعسر عليكم المخرج منه
وكنتم سبباً في نشر الاوهام وذريعة في افساد العلم ولا سيما ونحن في عصر قل تقاده
يفشو الغلط من غير تكبير وتلقاه الناس من وجه الثقة فيعم الفساد

وكلكم يعلم بما صارت اليه حالة العلم في هذه الاقطار وما نحن فيه مذ مئآت
من السنين من التخلف والوقوف حالة كون غيرنا من الامم التي رقيت بعدنا في
معارج المدنية لم تزل عاكفة على ادمان البحث والتحقيق دائبة في سبيل الكشف
والاستنباط الى ان بلغوا من البسطة في العلم والتبحر في مداركه واستقصاء غاياته
ما هو معلوم وزادوا عليه وفرعوا منه ما لا يقف عند حد ولا يحيط به احصاء وكل
ذلك مما خلت كتبنا ومدارسنا عنه فضلاً عن ذهاب ما كان في خزائنا من بقايا
علوم السلف الا ما لا غناء به مما لا يتعدى اداب اللسان . فحج اليوم في امس الحاجة
الى استرجاع تلك الذخائر ونقل هذه المستحدثات الى لساننا العربي لئلحق باولئك
القوم ونستأنف خطواتنا في السبيل الذي تقدمونا فيه . فاذا عمدتم الى شيء من
التاليف فليكن فيما دعت اليه الحاجة مما ذكر تدرعاً الى بث مثل هذه العلوم في البلاد
لما تعلمون من اننا قد انبينا الى عصر لا يتجزأ فيه من الحقائق بقواعد النحو والبيان
ولا يستغني من الاختراع بابتكار معاني الغزل والمديح وكلكم آخذ بطرف صالح من

السنة اولئك القوم وعندكم من اصول العلوم الطبيعية والرياضية وغيرها ما يمكنكم
من نقل كثير من الفوائد المحتجبة وراء ظل العجمة تردونها في قالب عربي وتشررونها
في البلاد فتتوفر بذلك علوم الوطن وتنزين مكاتب اللغة بما تزيدونها من
مثل هذه التصانيف المرسومة فيها السماؤكم بما يضمن لكم الثناء الطيب والذكر
الباقى على الاحقاب

وليس من غرضي فيما ذكر ان اصرفكم عن الاشتغال باداب العربية والتوفر
على اتقان علومها واحكام الجري على اسلوبها ولا سيما مع بعثة اللغة في هذا العصر
وانتاعاشها بعد كيوتمها اعصاراً طويلاً واقبال المتادبين واهل العلم من كل اوب على
اقتباس فنونها واحراز اعلاقتها علماً بما لها من المزية التي انفردت بها عن سائر اللغات
بجزالة الفاظها وبلاغة تراكيبها وما في وضعها من الحكمة والابداع فضلاً عن ان
اثقان اللغة عند كل امة مقدم على جميع العلوم اذ هي القالب الذي تسبك فيه المعاني
والمرآة التي تمثل فيها صور الخواطر فما كان ذلك القالب اجمل تكويناً وتلك المرآة اصنى
ماء جاءت المعاني ابداع والخواطر اظهر وانصع ولذلك كان اشتغالكم بها واحكامكم
لعبارتها واسلوبها والتعمق في معرفة مفرداتها واحكام مجازها واشتقاقها من اعون
الذرائع لكم على بلوغ الغرض من التاليف فيها ونقل العلوم المذكورة اليها لانكم
بذلك تستطيعون ان تصوروا المعاني بصورها وتلبسوها اثوابها الخليقة بها وتستنبطوا
لها الالفاظ التي لم يسبق لها وضع في هذه اللغة مما حدث بعد عهد اربابها وانما الذي
ينبغي ان يجتنبوه فيها الايغال في نقصي مذاهب النحاة واسنقراء ما قيل في كل
مسألة مما لا فائدة فيه للعقل ولا زيادة تبصرة في الاستعمال اذ وجه الاستعمال على
جميع الاقوال واحد والمجمع عليه من الوجوه الفصيحة منصوص عليه في اماكنه مما
عرفتموه . ويتصل بذلك التنقيب عن الانواع والجناسات البديعية وتوخيتها في صوغ
الكلام من النظم والنثر فان ذلك هادم لاركان البلاغة مشوهة لمحاسن وجوه الفصاحة
لما يقتضيه على الغالب من التكلف والخروج بالكلام عن وجهه الا ما جاء منه اتفاقاً
او على غير كلفة فانه يعد من المحسنات وحسنه يكون بقدر قربه من النظم الطبيعي
الا ان هذا قلما يعتمد به في نظر البليغ اذ العبرة باصول المعاني التي يبنى عليها الكلام
لا بالتجسينات اللاحقة الواردة مورد الزينة على ما نهبت على ذلك كله علماء البديع .
ولهذا كانت المحسنات المعنوية اعلى من المحسنات اللفظية لرجوعها الى المعنى الذي هو

المقصود من الكلام فضلاً عن ان اللفظية كثيراً ما يكون المعنى فيها مستعبداً للفظ
 لاقامة الجناس او الفاصلة وانما يطلبها على الغالب من لاغناء عنده من المعاني فيموه
 على الاسماع بهذه السفاسف التي لا تثبت على النقد ولا محصول منها في الفهم
 ولقد رأيت من الناس من التزم السجع والجناس حتى في التقريرات العلمية
 وكتب التاريخ ونحوها مما قيد الكاتب فيه باغراض وحقائق لا متسع له عنها ولا
 محل فيها للزخرفة والخيال وبهذا تعلمون قدر ما اولع الناس بهذا المذهب السمج ولا
 حاجة بعد هذا الى ذكر ما بلغوا اليه من ذلك في الخطب والشعر مما استغرقوا فيه
 المذاهب ولم يتركوا غاية الا اتوها حتى صار السامع اذا تلي عليه كلام كثير من
 اولئك ظنه ضرباً من تصريف الكلم او باباً من ابواب الاشتقاق واصبحت المعاني
 الشعرية كأنما مسخت فاستحالت جناسات وانواعاً وصار من تناول منها شيئاً تاه على
 امرى القيس وابن ابي سلمى ولم يعد المتنبى ومن في طبقتهم شيئاً . ومهما يكن من
 مذاهب الشعراء فاني لا ارى لاحد منكم ان يتعلق قول الشعر ويضع اوقاته في
 معاناته لان احدكم احوج الى علم يستزيده وليس في احدكم فضلة لان يخرج من
 قريحته ما ياخذ به الناس عنه واذا لم يكن في الشعر ما يستفاد من حكمة او ادب او
 ما يعجب من ابتكار معنى او ابتداه نكتة وكان قصارى ما يدور عليه الوزن
 والتقنية فما اقلها جدوى تسهر عليها النواظر وتكد فيه الخواطر ثم لا يكون وراءها
 الا اصوات يمكن ان يؤدى مثلها بنقر الدف ووقع مطارق القصارين . واذا كان
 فيكم الشاعر المطبوع يجيش في خاطره الشعر فلا يستطع ضبطه فيلصرفه في الاغراض
 الادبية والعاريفية او وصف شيء من الاحوال والمشاهد الطبيعية او ضبط شيء
 من قواعد العلوم دون التشبيب والمدح وما شاكل ذلك مما يذهب بالزمان سدى ولا
 يتناول منه فائدة

واعلموا ان المرء مفتون بينات افكاره فسواء كتبت شعراً او نثراً فلا تعجلوا الى
 نشر ما كتبت ولا تكونوا من انفسكم على ثقة وان استحسنتم ما صدر من قرائحكم
 لاول وهلة ولكن ينبغي ان تكونوا لخواطركم متهمين وتراجعوا ما كتبت مراجعة الناقد
 المتعنت وان اصبتم في كلامكم ما ينبغي اطراحه فلا تبتئسوا من ضياع جهدكم فيه
 ولا تحرصوا على كثرة ابيات القصيدة ولا على توفر الجمل وتعدد السطور فانه لم تعب
 قصيدة قط بقلة ابياتها ولا مقالة بقصر لفظها ولكنها تعاب بغلظة واحدة او لفظ

ركيك او معنى في غير محله فتسقط لذلك برمتها . ولا باس عليكم ان تضعوا كلامكم بين يدي من تقنون بعلمه لينبهكم على ما فيه من العيوب فان نقد واحد من من الاصدقاء ومناصحته في الستر خير من تنديد جماعات من الاعداء والحساد على رؤوس الاشهاد . وكلكم يذكر شأن الشاعر الكبير زهير بن ابي سلمى وما كان يفعله من عرض قصائده على اصحابه الشعراء والتوفر على تنقيحها حتى يأتي على القصيدة منها حول كامل ولذلك لقبت قصائده بالحوليات ولم يكن يستحي من ذلك ولا أتي من جهته قط فضلاً عن انه كان معدوداً في جملة فضائله يؤثر عنه الى هذا اليوم

وفي الختام اوصيكم بالمحافظة على ولاء هذه المدرسة التي هي موضع نشأتكم وجمع اشدكم وفيها غذية احلامكم ومنها نبضت لكم مناهل الدراية والرشد ومن اشبعها اقتبست بصائرهم ما تسيرون في ضوئه سحابة العمر وعلى الجملة فهي التي اتمت لكم ما رزقكم الله من نعمة العقل واكملت فيكم فضل النطق ووصلت ايديكم باسباب النجاح ونهجت في وجوهكم سبيل الفلاح وارسلتكم رجالاً يتدرجون في مراتب الفضل والعرفان ويحلون محلهم من اندية العمران واعلموا انها لن تزال عصمة لكم تاوون منها الى ركن عزيز كما آوتكم من قبل في حرز حريز فكونوا عندما يفرضه عليكم الوفاء من تذكرو نعمائها وما تنقضاكم الذمة من الاقامة على صدق ولائها ولا تغفلوا عن عرفان ما لعبطة مؤسسها العلامة الفضال من الايادي البيضاء واجمال الشناء على تشييده لكم هذا المقام الذي فيه تعلمتم صوغ الكلام وتجبير الثناء وتعهده لكم بالعناية وجميل الرعاية في حالي المشهد والمغيب وافاء ظل فضله عليكم واحسانه اليكم ليبلغكم من الفوز اوفى نصيب لا زال كوكباً للشرق ترسل اشعة هديه في الافطار وتسير بفضل نوره متحيرات الابصار

وهذا اليوم موعد تفرقكم الذي به ينحل عقد هذا النظام وينوب اجتماع كل منكم بذويه عن اجتماعكم في هذا المقام فكونوا على القرب والبعد اخوان صدق تجمعهم نسبة الادب ووحدة الطلب وتضمهم رابطة الوطنية وجامعة العثمانية حتى تكونوا كالبنين المرصوص يشد بعضه بعضاً في احياء اثار العلم والثقافة وتوثيق اسباب الحضارة والتقدم في ظل دولتنا العلية الباذخة الاركان القائمة تحت لواء مولانا السلطان عبدالحميد خان ايد الله دولته وايد به دعائم العدل والامان وجعل ايامه

تاجاً على مفرق الدهر كما جعل ذاته تاجاً على مفرق الاكوان . اللهم آمين

عيشة الخلاء

« لاديب بك اسحق »

كتبها اذ كان في صيف عام ١٨٨١ متردداً الى بعض
قرى لبنان طلب التنزه وتبديل الهواء

قال

لقد سكن الهواء وقتر الماء ووقعت سهام الشمس على الراس وثقلت وطأة الليل
على النفس فما لطلاب الهناء سوى الخلاء وما لاخوان الصفاء غير الفضاء . فاهجر
هواجر الحواضر وذر مفاصد المحاشد وسر بي بسرب الادب وصحب اولي الالباب
نلتمس في الجبال نسيماً بليلاً وفي الاودية ظلاً ظليلاً ولا نتمتع بنا العربة سارية
على عجل بين السهل والجبل فانك ان ادركت اثارها لم تامن غبارها ولا تيجر وراء
الفرس يركضه القبعي خبيثاً فيسحب قوائمه تبعاً . فانك لم تجد ثم رقيقاً يكون بنفسك
رقيقاً بل انقرد بالخاطر تطلقه اطلاق الجواد بين الربى والوهاد

واغتتم نشق نسيمات السحر قبل ان تمنى بانفاس البشر

وقابل الفجر قبل انفجار بركان النهار وقبل طلوع الغزالة على هودج النار وتعطر
بما يمر بالخزام والشيج من خطرات الريح وسرح طرف عينيك بجمالي جمال ما بين يديك
فقد نسقت صفوف الاشجار على ضفاف الانهار وتكلمت هام الاغصان من لآلي
الندى بتيجان وغرد العندليب على العود فاذا ذكر بانغام اسحق على العود والهواء يملأ
القلوب حياةً وهناءً والماء يسيل في الابدان صحةً وشفاءً

والافق يبسم والطيور صواحح والنهر يرقص والغصون تصفق

ومن فوق ذلك جبال لبنان تستهزى بعاديات الزمان لزم رؤوسها الشيب
فازدادت به جمالاً فنادى لسان حالها رب زدني كمالاً . فكان في هامها الشتاء وفي عنقها
الربيع وفي قلبها الخريف وتحت اقدامها الصيف والبحر من وراء ذلك يحدجها بعينه
الزرقاء قرده صخورها الصماء فيعود راغياً وجداً مزبداً حقدماً يدفع سابق موجة

اللاحق انكساراً كما انهزم الجيش فارتدت طلائعه الساقية فراراً
فتلك هي الحياة لا ما اتفقت في الطلب وما صرفت في التعب بين مداح تدينه
وتحشاه ومفاج تخاف غضبه ولا تأمن رضاه والفراى اللوم راعه وسكن اذا اودعته
القلب اضاعه وبين ذلك تمالك وانقباض وصد واعراض ودلال وهجر وملال وغدر
وصحبة بالموادعة ووفاء بالمدافعة وشفاه لا صلة بينها وبين الضمائر والسنة لا علاقة
لها مع السرائر وعيون لا تشف عن القلوب واخوان فيما لا يس الجيوب ودهان
واجلال واعظام ورياء واكرام واحتشام
ولقاء الانام عذب ولكن كدرته مؤنة الاحتشام
فاغتم هذه الاويقات قبل انهدام اللذات فالزمان يومان ماضٍ لا يرد وحاضر
لا يعلم له غد فاذا ذكر امسك الذي فات ووات يومك قبل الفوات

—>o<—

التشبه

« له ايضاً »

قال

من تردى برداء ما رآه لايه
وابتغى ما قد تعالى عنه مما يشتهي
سوف ياتيه زمان يتمني الموت فيه

وقد ابت لي نفسي ومشرب يعرفه الناس منها ان اكون من القائلين بالامتياز
من غير مزية . افي او من بالله واقر له سبحانه وتعالى بالعدل الذي هو عين المساواة
واظن بيني نوعي خيراً معترفاً لكل سوي منهم بقابلية الفلاح والارنقاء فما اردت
بما تمثلت به من ذلك الشعر ايجاب تشبه الانسان بابيه وقوقاً عند حد التقليد ورضاه
بما وجدت يده فعل الوكل البليد وانما قصدت الاشارة الى من يتمثل بمن لا يصل
اليه فيما يز ادراكه عليه فيكلف نفسه ما لا تسع ويلقي على عاتقه ما لا يطيق فيفيء
بالخيبة والذل صاغر النفس قبل الوصول الى منتصف الطريق وفي مثل الضفدع
اذ انتفخ تمثلاً بالجاموس فانشقت مرارته عبرة لاولي الالباب
ولقد سرت هذه العلة في ديارنا بين الاكابر والاصاغر والواوسط فضاعت بها

الاموال وساءت الاحوال وفسدت الاخلاق وضاعت الارزاق وصار اكثرنا كالتقبور
المكاسة بيضاء الظاهر وليس في باطنها غير الدود

في اقريني الوسط المستور بالبركة على م نحمدى الغني فيما لا نخدع به الا انفسنا
من الزخارف والاباطيل ا رأيت لو رفلت زوجاتنا بالحرير الاطلس يكس باطرافه
قامة الشوارع فيغنين البلدية عن الكناسين ولو تحتم اولادنا بالجواهر مستعاراً ونقلدوا
سلاسل الذهب مبتاعة بالدين تشبهاً باولاد الاغنياء ولو سكننا القصور مفروشة
بالديباج يطالبنا الغرماة بثمنه قبل انقضاء العام او نبذل فيه جل راس المال انسدل
على حقيقة امرنا حجاباً ونلقي في اعين الناس تراباً فلا يظهر من حالنا الا ما نريد ولا
يرى منا الا ما نظهر بل نحن نسعى الى دمارنا بارجلنا مخربين بيوتنا بايدينا

وانت يا خليلي الفاعل الاكل الخبز بعرق الجبين فيم تشبهه بالاوساط وما
فوقهم من الدرجات ا رأيت لو خرجت زوجتك من بيتها الحقير بزي امرأة جارك
راحب القصر الكبير على رأسها نقاب ثمين وفي يدها عالة او مظلة من الحرير ولو
رضيت بالفول غذاءً وباذناب الفجل عشاءً لتلبس زوجتك واولادك ما يلبس الاغنياء
وانتم في مبيت لا يرضونه مربوطاً لخليهم ا يغير ذلك شأنك ويرفع بين الناس مكانك
فلا تحسب معه حمالاً او حماراً ولا تعد ماهناً او اكاراً بل انت معرض نفسك للسخرية
تجرمها مما يحتاج اليه لتظهر بما يضحك الناس منه

سلفي اخبرك باحوال امثالك في بلاد المساواة المطلقة والاجتهاد المستمر فالواك
لا يتحلون بالذهب ولا يلبسون الجوخ الناعم من فوق معدية فارنة تطلب المدد ولا
تزيان نساؤهم بازياء نساء الممولين وانما لباسهم الكتان صيفاً والصوف شتاءً ولنسائهم
واولادهم ملابس تليق بشانهم وتلايم احوالهم يخرجون بها في اوقات الفراغ راضين
بما وصلوا اليه فرحين بما هم عليه لا يس قلوبهم الحسد ولا تعرف انفسهم الذل فاذا
انقضى زمن العطلة او يوم العيد عادوا الى شانهم يسعون فيه تشتغل نساؤهم كما يشتغل
الرجال ولا يرى اولادهم في الازفة متمرغين في الاحوال واذا مر بهم سادة القوم من
الوجهاء والاغنياء لم يخفضوا بين ايديهم راساً ولم يخافوا لهم قوة وباساً وانت مع
ترديك بالجوخ ولبس زوجتك الحرير نفق على ابوابهم موقف الدليل الحقير فما
ضرك لو تركت ذلك الزين ولم ترض هذا الشين وانت في غنى عن الخالين
الا ساءت عاقبة من جهل حده فعمدها ونظر الى من فوّه فعمدها فولت به القدم

فندم حين لا ينفخ الندم . اطمع نفسه فيما تقصر يده عنه وعود اهله ما لا
يستطيع الاستمرار عليه فطالبوه به فلم يصبه حلالاً فاحتال فلم تغن عنه الحيلة
فسرق فامتنعت عليه السرقة فاغتال فان عز عليه بعد ذلك فحياته في اهله عناء
دائم وبلاء مستمر

ونعم الرجل من تشبه بذوي الفضل واهل الاجتهاد فيما ادركوا به الامنية وبلغوا
المراد فطلب فحصل وسعي فادرك وجد فنال وتعب فاستراح لم يقنع قناعة الوكل ولم
يطمع طمع المغرور فذلك هو المعنى المراد من قول من قال فاجاد
وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبه بالكرام رباح

اليونان والرومان

« له ايضاً »

(وهي خطبة القاها في جمعية زهرة الاداب)

لو عدل تاريخ اليونان والرومان بتواريخ سائر الامم في جميع الازمنة لكان
اوسع منها مجالاً واوفر مادة واكثر انتشاراً ولا بدع في ذلك فان هاتين الامتين
معدودتان بمنزلة الاصل الاول او الوسيلة المعروفة في وصول التمدن والعلوم الى
الغرب حتى ان العلم بلسانيهما القديمين كان من لوازم العالمية في جميع البلاد الاوربية
ولا يزال كذلك في كثير منها الى الان . ومن اجل هذا اقبلت على جمع شيء
من تاريخها بقصد المقابلة بين ما نشأ عن كل منهما من الآثار النافعة والموازنة
بينهما في الفضل والمقام المدني لا اقصد بذلك غرضاً في النفس ولا اخرج فيه عن
قسطاس التاريخ على ان المقام ضحك فيما تعلمون وما هي الا تجربة مبتدئ يعرضها
لاخوانه ويسترها عن غيرهم من الناقدين

ولا بد قبل الشروع في تاريخ الامتين من الاشارة الى جغرافية المملكتين لما
بين التاريخ والجغرافية من التلازم في كثير من الاحوال
فمملكة اليونان لم يحددها القدماء تحديداً شافياً جلياً وانما قسموها ثلاثة اقسام
البلوبونيزية جنوباً واليونان خاصة في الوسط وتسالية شمالاً ثم اضافوا اليها ايليرية
الجنوبية ومكدونية وثرافة والجزائر اليونانية . هذا حد ما بلغ اليه تقسيمها الاصلي

على انه كان لدولها املاك كثيرة في سائر اقسام الارض بما فتحت من الامصار
وما اكتشف رجالها من الاقطار وما استعمرت نزالاتها من الديار . وقد اختلف
تقسيمها عن ذلك عقيب موت بلويس وفي خلال حرب تروادة وحرب البلوبونيزة
الى ان دخلت في ولاية الرومان عام ١٤٦ للميلاد فصارت ايلالة او قنصلية رومانية
وسميت اخائية ثم صارت في زمن اغستوس ولاية سناتية اي لاحقة بمجلس السنات
ولما قسمت السلطنة الرومانية في زمن قسطنطين دخلت مملكة اليونان في سلطنة
الشرق وما برح اسمها مع ذلك اخائية ثم صارت مع مكدونية في النصف الثاني من
القرن الرابع مملكة برأسها الى ان استولى الصليبيون على القسطنطينية فجعلوها
امارات متعددة لغير واحد من روساء جند البندقية وجنوى ولما فتح العثمانيون
القسطنطينية استولوا على معظم تلك البلاد ثم تم لهم امتلاكها جملة فجعلوها ولايات
اربعا ولاية تسالونيكية وولاية يانينة وولاية ليوادية وولاية المورة او ثريبوليزة
فبقيت على هذه الحال بلا تغيير يذكر الى ان كانت سنة ١٨٢١ فنشط اليونان لطلب
الاستقلال فتسنى لهم ذلك بمساعدة بعض الدول العظام فصارت بلادهم مملكة
مستقلة تمتد من الغرب الى الشرق من جون ارتا الى جون فولو ويمجدها من الشمال
بلاد الدولة العثمانية في اوربا ومن الشرق والشمال الشرقي الجزائر المعروفة
بالارخبيل ومن الجنوب البحر المتوسط ومن الغرب بحر اليونان وطولها ٢٥٠ كيلومترا
وعرضها مئتان

اما مملكة الرومان او ايطاليا القديمة فقد كانت منذ القرن الرابع قبل الميلاد
مقسومة ثلاثة اقسام غالية او غولة السلبية في الشمال وايطاليا خاصة في الوسط
واليونان الكبرى في الجنوب فكان يحدها شمالا مسكرا وانين واتيس وغربا البحر
المعروف بالداخلي وجنوبا سيرانوس وفرنتو وشرقا بحر الادرياتيك ثم قسمت في
زمن الجمهورية سبع ولايات وفي زمن الامبراطورية احدى عشرة ثم غير ادريانوس
هذا التقسيم فجعل المملكة ولايتين اثنتين ولما مات قسطنطين قسمت المملكة من
بعده اطلق على ولايتين من سلطنة الغرب اسم ايطالية ولم يكن كل ما فيها من البلاد
منها وبعد اضمحلال سلطنة الغرب قسمت ايطاليا بين يوستينانوس الثاني امبراطور
الشرق والمباردين . هذا حد ايطاليا القديمة اي نفس بلاد الرومان اما الاقطار
التي آت اليهم بالفتح والاستعمار فما لا يكاد يدخل الحصر لشعبه وكثرته وتعاقب

انواع التقسم فيه

ولعد الى اليونان لذكر شيء من تاريخهم فنقول سمي اليونان اولاً انستين
اي اهل تربة واحدة وهم في الاصل قبائل وبطون من البلاسجيين ولا يعرف اصلهم
في ما وراء ذلك ولكن الاكثرين على انهم جالية من اسية الصغرى وقد كانوا
قبل عام ٢٠٠٠ قبل المسيح في حالة البداوة والخشونة ولم يذكر التاريخ لهم من مدينة
قبل سيسيون التي اخطتها اجباله في القرن التاسع عشر قبل الميلاد ثم انهم اقوام
من مصر وفينيقية باسباب الحضارة والمدينة فاخذ ايناكوس وابنه فوروني منهم
مدينة اركوس وشرع اسبرتون في بناء مدينة اسبرته عام ١٨٨٠ ولم تم على عهده
وانما كل بناؤها على يد ليليس عام ١٧٤٢ وبعد ذلك ظهر الهيلانيون الذين
يطلق اسمهم على امة اليونان الى هذه الايام فاستولى رجل منهم يقال له سيرويس
على اثينا سنة ١٦٤٣ وآخر يقال له دكايون على تسالونيكية عام ١٦٣٥ وحكم كوموس
في ثيبة عام ١٥٨٠ ودانوس في اركوس عام ١٥٧٢ ومينوس في كريت عام ١٥٠٠
وهذه العصور معروفة فيهم بايام الابطال لما حصل فيها لبلاد اليونان من المجد
والسؤدد والفلاح في الزراعة والصناعات وفيها ادخلت بتلك البلاد مذاهب المصريين
والفينيقيين وسنت لاهلها القوانين والشرائع وظهرت فيهم سطوة المراقبة فاستولوا على
البلو بونيزة فاتاها الهيلانيون الذين كانوا اصحاب تسالية واقاموا بها في ولاء المراقبة
الى ان امتلكوها على يد اولاد بلويس عام ١٣٠٧ ثم كانت حروب تروادة التي بالغ
شعراؤهم في وصفها وذكر شجاعة المقاتلين فيها حتى امتزج في تاريخها الصدق
بالخرافات وانتهت عام ١١١٠ ثم حصل الوفاق بين المراقبة والهيلانيين فاستولوا ثانية
على البلو بونيزة واخرجوا سكانها بقوة وكان ذلك ابتداء عصر اليونان المعروف
بالوسط وهو الذي وقفت فيه حركة نجاحهم المدني الى ان عاودتهم الغيرة فبعثوا
بملاحيمهم الى سواحل اسية الصغرى وايطالية والغولة وهسبانية وسارت ركبناهم
باشعار هوميروس العجيبة التي ترفع الذهن بقوة التصور الى ما فوق رتبة الانسان
فاتسع فيهم نطاق الادب وجد بهم الحرص على العلوم والعقائد حتى صار لكل بلد
من اقطارهم معبود مخصوص بذلك البلد ووضع لهم ليكرغوس القوانين في اسبرته عام
٨٩٨ وقامت الجمهوريات في مدنهم لاقامة امور العدل فالغي الملك في اثينا عام
١١٣٢ وفي اركوس عام ٨٢٠ وفي اليدة عام ٧٨٠ وفي قرنتية سنة ٧٤٧ وفي ارقادية

ومسينة عام ٦٦٨ ولم يبق محفوظاً الا في اسبرته . ثم ادخلت الى اثينا شرعية
 دراكونوس عام ٦٢٤ وشرعية سولون سنة ٥٩٠ ووقعت الحروب المادية عام ٤٩٠
 فبلغ ابطال اليونان فيها مقاماً نخفض لمثله رؤوس الابطال . وفي خلال ذلك نبغ
 فيهم العلماء وظهر منهم الحكماء الذين فتح عليهم بما كان مغلقاً على سائر الناس
 فاخرجوا الازهان من ظلمات الجهالة ومهدوا سبل الخروج من دياجر الضلالة فاشتهر
 اشيل وسفقيس واوربيدس بفن التراجميدية البديع وظهر ارستوفانوس بفن
 الكوميديا البهي ونبغ هيرودوتوس وتوقيديدس في صناعة التاريخ وبت اثار
 الحكمة والفلسفة من تاليس وذيقرطيس الذي ينسب اليه الديمقراطيةون اليه ومن
 فيثاغورس وبرمينيدس وهرقليدس وانكساغورس فانشئت على يدهم مدارس الحكمة
 الخالدة الاثار وابدع ابقراط في الطب وهو واضع اصوله واول كاتب فيه بلغ من
 العلم به الى حد ان عد علمه وحياً وبقي من بعده ستمائة عام لم يزد واحد عليه حرفاً
 الى ان ظهر جالينوس فاخذ ما كتبه ابقراط وهذبّه وزاد فيه . وظهر سقراط
 وافلاطون وارسطوطاليس حكماء الارض غير معارضين واشتهر فيدياس مصمّم
 الهندسة العظيم وبرقليس الخطيب البليغ الذي ولي الامر في اثينا ثلاثين عاماً
 وغيرهم كثير من العلماء والحكماء والفضلاء الذين ابقوا لبلاد اليونان مجدّاً ثابتاً
 على مرور الزمان

ثم اختلفت امور اليونان الداخلية بما نالهم من النشوة بالنصر في الحروب الخارجية
 فوقعت حرب البلبونيزية ودامت فيهم سبعاً وعشرين سنة ثم اجلت عن حصول
 الامتياز لاسبرته على سائر البلاد اليونانية ثم وقع الاتفاق بين تلك البلاد على ضد
 لقدمونية وعظم شان اثينا باعمال كولون وافقراط ولكن انتالسيدياس واثق الفرس
 ميشاقاً دينياً عائباً عام ٣٨٧ فكان ذلك سبباً في قيام اليونان على اسبرته . ثم جرت
 الحرب المعروفة بالمقدسة على ضد الفوقيين الذين احرقوا هيكل ذلفة عام ٣٥٥ فكانت
 وسيلة لتداخل فيليب صاحب مكدونية في امور اليونان فانتهزها فرصة لادخالهم في
 طاعته فقاومه دمستين اشد المقاومة وذاذ اليونان عن انفسهم ما استطاعوا ثم دانوا
 له بعد يوم شيروني عام ٣٣٨ واستمرت فيهم الحروب الاهلية بعد ذلك حتى وهنت
 قواهم وعظم اختلال احوالهم وضعفت مستعمراتهم من قلة المدد فباغتهم الرومان
 على هذه الحال من الوهن واستولوا على ايليرية عام ٢٢٩ ثم نزلوا مكدونية عام ١٦٨

وامتلكوها عام ١٤٧ وصارت بلاد اليونان ولاية رومانية عام ١٤٦. ومذ حينئذ لم يبق لتاريخ اليونان شأن يذكر لما انه دخل في تاريخ الرومان ثم لما شطرت السلطنة الرومانية في القرن الرابع للميلاد ادخلت بلاد اليونان في سلطنة الشرق واخذت هاته السلطنة في التلاشي من توالي هجمات البرابرة من الوسقوط والوندال والاستروكوت والبلغار وغيرهم ثم زحفت العرب اليها في القرن التاسع وتلاهمل بلغار في العاشر فلم يفوزوا منها بطائل ثم نازلها فادكسكار بالنورمنديين عام ١٠٨٠ ثم قامت بها الدولة اللاتينية فجعلتها عدة اقسام لامراء من الصليبية يتولونها في حماية صاحب القسطنطينية الى ان تم الفتح الكبير للسلطان محمد الثاني عام ١٤٥٣ فاستولى القائد عمر باشا على اثينا عام ١٤٥٦ ودافع اسكندر بك المشهور عن استقلال ابيرة الى ان مات فوفعت بيد العثمانيين عام ١٤٦٧ ثم دانت لهم المورة سنة ١٤٦٠ وبقي اليونان في ولاية الدولة العثمانية قرنين الاقليلاً وفي ولاية الاجنبي من قبلها خمسة عشر قرناً صابرين ذاكرين مجددهم السابق مترقبين الفرص لاعادة الاستقلال حتى ان الوقت فسطوا من العقال وشقوا عصا الطاعة واعانتهم بعض الدول الاوروبوية فتم لهم الاستقلال وصار لهم مملكة معروفة بهم عام ١٨٣٠

اما سلطنة الرومان فخلاصة تاريخها ان ايطاليا كانت معروفة منذ القديم باسم ساترنية ثم حل بها قوم من الاركاديين تحت لواء (انورتوس) قبل حرب تروادة باربعماية سنة فسميت (انورتية) ثم استولت عليها قبيلة غير تلك من الاركاديين تحت قيادة (افندر) الذي خرج من البلوبونيزة مطروداً . وكان سكانها الاول من البلاسجيين والابوريجيين واللبريين ثم اتاها الهيلانيون من اليونان وجاء بعدهم اقوام من الغاليين فكانت لهم مستقراً مكيماً الى ان اتاها بلوفير في القرن السادس قبل الميلاد فضعفت شوكتهم ومالت سطوتهم الى الهبوط . وكانت رومية عامرة منذ اختطها قوم ابي عام ٧٥٣ قبل الميلاد فلما ضعف امر الغاليين عدا اهلها عليهم فدانوا لدولتها خاضعين ثم سار اهل رومية على الملك تركين الملقب بالكبير عام ٥٠٩ ق م فخلعوه واقاموا لانتسهم حكماً جمهورياً فكانت هذه الثورة سبباً في تاخير ظهور آثارهم مائة وستين عاماً على انهم جدوا بعد ذلك في سبيل المجد حتى بلغوا منه غاية لا تدرك . وكان في تلك البلاد على ذلك العهد ثلاث قوى عظيمة الشأن قوة الغالين في الشمال وقوة السمينثيين في الجنوب وقوة الرومان او اهل رومية فتمت

هذه القوة الاخيرة بعد استحكام جمهوريتها وانتظام جنديتها فقامت الحرب على
 ساقيها من سنة ٣٩٥ الى سنة ٣٥٠ ومن سنة ٣٤٣ الى سنة ٢٦٧ قبل الميلاد فخضع
 لها السميتيون واستولت على بلاد الوسط والجنوب من ايطالية ثم انصرفت الى محاربة
 الغالين على ارضهم المسماة بغالة السيلبية فصبروا لها من سنة ٢٢١ الى سنة ٢٧٣
 ثم وهنت قواهم فاستولى الرومان على بلادهم الا نواحي قليلة منها وصارت جمهوريتهم
 اعظم قوة في ذلك الاقليم بل اعظم قوة في الارض على الاطلاق بما حصل فيها من
 حب الشرف وحب الوطن وحفظ النظام العسكري فداخلها الطمع في غير ما ملكت
 من البلاد فانصرفت قوتها الى الفتوح واستولت على سردنية وغولة اي بلاد الغوليين
 التي هي الان بلاد الفرنسيين وعلى قرطجنة وكانت بينها وبين انيبال قائد قرطجنة
 الكبير حرب ليست كالحروب اوشكت ان تكسر شوكتها وتبيد سطوتها وتجعلها على
 سفار الاضمحلال ولكن ساعدتها التقادير ففجحت من ذلك القائد وغلبت عليه فبلغت
 معاوفا الحرية وقتئذ نهاية الكمال . ثم اخذت هذه المزية في الضعف بعد سنة
 ١٢٥ وضعف معها سائر معاوفا الرومان وشببت بينهم الفتن الداخلية فادت الى تغيير
 الحكم فصار ملكياً ووسد بارادة مجلس الشيوخ الى اکتاف فدعي اغسطس ومعناه
 الامير والامبراطور ومعناه القائد الاعظم فابتدأ اغسطس ملكه باعادة الراحة
 والامن فتم له ذلك واجتنب الحرب الا فيما اقتضاه تأمين حدود الملك الى ان مات
 عنه كاملاً محفوظاً فتولاه خلفاؤه من بعده الى ان مات تيودوروس عام ٣٩٥ بعد
 الميلاد فقسم شطرين امبراطورية الشرق وامبراطورية الغرب فاما امبراطورية
 الغرب فكانت منقسمة خمسة اقسام بربطانيا وغالية واسبانية وايطاليا وافريقيا ثم
 قسمت هذه الاقسام اقساماً واندفعت عليها قبائل البرابرة من كل صوب فتلاشت
 بعد وجودها بمائة عام واما امبراطورية الشرق فتار يخها بتديء بموت تيودوس
 وينتهي باستلاء العثمانيين على القسطنطينية عام ١٤٥٣ وفيه خمسة فصول الاول
 من سنة ٣٩٥ الى سنة ٥٦٥ وفيه اخذت ارمينية وسقطت امبراطورية الغرب
 والثاني من سنة ٥٦٥ الى سنة ٧١٧ وفيه توالى عليها النواب والمصائب فتمكن
 اللبرديون من ايطاليا واستقر البلغار والصرب في جنوب الطونة واستولت العرب على
 سورية ومصر وافريقية وقبرص . والثالث من سنة ٧١٧ الى سنة ٨٦٧ وفيه ظهرت
 دولة ايزوربان فققدت ما بقي للسلطنة من الملك في ايطالية وادخل اليها اكرام

الصور على يد سبعة من امراء تلك الدولة وتم انقسام الكنيستين الشرقية والغربية عام ٨٥٨ فكانت رومية مركز هذه والقسطنطينية مركز تلك كما هو اليوم واخذت جزيرة كريد وصقيلة وغيرها ووقعت الحروب البلغارية التي اضرت بسلمطنة الشرق كثيراً والقسم الرابع من سنة ٨٦٧ الى سنة ١٠٥٦ وفيه ظهرت عليها علام السقوط اذ هاجمها البلغار والروس والبشناق على انها استعادت بلاد البلغار والصرب وقبرص مرتين ٠ والخامس من سنة ١٠٥٦ الى سنة ١٢٦٠ وفيه استولى السلاجقة على ثلثي اسية الصغرى ومر الصليبيون بها وكانوا من الساعين في تدميرها ووقعت حرب النورمانيين فاستلوا على صقيلة ثم مات كمنيتوس الاخير فازدادت المملكة ضعفاً فاستقل عنها الصرب والبلغار وعادت الصليبية الرابعة من القدس الى القسطنطينية فامتلكتها فصارت عاصمة مملكة لاتينية ثم نازها الامبراطور ميخائيل باليوغوس فاستردها لنفسه وبذل المجهود في اعادة المجد لهذا الملك وتلاه ولده من بعده ولكن تعذر عليهم الامر اذ تايد استقلال البلغار والصرب والبشناق واستولى الترك على سائر بلاد المملكة فاخذ امبراطور القسطنطينية في استنجد ملوك الغرب وواعدهم بالعدول عن المذهب الشرقي فلم ينجدوه وعظم هذا الامر على رؤساء الدين في المدينة فكانوا اعواناً للعثمانيين على الامبراطور ثم فتح الترك بلاد البلغار وقتلوا الصرب وتم لهم فتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الثاني وهي الى الان عاصمة دولتهم واسمها اسلامبول او الاستانة او دار السعادة

المقابلة

ليس بالامر اليسير محاولة المقابلة بين هاتين الامتين العظيمتين فقد امتلأت باخبارها صحف التاريخ وحاترت في آثارها افهام الناقدين واختلفت احوالها وعاداتها كما اختلفت آثارها والمنافع الناشئة عنها حتى كادت الموازنة بينهما تمنع لولا ان يكون الغرض منها محدوداً قاصراً على ما نشأ عن كل من الامتين من النفع الانساني فاذا تبين هذا وعلمنا ان اليونان خرجوا من الحالة الهمجية الى حالة العرفان والتمدن من عام ١٩٠٠ ق م وان الرومان لم يخرجوا الى هذه الحالة الا بعد ذلك بالف ومائتي عام قلنا

ولكن بكت قبلي فبيح لي البكا بكها وان الفضل للنتقدم
وعلمنا ان اولئك جدوا باكتشاف البلاد المجهولة واستعمار الاماكن المهجورة

وتوسيع نطاق الاسفار في البحار ونشر آثار التمدن بين المتوحشين وفي جملتهم اصحاب دولة الرومان وان هولاء لم يزيدوا على اقامة الحروب واضرام الفتن وفتح البلاد واذلال الشعوب طمعاً ورغبة في الملك فلنا

من اصلاح الامر هو السيد لا يستوي المصلح والمفسد
وان اولئك هم الذين ضربت بحكمتهم وعلومهم امثال المتقدمين والمتأخرين
وبقيت آثار علمائهم على كرور الايام والاعصار فائدة للتبصرين وهم اهل الفلسفة
غير معارضين ومنشئو الطب غير منازعين ومخترعو فن الروايات غير مسابقين
وموجدو صناعة التاريخ غير مسبوقين ومنهم رجال الاهوال وعطاء الابطال واكابر
الخطباء واعاظم الحكماء وفحول الشعراء وهم الذين رفعوا في الارض الوية التمدن
ونكسوا فيه اعلام الجهل وان هولاء وان ظهر فيهم الخطباء والعلماء وكثر منهم
الامراء والشعراء وبلغوا من التمدن غاية قاصية ووصلوا من العلوم مكانة عالية الا
انهم في معظم ذلك مقلدون وفي كثير منه لاهواء النفوس تابعون فلنا
بين المقلد والمقلد نسبة تحكي التي بين التحلل والكحل

نعم ان الرومان قد نشروا انوار العرفان في كثير من جهات الارض وهذبوا
الفنون والصناعات والشعر والخطابة احسن تهذيب وان منهم فرجيل المدني لوميروس
وشيشرون المضارع لدستين وغيرها ممن اتضن بمثلهم الايام ولكنهم مع ذلك
لاحقون لليونان غير سابقين في شيء من تلك المحاسن فالفضل الاكبر لاساتذتهم
على كل حال

اما اساليب الحرب واحكام العسكرية المعدودة من بدائع الحرب فلم يكن
اليونان من قبلهم ذاهلين عنها على تقدير ان تكون من المنافع الانسانية كيف وفي
اليونان امثال القائد اباميندس الكبير

وجملة القول ان اليونان والرومان من بعدهم امتان تجارتا في مضمار المجد
والسؤدد وتبارتا في مجال العز والنجاح وكانت كل منهما مظهراً للفنون البهية والعلوم
السمية والتمدن الانساني حتى امتلأت صحف التواريخ باخبارها وتزينت بقاع الارض
المعروفة بآثارها وما برحت علمائهما اساتذة العالم وحكامؤها ادلا الانسانية اعواماً
تليها اعوام وهم في المنزلة الاولى من الفضل الى هذه الايام غير ان الامة الاولى
كانت الى غايات الفضل اسبق وفي نسب المدنية والمعارف اعرق فالقول الحق انها

الحرب

« لفرنسيس مراثى الحلبي »

خربت الارض خرابا . وانقلبت الجماعة انقلابا . لان الحرب انتشبت . والفننة
انتصبت . فتباعدت الشعوب . وتنافرت القلوب . وخيم سحاب البغض . واكفهر محيما
الارض . حتى اذا ما كثرت مضارب السيوف . وتطنبت مضارب الختوف جرت
الدماء كالجوارى . وتضوّرت الناس كالضواري . فهبطت جواشن النظام . وانقلعت
شواجن الانضمام . وانتلت عروش الصنائع . وانسدت مسالك البضائع . وسقطت
التجارة . وانقطعت الاجارة . وتقوضت البلاد . وانجزر الامداد . وذهب الجار
يعوث بالجار . والمزار يشط عن المزار . وراح كل يزيغ في وعث البلى . ويروغ في
وعكة القلى . فما هذا الدثار العام . والدمار التام . انما هو الحرب والظعن والضرب .
حيثا الفيالق تحمل على الفيالق . والبنادق تسطوعى البنادق . والكتائب تجاذب
الكتائب . والركائب تغور على الركائب . والقنابل تصادم القنابل . والدوابل
تستميل الدوابل . فتتكسر السنابك على السنابك . وتلتطم المسابك في المسابك . اذ
تلعلع المدافع باهوالها . وتهال الارض فتزلزل زلزالها . بينما تلجف القمام . وتتطاير
الجماجم . وتبلسق الهياكل المتحركة . وتهدم المباني المدركة . يوم يصفى البحر
بالامواج . وتلغظ الاودية بالجرجاج . ويلبس الجو جلباب القتام وتغور السماء
في حجاب الظلام . ترقد عيون الدراري . وتدلهم وجوه الثراري . فظلمات بعضها
فوق بعض . وبلايل تبليل السماء مع الارض . فما ذاك من شان الصواب . وما
هو الا رجسة الخراب . ووقوع العذاب والمصاب . فكيف تنزل البشر منازل البهائم
العارية . ويفعل الانسان فعل الوحوش الضارية . اذ ينثر عقد شمله . ويفرق
مجامع جملة . شاهراً حسام القراع . وساهراً باعين النزاع . على عزيمة الصراع . ليختلس
حيوانه . ويقتبس اقرانه . محرّضاً من عدو الطمع الالاد . ووساوس الحسد
الاشد . يستزيد ذاته بنقص الغير . وينسج خيره بنقض الخير . ولذلك لا يفتر
مستغلاً بتقييم العدد . وتكثير العدد . فسوف ينجم النقصان عن التام . ويستقر

الوجود من الاعداد . والحسام يبطل الحسام . فالضرب يغلب الضرب . والحرب
تغلب الحرب



السلام

« له ايضاً »

ولما وقعت دول الحروب . وسكنت حركات الشعوب . تبسم ثغر السلم عن
شنب الهدو . وطافت كؤوس البشرى على الاصال والغدو . واسفرت الارض
عن محيا الابتسام . فاغتمبت الناس في بشائر الامن والسلام . حتى اتسخت البوادي
بجلايب التهانى . وامتصت الصوادي انايب الاماني . وعاد الوري ينضم الى الوري .
والقوم يحمدون السرى . وازدهت البلاد . وازدهرت العباد . وتمكنت مباني الاعمال .
وتوطدت مغاني الاشغال . وبذخت قصور العمار . واستقرت متون القرار . وانثظمت
ساوك الوفاق . وانقصمت عرى الشقاق . فخرس الفم الفاجر وانكسر الذراع الكاسر .
واقترع الطبع القاهر . حتى نام الطرف السهود . وطاب الفؤاد المفؤود . ونعم عوف
الجبان . وامن خوف الزمان . وفك الغنى طلاسم كنوزه . واخذ الذهب ببروزه .
فرت الاغاني في المغاني . وغنت الاواني على الاواني . وقلص نهار الافراح ليل الاتراح .
واستظهرت الاقلام على الصفاح . فها هذه الحالة الهادية . والعيشة الراضية . انما ذلك
طلوع السلام . ووقوع الخصام . حيثما تنعم الناس . ويتبادلون الايناس آمنين على
بيوتهم . وظافرين بقوتهم . فيعيشون حسب خوفهم . يموتون حتف انوفهم . فليعيش
السلم المبتغى . وليمت الحرب والوغى

خطبة

في ان الدين مقتضى الحكمة والكفر مقتضى الجهل

« لسعيد افندي الخوري الشرتوني »

القيت سنة ١٨٩١

احمد الله اليكم ايها المائلون الى الصواب حيث كان . المظاهرون للحق كيف

ثقل بكم الزمان . المكرمون للعقل برد ما يردّه البرهان . العاقفون للنفس ما لا
يجمل ذكره بلسان

وبعد فان الضمير يطالبني ان ابنه الخواطر اليوم الى مسألة هي اعظم من ان
يستطاع الاغضاء عليها . وربما استراح من اضطجع على الشوك ولا يستريح من يحسن
تصورها . ألا وهي الوهم القائم في اذهان جماعة من الخواص ان الدين والعقل ضدان
لا يجتمعان الا متى اجتمع الليل والنهار . وعدوان لا يتسلان الا متى تسلم الهرة
والفار وهو الوهم الذي سطا زمناً على ابي العلاء المعري الضمير فقال
قسم الورى قسمين هذا عاقل لا دين فيه ودين لا عقل له

ويتبع الوهم ذلك ان كل دائن بدين انما هو جاهل بحت لا حظ له من العقل .
وان اهل العلم يتظاهرون بالدين بحكم القواسر المعاشية ولولاها لجحدوه وحرثوا
انفسهم من ظلمه . وان رؤساء الدين المعروفين بالعلم انما يتظاهرون به وليسوا في
شيء منه لكن يبعثهم على ذلك حب ان يستمروا سادة الناس وحكامهم واصحاب
الكلمة النافذة في ارواحهم . ولولا تلك ما زينوا للناس الاستمسك باصوله والقيام
بفروضه حالة كونهم يرونه حباله من جد وراء التسلط على القلوب . وبعبارة اخرى
نحن معاشر اهل الدين في نظر الواهمين عوامنا جهلة كالبييمة العجماء ورؤساؤنا
وعلاؤنا زنادقة . هذه نتيجة هذا الوهم الذي كان اول قدمه الينا على يد بعض دعاة
البدع ثم افشاه عبيد الشهوات الملقبون انفسهم برجال الحرية حتى صار يتكلم به
اليوم على وجه المفخرة بعد اذ كان يستحي من ذكره

وقد اندس هذا الوهم في كثير من الشبان واعظم داس له امران احدهما معايشة
المصابين به المضروبين بقروحه . وهؤلاء يتذرعون الى القاء بذوره في اذهان
الشبان مرة بالقدح في اصول دينية يخرجونه مخرج الهزل الذي يراد به الجدل
ليجتنوا من روض البديع عذراً لهم اذا كان ثم من ينكر عليهم كلامهم . ومرة بتزيين
الاجابة للدواعي اللذات البدنية لمن اكبر همهم قضاء اوطارهم منها . وكلاهما من
اسهل الطرق التي تدب فيها آفات العقائد والفضائل الى القلوب . والثاني مطالعة
المكتوبات التي دس فيها من المطاعن والشبه ما يجير الوهن الى عقائد العوام . وذلك
لضعفهم عن ردها ويمان وجوه الفساد فيها . والمتعلمون لعهدنا جلمهم او كلهم خالو
الاذهان من علم العقائد وحكم الشرائع وتواريخ الاديان ومقتضيات العمران حتى

انها لتدخل على اذهانهم الشبه بصور الحقائق المنزلة

وإذا علمت ذلك كان اول واجب علينا نحن المتشرفين بسمة الدين ان ننبري لدفع هذا الوهم . ونلطح بعار الجهل جباه اهلنا . ونخلع ثوب الرثاء والزندقة على ذويه فعل من يقتات عليه وهو حي ناطق فاقول ان القائلين بالدين هم اهل الحكمة والعلم والصدق والامانة . واما الذين قالوا ان الدين ظلم للعقل فهم الجهلة الاغرار الذين تبرأت منهم الحكمة واليك اثبات ذلك بخمسة مناهج

المنهج الاول ان عمار الارض من الادميين لا بد لهم من اخنلاط بعضهم ببعض وذلك بحكم الحاجة ولا يتسنى لهم هذا الاخنلاط على وجه الراحة والطأينة الأمتى كان مطالباً من قبل نفسه ان لا يخون ولا يغدر ولا يمكر . وموقفاً انه ايان غدر او مكر تعس جدّه في امر اخراه . وصار مغضوباً عليه عند من لا تتخفى عليه خافية . ولا يكون الناس في هذه الحال الا وهم على دين يحرم الضرّ وبأمر بالنفع ويشيب على الحسنات ويعاقب على السيئات . وعلى رأي هولاء الواهمين لا يكون للانسان مطالب داخلي يطالبه بالتزام الصدق والوفاء والمحافظة على حياة القريب فيضطرب المجموع البشري وتخلل شوؤونه . وليس اضطرابه واخنلال شوؤونه بالامر اليسير . واذا ذكرتم ما نالكم من ايجاس الخوف عند انتشار خبر الوباء منذ قليل علمتم ما يكون عن اضطراب المجتمع الانساني هذا في جانب الناس . واما في جانب الله فهو غضاضة على حكمته والتواء في تدبيره وحاشا له من ذلك . وان قيل ان كثيراً مرتقوا من الدين والاحوال منتظمة قلت ان السائد حتى الساعة انما هو الدين . وبآثاره الحسنة يتمتع بالاطمئنان اولئك الذين كذبوا به وحاولوا استئصاله من قلوب معتقديه . على ان كثرة الكفار قد اوقعت اثراً غير محمود في الالفة الا وكل يشعر اليوم بان طأينة الخلق قد اعتلت بانتشار ما انتشر من مبادئ المعطلة . وعاد الناس في عناء من تفشي الخيانة في المعاملات . الا قولوا لي ناشدكم الله أمن يتخذ وقاية حياته واموره هو الجاهل ام من يعرض حياته للقتل وامواله للسلب فلا شك ان الثاني هو الجاهل الاعمى والاول هو الحكيم البصير

المنهج الثاني ان الرسل الذين جولو الارض ونثروا حب العقائد في الصدور لو كانوا يعرفون ان هذا الدين اكذوبة ما اقتحموا الخروج من مشارب قبائلهم ولا جافوا اذواق اقوامهم . ولا فروا مما كانوا عليه الى الفقر ومناهدة الناس واثارة

سخط المملوك والاقدام على بذل النفوس . ومن البديهي ان الحامل لهم على الخروج عن كل خير دينوي انما هو حب الحق الذي رأوا ان لا سعادة للانسان في دار البقاء الا باتباع سنته فمن اين يكون هؤلاء خداعين مكارين . فدعوى الواهمين اذا لا يليق ان يرتفع لها حجاب السمع . ولا جرم ان قبولها من اشد ما يحققر به العقل المنهج الثالث ان التعطيل على تقادم عهده وجدّ ذويه الى ان يقرروا لمبادئه السيادة في الخلق لم يخبرنا تاريخ من التواريخ انه كان في عصر من الاعصار الخطة المتبعة في مملكة من الممالك مع ان الوثنية على علاقتها قد سادت ولم تنزل حتى اليوم ديانة عدد كبير من الناس . نعم نقل الرواة ان التعطيل كان يستوي في بعض الازمنة كما تستوي الامراض فيجرف عقائد الذين يأمنون به جرف السيول ثم لا يلبث ان تنكسر عاديته وتخمده ناره . اما الدين فقد ساد من لدن تالفت الجمعية الانسانية الى يومنا هذا ولن يبرح سائداً يد الدهر . والحاصل ان حلاوة ثمرة الدين هي التي سودته واعلت في عيون القلاء مرتبته . ومراة الكفر هي التي تسببت في ركود ريجه والجات اهله في كل عصر الى التستر برداء الدين والاستذراء بظل الايمان

المنهج الرابع ان الحرية التي كانت شعار دعاة الدين وزعمائه واتباعه والشجاعة التي اظهروها بين يدي من كان يخبرهم بين القتل والردة ومجاهرتهم باختيار القتل على الردة واستحباب الدين مع المذلة والمترية على الترف وسعة العيش في ظل التعطيل . كل ذلك يثبت للدين اجمل صورة واعلى قيمة عند اولي الالباب . بل كل ذلك جواب مسكت مخجل لمن يرمي عوامنا بالجهل وعلماءنا وروساءنا بالرياء قل لي هداك الله هل يجتمع الحرية والرئاء بل هل يأتلف الجود بالنفس في اعزاز الدين مع الزندقة

فيا ليت شعري لو قدر ان ملكاً وثنياً اراد كافرًا على الوثنية فقال له انت بين اثنتين اما ان تعبد الوثن وتعيش واما ان لا تعبده وتقتل آكل يمد عنقه للقتل كما فعل آباؤنا الاولون . كلا بل كان يقول آمنت بالوثن وصدقت ويدخل في الوثنية طائفاً . وهو الصواب بحسب قاعدة التعطيل لانه لا يسخط الهما يعبده ولا يخاف على ثواب يرتجيه ولكنه يصير كاذباً بدعواه انه انما يفعل عن تلقين العقل وانما يجري على حكم البحث فما ثبت به يكون مقبولاً عنده . وقد صح بعد البحث ان عبادة

غير الله مرفوضة بحكم العقل فلماذا خالفها ان كان ينقاد لاحكام العقل . وكفى بهذا
 للعاقل دليلاً على تعالية المعطلة فما من حكيم بخلصهم من التناقض بين دعوى الحرية
 والتبلس بالدين

المنهج الخامس ان انوار العلم انما برزت في الغالب من رجال الدين فهم الذين
 تولوا تعليم الناس وارشادهم وعنهم اخذت المعارف والعلوم وقد نبغ عالم من المتدينين
 وبلغوا شأواً من العلم قصرت عنه جياذ الازهان . وقد تسهل لبعضهم اسباب
 المروق من الدين فما فعلوا بل ثبتوا وكتبوا ما هو صريح بان الدين هو مصدر المدنية
 وحياة الانسانية . فلوان العلم يبطل الدين ما كان روءاء الدين بينون المدارس
 وينشرون المعارف ولو ان العلماء الذين ترقى بهم علومهم الى مراتب عالية من الفهم
 وصفت نفوسهم من اكدار المطامع والشهوات لو انهم يرون الدين اكدوبة لارتدوا
 عنه وجاهروا بمقاومته . الا وان حالم حال من ينصف عقله ولا يظلم حسه . فهذه
 خمسة مناهج كل منها ينتهي بك ان نهجته الى الاقتناع بان الديانة ثمرة الحكمة والكفر
 ثمرة الجهل والشهوات والمطامع

ثم انكم تعلمون ان في هذا العصر جمعيات كثيرة بعضها مرفوض المبادئ
 في مذهبنا كما هو معلوم لكل احد وقد صدرت المناشير البابوية بانشاء اخويات
 ينضم فيها الشبان الكاثوليكيون ويتعاونون على تايد الفضائل والآداب واحياء
 مكارم الاخلاق وكل ما هو ضروري لانتظام الجمعية الانسانية وتوثيق دعائم الملك
 حتى تكون لهم سيرة حسنة تقرب اليهم من كان بعيداً عنهم ولغاية تهذيب
 الاخلاق وتصفية النفوس انشئت هذه الاخوية . والامل معقود بانها تصل الى ما
 تريد من تهذيب السيرة بعناية غبطة السيد السند بوخنا بطرس البطريرك الانطاكي
 والسيد الفضال المطران يوسف الدبس مطران بيروت وسائر مطارنة الطائفة
 الاجلاء وكتبها الفضلاء ووجهائها العقلاء وكل من يعلم ان تحسين الهيئة الاجتماعية
 تابع لتحسين الاخلاق حتى تكون في جملة مخلصات الحضارة في ديارنا من علل
 التعطيل والسلام

الاقتصاد

« لعيسى افندي اسكندر معلوف »

(مقالة ادرجت في جريدة لبنان الغراء سنة ١٨٩٢)

بين تبذير وبخل رتبة وكلا هذين ان زاد قتل

الاقتصاد وما ادراك ما الاقتصاد هو في النفقة التوسط بين الاسراف والتقتير وفي غيرها التوسط بين امرين الافراط والتفريط فيهما مضر للغاية فلذلك لم نرَ لحدّه احسن من قول ابن اوردى الذي صدرنا مقالتنا هذه به

وقبل ان نطلق عنان القلم في مضمار البحث عن هذا الامر المهم يجب ان ننظر اليه من حيث الانواع فنقول

الاقتصاد انواع عديدة منها الاقتصاد السياسي وهو عبارة عن معرفة الوسائل التي بها تنمو اغراس الثروة في حقول السعة والهناء وتجنيف ما يهدد الامم من الكوارث

والوفى وهو ان يوفر الانسان وقته ولا يدع فرصة تمر سدى حتى لا يذهب شيء من عمره طلقاً وقد قال احد الحكماء (الصناعة طويلة والعمر قصير) وقال الشاعر اذا مر بي يوم ولم اكتسب يدًا ولم استفد علماً فما ذاك من عمري وله علاقة ذات شان بالاقتصاد المالى

والكلامي وهو الاقتصار على ما يفيد منه اذا كان الاكثار مضرًا كقول الاخر الصمت زين والسكوت سلامة فاذا نطقت فلا تكن مكثارا ما ان ندمت على سكوتي مرة ولقد ندمت على الكلام مرارا والمالى وهو ما يتخذناه دستوراً الان ففيض فيه الكلام على قدر الاستطاعة الى غير ذلك مما يكون الافراط فيه او الاقلال منه مجلبة للاضرار على حد قول ابقائل فرط التناهي غلط خير الامور الوسط

ولنلم الان بذكر القسم الاخير منها وهو ما يحدو بنا داعي الشوق الى توجيه النظر اليه لاهميته

الاقتصاد المالى هو سبب ذو شأن من الاسباب التي تسنى الانسان ان يعيش

عيشة معتدلة في الهناء والغبطة . ولطالما شغل عقول كثير من الامم الخالية ويشغل
الان وسيشغل فهو والحق يقال الركن الذي تبني عليه صروح الغنى والاس الذي
تشيد عليه ابنية السعة بل الوند الذي تشد فيه اطناب الراحة فتمتد عليه سرادق المنجاح
والفلاح كيف لا وهو الاعتدال بين التبذير والبخل وله من الاهمية ما تضيق دون
سرده صدور الطروس وتقلل عند رفته ظبي الاقلام ولكننا نورد الان من فوائده
وشلاً من بحر ونسرد عليك من منافعه ثمناً من قطر

يبحث الاوربيون في الجهر ليعلموا طبائع ميكروب يتهدد الانسان اي تهديد
ويمزق جلايب غبطته اي ممزق فهو سيل يجرف ركام الثروة الى وهدق تلتهمها
وبركان يدك طود السعة لما يشتعل في داخله من نيران الاسراف وينبعث من
حم التبذير فيذويه ويذهب به كل مذهب بل يفرق اجزاءه طرائق
وبعد التحري وجدوا ان ذلك الميكروب لا يقتله من الادوية الفعالة سوى
دواء مهما تجرمت السنون وانقرط عقد الايام اذ ليس لحجارة القيظ والنار من تاثير
فيه ولا لسبارة الشتاء والبرد من فعل فهو بالحقيقة العدو الاصفر

وذلك المرض هو عدم الانتظام في امر المعيشة فمن الناس من يبذر ويسرف
جزافاً ومنهم من يحرص ويشدد حرصه على غير جدوى وكلا الامرين يوثران في
المجتمع الانساني واشد تاثيرها في من ابتلي بها وانقضت عليه صواعقها وذلك
الدواء هو الاقتصاد الذي لا يصلح ذلك الداء الا به ولا يقتل ذلك الميكروب غيره
من الادوية الفعالة

فعدوا لجنات خصوصية تلافياً للامر ولما للشعث فحففوا بعض البلاء اذ اخذوا
يعلمون الناس ان ينظروا في دخلهم وخرجهم . ثم عرفوا معدل ما يصرف كل انسان
وما ارى عليه مما كان في نيته ان يبذله وراء مطامع لا طائل تحتها يجمعونه في
صندوق فلا يمر زمن حتى يصير ذلك النزر القليل وفرّاً لا سيما والانسان مرهون
لاحكام القضاء فقد يلزم به مرض يقعه عن اكتساب معيشته فيجد من الاقتصاد
سداً لعوزه ولعمري انهم اجادوا كل الاجادة بتهديد الطريق لهذا الامر . وقد فتحوا
مدارس عديدة لتعليم المرء (قبل ان يدخل في مدرسة العالم الكبرى) كيف يجب
ان يتصرف بثروته ان كان متمولاً وبدخله ان كان صانعاً الخ
ومعلوم ما ينفق من التبغ والتبناك في بلادنا مما يذهب جزافاً ولا يجدي نفعاً

وقد قدر بعضهم كما ذكرت النشرة الاسبوعية الغراء ان نحو ثلاثين الفا من اهل بيروت يشربون الدخان ومعدل ما يشرب احدهم في اليوم مقدار غرشين ونصف وشارب التبك نحو غرش واحد فالمدل ١٤ واذا ضرب هذا في ٣٠٠٠٠ = ٥٢٥٠٠٠ غرش او نحو ٥٢٥ ليرة في اليوم فتكون قيمة ما ينفق في السنة ٨٢١٢٥ ليرة واذا حسبنا سكان بيروت واحداً من ٢٥ من سكان كل سورية كان ثمن ما ينفق من الدخان فيها كل سنة ٢٠٥٣١٢٥ ليرة فالسوريون يتلفون من اموالهم بالدخان اكثر مما يتلفه الصينيون بالافيون وقيمة ما يتلفه اولئك كل سنة (٤٠٠٠٠٠٠٠) ليرة وسكان سورية نحو جزء من مئتي جزء من سكان الصين وقال احد الظرفا عندما وقف على ذلك

ما من هواء اصفر مثل الهواء الاسود

فضلاً عما يستهلك فيها من الاموال الطائلة على المشروبات والتائق وغير ذلك من اسباب الرفاه التي لا داعي لها للاكثرين وانما التشبه والتقليد قد سريا في مفاصلنا كالدم فاستنزفا اموالنا وفتكا باحوالنا واشد ما تحتاج كل بلاد الى اصلاح هذا الخرق قبل ان يتسع وزيادة للفائدة نضرب لذلك مثلاً بسيطاً فنقول

لو فرضنا ان صانعاً يدخل يومياً خمسة غروش ويقتضي له من الخرج ثلاثة غروش ينفقها على عياله فاذا لم يتدبر امره اين يذهب الباقي من دخله الذي هو غرشان كل يوم؟ لا شك انه يصرف ذينك الغرشين على اشياء كان في غنى عنها ومتى تعود على ذلك يصير فيه ملكة يد الدهر ولكن لو وفر ذينك الغرشين لوجدها بعد سنة سبعمائة غرش ونيقاً وبعد عشر سنين سبعة الاف وتزيد وهكذا فانه لا يشعر بما ينفقه يومياً من القليل الذي لا يمضي عليه بضع سنوات حتى يصير وفراً فتامل

هذا واذا انتقدنا الامر بعين بصيرة نجد ان اقل صنعة يتخذها الانسان يقدر ان يدخل منها اضعاف هذه القيمة وباقتصاده بما يربو على خرجه يتمتع بثروة بعد سنين ليست بالنزر القليل

فيا من قد رزق من لدن العناية الالهية سعة العيش واوتمن على جميع المخلوقات فتستخدم بعضها للقيام باعباء اشغالك والبعض الاخر لقوتك وتزرع الارض

وتشتغل الادوات وتبيع هذا وتشترى ذاك وانت تزرع الفلوات وتضرب في الارض
لتحصل على ما يسد رمقك فعميتك من وراء المصاعب لماذا تبالي في الاسراف
الذي هو التهلكة بل الصاعقة التي تنقض على معادن ثروتك فتذيبها كذوبان الشمع
في النار وتسلبك الراحة وتقتنص جميع مسراتك كما قيل

وقد تهلك الانسان كثرة ماله كما يذبح الطاووس من اجل ريشه

وانت ايها الانسان الآخر لماذا يشتد حرصك على دراهمك فتدفن بعضها في
الارض وتخزن البعض في مخدعك وتعيش بالتقتير ولماذا تبتعد للمال وتترك الجمل
يملك قيادك ولا تدع بارة تخرج من يدك لنفقتك ونفقة عيالك فتذوق الامرين
جوعاً اما سمعت قول الشاعر

يفني الجليل بجمع المال مدته وللحوادث والايام ما يدع
كدودة القز ما تبنيه يهدمها وغيرها بالذي تبنيه ينتفع

انما علمت ان خير الامور الوسط وان شدة التقتير كالاسراف والتبذير او ليس
ير لك في بال ذكر الاقتصاد وهو ان تبذل حيث تجد للبذل محلاً وتحرص حيث
تجد للحرص موضعاً . فيه تعدل ميرانية الامم فكم احيا من رفات . واقام من موات .
والرجل الحازم من تدبر امره بامعان وعرف خروجه ودخله كهذا الشاعر الذي عير
على عدم اسرافه فقال

العمرك ليس امساكي للجمل ولكن لا يفني بالخرج دخلي
وفي طبعي السماحة غير اني على قدر البساط مدت رجلي

قال الاصمعي سمعت بعض العرب يقول « من اقتصد في الغني والفقر فقد استعد
لنوائب الدهر » وقال عبدالله بن جعفر « كمال المرء في خلال ثلاث . معاشرة
اهل الرأي والفطنة . وداراة الناس بالمعاشرة الجميلة . والاقتصاد من مجل
واسراف » وقال احد الفرنجة : « الناس اثنان مقتصد وسرف فكل ما تراه من
الصروح الشاهقة والسفن الضخمة والمامل الرحبة شيده المنفذ على عاتق المسرف
وتلك شريعة طبيعية فمن يقول لك ان التقدم يتم بالاسراف فهو خداع مباحك
فلا ينطلي عليك المحل ولا تركب متن عمياء

والاقتصاد قديم جداً لشدة اضطرار الانسان اليه في معيشته وعلاقته بالعمران
ذات شان وعندي انه اهل لان ينخرط في سلك اسباب العمران لما يتوقف

عليه من الفلاح فمن انقضا ولم ينظر في الاقتصاد وپبل امره تذهب اتعابه ادراج
الرياح

وعلى ما يلوح لي ان الانسان قد اخذ ينسب باهداب برده ايام اضطر الى الدخول
في المدينة والحضارة لاحتياجه بذلك الى خرج اكثر مما كان عليه سحابة ايام
طوال في البداوة كما يظهر الان من المقابلة بين البدو والحضر فان الاولين
مقتصرون على القليل من الملابس والامتعة وعلى النزر من الاطعمة وسواها فترام
لا يتعاطون امرأ مهمماً للقيام على معيشتهم بل يقومون على رعاية المشية فيما كلون
من لحومها وتلك كافية لمعيشتهم اما الحضر فيخلاف اولئك لانهم يضطرون الى
تشديد البيوت وتكثير الرياش وانتظام المعيشة والقائق في الاطعمة والتبرج في
الملابس والانخراط في الاجتماعات المدنية والولائم والوظائف وغيرها فكانوا من ثم اشد
احتياجاً الى ائتمان اخص اسباب العمران من زراعة وصناعة وتجارة فيرجون الدرهم
لكن ثم حجر عثرة في سبيل نجاحهم وهو انه كيف يجب ان يتصرفوا بالدرهم اذا
عرفوا طرق تحصيلها فهذا السبب الضروري حبة من عقد اسباب العمران فحقها ان
تنظم في سلك اخواتها الا وهي الاقتصاد فما الفائدة اذا ائتمنا اخص اسباب العمران
واجتمعت الدراهم والثراء ثمة منه وبذرت بعد مكابدة عرق القربة وارقة دم
القلب وعرق الجبين طلقاً الانسي بحالة يرثى لها في المجتمع الانساني بعد ذلك
التفريط لاننا لم نعلم كيف يجب ان ننفق ما ندخله فهو لعمرى من اشد الضروريات
للانسان وبدونه يئن تحت نير الفاقة حيث ليس من يعضده وبعد ان كان قد
امتطى صهوة السعة والرخاء وارتمى الى ذروة المجد ويفاع الثراء يرجع القهقري الى
حضيض الفقر المدقع وتلك اشأم الاحوال التي نقض على الانسان كصواعق ماحقة
بايام فلائيل جميع ما حشدت يدها بعصب الريق وقتل السنين الطوال فيقرع السن
ندماً ولكن لات ساعة مندم

اجل ان الرجل الحازم من ابتلى الامور وسبر غورها بسبأر الحزم والفتنة
ووزن دخله وخرجه بقسطاس الاقتصاد بحيث يحفظ منزلته في المجتمع الانساني حتى
لا ينشب الجوع فيه مخالبه ولا تعركه الشدة والضيق عرك الرحي بثقلها ءاملاً
بقول القائل

انفق بمقدار ما استطعت ولا تسرف وعش عيش مقتصد

من كان فيما استفاد مقصدًا لم يفتر بعدها الى احد
ولا باس ان نلم الان بذكر طرف من اخبار الكرم والنجل عند العرب
جاء في كتب العرب عن اخبار الكرماء ان يحيى البرهقي كان يقول : اعط من
الدنيا وهي مقبلة فان ذلك لا ينقصك منها شيئًا واعط منها وهي مدبرة فان منعك لا
يقي عليك منها شيئًا فكان الحسن بن سهل يتعجب من ذلك ويقول لله دره ما اطبعه
على الكرم واعمه بالدنيا . ومن ذلك ما قاله احد الشعراء في محمد بن يحيى بن خالد
وكان يوصف بالكرم

سالت الندى والجود مالي اراكما تبدلتما عزًا بذل مؤبد
وما بال ركن المجد اوسى مهدمًا فقلا اصبنا باين يحيى محمد
فقلت ففلا متا بعد موته وقد كتما عبديه في كل مشهد
فقلا اقمنا كي نعزيه بفقده مسافة يوم ثم نتلوه في غد
ولنسرده عليك مثالا آخر من قولم عن النجل والنجلاء ما رواه صاحب المستطرف
قال :

قال رجل من النجلاء لاولاده اشتروا لي لحمًا فاشروه فامر بطبخه فلما استوى
اكله جميعه حتى لم يبق في يده الا عظمة وعيون اولاده ترمقه فقال ما اعطي احدًا
منكم هذه العظمة حتى يحسن وصف اكلها

فقال ولده الاكبر : اُمّششها يا ابي وامصها حتى لا ادع للذر فيها مقيلا
قال لست بصاحبها

قال الاوسط : الوكها يا ابي والحسها حتى لا يدري احد لعام هي ام لعامين
قال لست بصاحبها

فقال الاصغر : يا ابي امصها ثم ادقها واسفها سقا

قال انت صاحبها وهي لك زادك الله معرفة وحزمًا

وكان دأب العرب الكرم فلذا كانوا يتفخرون به ويتناشدون الاشعار المؤذنة
بذكره وعن اشتهر به من غيرهم البرامكة ولم يزل ذكرهم الى الان فيقال (فلان
برمكي) اي انه كريم يبذل الدرهم ولا يبخل به . ومن المشهورين به من العرب حاتم
الطائي وله حوادث عديدة تدل على انه كان مطبوعًا على الكرم وقد ضربت بكرمه
الامثال فيقال اجود من حاتم وكثير غيرهم لا محل لاستقصاء اخبارهم الان على اننا

أوردنا ذلك وليس من غرضنا تبياناً زيادة للفائدة وذكرى
وهكذا فانهم كانوا يذمون في اشعارهم البخلاء لان الفريق الاكبر منهم كان
يجب الكرم ويقال في امثالهم فلان ابخل من مادر وما الطف قول الوراق
بجيلة

ومبخل بالمال قلت لعله يندي وظني فيه خالف مخلف
جمع الدراهم ليس جمع سلامة فاجابني لكنه لا بصرف
ومن ذلك قول احدهم

لو ان دارك انبت لك واحششت ابراً يضيق بها فناء المنزل
واناك يوسف يستعيرك ابرةً لينيط قد قميصه لم تفعل
الى غير ذلك مما يذهب الوقت في سرده سدّى وبالقليل غنى عن الكثير
واما الكلام عن الاقتصاد في كتبهم فاليك نبذة منه من وصية ابن طاهر لابنه
قال « عليك بالاقتصاد في الامور كلها فليس شيء ابين نفعاً ولا اخص اماناً ولا
اجمع فضلاً منه والتصد داعية الى الرشد والرشد دليل على التوفيق والتوفيق قائد
الى السعادة وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد . . . وآثره في دنياك كلها . . .
نأته واقتد به نتم امورك وتزيد مقدرتك وتصلح خاصتك وعامتك » فانظر كم
اطنب بفوائد الاقتصاد وشدد على ابنه التكبير باتباعه والسير على جادته حتى يامن
العثار

والاقتصاد جدير بكل اطراء لما يهدد للانسان من السبل ويحمله على تدبير كل
امر والدخول اليه من بابه قال ابو الطيب المتنبى واجاد
فوضع الندى في موضع السيف بالعلی مفرئ كوضع السيف في موضع الندى
فيه يشد ازر السعة ويرتع الانسان في بحاج السراء ويتنزه في رياض اريضة
من السعة والرخاء فلا تمس نعماء يد الفاقة ولا يلج به داء الفقر العياء الذي يجلبه
التقير او الاسراف

وتصارى الكلام ان الانسان وجد بعقل كامل وقوى وحواس ليختبر كل الاشياء
فما يحلو بحواسه يقبل عليه وما هو مرئ يعرض عنه فكما يمج ذوقه الاشياء الرديئة الطعم
وينبوسه من الاصوات القوية ولا تقبل معاطسه الروائح المنتنة ولا تستطيع نواظره
الاحداق بالاشياء السخجة الخيفة فكذا يجب ان يتدبر بعقله امري التقير والاسراف

فما استكبره منها يتجنبه وما حسن يستعمله ليس في النفقة فقط بل في كل ما يجد
 الاطراف فيه او الاقلال منه مضرًا ورحم الله شاعرنا بقوله
 فضول المال ذاهبة جزافًا كما صب في كاس دهاق
 وقوله ايضاً

من عاش بالتقدير من ذوي الغنى فانه افقر من فوق الثرى
 ويجدر بنا الآن ان نمسك عنان القلم عند هذا القدر فان الموضوع ذو شان
 ويد المقدرة قصيرة عن الخوض في عبابه مختتمين بهذه الايات
 توسط بين تبذير وبخل ولا تسرف بما تلقاه تورا
 فان النذر يمسى بعد حين اذا لم يمين بالاسراف وفرا
 وان الوفير في الدنيا ببخل وثقتير يريك اليسر عسرا
 وكن في حالة تزداد فيها لدى الاقوام مرتبة وفدرا
 وخير الناس مقتصد لبيب تفرد في الملا بجنًا وخبرا
 وكن في كل امر ذا اعتدال فرب حلاوة توذيك ضرًا
 فما من باخل احياء مال وما من مسرف يعتز دها

حياة البلاد

في الكد والاجتهاد

« له ايضاً »

مقالة ادرجت في جريدة لبنان الغراء سنة ١٨٩١

من انعم النظر في احوال العالم منذ ضربت القبة الخضراء . ومشى ادم على
 بساط الغبراء . مستقرياً العصور الخالية التي مرت على الكون بتلوناتها العديدة مع ما
 تهدد بني آدم من الكوارث والبوائق واراقة الدماء التي قضت عليهم مرة بالدمار
 والدثار واخرى بانقلاب حالهم من ترف الى شظف فامات همهم وسلبتهم رغيده
 العيش حتى اصبحوا في كل وادٍ من المشقة يهيمون وآونة باقالة عثرتهم واطلاق
 مراحمهم من سجن الفاقة والقنوط الى صرح المجد الرفيع فملكوا ناصية السعادة ودارت

حركة دولاب سعيهم واجتهادهم حتى تدفقت عليهم سيول الثراء من سحب الكد
والجد وامتد حولهم رواق العز فاتلعت اعناقهم ملتوية طرباً فاكلوا وشربوا هنيئاً
مريئاً رأى الزمان يتعاوره ضدان رقدة وهبة ويتعائب عليه شيان نومة ووثبة الى
ما شاء الله

فهذه بلادنا عموماً مهد البشرية بل مجدها القديم كم انتقلت من حال الى حال
وكم تنازعتها عوامل الرفع والخفض في كل ابنٍ وان . كانت ارياف البحر المتوسط
يوماً ما أهلة بالفينيقيين الذين اشتهر امرهم اشتهار اشمس في رائة النهار وبعد
صيتهم في الخافقين حتى ترنحت اعطاف تلك العصور لمجدهم ومنعتهم وابستمت ثغور
المدن قاطبة لعزتهم وعظمتهم وشارت اليهم الامم والشعوب بالانامل

هذه صور ام المدن الذائعة الصيت في ذلك العهد كانت فرضتهم ومعين غنائم
ومحط رحال الامم المتقاطرة من كل فج وصوب لشد او اخي الاخاء معهم رجاء ان
يسلبوهم الصنائع العجيبة ويشاطروهم الارباح العظيمة

قيل هم ابتدعوا صنعة الزجاج ولم فيها القدم القارعة . وصبغ الارجوان الذي
عز نظيره بل هم الذين عثروا على خبايا المعادن التي كان من سلف يدوسها بارجله
آناً انين الثكلى من ضيق ذات يده متضاعفاً تضاعفي الجياح مما المبه . ونظراً لتوسيع
نطاق تجارتهم في اقطار المعمور لم يسكوا عنان عزمهم عند ذلك القدر بل طفقوا
يبحثون عن المعادن في غير بلادهم فتغلغلوا في الاقطار وجابوا التفار ومخرت جوارهم
المنشآت (السفن) في عباب اليم الزاخر حتى القوا عصا الترحال بين وهادٍ وجبال في
محلات عديدة واخذوا يستخرجون من التراب تبرا . واذا اعدوا ما اعدوه انقلبوا
راجعين على الطائر الميمون بغنائم وافرة وآمال زاهرة وهكذا كانوا لا يدخرون وسعاً
في التفتيح والتنقيب فاستنبط لهم الراحة النامة والخير العاجل حتى اذا نزلوا بطون
الترى خلفوا لنا الاثار العجيبة التي بعضها مطوي عن الابصار والبعض منشور للعيان
كلها تقول بلسانهم

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

ثم اذا خطونا خطوة قليلة مقربين البحث عن احوال اخلافهم من بعدهم وجدنا
الدهر قد قلب لهم ظهر المجن فولتهم السعادة اذ نابها وتبدلت السراء بالضراء والنعمى
بالبؤسى وما ذلك الا شاهد عيان على ان

الدهر لا يبقى على حالة لا بد ما يقبل او يدبر
 لكن ذلك الانحطاط لم تثبت قدمه طويلاً بل شق العصا فعقبه انتعاش
 الاروح وحياة التوفيق بالتشمير عن ساعد الجد والاجتهاد والسباق في حلبة النجاح
 حيث ظهرت النتيجة التي من ورائها جرٌّ مغنم للبلاد . ووجدان معين ثروة لا
 ينضب لليف العباد

وهكذا تجرمت السنون والاجيال بين عزٍ وذل وغنى وفقر وضحك وبكاء حتى
 اوشكنا ان ندخل بقرنا الحاضر الذي يجب ان نرمقه بعين قسطاس الحكمة
 والسداد نابذين الاغراض وضاربين صفحاً عن الميل الوطني اظهاراً لحقيقة الحال
 والحق من وراء ذلك

ليس من الحسن ان نقول ان قرنا الحاضر كانت باوائله اسباب العلوم موفورة
 واثار المعارف دانية القطوف بل بالعكس (وان كان قد اشتغل بعض افراد بلادنا
 بالعلم واحرزوا خصل سبق ونبغوا فيه والفوا كتباً نفائس تشهد لهم بطول الباع
 وذكاء القرية وحصافة العقل) ثم من مضي ثلاثين سنة او اكثر اخذ شذا العلم
 يعطر ارجاء سورية ولبنان حتى اذا قابله اريجها العطر وعرف ازاهيرها الطيب
 اتلغا فرغ في رباهما ضارباً اظنابه في كل الخائهما ومن ثم شرعت اراس العلوم
 تنمو شيئاً فشيئاً

فاطلقت اعنة الاقلام بجلبة المهارق وابتسمت هذه يبكاء تلك واتشرت اعلام
 الفنون على كل اكمة وراية

فديجت الكتب بينات افكار ابكار وزفت لكل طالب علم وادب وانتظمت
 عقود الجمان بقلائد العقيان وازهرت حدائق الفضل فصار الخريف ربيعاً والجديب
 مريعاً . تلك بشرى الفلاح

فهبث الجرائد من عالم الخفاء الى عالم الوجود ناشرة عاطر الثناء من طي سطورها
 مبشرة البلاد وهاتفه حي على الفلاح فما قد دفن القنوط وحي الرجاء

هي التاريخ اليومي العام الذي ينبئك عن احوال قريبك وجارك لتخذو حذوه
 بالتطبع بلين الجانب وحسن الخلال ويرشدك الى ما يجب ان تثبت باهداب
 برده من الفوائد الجليلة والاخلاق الجميلة والمسامي الخطيرة والمآثر المبرورة وهي
 الخطيب المصقع والشاعر المفلق والتاجر المدرب والطبيب النطاسي والسياسي المحنك

والكاتب التحرير والعالم الخطير والاديب الاربب والزراع المتفنن والصانع الحاذق
بل هي خادمة الدولة والوطن مخلصه التبعة وصادقة الصبغة وهي الاثر الذي يتركه
الخلف ليفتخر به السلف

فالوقت قدحضر والعلم قد انتشر فلنبادر للجد والاجتهاد في سبيل ترقى البلاد
ولو كابدنا عرق القربة اما نظرنا ان حياة البلاد في الكد والالفة والسلام . بل في
الاعتناء بتحسين اخص اسباب العمران من زراعة وصناعة وتجارة مما يمد جناح
السعة والبسطة في المعاش ونحن والحمد لله قد منمنا من القوى العقلية والاستعدادات
الادبية ما يمكننا من زيادة تحسين الاحوال لنخلف من بعدنا الاثار التي تذكر
قشكر . وما لبنا اننا الشيخ المشتعل راسه شيباً الا مرض امن وسلام فقد هومت السنون
ولم يهرم اذ بقي منتصباً ازاء المخاطر التي تهددته على ممر الاعوام وكروور الايام ولم
يخن لعظائم الاهوال راساً بل دحرها وثبت يقول بلسان حاله

لمع المشيب وبعد عندي صوبة يلي القميص وفيه عرف المنديل
هذه لمحة وددنا رفقها ليس على سبيل التنديد بل استنهاضاً لهمة الاهل
وسعيهم وراء ما يعود على الوطن بالثروة والترقي حتى تزداد اشجار الحالة الحاضرة
ازهاراً ونماء فتجلب غيوماً تتدفق على اراضينا بالقناطير المنقطرة من الاصفر الزنان
(ومن جد وجد)

العلم والجهل

« لفرنسيس مراث الحابي »

كان العقل مطبوعاً على الاكتساب . وحاوياً ملكة التمييز بين الخطاء والصواب
او عزت اليه دواعي الحركات الذهنية . وبواعث الحياة البدنية . واللوازم الدينية
ان يرتب تصوراته ويهذبها ويجعل دلائلها النطقية ويؤدبها . وان يبحث في
الموجودات ويستقصيها . فيدينها اليه او يقصيها . حتى يستخدم ما طاب له
وسر . ويطرد ما خبث وضر . فيستعين بالجوامد على حيوياته . وبالمدادات على
روحياته . وان يعرف الخالق من المخلوق والصانع من المصنوع . والموجد من الموجود .
معرفة الوالد من المولود . وهكذا فقد نشأ العلم . وقام الفهم . فالعلم ربحانة النفوس .

روح قدوس . به تنتشر الافكار . وتبصر الابصار . وتكشف الاسرار . وتجلب
 السرائر . وتبرز الضمائر . وتسمو العنايا . . . وتصفو النوايا . وبجسده تحسن الصفات .
 وبكامله تكمّل الذوات . وهو الكنز الذي لا يفنى . والجمال الذي لا يثنى . قوة
 الكبير . سند الصغير . ذخر الفقير . فمن حازه حاز الجلال ولو كان حقيراً . والكبر
 ولو كان صغيراً . والثروة ولو كان فقيراً . والعز ولو كان اسيراً . والسطوة ولو
 كان ضعيفاً . واللفظ ولو كان كفيفاً . والعز ولو كان ذليلاً . والصحة ولو كان
 عليلاً . والقبول ولو كان رذيلاً . والدخول ولو كان دخيلاً . فيه ارتقى الانسان
 ونجح . وتجلب فلفح . واصبح اعظم الكائنات . واجود الموجودات . والخيرات اتسعت .
 والاضرار امتنعت . والنفوس غلت . والحياة حلت . والممالك شيدت . والمدائن
 تسيدت . والصنائع عمّت . والفلاحة تمت . والمتاجر انتشرت . والاطفار اندثرت .
 والطبيعة خضعت وندت . والعاصيات طاعت وعنت . والآفات غلبت . والنوائب
 سلمت . والمعاملات شاعت . والمعامل ذاعت . والسياسة صلحت وتجملت . والاحكام
 عدلت وتكملت . ولم يعد للظلم مدار . ولا للجور جوار . فما العلم الا جمال الانسان .
 وكال الاذهان

اما العلم فهو لذة ثابتة للعالم . وتعزية له في الام العوالم . وبيننا ذلك فلا يخلو
 من النكد . والنفت في العقد . على ان العالم لا يبرح متبلبل بالبال . قلق الحال .
 لا يسكت له . ولا يسكن قلبه . ولا تهجم افكاره . ولا تصمت اذكاره . فقومه
 ارق . وتسكينه قلق . وراحته تعب ووصب . وجهاد ونصب . . . وسروره غموم .
 وضحكه وجوم . فيرى الدنيا مطارح نعاذيب . ومسارح اكاذيب . فاذا اعتبرته
 لا يعتبرها . واذا عرفته ينكرها . لانه لا يحفل بكل الاشياء . ولا يعبأ بمحركات
 الاحياء . فلراتب عنده مكارب . والمناصب مغاضب . والاموال ائقال . والاحسان
 قيل وقال

اما الجهل فهو عدم العلم واقته . وقاعدة التوحش ودعامته . وعلامته ورايته .
 وما الانسان انسان الا بالعلم . ووحش ضار بالجهل الملم . فالجهل عثرة السائر . ووعكة
 الحائر . وعماء الناظر . وتيه الضائع . وغرس الناطق وصمم السامع . وايها حل
 حلت الملايح . ونزلت القبايح . وسقط الغار . ونهض العار . وسكثت صواح
 الفطن والفكر . ونطقت جوارح العي والحصر . ونكس راس المعلوم والمقبول .

وشمخ انف المجهول والمرذول . ووقع الاجدع . وتسليح الاكثع . وسبق ذو القزل .
 واصاب ذو الشغل . واغتنى الثيم . وافتقر الكريم . وهار الهدى والصواب وتناً
 الخطا والمعاب . وتوج راس الاسير . وثقيدت رجل الامير . على ان الجهل هو
 مصيبة الجاهل . وعطشه في المناهل . ومع ذلك فلا يبرح الجاهل صاحب الفرح . عدو
 الترح . ساكن البال . رائق الحال . مرتاح اللب . خالي القلب . يبسم مدى
 الدهر . ويقهقه في كل امر . ولا يعبأ الا بالحال . ولا يفكر الا بالحال . قتره هائماً
 بالاموال . وضارباً في وادي الامال . يتوقع المراتب ولو بعدت عنه ويستعطف
 المناصب ولو نفرت منه . ويستحب الباغض . ويستفتح القابض . وربما تقلد السيف
 وهو الجبان وطلب الكرامة وهو المهان

الحياة واركانها الاربعة

وهي : العمل والمال والصحة والامل

« له ايضاً »

الحياة مصدرٌ يشتق منه نظام الاكوان الطبيعية . واصل تنبعت منه حركات
 الكائنات العضوية . اذ به تحفظ الجامدات نوايسها وشرائعها . وتحرس الناميات
 اشغاصها وطبائعها فهو التناقل والتبادل للاجرام السماوية . والنمو والتغذية
 للاكوان الالوية . والحس والانتقال للخلائق الحيوانية . والاشعار والادراك للطبيعة
 الانسانية . فبالحيوة يدخل المتحرك في العلاقة مع المحيطات الاجنبية . ويستبضعها
 اغراضه الحيوية . فيقدر الادراك تتسع الشقة . وبمقدار الاشعار تعظم المشقة
 ولما كان الانسان جامعاً كل الادراك والاشعار . كان اعظم حامل لاثقال تلك
 الاثار . وهكذا تكون حياته حية عليه . ووجوده عدماً لديه . حتى اذا ما بلغ حد
 الانصرام . راي ذاته خيالاً مر في ضغث الاحلام . على فراش الاوهام . اما بناء
 حيوة الانسان . انما يتوقف على اربعة اركان . وهي العمل والمال . والصحة والامل

العمل

كل يعمل لحث راحلته ولكل عمل على شاكلته . فلما انتقل الانسان من

الوحشية الى الانسية . ومن الطبيعية الى الادبية . اثبت له ذلك الانتقال وجوب
الاعمال . ونادته الجماعة حي على التعامل . فمن لا يؤثر ان يعمل لا يأكل .
فاندفع كل الى الخبط في مهنته . والغوص في حرفته . فذهب يبارك الجمادات كل
كثيف . وباشر الصنائع كل خفيف . ويمارس العلاقات كل عليل منقطع . ويتاجر
بالبضائع كل كليل مبتدع . ويستقصي الموجودات كل دقيق مخترع . وهكذا قد
انخرط الجميع في سلك الارتباط وغرق الكل في لجج الاختباط فكل طائر
على اجنحة الطيش . ليقطع افاق العيش . قترى البعض يشكو الكلال . والبعض
يندب الملل وهذا يتوجع في التعب وذلك يتفجع من الوصب . فاعين تبكي من
العسر . وافواه تضحك من اليسر . والزارعون يتمحون بشع الجذب وعليه ياتمرون .
او ينجحون بسح الخصب فيعتبطون به ويمطوبون . والصانعون يستنظرون الطلب .
فيحمدون الشبع او يذمون السغب والتاجرون يحشرون البضائع ويرقبون الطلائع .
ويعومون في السوق . ويفرقون في الصندوق . ويرصدون افلاك الدوائر .
ويرصدون طوالع الدفاتر . فكم اخطأت استنهم الحفرة . ولم يصب سهمهم الثغرة

الملل

وينا يكن الانسان لاهياً عن نفسه باعماله . ومشتغلاً عن رسمه باشغاله .
يدهم شيطان الملل . ويوسوس في صدره عند كل عمل . وربما يغلب عليه هذا
الروح . حتى يغدونديه في الغبوق وفي الصبوح . وسميره في الهجر والوصال .
ورفيقه في الحل والترحال . فابنارحل ربح امامه . وايمان حل كان خيامه . وحيثما
لفت وقف قدمه . وهكذا يكون الملل الماء في المذات . وغما في المسرات . وترحاً
في الافراح . وفرحاً في الاتراح . فهو حادي الاجل وشادي الوجل . وابن
الاعمال . وابو الامال

الامل

واذ يكون الانسان ساقطاً تحت ثقل الملل . وهابطاً في وهدة الوجل . تبسط
له الامال يد الخلاص وتلقي له الاوهام حبال المناص . فيضطجع على سرير الاحلام .
ويضرب في وادي الاوهام . فيصعد بفكره من غرفة الى غرفة . وينتقل من حرفة
الى حرفة . ثم يرتقي من صغرى الى كبرى . ومن نتيجة الى اخرى . حتى يبلغ من

غناء الى غناء . ومن سناء الى سناء . ولم يزل الى ان يرى ذاته مالكا كل
الاشياء . وسلطان كافة الدنيا . وفيما يكون طائر فكره حائماً في تلك الذروه . ومغرداً
بهاتيك الثروه . ينقض عليه باشق البطلان . ويرجع به الى حيث كان . فيغيب
عنه كل خيال . ويتغلق دونه مرشح الامال . فكما ذهب امل . جاء امل . وكما
غنت خيبة رقص وجل . وعز الدهر وجل . وبالامال يعيش الانسان . وبالاوهام
تحيي الازهان . ولكل سن مامولات . وعلى كل مامول مقولات . اما الامل فهو
تسليه الانسان . وتعزيبته في الاحزان والحدثان . وحلاوته عند الزعاق وغناه يوم
الاملاق . ويسره في العسر . وكسبه في الخسر . وسميره وانيسه . وندييه وجليسه .
ولا تفرط سلسلة الامل . الا في بيت الازل

الصحة

لما كان ليس بحسن ان يعيش الانسان وحده . اتخذ له امرأة تكون عونته
ورفده . فيخدمها في العيال . ويستخدمها في البعال . فالمرأة خير الاصحاب . واطيب
الاحباب . ولا تطيب الحياة الا بها . ولا يصحب السرور الا باصطحابها . وهي الشريكة
في تقويم الحياة الطبيعية . والرفيقة في تثبيت الحياة الابدية . فاذا كانت سالحة
كانت نخرة لاهلها . ونعمة لبعليها . واساساً لدارها . ومركزاً لمدارها . وتهدياً
لذويها . وتأديباً لبنيتها . وغنى في الاقلال . وراحة في البلبال . وستراً للصلحات .
وكشفاً للصلحات . واذا كانت شريرة انما تكون ذلاً لاهلها . ونقمة لرجلها . وزلزلة
لدارها . وزعزعة لمدارها . وشكاً لذويها . وعثرة لبنيتها . وفقراً في الغناء . وغماً
في الهناء . وفضيحة للمعائب . ونقمة ومثالب . وهذراً ومذر . وغمزاً وشذر . وانتقالاً
من وحلة الى طمس . ومن رذيلة الى دنس . فهي تناجي بارماز الميل وتناجي بالفاز
الميل . حتى اذا ما جاشت فاجهشت . وبشت فهشت . رجعت مخادعة لمحظ بغزل
رموزا . ومخادنة بقلب يحيك نشوزا . فمخفوض ينصب شراكاً . ومقصور يمد شبكاً .
فتمكون شر الاصحاب . واخبث الاحباب الا للباغي والطارق . واللاغي والمارق .
ومن شأن الانسان الميل الى الاصحاب . والولوع بالاصطحاب . ليتأسى في الشدة .
ويستأنس في الوحدة . على انه لا يستطيع اللبوث على الانفراد . والقرار في الامور
الشداد

فمن الاصحاب الصاحب الوفي . وهذا يكاد لا يوجد لشدة ندارته فهو الموافي في

الشدائد . والموالي في العوائد . والمقرب من الابتعاد . والمصلح في الفساد . والصالح
في الذنوب . والسامع في العيوب . والمسعف لدى الاقتضاء . والمعين في روع القضاء
والثابت على كل اضطراب . والراسخ في كل انقلاب

ومنهم صاحب الفرضي وهو من يصحب لفرض متى بطل بطلت صحبته وربما
انقلب الى عدو مبين . وداء دفين . فيرتد على صاحبه بالاضرار . وبإذاعة
الاسرار . ليهتك كل ستر مسدول . ويمزق كل حجاب مسبول . فيثلب وينم .
ويقدح ويذم . حتى يكون فمه مملوءاً مرارةً ولعنة . وقلبه ينقلب على ضغينة ونقمة .
فخذار حذار . وبدار بدار

وقد قيل

عدوك من صديقك مستفاداً . فلا تستكثرن من الصحاب
فإنّ الداء أكثر ما تراه . يكون من الطعام او الشراب

وربما اعتبت الفة زوال اغراض . وقام جوهر عقب اغراض . فيتلو ذلك
صحبة جديدة . وتنشأ صداقة حميدة الى ان ينقلب القلب العديم الثبات . وينقل
الود الكثير السبات

ومن اصحاب الاغراض يوجد المملق والمداهن . والمطرىء والملاسن . والناصح
بالباطيل . والهادي بالاضاليل . والساعي بالخير على قدم الشر . والمهم بالنفع
على همم الضر . ومنهم صاحب البسيط وهو من لا يفي ولا يخون . ولا يهتك
ولا يصون . ولا يحب ولا يبغض . ولا يقبل ولا يرفض . فلا يتقاعس ولا يحفل .
ولا ينشط ولا يكسل . ويتوجه حسب البواعث . ويتحدث طبق الحوادث . فلا
تهمه حضرة ولا معايته . ولا تمضه غيبة ولا مباينه . فهو يصلح للنادمة والمجالسة
والمفاكحة والموانسة . على انه نعم نديم مسامر . وخير جليس محاضر .

فهاك حيوة الانسان . وما فيها من الاركان . هذا عدا ما يتخللها من العاهات
والاسقام . والهوم والآلام . على ان الحيوة هي عرضة المصائب والبلايا . وغرض
المتاعب والرزايا . حتى يكاد يكون وجود اللذة في عدم الألم . وحصول النعم في
زوال النقم . وربما كان اعظم اللذات . ظليعة لهجوم الحشرات . ونذيراً يهتف
بالمضرات

خطبة

في ممثلي الامم والممالك

« لسعيد افندي الخوري الشرتوني »

(القيمة سنة ١٨٩٢)

احمد الله اليكم ايها الممتازون بالانفة في مواقف الحيف والهوان . المتبرمون بسطوة المين واليهتان . ثم اقول قد سبقت لي خطب في مثل هذا المشهد نتمنزل من خطبة هذا اليوم منزلة الاساس من البنيان . وها اني موافيك الساعة بما لم يكن في الحسبان مبرز لا عينكم صورة ههولكم منظرها . وبروكم مخبرها . وهي لديكم ومن العجب انكم لا ترونها . تلك صورة آفة هائلة لكنها ما تراءت لامة الاستلت السخائم من صدور آحادها . وزالت ما كان من التقاطع والتدابير بين افرادها وبدلت القطعية بالوصال والتخاذل بالتناصر لا تعدو بذلك سنة الشرع ولا تفوت حدود النظام حتى تصورها لسائر الامم صورة الرجل الواحد في الاقبال على ما ينفع والادبار عما يضر والتزام ما يفتح في وجوهها ابواب العلم والثروة ومجافة ما يدحرها الى مهاوي الجهل والفقر

تلك صورة من يرتدون مجد الامم والممالك وتهمي عليهم غيوث الرزق باسمها ثم يتشاقلون عن تلافي شؤونها ويدون عند هجوم المخاطر على كرامتها ويسجلون الكلام في حرصهم على حقها . وهم يبيعونها بما استحي ان اذكره واخجل ان اعين مقداره فرما كان اقل مما باعت الاسباط به يوسف ذلك الصديق بل اقل مما باع به عيسو بكوريته . مع انهم لو عقلوا ما حججوا عن مقاماتهم نسات الشكر ولو فكروا لتبينوا انهم ما ارتفعوا الى مناصب العز والوجاهة الا على مناكب تلك الامم والممالك ولا استقرت لهم قدم فيها الا بنعمة انعامهم اليها . فما كان جائزاً لهم بوجه ما ان ينسوا سبب ارتفاعهم ويذهلوا علة ارتقائهم ولكن من لا يتدبر العواقب تبطره النعمة وتاخذه سكرة العز ويرين على خلائقه الصلف فيعود مثله في تصوراته مثل من تجبظ في ظلمة وتورط في حيرة

فمن كان هذا شأنه فقد قاطع الحق . وجافى الشرع . وقلب للانصاف ظهر الجبن وتبرأ من قومه بل تبرأ من عقله ونادى لسان حاله بعداوة ملكه وخيانة

مملكته . وصاحت عليه احكام القانون بانه عدو المملكة وخصم الشريعة . الا وان من يتولى النظر في شؤون الناس ينبغي ان يضع نفسه من مقامات الامانة والحزم والعلم حيث وضعه الناس كما ينبغي له ان يلتزم ارادة سلطانه ويتبع في احكامه شريعة مملكته اتباعاً خالصاً عن التمويه والخذاع بحيث لا يحكم الا بما تقتضيه شريعة المملكة ليخلص من معاذلة وجدانه ووخزات ضميره وان نكب عن هذه الخطة فقد نكث الذمة وخان عهد المملكة وذلك هو الاثم الذي لا كبيرة وراءه تجاه قوانين الممالك بل تجاه احكام الشريعة الالهية

واذا نقرر ذلك فاقول ان راحة المجتمع الانساني وتقدم العمران معقودان بحافظين احدهما الوازع الباطن وهو الدين والثاني الوازع الظاهر وهو الحكومة . الوازع الباطن فهو سائد على كثير من عباد الله . واليه يستند كل ما نجده من الخير في المعاملات المطلقة من قيود الوثاق والشهود المؤمنة من يخل بها مس صيته عند من يجتهد ان يصور لم نفسه بصورة الامين . ولكنه قد اعتل في صدور من اذا عرضت لهم الشبهة تردوا . وترحل عن صدور ادعياء العلم الذين لم يوجد ابعد منهم عن الصواب في هذه المسألة . وانخذت شوكته عند من في صدورهم استعداد لقبول العدوى وفي الجملة فقد ابتلينا بضعف سطوته وقعدنا لتلمل على نار علته . ولكن صبراً فما نحن بالمنفردين في تقمته . فقد انتشر ضره في اطراف المعمور فنحن اذاً في زمن احد الوازعين فيه عليل والاخر صحيح

وهذا الوازع الصحيح هو في اصل طبيعته لا يبصر ما يبصر ذاك ولا يتوصل الى ما يتوصل الى معرفته من الحوادث السرية والوقائع الخفية . وشتان ما بين الغائب والشاهد فكيف به وقد صار ملتزماً ان سد مسد اخيه عند من لم يبق لهم والعياذ بالله وازع باطن

واقنع علاج لهذا الداء انما هو تسليم امور الامة الى من له علم يهديه ودين يحميه فبالعلم يطالع على الحق وبالدين يرتدع عن الخيانة واذا قد انجز بي الكلام الى هنا ترتب علي ان اذكر ممثلي الامة باقل ما يكون من الكلام فاقول مما شاؤ الامة ولا يخفى عليكم هم الذين يتقلدون مناصبها . ويتبواون مراكزها ويرجع اليهم في شؤونها . ويطالبون بترويج مصالحها وتعزير كلمتها ولكن على طريق الشرع ومن وجه النظام . ذلك كفاء ما تلبسهم من شرف المناصب

وتدر عليهم من الوظائف فهم صورة الامة عند الناس . وعنوان حالها في اعينهم .
 وكلاء حقوقها وحماة عرضها وشرها . ومن ثم ينبغي ان ينتقوا من اوسع رجالها
 علماء وابلغهم حجة وارسخهم امانة ووفاء واشدهم مروءة . واعلاهم هممة . واثبتهم جأشاً
 واقوامهم جناناً . وارحبهم صدراً من كل من يخوض الغمرات الى الحق ولا تشرف
 نفسه على طمع . وقد اتفقت الامم على اشتراط هذه الاوصاف في كل من يقوم ممثلاً
 لامة في منصب ما . واي امة لا تتبع هذه الخطة في اختيار ممثلها تكون كمن يهدم
 بيته يده . ويقوض اركان بنده بسعيه ويجعل حقوقه عرضة للهلاك واذا لم تتوفر
 هذه الشروط في الرجل فيكون وضعه ممثلاً للامة كوضع المدية الحادة على عنق الحق
 وابشع احوال الممثل ان يجتمع فيه العلم بالقانون وحيل الشريعة مع عدم الوفاء وضعف
 الامانة . وقد اجمت ولكم تركت التفصيل ففصلوا ان شئتم والسلام

بعض البلاء ينتهي الى بعض

« لاديب بك اسحق »

(كتبه في مجاعة حلب عام ١٨٨٠)

هو الظلم حتى تمطر السماء بلاءً فنبتت الارض عناءً فلا تجد على سطحها الا جسوماً
 ضاربة في ديار خاوية وقلوباً تحترق في بلاد تحت رق
 وهو الجهل حتى تضيع الاخطار وتنفى الاقدار وتبطل الهمم وتزول القيم
 ويعفو العلم ويدرس الفهم ويستعلي الخامل ويستولي الجاهل وتخفض الارؤس
 وتقبض الانفس وحتى ترى

بكل ارض في شرقنا امماً ترعى بعبد كانه غنمٌ

يستخشن الخبز حين يلسه وكاد يبرى بظفره القلم

قف بالربوع الدارسة المعاهد العافية الآثار وانشد هنالك عزماً اضاعه الاهمال ومجداً
 اخفاه الخمول الابقية آثار في المعالم كبقايا الوشم في المعاصم وابك العز وبنيه والفضل
 وذويه حتى نبت الآس على القبور وحتى تسمع اصواتهم من وراء حجب العصور
 بل دع النشد والبكاء في هاته الخطوب الفادحة فلا نفع للشكلي بنوح النائحة واقصد
 بنا مرابع النعمة ومصانع الرحمة نسأل فيها الاعانة والاحسان لاسدٍ عضها كلب

الجوع و ارام وقعت في حبال الفاقة واطفال يتلقون دموع المراضع يحسبونها البائناً فقد
الف الغرب الاحسان وتعود اعانة الانسان

واتل على كرامه ما جاءنا من خبر المجاعة في حلب وما بين النهرين فقد بلغت
الحاجة من اهل الشهباء ان النساء هتكن الستور وخرجن من وراء الخدور وطفن
بالقلعة صائحات معولات مولولات يلتمسن القوت لرجال اضواهم الجوع فلزموا البيوت
فخرج الوالي اليهن بوعود لا تفني عن الجائع ولا تدفع آلامه فرجعن عنه آيسات
وظفن بالاسواق يبعثن الرجال على الفتنة فنوطاً من زوال المحنة فانقض هولاء على
الافران يلتمهون الخبز لا ينتهبونه

اما ديار بكر وماردين وسائر ما بين النهرين من المدن القديمة الشان فلم
تقف بها الشدة عند هذا الحد بل اتصل الموت باطرافها على مثل ما سمعناه منذ
عامين من اخبار المجاعة في بعض الهند واميركا حتى اكلت اطراف الغصون
واصول الاشجار

فحسى ان يكون لصوتنا الضعيف صدئى تردده الصحف الوضاء في هاته العاصمة
الزاهرة فيقبل اهلها على مساعدة المصابين ولا يضيع الله اجر المحسنين
« وتد ترجم هذا الفصل عامئذ ليثبت في بعض جرائد باريس على رجاء ان
« تفتح الاكتماب للاعانة على ما تعودته في مثل هذه الحال »

تأمل

« له ايضاً »

بلادنا احسن البقاع تربة وهواء واصفاها سماء وماء ووسعها مرتعاً وفناء . كانت
فيما سلف نقل الملايين من ذوي النعمة والرفاية يستخرجون منها ما يحتاجون اليه
ويفضل عنهم ما يتجرون به وذلك مع توالي الحروب وتواتر الثورات واستمرار المنافسة
بين الامراء والدول

ونحن ذوو ابدان شهدت بقوتها حوادث الايام واهل صبر دل عليه ثباتنا في
المتاعب وارباب اقدام اقر به الاعداء وحلفاء قناعة اثبتها الجور والفقر . كنا اهل
السطوة غير معارضين وارباب الثروة غير منافسين تزين بضاعتنا الامصار وتعمر

صنائعنا الاقطار وتنير معارفنا الافكار

فما لتلك البلاد التي وسعت الوفا الالوف تضيق عن المثين وكيف صارت قوة
اهلها ضعفاً ومنح مجدهم ذلّة وخسفاً
هل انقلبت الارض ام غضبت عليها السماء ام فسدت القلوب ام عميت الابصار
ام هذه سنة الزمان في ابناؤه . . .

كلا . ولا عتب على الزمان فهو النهار نضيء شمسهُ والليل يطلع بدره والربيع
يزين الارض بازهاره والشتاء يروي المزارع بمطاره ولكن هي البصائر غشيتها
وهم الكمال في العادات ودعوى العصمة في التقليد فاحتجبت عنها حركة الخواطر
في بلاد الغرب فسار الناس ونحن واقفون وحركتهم عوامل الغيرة وضائرتنا مبنية
على السكون

فمن لنا ذي غيرة تهتك سجوف الاوهام عن البصائر ويجلو حقائق الامور
للابصار فترى نفعنا في اعتقاد الكمال وخطأنا في ادعاء العصمة فننبذ ما جناه علينا
السلف من اسباب التيه والصلف ونتقرب للنعمة بوسائل الاجتهاد فان قصر
العمر عن الوصول الى غاية النعمة ودرجة الهناء فلا اقل من ان يموت الشرقي عن
سعي يشكر واثر يذكر

فمن عاش في ذل فذلك ميت ومن مات عن فضل فذلك خالد
ومن لم يميت بالسيف مات بغيره تنوعت الاسباب والموت واحد

فذلك

قائد الغفلة الامل والهوى قائد الذل
قتل الجهل اهله ونجا كل من عقل
فعلى م الوقوف في ساحة العجز والكسل

اقهر

نقلًا عن مجلة البيان لمنشئها الشيخ ابراهيم اليازجي

والدكتور بشاره ززل

هو بعد الشمس ابهى الاجرام السماوية على العموم . ونكتة الفلك الارضي

بل اغرب ما يرى الناظر في عالم النجوم . اذا استقل في فلكه يسبح فوق الوهاد
والآكام . ورأيت يترجع مع النجم وهو مجد في وجهته الى الامام . فخط الابراج
وكأنه راقف لا يحس له الناظرون انتقالا . وظهر باشكاله من الهلال الى البدر
حتى يعود هلالا . فكان قيد الابصار تراه ابداً جديداً على تقادم عهده . وتوهمه
على قيد اميال منها وهو الشاسع في بعده . على انه ادنى العوالم من الارض مقيلا
واعلقن بها حبلاً واقربن تمثيلاً . فهو صورة الارض في السماء . ورفيق طيتها الى
حيث لا تدري في اجواز الفضاء . وشريك بختها فيما أرصد لها من احكام القضاء .
بل هو وليدها وان تقضى قبلها شبابه . وشابت دونها اترابه . وقد دفعته عنها منذ
فضاله فمر الى حيث لا مطمع في اياه . ثم عز عليها الا ان يكون بجياله فاخذت
عليه طريق انسيابه . فهو ابداً يدور من حولها مقطع النياط . ويقطع معها اضعاف
ما تقطع من الاشواط

بل هو مثال الرنق والجمال . واية الابهة والجلال . اذا برز من الافق فانهمزمت
من وجهه جيوش الظلاء . وانفرجت الكواكب لمره في عرض السماء . فاقبل يتنقل
بينها وهو يسير الهوينى عزة وخيلاء . فسمت اليه الابصار اعجاباً واكباراً وانصرفت
اليه الوجوه ابتهاجا واستبشارا . وانطلقت له النفوس نشاطاً وارتياحاً . واتسعت به
الصدور انبساطاً والشراخا وخلا اليه العاشق يتذكر وجه حبيبه ولها به المحزون
فسلا من حميمه ونسيبه . واوى الى المسهد فكان سميره في سهده واتخذ المسافر
رفيقاً فذهل به عن مخاوف سفره ومشقة جهده . وجلس اليه الشرب بتعاطون مثل
الشمس في مثله . وتساير بازائه المتعاشقان يستبصران بنوره ويستتران بظله . وقد
تحلل شعاعه نسج النسيم . حتى اتحاد اتحاد الماء بسلافة النديم فكان الطف ما مر
يبصر في الين ما التحف بشر فاسجل الشاهدان ليايه اصف الاوقات . وانه
الجمالي لا كدار النهار كما تجلي به كدورة الظلمات

لا بل هو مبعث الوحشة ومحرك الاشجان ومثير هواجس الصدر وبلابل
الجنان . اذا طلع في ليله وقد سكتت الاصوات وسكنت الحركات ولم يبق الا

تتوج الهواء باختلاج الانفاس الصوامت وحفيف النسائم بين ورق الشجر المتخافت
 فارسل نوره الضعيف ساجماً في النحاء الفضاء مترقفاً على وجه الغبراء تظهر من
 تحته الوهاد المنبسطة في العراء والقمم الشاخصة في الهواء لا يمشي فيها حيوان ولا
 تسمع نامة انسان فونف المتامل امام مشهد ذلك الجمود وقد ملكت عليه مشاعره
 حتى توهم نفسه بمعزل عن الوجود فتخيل ما حوله من الارض بمجاهل خالية او اطلاقاً
 بالية بل تخيل الارض كأنها يوم خلقت فهي ادغال وتنانف وتصور نفسه آدمها
 وقد وقف فيها بين الدهش والخوار فخيمنت فوقه وحشة العزلة واحاطت بنفسه هيبة
 الوحدة وانبعثت الاشجان في صدره فتفرغ لمناجاتها وهاجت الذكر في نفسه
 فغاص بين تياراتها وتوارد عليه من الخواطر ما حجب اليه اللحاق بعالم الفناء ثم
 استبهوا ما يرى من جمال الطبيعة فثابت اليه الرغبة في البقاء فتمنى لو اتخذ سبباً
 الى هذا العالم المائل فوق راسه او تعلق بما تدلى اليه من اشعة نبراسه فربما تخيل
 ان هنالك حدائق غناء ومدائن غناء وقصوراً شاهقة وانهاراً دافقة واقواماً
 يرحون في نعيم ويرتعون في خصب مقيم وما ثم لو يعلم الاكون جامد وقفر
 هاد وسكوت سائد وحطام خلق باند لا يخطو هنالك غايه ولا رايح ولا
 يسمع صوت باغم ولا صادح ولا يسبح طائر في السماء ولا يدب حيوان على
 العراء ولا يخضر واد ولا اكمة ولا تسحب اذياها نسمة ولا ينتشر سحاب ولا
 ضباب ولا ينزرق ماء ولا سراب ولكن جملة ما هنالك طلل دائر وعالم من
 عوالم الدهر الغبر بل جنزة يطاف بها حول الارض وان لم تجعلها المناكب وقد
 صلت عليها السيارات فترحمت عليها الكواكب

لا بد هو خلف الشمس ومصباح الظلم ومقياس الازمان وموقت الامم عنه
 اخذ حساب الاسابيع والشهور وبمركته حددت الآجال والتواريخ من اقدم
 الدهور فكان اسجل الذي يرجع اليه في المعاملات والامام الذي ينزل على حكمه
 في توقيت العبادات بل طالما عبده المتقدمون لانهم راوا في فعله ما يشبه افعال
 العاقل واسوا في صورته ما يقرب من هيئة الناطق وشاهدوا من بقائه ما نزله
 عندهم منزلة الخالد فكان له الحكم في السعادة والشقاء والاعتلال والشفاء وصلاح
 الفرس والزرع وصحة الجنى والقطع وعلى الجملة فقد كان الحاكم في الاحوال والاعمال

والمستشار في العزائم والآمال بما يبدو عليه من نقص او تمام او يتفق له من اقتران
 بغيره من الاجرام مع اعتبار ما يقع ذلك فيه من الايام^(١) شوون ساق اليها ضعف
 الاحلام . واستيلاء الاوهام . والله وراء ما يفعلون وهو العزيز العلام

* * *

لا جرم ان اول ما يبديه الناظر من مرأى القمر وهو في اوان البدر وما
 حواليه انه يراه على خلقة وجه الانسان فيه العينان والحاجبان والانف والغم وذلك
 بما يتخلل سطحه من الخوا اي السواد المنتشر على وجهه بحيث يتبادر منه الى الخيال
 هذه الهيئة الغريبة فهو في ذلك على حد ما يتخيل احياناً في قطع الغيم المتراكمة
 من هيئات الاناسي والدواب وغيرها بما يعرض لها من اختلاف الاشكال وما
 يتخللها من الظلال في جنب ما يقع عليها من ضوء الشمس . وهذا المنظر في القمر
 يستمر من لدن طلوعه من المشرق حتى يبلغ الزوال فاذا مال بعد ذلك واقلب الى
 جهة المغرب تبدل منظره واستحال الى صورة رجل قائم على ساقيه وقد مد ذراعيه
 الى الامام كأنه يدافع بهما الا ان كل ذلك انما يكون في نظر العين المجردة فاذا
 نظر اليه ولو بمنظار ضعيف اتسخ ذلك بجملته ولم يبق له اثر

ثم ان هذا الخوا كما كان سبب تضليل للام الاولى ومن بقي على شاكلتها ليومنا
 هذا من العامة فقد كان محل حيرة للعلماء واهل البحث منهم وقد اختلفوا في امره
 اختلافاً بعيداً واختلفوا في ماهيته على مذاهب نورد بعضها تفكها للقراء فنهم من
 ذهب الى ان ذلك ناشيء عن شكل القمر وخلقتة اذ هو مخلوق على هيئة وجه
 الانسان على نحو ما نقوله العامة فهو عند هؤلاء القائلين تمثل راس ضخ بمنزلة راس
 ابي الهول مثلاً وزعم آخرون انه شبح ما ينطبع فيه من السفليات من الجبال
 والجار يعنون ما في الارض من ذلك وهذا مبني على ان القمر جرم صقيل كالمرآة
 بدليل عكسه لضوء الشمس على ما سير بك من مذهبه . وقال غيرهم انه السواد
 الكائن في الوجه الآخر منه اي النصف المظلم الذي لا يقع عليه ضوء الشمس وهو

(١) كان يوم القمر عندهم يوم الاثنين كما لا تزال تدل على ذلك تسميته
 عند اكثر الامم الافريقية فاذا اتفق ان يكون القمر في ذلك اليوم بدرًا ففيه تمام
 السعادة . وكثير مما ذكر من هذه العقائد باق الى يومنا هذا ولا سيما عنداهل الفلاحة

قول من يزعم ان الكواكب اجسام شفاقة . وهناك مذاهب اخرى لا نقل غرابة عن
 هذه كانوا يقولون فيها بالحدس وينونها على قواعد فلسفة ذلك العصر مما لا محل
 للافاضة فيه في هذا الموضوع . والصحيح وهو الذي يشاهد بالآلات المعظمة ان
 بعضه لون النخل الذي تلقيه جباله على وهاده وبسائطه واكثر ما يكون ذلك وهو
 في احد التريبعين وما اليها لوقوع شعاع للشمس عليه حينئذٍ منحرفاً والبعض الاخر
 لون صحاريه وما يتخلل جباله من الاتربة والرمال وبقايا الخلق الدائر . واما في
 اوان البدر الذي يكون فيه صفحه المواجه لنا مقابلاً للشمس وحين يكون ظل جباله
 محجوباً عنا بقمم تلك الجبال انفسها فلا كلام في انه لون تلك الاتربة

اما شكل القمر فالظاهر لنا انه كروي على الجملة الا ان الذي يستقبلنا منه انما
 هو احد صفحيه دون الآخر اذ هو يوجه الى الارض جهة واحدة ابدأ كما يظهر
 ذلك بمراقبة محوه وتبعه من اول الشهر الى آخره . واما الجهة الاخرى فلا يكاد
 يرى منها الشيء النزر من اطرافها لاسباب ليس هذا موضع بيانها ولذلك لا يعلم
 شكله من تلك الناحية وبالتالي لا يعلم قطره المسامت لخط النظر * قالوا وعله ذلك
 قوة جذب الارض له وممانعتها اياه من الدوران على نفسه الا في القدر الذي يدور
 به احد وجهيه حول الارض فتكون له حول نفسه دورة اضافية يتمها مرة في الشهر
 عند تمام دورته حول الارض على انه قد رؤي احد اقمار المشتري وهو اقربها منه
 مستطيلاً من القطر القائم على السيار فهو اشبه بهيئة البيضة وهو ايضاً لا يوجه الى
 السيار الا وجهاً واحداً فغير بعيد ان يكون قمرنا كذلك ويكون ما ذكر هو العلة في
 وحدة اتجاهه الى الارض

ولما كان القمر يدور حول الارض ويدور معها حول الشمس لزم بالضرورة
 ان يكون القمر تارة بيننا وبين الشمس وهو اوان الحاق فلا تثنأى لنا فيه رؤيته
 اذ يكون الوجه المستنير منه الى الشمس والوجه المظلم الى الارض وتكون الارض
 تارة بينه وبين الشمس وهو اوان البدر وحينئذٍ نرى كل سطحه المستنير لوقوعه
 في استقبال الشمس . وتارة تكون الارض والقمر متحاذيين على بعد واحد من
 الشمس وهو اوان التريبع فنرى نصف السطح الموجه منه الينا لوقوع النصف الاخر
 في جهة الفضاء وكما اتنا نرى القمر مثكلاً بهذه الاشكال فلو وقف ناظر على
 سطح القمر المواجه لنا راي الارض كذلك اي يراها بدرًا عند ما يكون القمر في

الحاق ويراها في الحاق عند ما يكون هو بدرًا واما في التربع فالمنظر بينهما واحد حتى يجاوزاهُ فيعود الى الاختلاف شيئًا فشيئًا الى ان يصير احدهما بدرًا والاخر في الحاق

ومما يستملح ايراده هنا ما جاء في كتاب الكشكول للامام بهاء الدين العاملي من اهل القرن العاشر للهجرة (٩٥٣-١٠٠٣) فانه وصف منظر الارض من القمر بما لا يقصر عن وصف اعظم علماء هذا العصر قال « كما ان جزم القمر يقبل ضوء الشمس لكثافته وينعكس عنه لصفالته كذلك الارض تقبل ضوءها لكثافتها وينعكس عنها لصفالته لاحاطة الماء باكثرها وصيرورته معها ككرة واحدة . فاذن لو فرض شخص على القمر تكون الارض بالقياس اليه كالقمر بالنسبة اليها وبجركة القمر حول الارض يخيل اليه انها متحركة حوله ويشاهد الاشكال الهلالية والبدرية وغيرها في مدة شهر لكن اذا كان لنا بدر كان له محاق واذا كان لنا خسوف كان له كسوف لوقوع اشعة بصره داخل مخروط ظل الارض ومنعه اياها من وقوعها على المستنير من الارض والماء بالشمس (كذا والصواب من وقوعها على الشمس) واذا كان لنا كسوف كان له خسوف لوقوع اشعة بصره داخل مخروط القمر ومنعه اياها ان تقع على الارض الا ان خسوفه لا يكون ذا مكث يعتمد به لكونه بقدر مكث الكسوف ويكون لكسوفه مكث كثير لكونه بقدر مكث الخسوف . لان بعض وجه الارض يابس فلا ينعكس عنه النور بالتساوي فكما يرى على وجه القمر المحو يرى على وجه الارض مثله . وهذا الفرض وان كان محالاً لكن تصور بعض هذه الاوضاع بعين الفكر على تخيل اي وضع اراده بسهولة » اهـ

وهو كلام في غاية الحسن وقد اصاب في اكثره شاكلة الصواب الا انه جعل علة انعكاس النور على الارض كون اكثرها محاطاً بالماء وهو خلاف الواقع لان شطراً من النور بل معظم اشعته ينفذ الماء ويتكسر فيه فلا ينعكس الا اقله وبخلافه الارض فانه لا يغيب فيها من النور الا الشيء الذي لا يعتقد به وباقيه ينعكس بجملته . ولا اثر للصفالة هنا اذ هي انما تعتبر في عكس النور عن السطح المستوي كما في المرآة ووجه الكأس والبركة مثلاً حيث لا يظهر للماء تجذب محسوس فتنعكس الاشعة كلها الى جهة واحدة وذلك بشرط موافقة خط انعكاسها لاتجاه خط البصر

واما السطوح الكروية فانما يرى النور المنعكس عنها من نقطة واحدة وهي التي يوافق انعكاسه عنها جهة البصر كما ترى في الكرات العاجية والزجاجية وغيرها وباقيها فتعكس الاشعة الواقعة عليه الى غير تلك الجهة فلا يرى منها شيء . ومن هنا يعلم ان الانعكاس عن الارض يكون اشد واكثر لانها لتضارسها تعكس الاشعة عن كل قمة وحيد مما لا بد ان يوافق الكثير منه خط البصر كيف اتفق وضعه بالقياس الى الشمس والى الناظر . وقد ثبت ذلك بمراقبة القمر نفسه في مروره على البر والبحر واختلاف ما يرى عليه من النور المنعكس عنها حتى يروى ان كستلي وهو خريج غاليلاي المشهور استدل بذلك على وجود قارة اوستراليا قبل كشفها . وذلك انه راقب الهلال عند عبوره فوق المحيط الجنوبي فوجده كلما انتهى في فلكه الى الموضع المسامت لهذه القارة يتوى النور الضعيف الذي على سائر جرمه المظلم وهو النور المنعكس اليه عن الارض على ما سنذكره قريباً فتبين من ذلك ان هنالك ارضاً واسعة اذا قابلها اشتد انعكاس النور عنها اليه بخلاف ما يكون عليه وهو مواجه لغير ذلك الموضع من البحر .

ثم انه يفرض ان الواقف على القمر يرى الارض تدور حوله يعني مرة في الشهر وقد يتبادر من هذا الفرض ان ذلك على حد ما نرى نحن الشمس تدور حولنا وهو غير مراده قطعاً لانه جعل ذلك مسبباً عن حركة القمر حول الارض ونحن انما نرى الشمس والتجوم تدور حولنا بدوران الارض على محورها لا بدورانها حول الشمس فالظاهر ان لهذا الفرض وجهاً اخر وهو انه يقدر ان القمر يدور حول الارض واقطاره الاستوائية موازية لنفسها بمعنى انه لا يتحرك على محوره البتة فهو يستقبل الارض بجميع اجزاء سطحه على الولى . ولذلك يخيل الى الواقف عليه ان الارض تتحرك حوله . وهذا ايضا ليس بصحيح لما ابنا من ان القمر يولي الارض وجهاً واحداً ابداً فالذي يلزم من هذا ان الواقف على نقطة منه حيثما راي الارض من تلك النقطة سواء كانت على الافق او في السماء او ما بينهما لا يتغير عليه موضعها ولا يراها تنتقل منه الا بمقدار ما يترجم في فلكه على ما سبقت الاشارة اليه وهي حركة ضعيفة لا يكاد ينتبه لها ولا نتم الا في الزمن الطويل

بقي ان قطر الارض يكون نحو اربعة اضعاف قطر القمر فهي ترى من القمر

اعظم مما نرى القمر بما يزيد على ثلاث عشرة مرة فيكون منظرها منه ابهى من منظره من الارض بما لا يقاس والنور المنعكس عنها اليه على ما يقرب من تلك النسبة حتى اننا نشاهده من هنا على المكان المظلم منه واضحاً وذلك في وقت الهلال وابين ما يكون بين الليلة الثالثة والسادسة منه حين يرتفع القمر عن الشفق وقبل ان يعظم القسم المستدير منه بحيث يكشف رؤية النور المنعكس عليه من الارض وهذا ما يسميه علماء الافرنج بالنور الرمادي لمسايمته لون الرماد فانك اذا تأملته رأيت به يتم دائرة القمر واذا وجهت اليه المرقب امكنك ان ترى ما فيه من المحو الذي تراه بعد ذلك تحت ضوء الشمس . واذا اردت ان تستوضح النور الرمادي وترى القمر معه بصورته البدرية فقف بحيث يحتجب عنك القسم المستدير من الهلال وراء طرف جدار ونحوه ويبقى القسم المستدير بنور الارض وحده فانك تراه في تمام الوضوح ما يكسفه من حاجب الهلال

وهنا مسألة نختم بها هذا الفصل للتفككة وهي ان الناس يختلفون كثيراً في تقدير دائرة القمر فمنهم من يتوهمه بمقدار الصحن الذي لا يزيد قطره على عشر المتر ومنهم من يتوهمه بمقدار الطبق الذي قطره نحو نصف متر ومنهم بين ذلك وهي مسألة كثيراً ما يتحاور فيها حتى لا تكاد ترى اثنين يتفقان على قياس واحد . ولعل فصل الخطاب في ذلك ان تؤخذ قطعة ورق او نحوه ويثقب فيها ثقب مربع كل من اضلاعه نحو نصف سنتيمتر ثم تثقب من موضع اخر ويدخل في الثقب طرف عصاً بحيث تجر به الورقة على العصا وبعد ذلك يوضع احد طرفي العصا عند موق العين وينظر الى القمر من الثقب المربع وتدنى الورقة وتبعد حتى تماس دائرة القمر اربع اضلاع الثقب فاذا انضبط ذلك يؤخذ صحنٌ او شيءٌ اخر مستدير وينظر اليه من الثقب المربع على نحو ما نظر الى القمر فيدنو الناظر منه او يبعد عنه حتى يتماس محيطه واضلاع الثقب فتكون دائرة القمر بقطر ذلك الصحن على البعد الذي رؤي عليه والله اعلم

جمل ادبية

« لاجم افندي فارس صاحب الجواب »

من الناس من يتعلم العلم لينفع به نفسه وغيره فتراه ابدًا حريصاً على جمع

فوائده وايضاح منهجه وتسهيل وعره فاجل امنية عنده ان يفهم القول كما عناه قائله وان يفيد غير كما فهمه فمثله كمثل الكريم الذي يستفيد ويفيد وفي الحقيقة فان الكرم كما يكون في افادة المال كذلك يكون في افادة العلم فالكريم من العلماء يفوح لسؤال الطالب ولا يمل من السائلين واذا اجاب عن شيء او الف شيئاً جعل اقصى همه وعنايته في توضيح عبارته وتصريحها حتى لا تكون مظنة للتاويل والقيل والقييل فهو لاء الذين ينفع الله تعالى الناس بعلمهم وعملهم وهؤلاء الذين بعد وفاتهم يتخرج عليهم كثيرون من الطلبة كما كانوا في حال حياتهم فلا يزال كلامهم نوراً يضيء على الناس ولا تزال بركة مساعيهم ومقاصدهم ناهية الغراس ومنهم من يتعلم العلم لينفع به نفسه دون غيره الا ان ذلك النفع الذي استاثر به يعود بالضرر عليه كمن يتعلم الفقه مثلاً ليصير به عوناً لواحد على اخر فيبذل جهده والحالة هذه في ان يصير الحق باطلاً والباطل حقاً وما ذلك الا ليكسب بعض دراهم ينفقها في رياسه واثائه اذ يزعم ان الاكثار من الرياش والاثاث يكسبه المهابة في عيون الناس فاذا قصده غريم مثلاً ورآه على هيئة الغنى عظم في عينيه واجزل له العطاء لان الناس في الغالب يراعون الظاهر دون الباطن فيكون قد اتخذ العلم سبباً للاكثار والتشبع والاكثار والتشبع سبباً للبخس فيضل عن طريق العلم ويتيه في مهامه التمسك والاستغناء واذا ساله احد الطلبة عن شيء تعاضم عليه وازدرى بسؤاله واخذ يشكو من قلة فهم الطلبة في القاء السؤال وتلقي الجواب فاذا اجاب عن شيء ليس في القول ووارب حتى يزيد السائل حيرة وارتياباً فاذا انصرف السائل من عنده على هذا الوجه قال انه لم يبق من اهل عصره من يفهم كلامه بل العلماء ايضاً تقصر عن ادراك معانيه وتملك مزية فضله الله تعالى بها على جميع الناس اذ جعل اقواله اعلى من اذهانهم وليست عبارته فيما يكتب باقل ابهاماً وتلبساً مما يقول وهو داء فاش في كثير من المصنفين الذين يقصدون من التصنيف اظهار علمهم ودقة افكارهم وتصوراتهم لا افادة الطلبة واذا مدح بجزته احد على عمله وفضيلته امتنع وامتنع فلا يريد ان يكون احد من الخلق شريكاً له في العلم بل يمتعض ايضاً من مدح غيره على علم شيء من اللغات الاجنبية فاذا قيل له ان فلاناً على امامته بالعربية يعرف اليونانية قال وانا ايضاً اعرفها تيكاني ايلادو قالون واذا قيل له فلان يعرف الفارسية قال دوست برادر خوش الا ان الله تبارك وتعالى قد فضلي منذ

الضبي على اهل العاصم فكنت اقريء الناس وانا ابن خمس عشرة سنة وصرت احكم وافتي وانا ابن عشرين سنة فدانت لي الامراء واقبلت عليّ العلماء فما منهم الا من اخذ عني او استملاني او استجازني او سألني فشرحت وامليت واجزت واجبت وبكل احسنت واصبت ومع ذلك فاني غير محب بنفسي ولا شاخ بانفي كما يفعله كثير من العلماء الا ترى اني لا استنكف من مجالسة الناس ولا انف من ان اصحح لهم كتبهم اي كتب كانت وما ذلك الا عن كرم وحب للغير فاني مجبول عليهما اذ لو كنت ممن يطلبون الغنى لملكتم الدنيا بحذاقها وباطلما انفقتم وجمعت وفرقت واقتنيت وبذلت وادخرت وافضلت ولست ممن يحرص على قطع ارزاق الناس واطهار معائبهم وانما حجب الي الحق ونفع الناس وذلك يضطرني الي ان اقول ان فلاناً مراءً في الدين فيجب قطع معاشه وان فلاناً غير جدير بوظيفته فيجب عزله وان فلاناً فلاناً اعترض عليّ في امر كنت فيه على الحق وكان هو على الباطل فيجب قطع لسانه وهلمّ جرّاً الي ان يبدو لجميع الناس ان علمه شرك للاذى والشر ووسيلة للضلال والخر فلا يسعهم بعد ذلك الا اقصاءه ورذله واهانتة وخذله فيصبح بينهم ذمياً مدحوراً داخراً مبتوراً فهذا مثل العالم الذي يقصد بعلمه نفع نفسه وضر غيره والله يهدي من يشاء

من الناس من يتعلم العلم وهو مجبول على صفات حميدة فيزداد هدًى ورشدًا وورعًا ودمائة اخلاق وحسن تصرف واستقامة طبع ونزاهة نفس وصفاء عقيدة واخلاص مودة وسلامة نية وعفة قلب ولسان وانبساط يد فمثلته كمثل الجوهر الشفاف اذا قابله شعاع الشمس او كمثل اناء من زجاج نظيف صاف اذا وضع فيه الماء لم يغير من طبعه شيئاً فتراه دائماً مقبلاً على نفع الناس ساعياً في اصلاح شؤونهم وتسوية احوالهم باذلاً اقصى جهده في تسكين خواطرهم ولم شعثهم وتاليف متفرقهم وتسوية حزينهم وارشاد غاويهم وتأييد ضعيفهم وليس من همه التردد على ابواب الامراء والخضوع لحجابهم وملاينة خدمتهم ولا استعطف ذوي الثروة والعز حتى ينال منهم وظيفة او رزقاً ولا التشدق بالاياات والنوادر حتى يعجب السامعين ويحملهم على اكرامه وتعظيمه ولا التعرض لما لا يعنيه حتى يقال فيه انه ذو همة وسعي وانما همه كله في مراعاة ما يقتضيه العلم وهو فعل الخير لوجه الله تعالى فهذا

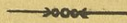
هو العالم الذي يحمد حياً وميتاً ويبقى اسمه مذكوراً بالخير في كل مكان وزمان وهو الذي تترك الناس بنقل اقواله كما يرتاحون لحمد افعاله وكما ذكرت سجية حسنة وخلة مستحسنة ذكروه بها ونسبوا اليه كثيراً من امثالها فان من طبع الناس ان ينسبوا الى من عرف بالحمد والفضائل في عصره كل حمد وفضل عرفا لغيره ومنهم من يتعلمه وهو مجبول على بعض صفات ذميمة فيتهدب به بعض التهذب ويتغير به بعض التغيير فشأنه ان يبقى فيه علمه وشره كالقرنين المتكافئين فمرة يقوى علمه على شره وذلك اذا تذكر ما مر به من قصص الصالحين وسيرة اهل السمى والخير فيؤثر الاقتداء بهم ومرة يقوى شره على علمه اذ يطمس الله على قلبه فينسى ما قراه وسمعه ويتبع هواه فمثله كمثل الشمس في شهر الغيم تبدو مرة وتختفي اخرى وهذه الحالة هي التي تحير الناس في وصفه فمرة يمدحونه كل المدح وبعضهم يذمونه كل الذم وكل في نفس الامر صادق الا ان العادة ان خلة واحدة مستهجنة تمحو خلافاً كثيرة مستحسنة فكأني من محسن مجبول على الاحسان زلت به قدمه مرة فصارت حسنة كلها في اعين المتعتمدين عليه سبباً ومنهم من يتعلمه وهو على الاخلاق الذميمة فلا يزداد به الا طيشاً وترعاً الى الشر واضطراباً في الراي وحدة في الطبع وشراسة في المعاملة وتطاولاً على حقوق الناس وتمهقاً على الطعن فيهم فثله كمثل شمعة موقدة معرضة لعواصف الرياح فلا تزال الرياح تعبت بها يئنة ويسرة حتى يتخى الناظر اليها اطفالها بالمرّة ثم ان كل علم نافع وكل نافع ممدوح الا انه ينبغي النظر في حقيقة معنى النافع فان من يقصد العلم لينفع به نفسه دون غيره لم يبق ذلك النفع الخاص مستوجباً للمدح العام وكيفية اقتصار الانسان على نفع نفسه هو ان يزدري بغيره حتى يصير مرجع المسائل اليه وان يستحل اموال الناس بما تسول اليه وساوس نفسه من انهم لم يحرزوها على وجه الحق وان يتهددهم باظهار عيوبهم في الاماكن التي ينتابها حتى ينيلوه كلما يقترحه عليهم وان يغري زبداً بعمره ويضري عمراً على زيد ويتربص بهما الرزايا والبلايا فيرزأ من كل منهما واقبح من ذلك ان يتعرض لغيره اذا عرف انه ينال رزقاً فيسعى في قطع رزقه وان لم يعد عليه ذلك بعائلة فنفع نفسه هنا غير حقيقي وانما هو باعتبار ضر غيره وهو مثل ابليس لا محالة لان ابليس لا نفع له من وقوع البشر في المهالك الموقبات الا الشماتة بهم او مثل الجعل الذي يرتاح لحلل الاقدار ويانف من رائحة الطيب ومن العيب كل العيب ان يظل العالم مترقباً

زلة غيره ومتربصاً لخلول الشر بهم ولا لذة له من ذلك ولا نفع سوى مجرد وقوع
 الضر بمن يكرهه فاذا اردت ان تختبر جليسك لتعرف من اي صنف هو من هذه
 الاصناف الثلاثة فاذا ذكر له نعمة انسان وفضله وعلمه فان رأته قد فرح بذكرها وتمنى
 بقاها عليه فهو من الصنف الاول وان رأته قد سكت او نسب ذلك الى بطر
 الزمان وعوارض السعد فهو من الصنف الثاني وان رأته قد امتنع فهو من
 الثالث وهو الذي لا يجب خير احد وهو الذي علمه فيه كالقرط في اذن السنور
 او كالعومة في بطن الثعبان وهو الذي يجب الاحتراز منه كما يجترز من الجاهل
 بل اكثر لان كلام الجاهل لا يؤثر في احد وانما التأثير لكلام العالم الا ان الحق
 عصمة كل معتمص به وفعل الخير جنة كل من تحصن به فاذا واظبت على حب
 الحق وفعل الخير فلا تخش شر احد من الناس وما عليك اذا تجنى الناس عليك وانت
 بري عند الله فعليه وحده عول وبه اعتصم واليه التبيء ومنه استهد والله يهدي من يشاء

من الناس من يكبح لعاشه كانه لا يموت ابداً فتراه دائماً مهتماً بالاحتراف
 والاصطراف والاجتراح والافتراح والاكتساب والاختلاب والاهتليل والاجتداء
 والاعتداء والاستكثار والامتيار والاستئثار والادخار وما يبالي ان فقد صاحباً
 بتحصيل درهم او غنم من حيث لا مغمم او ان انشب مخله في غير منشب او ان
 بادهته الناس باللوم والسب فان حب المال اذا استولى على قلب المحتال خيل له
 السراب شراباً والوشل عباباً فاذا اعتاد كسباً من جهة اتخذ تلك الجهة قبلة له وناط
 بها امله ومعوله واذا استفاد من احد فائدة ظنها قد صارت عليه فرضاً مكتوباً واداء
 محسوباً لا يبرح من باله ولا يشغله عنه حال من احواله فاذا خاب يوماً امله ظن
 ان قد ادركه اجله فيعول ويشكو ويصيح ويمكو ويقول بالرجال ابن المال واين
 الامال واين من كان يلقى السائل بالنوال فقد فسد الزمان وضاع العرف والاحسان
 وقلت الاخوان لقد طالما اعطيت ولم اسأل واليوم اسال ولا اعطى وهيهات من
 بذل وصان وجه الحر عن ان يتنذل هذه الارض واسعة رحيمية والناس عليها
 اكثر من ان يحصوا عدداً وما اجد ممن يؤاسيني منهم احداً فالي احرم وهم يرزقون
 وما لي اخفق وهم يتناقون فباي شيء فضلوني وعلام خذلوني وابسلوني فتخيّل اليه
 وسوس طمعه انهم جميعاً اعداء له الداء وانهم جد يرون بالارداء حتى يكون

هو وارث الارض والمتصرف فيها وحده وحسبه اذا فقدوا جميعاً دون ان يفقد فيها
 جده فمثل هذا لا ينفع فيه لوم ولا نصيحة ولا يشبهه عن الكسب فضيحة واذا ذكرت
 له المنية اشتغل عنها بذكر الامنية واذا ذكر بهادم اللذات اعرض عن الذكر
 يبشرى ما هوات فيا للعجب كيف يشغل الانسان نفسه بالاماني الويلة ويستغرق
 في المطامع المستحيلة وهو يرى نكبات الزمان وصروف الاحوال لا تبقي شيئاً على
 حال فكم اهرمت من فتي واقفرت من غني ووضعت ذا رفعة واجاعت ذا رتعة وكم
 من رفيع سفلى ونبية خمل وذوي امرة في الناس صار ماموراً وذوي خطر وشان
 عاد وضعياً حقيراً هكذا دأب الايام في الانام ترفع وتخفض بين قعود وقيام وتعز
 وتذل بين يقظة ونام من ذا الذي دامت له السيادة وصفت له مشارب السعادة
 فاذا كانت الدنيا منذ خلقها الخالق لم تصف لاحد في المغرب والمشارك ولم يهناً
 بها عيش فاجر ولا يروا حلت بها ساعة الا ومر بها دهر فكيف الاغترار بها
 والارتواء بجليلها وهي نقول بلسان الحال الذي هو افصح من لسان المقال اني اعامل
 بني جميعاً على حد سوى وما لدي من ثنيا فان كنتم تشكون من الظلم فما انا قد
 عدلت بينكم وعممت حينكم فكلكم مرتد يوم حينه بشوب واحد وكلكم له حشرجة
 واحدة عند ذوق حمامي الراصد فمن كان سكران من حيي فليستفق من سكرته
 ومن كان قد اخذ الي فينتبه من غرته وليتخلص من غمرته لعمرى ان حال الدنيا
 هذا مقالها وهذا اندارها وتعذالها فما احد من العرب والعجم الا ويفهم معناها ويفطن
 لفحواها ولذا قلت ان لسان الحال افصح من لسان المقال ومنهم من هو مجبول على
 الزهد في الدنيا لكنه غير زاهد في المسعى ولا متطلع الى ما في ايدي الناس ولا
 يصرفه عن سعيه ظفر ولا ياس وانما يسعى لوجه الله الكريم في الطريق المستقيم
 ويخلص ما يعمله ويمحص من ياتيه ويفعله فان انتفع به غيره فذاك اربه وخيره والا
 فانه يحتمسب به عند الله اجراً ويزداد اليه ارتياحاً وسراً وهو مع ذلك غير غافل
 عن ميعاد الحمام الا ان الحمام لا يصرفه عن نزع الانام فلا يقول ان لهم من يرزقهم
 ويكفلهم ويقوتهم ويثلمهم فلي الاشتغال بنفسي وهذا ابداً طيب وفتسي فانظر الى
 الفرق ما بين هذين الرجلين وها من طينة واحدة وانظر الى تفاوت ما ربهما
 المتعاند لا جرم انه ليس من فرق في شيء من الاشياء كالفرق في بني آدم فمنهم
 من تسمو نفسه الى المعالي وطيب الشيم فيقرب من الملائكة المقربين ومنهم من

تسفل مروته وتسقط همته فيدنو من حد الشياطين ومنهم من بوحدة رأيه يسعد
الوقا عديدة من الناس ومنهم من لا لذة له الا في اشقيائهم وايقائهم في لباس ذلك
حكم الله الذي تقصر عن ادراكه الحكماء وعن عمله المحيظ تقاصر العلماء وهو الذي
خلق الداء والدواء وجعل من خلقه اسعاداً واشقاء فاسالك يا ذا الجلال ان تجعلني
من يطلب الرزق الحلال ويوتر السعي النافع على القيل والقال ولا تكليني الى
الاماني الباطلة والمطامع الزائلة واقرن قصدي بالاصابة وعملي بالاثابة انك
ولي الاجابة



من الناس من يتكل على حسب ابائه فيفتخر به لدى جلسائه واخلائه في صباحه
ومسائه فلا ينهض لما اثره ولا يصبو الى مغفرة فشانه ابدآ ان يقول في كل مجال من
القول ان ابي كان ذا فضل وطول وانه كان يقري الضيوف ويرضي الالوف وكان
السائل ياتيه فيرجع وهو غني عليم ويشور رايه المستشار فيعود وهو نطس حكيم وكان
له ملكة في التاليف ومزية في كل عمل رصيف وكان مغناه مقصودا وخياه مشهودا
ونواله قريبا ومقاله مصيبا وهو الذي انتهى اليه علم الاوائل والاواخر وصار نبهاً في
جميع المحامد والمفاخر فما احد من الناس يجهل قدره وشانه او ينكر عرفانه واحسانه حتى
سارت بحمده الركبان وشدا بهديحه كل قاص ودان فلا تسالوني على ذلك دليلا ولا
تطلبوا له فيمن غبر وحضر مثيلا فما من فاضل الا وكان بالنسبة اليه مفضولا وعلى
هذا الاتكال يبغي ثخره ويشيد ذكره فيصبح عاجزا وكلا متقاعسا عن المكارم والعلی
وما يهجه ان ندب الى اغانة محتاج واعانة ذي الفاج واياء طارق مضطرو واجداء
طارى معتر وتراه ابدآ عند ذكر الاموات يتنفخ ويتنفس حتى يتوصل به الى ذكر
ابائه فينتعش واذا ذكرت له الاحياء قال الولد سر ابيه ولا يلد النبیه الا النبیه ثم
اذا قيل له هذا فقير كثرت عياله فساعت حاله وقد طال ارقه وبدا خلقه بعد ان
كان يتأنيق في ملبسه ويجود على ملتسه وهذا تاجر استخرب ولم ييق له وجه مطلب
قال امره الى القشف والم به الضفف قال ما انا على الخلق بمسيطر وحسي اني على
تشيد مجد آبائي مقتدر فقد فقالوا ان اشتقاق الابن من بنى بمعنى انه يبني ذكر ابيه
ويديم عليه التنا وهكذا يصم اذنيه عن ذكر كل من خرق اسمه سمعه ويقسو قلبا على
كل من يقصد صنعه وينشد نفعه ومنهم من يكون له ذلك الاتكال ويفتخر بما كان

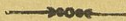
لآبائه من شرف الفعال وكرم الخلال وصالح الاعمال الا انه يدأب في الاقتداء بهم
 والسلوك على مذهبهم وفي اتمام الامر الذي قصدوا والارتواء من الورد الذي وردوا
 والتخلق باخلاقهم الكريمة والاستقراء لمكارمهم العميمة حتى يزيد عليها ان كانت
 الزيادة مما يطاق كانه واياهم في حلبة السباق وعلى هذا ترى كثيراً من ابناء العلماء
 قد حاكوا اباهم ادباً وعلماً وفضلاً وفهماً فهذا العمري هو الفخر والشرف الباقي على
 مدى الدهر وهو الذي يجب ان تحت عليه البنون ويكون اماماً يقتدي به المقتدون
 وينبه له الغافلون ويعتبر به المعتبرون وهو اشرف من ميراث النصار والعقار وابقى
 ذكراً على عمر الادهار فان النصار يزول والنعمة تحول ولو بقيا لاحد لخال بينه وبينها
 الهرم فلا يتمتع بهما الا بمثل ما يتمتع الحالم بما حلم والتمني بالعدم اما العلم فانه كنز لا
 يفنى على الاتفاق ولا يخشى على ثروته خوؤل املاق فهو قرين صاحب نفسه الى ان
 يودع في رمسه وهو في الشباب له جمال وفي المشيب كمال يقوى عند هزن العمر
 ويزيد عند نقصان الخصب واليسر ومنهم من يقر بحسنة اصل اجداده لكنه يفتخر ببذاه
 واجتهاده وبعده وعتاده وكسبه واعداده حتى يحاول ان يستر بفضله ما بدا من عيب
 اصله فاذا ذكر لاحد حسب قال لا حسب الا الادب ولا فخر لمرء الا بنفسه فلا
 تسأل عن قنسه وهذا القول هو في نفس الامر صواب وهو الذي يعتمد عليه كثير من
 ذوي الآداب وهو راس مال الذين لا حسب لهم وعليه يجعلون معلوم الا انه لا ينكر
 ان للاصول تأثيراً في الفرع عظيماً فلا تكاد ترى ذا اصل زكي الا وتوسم فيه خلقاً
 وسمياً وشاناً كريماً فاذا اجتمع الاصل والفعل واقتربنا كان ذلك غاية المنى والا فان
 هذا الثاني خير من الاول واكرم منه وافضل وبقي الكلام فيمن لا حسب له ولا ادب
 وهو مع ذلك يفتخر في كل مطلب وبيته على من شرق وعلى من غرب ويملا المكان
 من دعاويه ولا يبالي بلاحيه فمدته قول انا جواب عن كل سؤال وتلخيص لكل
 اشكال فهو الذي يجانب جانبه ويتعب به مصاحبه فلا ينبغي ان تضاع في معاشرته
 ساعة ولا ان يكون مع الجماعة فانبت عنك كل من يكثر من قول انا وهو بمعزل عن
 الثناء ولا عائدة منه ولا غنا ولازم من يذكر محامده غيره وينوه بخبره وخيره ومن
 يشيد بذكر الاكياس ويزيل عما بدا في انحاءهم من التباس فان الطباع تعدي كما
 تعدي الادواء وان العمر قصير لا ينبغي ان يضاع في سماع هذر وهراء واتباع
 اضلال واغواء ولا تكن كمن ينفق زيتة في الليالي سهراً على ذكر الاعصر الخوالي

فحسبك من آثار الزمن الحاضر ما يهيك عن ادكار الغابر الا ان تريد بذكر الماضي
 عبرة تحض على اصطناع مبرة والليب من استفاد علماً وحكمة من كل ما يمر عليه
 ويذكر بين يديه ولا يشتغل الا بما يعنيه ولا يطلب ما يشقيه ويعنيه والسلام على
 من اتبع هذه النصيحة وتوخى المقاصد الصحيحة وجد واجتهد فيما يحمد وسعى وقصد
 وكان من امره على رشد

من الناس من يتصدر في المجالس ويحدث كل مجالس وينافث كل مواس
 فيطرب المسامع بما يورده من الفقر النواجع ويسلي النفوس بما يسرده من الحكايات
 والنوادر والايات ويواصل الاخبار ويروي الاشعار ويصل قضية باخرى ويقول
 تلك حرية وهذه اخرى ويلتفت ويستطرد ويتمثل ويستشهد ويلجح الى وقائع وفنون
 ويفيض في حديث ذي شجون حتى تقول ان صدره مستودع لجميع الاخبار وفكره
 محور لكل الاسرار وانه مورد المسائل ومصدرها وخبر الفضائل ومخبرها وانه ففاض
 المشكلات ومستفاض البيئات وبديع البيان وحسان الفصاحة والتبيان وان له مصنفات
 كثيرة ابدعها ومولفات وفيرة اخترعها حيث قالوا ان اللسان ترجمان الجنان والاخذ
 في فنون الكلام منبأة عن العرفان فيعظم في عينك قدره ويثبت لديك فضله وفخره
 وتهابه مهابة التليذ لاستاذه وتوقره توقير المضميم لمعاذه فاذا اخطأ في شيء خلت ان
 الخطأ من فهمك لا منه وانك محتاج الى الاخذ عنه فاذا اخذ القلم وكتب ابان
 عن قصور في عمله وفتور في فهمه فغربت عنه تلك القويحة السائلة وخانته تلك الفكرة
 الموالية فلم يجد لارتباط الكلام بابا فكانه لم يقرأ في العلم كتاباً ولا درى من فنون
 القول ايجازاً ولا اطناباً وكان لسانه الذي كان يتكلم به انما كان مستعزاً وتلك
 الفصاحة كانت اضطراراً لا اختياراً مع ان من العادة ان الانفراد للتأليف والانشاء يظهر
 فضل المرء في عمله اكثر من المجالس ويكون ادعى للايشاء فان في الخلوة يصفو
 الذهن من كدر القيل والقال وينشرح الصدر من عنت الارشال فيسهل فيها ايقاع
 الالفاظ موافقها والتأليف بين المعاني فلا يختار منها الا بدائعها راذا التبس شيء من
 الكلام فالكتب تكشف عنه اللثام فكيف تكون الخلوة باعثة على التقصير والزحام
 ادع الى البيان في التعبير وان كثيراً ممن يتفصحون ويتحذلقون والناس بهم محذقون
 واليهم محذقون ليثمدوا حفظ بعض القصص والحكايات لمجرد سردها على السامعين

بينة على ما لم من البيان والتبيين والاطلاع على سير الاولين والاضطلاع من علوم
 المتقدمين فترى احدهم ينتهز الفرصة لبث ما حفظه ووعاه ويزاحم غيره في الكلام
 لظهور دعواه فاذا كان في المجلس ثلثة منهم او اربعة سمعت لم نجيحاً ومعمعة حتى
 كانك في جيش لجب وبجر مضطرب ومنهم من يحضر المجلس وهو صامت ويسمع
 ما يقال فيها وهو ناصت واذا عن له ان يورد نادرة على سبيل المحاضرة تذكر انها
 غير خانية على احد من الحضور او انها ليست من القول المأثور فيضرب عن ايرادها
 ويقبس عليها غير من اندادها وهكذا ينفذ المجلس وهو لم ينطق ببيت شفة ولا اظهر على
 السكون اسفه فيظن جليسه انه ذوعي وغيره من المكثرين كان اللوذعي فان الناس يظنون
 غالبه ان الفخار في الاكثار والقصور في الاقتصار فاذا حضر المجلس مرة اخرى
 لم يرفع له احد من اهله قدرًا واتخذوه ككلا وقالوا ان سكوته انما كان جهلاً وان
 حضوره لما يقلى فان من شهد مخفلاً ولم يتكلم فيه كان كأنه يتطلب عد معايبه
 وحصر مساويه ولكن متى خلا هذا الصامت بنفسه واجرى جواد قلبه على ميدان
 طرسه اراك من فنون الكلام عجباً واذا فاك من حلاوة البيان ضرباً وانشاك من
 انشائه وسلب لبك باساليبه وانخائه فتود لو كنت له نليذاً وخديماً او سميراً
 وكليماً وقلت لا جرم ان من البيان لسحراً وان من الصمت لسراً فليس كل من
 اورد النوادر كان عالماً ولا كل من تمثل بالايات كان ناظماً فما العلم الا ما استقر
 في البال لا ما فرقر في المقال وهذا الذي يفيد الطالبين ويؤدب المتأدبين وقما
 اجتمع لمرء فصاحة اللسان وبراعة اليراع والناس في تفضيلهما ليسوا على اجماع
 وعندى ان الثاني بالعلماء اليق والاول بالخطباء وذوي المراتب البق فان هولاء
 محتاجون الى اعجاب السامع بالقول الرائع وان لم يتحروا في قولهم التحقيق مما لا بد منه
 للعالم ذي التنويق وفي كلتا الملكتين مزيه وفصيلة وفتقيه فاما من خلا عنها ولم
 يحرز سهماً منها فعادة الناس ان يرموه بالمعايب ويشنوا عليه المثالب وما يكادون
 يروونه جديراً بشيء من الاحسان لانهم حصروا الفضل في فصاحة اللسان وبراعة
 الجنان وهو عندى في الجملة غير الصواب والقائل به انما يقول مجازفة بدون حساب
 فان كثيراً ممن ليس لهم احد هذين الشائنين يحسنون مباشرة الامور والتقلب في
 الرئاسة من دون شين فكم من امي ساس العباد وعمر البلاد وليس له في صناعتي
 الكلام والتاليف يدان حتى كان لا انامل له ولا لسان وانما هو نور يقذفه الله

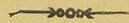
في قلبه فيرى به سليم الامور وسقيها ومنتجها وعقيمها والحري منها بالاجراء والنافع
 منها عند الاستقراء فيشمر له عن ساعد الهمة ويوقفه الله الى اصلاح امر الامة
 وانما يكون هذا في افراد الناس نادراً ولذلك قلما ترى له منهم ذاكراً واحسن
 الملكات واجل الغريزات ما نفع الناس وودع عنهم الترهات والفهم على المودة
 والاخاء وازال من بينهم العداوة والبغضاء والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم
 ويمد بالتوفيق من اتاه بقلب سليم



من الناس من يتسنى اسنى المراتب واسمى المناصب فيحاول المطالب ويزاول
 المآرب ويحكم السياسة ويرأى الرئاسة ويراعي فيها ارضاء الخالق والمخلوق وثناء
 الرازق والمرزوق ولا يلبيه نعم الصفاء وصفاء النعم عن تعهد الضعيف وتفقد اليتيم
 وعن اسداء المبرات الى ذوي الحاجات واستماع شكوى المظلوم واستطلاع دعوى
 المظلوم حيث يعلم ان احب الناس الى الله انفعهم لعباده واكيس الكيسى من
 عمل لمعاده وعلم ان الله لا يضيع اجر المحسنين وان الدنيا لا تبقى لاحد من الموسرين
 ولا من المسيطرين وان من ولي الامور وجب عليه اسعاف الجمهور الخامل منهم
 والمشهور فمثل الربان الذي يدخر الزاد في سفينته ويحكم السكان ولا يبحر
 الا على امان ولا يرسو الا وهو ذو اطمئنان جيران احوال الانسان في معاشه تشبه
 السفر في الابحار اذ هي محفوفة بالاعطال والاكدار فينبى فيها رخي البال
 مغبوط الحال ذا اهل ومال واعوان واخلاق اذا بالزمان قد اضطرب عليه فاحاط
 به تهوره وهاج عليه معسوره والتفت به كوارثه وشملته حوادثه حتى تكاد تنضب
 عنه مزاياه وتشين سجاياه فيخيل للناس ان تلك الرئاسة التي نالها والمعالى التي طالها
 انما كانت عرضاً وانفاقاً وانها كانت عارية عنده لا خلافاً وان في وسع كل انسان ان
 يدركها مثله اذا ساعده الزمان ولكن ينبغي ان تعلم انه لا يتأتى لاحد ولي الرئاسة
 وان انتهت اليه الاداب والكياسة ان يرضي جميع الناس ويستخلص مودتهم له
 من دون التباس فان اغراض الناس متفاوتة متباعدة ومقاصدهم متباينة متعاندة
 واهواءهم كهبوب الرياح لا تستقر على اصطلاح فبعضهم يرى ان الرئاسة تستلزم
 الملاينة والمياسرة وبعضهم يرى انها لا تستتب الا بالمشادة والمعاصرة والمثرون منهم
 يشيرون بالرضن والاقتصاد والمعسرون يوثرون الكرم الجواد ولذا نرى المورخين

لا يتفقون على اوصاف من نبغ في ايامهم من اهل الامارة فلا تكاد تتحرى من
اقوالهم عبارة وذلك لعدم اتفاق احوالهم ولتشتت انحاءهم وابعاد الناس عن الرئاسة
من كانت نفوسهم في الدنيا زاهده ومن نظرنا الى الاشياء كلها بعين واحدة ومن
استهوتهم فلسفتهم الى التسوية بين الضار والنافع والساو والفاجع وذلك يؤدي الى
اهمال الاحكام واعزاز اللثام اذ لا بد من ان يكون الرئيس ذا بوادر تحيف اهل
الكبائر وتردعهم عن التادي في الشرور والمعاير ولهذا كانت خطة كل من ولي
الرئاسة صعبة متعبة وحالته حالة من وقع بين اضداد متأله واعداء متخربة فرة يلزمه
ان يكون متشدداً مستقصياً ومرة اخرى يرى الاولى ان يكون هيناً ليناً مسترضياً
وتارة يتحرى الامساك والمنع واخرى الاجداء والنفع فاذا لزم لغيره راس واحد
لزم له رؤس متعددة فلا يهتبه مع تراكم الاعمال وتخالف الاحوال حظ ولا جده
هذه حالة الرئيس الذي يجتهد في ارضاء الله والعباد ويلزم الارق حتى يذيق غيره
لذة الرقاد ويواظب على اقامة الحقوق وتبيين الحق من المحقوق والناس له حاسدون
ولفضله جاحدون وما يدرون ما يعاني من الجهد والعناء من جدي في كسب الحمد والثناء
ولعمري ان من ظن اعباء الرئاسة امرأ يسيراً وخيلت اليه نفسه انه مع اخلاده الى
الراحة يكون اميراً فقد اخطأ الصواب واخطأ الطلاب ومنهم من المناصب
تسمنه والمراتب تثقمه وهو غير مترشح لها ولا مترقب وصلها فتجمع به الى حيث
تلتوي عليه الامور وتجاوزها جوازب الخذور من المقدور وبعاصيه من الصروف
اعصاها ومن الحوادث ادناها واقصاها فينبط خبط عشواء ويركب راسه في كل
فيفاء ثقة بسعد طالعه ومجد مطالعه فان ساعده الجد استمر في ولايته واستقر على غايته
نجار وظلم وعال وهضم وغدر ونذم وتجبور وتكبر واكل اموال الارامل والايتام وسلط
اللثام على الكرام ولم يراع عهداً ولا الآ ولم يراقب ولياً ولا خلاً ونسي من كان
بالفهم في المنزل الحشن وركن الى الزمان ومن صروف احواله امن وهو دليل على
ما للخالق عز وجل من الاسرار الخفية والحكم المقضية لانه تعالى حين يرى عباده
قد آثروا الفساد وعدلوا عن سحجة الرشاد يسלט عليهم مغدراً جباراً ومحكماً قهاراً
ليعتبر به من اعتبر ويزدجر من ازدجر فلا تحسبن امهاله اهمالاً ولا تسببن الى
تدييره خلافاً تعالى ثم تعالى ومنهم من لا يرتاح الى رتبة ولا رئاسة ويرى انها توجع
راسه وتذهب نعاسه وتنضب ارغاسه فيختار ان يكون محكوماً لا حاكماً ومظلوماً لا

ظالماً بناء على انه حليف الامانة والاستقامة واليف الصدق والسلامة فما احد يغشاه
بظلامه او يلقاه بلامه فانحول عنده خير من النباهه والتعالي اذ السيل حرب للمكان
العالي وليس سقوط من كان على مرقبه كسقوط من كان على عتبه الا ان الحق يقضي
على امثال هذا ان كان في رئاسة نفع للناس ودرء للباس ان يسارع اليها ويحرص
عليها فما حسن ان يكون للانسان راس مال وهو يخفي منافعه ويكتم صناعه فان
فان الاريب الكامل واللييب العاقل من توخي نفع سائر البشر بما خصه البارئ تعالى
به من المزايا الفرر لا من اجزأ بنفع نفسه وعليها اقتصر والله يهدي من يشاء



من الناس من يتعب في شبابه لراحته في مشيبه لعله ان زمن المشيب يحول بينه
وبين دؤوبه ونصيبه اذ يستحوذ الاعياء على رجله والكلال على يديه والكلول على
عينيه واخوول على اصغريه والوهن على جلده والافن على خلدته والنسيان على ذكره
والاشجان على فكره فيرى اليسير اذ ذلك عسيرا والبشير نديرا ويخيل له الصغير
زئيرا فتخونه مشاعره وتبسله خواطره ويلازمه البلبال وسوء الظن في كل حال
ضرورة ان وهن القوى طليعة وهي النهى فلا تكاد ترى اذا اعتلال الا وفي عقله
اختلال وما قالوه من ان الشيخ يستحكم رأيه ويتسد حزمه فيصيب ظنه وبقرطس
سهمه فالما هو مبني على سلامة البدن او ان شيخيته لاعلى مجرد طول سنيه مع
الضعف الذي يعانيه وهيئات في هذا الزمان الذي يخفق فيه الطلب وترهق النوب
وتتعاقب المصائب وتتراكب النوائب ويخذل الجبار وتنجس الاحرار ويشط المجير
ويسلو النضير ويكثر الشامت ويهتر المماقت ان تدوم للمعمر صيحته وتسلم له منته
ولهذا ترى المعمرين في هذا الزمن قلما ينتفعون بتجارهم او يفضلون بها على مشاغبيهم
وهذه الخلة اعني التعب في الشباب لحصول الراحة في الهرم تكاد ان تكون من
خصوصيات الافرنج دون سائر الامم فهي عندهم اصل المم والالم ومنتهى النهم قترام
يتغربون عن اوطانهم ويتعدون عن اخوانهم واخذانهم ويجدون ويدا بون ويكدون
ويصبون ويقتحمون الاخطار ويتجرعون الاكدار ويسهرن الليالي في الاختراع
والاستنباط ويطلبون المعالي بمبالغة وافراط حتى يترفوا في اخر حياتهم ويطيب لهم
الاجتماع باهلهم واحبابهم ولداتهم ومنهم من لا يفكر في العواقب عند السباب فلا
يدخر شيئا مما اكتبه من الطلاب فكل ما يكسبه في يومه ينتفه ويقول ان الحق

تبارك وتعالى يكفله ويرزقه فما ينبغي له ان يكون مدخراً شيئاً الى الغداذ الغد
 موهوم وليس على الموهوم من معتمد فذلك عندهم داب اولي الرشد وشان من آثر
 ان يحمده حتى اذا اعيان عن السعي وفاته الطلب فلا تماسك عنه ولا وعى وراى ان
 ربيع ايامه الذي غير لم يترك لشتائها ملجأ من الغير وموقى من الكدر اخذ يتندم
 على ما فات ويرمي الدهر بالاعنات ويتاسف على تنافته في الموبقات وانصابه الى
 الشهوات وهيبات هيئات فهل ندم على فأتت ينفع وهل في استرجاع الشباب مطمع
 وتلك في الغالب خلطنا بل بالحري علتنا وبكل من هاتين الخطيبتين وردت اشعار
 المتقدمين وتبين منها رشد الرشيد وافن الافين يعلم ذلك من يقطن الى انحاء الكلام
 واختلاف مقاصد الانام والراي عندي الاول ولا يتم ذلك الا بثلاث خلال الحزم
 والمواظبة وكتان الحال ولا بد من شرط القصد بجانب الشطط وهي حالة وسطي بين
 من افراط وفرط اذ كل من الافراط والتفريط مذموم والكلف باحدهما ملوم الا انه
 ينبغي ان تعلم ان حصول الراحة بعد التعب كما تقدم انما يتسنى للذين يلون الاعمال
 العظيمة والمساعي الجليلة من نحو التجارة والصيرفية والمعاملات البعيدة الجزيلة اما
 اصحاب الحرف والصناعات فلا يزالون في بوس فاجع ونصب واضع وتعب باخع وذل
 تابع ولطف يتضاعف ووجل يتكاثف فانهم لا يزالون مشفقين من البطالة وهي
 للمحترفين شر حالة ولا سيما اذا اقدمهم السقم وارقمهم الالم وكانوا ذوي عيال معولهم
 عليهم ومستندهم اليهم فيكون همهم في هذه الحالة متضاعفاً وحزنهم مترادفاً واذا نظرت
 الى هذه الطائفة من الناس وتاملت في احوالهم تامل منصف غير ناس للحقوق البشرية
 ولا متناس راعك خطيبتهم ولا عك نحيبتهم وانساك شانك ما تراه من شانهم واذهلك
 عن فبك ما تشاهده من افنانهم فانك اذا دخلت قصور الملوك والامراء وذوي
 السعادة والاثراء واهل السيادة والوجاهة والنبالة والنباهة ورأيت ما فيها من التحف
 الباهرة والامتعة الفاخرة والحلى والجواهر والانية والذخائر والثروس المرفوعة والمتكآت
 الموضوعة والمحاريب والتماثيل والتصاوير والتشكيل والزينة والنقوش والبهجة والرقوش
 والتذهيب والترصيع والتنضيد والتنوع وغير ذلك من كل ما تتوق اليه النفس
 ويستشبهه الطبع وثق به العين ويضطرب السمع علمت ان ذلك كله من كد هؤلاء المعتمدين
 وان شقوتهم في العيش انما هي لسعادة المترفين الكسلين لا جرم انه لولا كنب ايدي
 هؤلاء العملة المتواصل وشنتهم وشزتهم وشغلهم كثفنت البوازل لما نعمت للمترفين

نأمل ولولا مشي اولئك لما ركب هؤلاء ولولا ظمأهم لما طاب لهؤلاء الطلاء ولهذا لا ينبغي ان تحتقر احداً من يعملون بايديهم ويمتهنون انفسهم لصيانة وجوه معلمهم فان زينة الكون بهم وعمران الدنيا متوقف على دابهم فهم اولى بالاكرام ممن يصرفون اوقاتهم في اللهو والمدام والقصف والاثام وسواء منهم من يكسو الراس بعمله او يكسو القدم ومن يطع سيفاً او مبراة للقلم فهم جميعاً بمنزلة اعضاء متعددة في جسم واحد فليس لك ان تقول ان هذا العضو مستغنى عنه او انه من الزوائد ذلك صنع الله الذي خلق الناس فاحسن خلقهم وجعل من ابواب متفرقة رزقهم فما يعجز عنه واحد من خلقه يقدر عليه اخر وكلهم مشترك في العمل الى ان يحين الاجل

من الناس من يبالغ في مدح وطنه ويحن اليه حنينه الى سكنه فيصف مروجه ورياضه وبروجه وحياضه ووهاده وجباله وتللاه وتلاله وربوعه ودياره ونباته واشجاره وبقوله وثماره ودرجه واطياره وطيب هوائه ولذة مائه ويزعم ان فضوله كلها كالربيع حسناً وان جميع اقطاره تندفق بركة ويمناً وان شهراً فيه خير من الف عام في غيره وان كل بلد مستمد من خيره ومحتاج الى ميره ثم يزفر زفير المائم الحيران ويصرخ صراخ الوطمان الا ان حب الوطن من الايمان لقد جبت السهولة والحزن وربكت الذلول والامون وطوفت في الامصار وجولت في الاقطار وضربت في مناكب الارض مستقصياً واختبرت احوال من عليها مستفتياً وسبرت اطوارهم واوطارهم وعلمت قوافيهم واسرارهم فلم اجد عيشاً هنيئاً الا في بلادتي ولم يرقني شيء غير ما رابته فيها من طاريء عادي فعمت البلاد مثنوى وطابت مقاماً وماوى انها لجديرة بان تكون مقاماً للولوك وما غيايهم عنها الا من النوك فمن اين يجدون لها مثيلاً ومن ذا الذي يبغي عنها حوً ولا هي البلاد التي تغزلت بها الشعراء فقال فيها فلان ابياتاً وقال فيها فلان قصيدة غراء واسمع ما قيل في جداولها ونواعيرها وبلايلها وعصافيرها وخمائلها وازاهيرها وصورحها وقصورها ومصانعها ودرورها وطلبائها ومراتعها وزكاتها ومواقعها وفي اريج افاقها وبهيج اشفاقها ونضرة حدائقها وبهجة شقائقها بل قد ذكرت ايضاً بعض الكتب المنزلة في عدة مواضع مفصلة فقليل انها معدن الخير والكرم ومثوى الصالحين من الامم ومنها كان مبدا الصنائع والعلوم وفي كل معمول ومعلوم فاذا قلت له كيف جارك الادنى لعله كان لك عوناً وخذناً قال ويلى انه شر

جار وهو على البلاد عار وشنار فكيف جاره الذي يليه عسى انه ممن توافقه وتصافيه
 قال ويلى انه شر من اخيه فكيف اهل الحارة طراً قال ويلى انهم كانوا كلهم علياً
 شراً ولم اجد منهم الا ذراً فكيف اهل البلد اجمعين قال ويلى ما منهم امير
 ولا معين فما كانهم خلقوا من ماء وطين قال ويلى اني قد اختبرتهم جميعاً فلم اجد
 لاحد منهم من خلاق وان هم الا جهال اغيياء يتقادون لمن يامرهم من الاغنياء
 فانهم عبيد الدرهم والدينار ولا يبالون الا بلاء بطونهم ولو من الخسار
 فكيف اهل المدن والامصار قال ويلى انهم اولو غبن وغش وتغير واخفار ما
 تعامل منهم من احد الا ويمنيك بالكمد والنكد والخسار لانهم لما كانوا متقلبين في
 امور المعاش ومنهم مكيين في اتخاذ الاثاث والرياش ظنوا ان سائر الناس همج فما
 عليهم في غبنهم من حرج فكيف اهل الجبال عسى انهم ممن صفت طويتهم وطاب
 منهم البال فلتك خلة قد اختصوا بها في جميع الازمان وشان قد عرفوا به في كل
 قطر ونعم الشان قال ويلى ومن اين لم الصفاء وقد فطروا على الشراسة والجفاء
 فابتعدوا عن الاداب فكادوا ان يمحوا مع الذئاب فان احدهم ليقتل اخاه على خبزة
 يسد بها جوعه ويسلب صديقه في اكلة ويجرمه هجومه هذه حالة سكان البلاد الحاضر
 منهم والباد فلا تكثرن من السؤال ولا يخطرن ببالك غير هذه الحال فان قلت له
 ولكن كيف اشتمت بلادكم على تلك الحاسن واهلها على هذه المساويء الشوائب
 قال ان اهلها الاولين كانوا من الخيرين فحروها وزرعوها وعمروها وامرعوها ثم فسد
 الزمان فجاءت خلفاءهم فاسدة لكن بقيت تلك الحاسن فيها فائدة ولكن ما معني
 الزمان وهو لم يكن صالحاً قط منذ خلق الانسان والتوارىح على ذلك شاهدة ونصوحها
 عليه متساندة متعاضة ثم كيف فسدت الناس وانت بقيت من بينهم صالحاً ترى
 كل من سواك طالحاً ولو كنت من الصالحين لما رأيت في غيرك خلقاً يشين فانما
 ينظر في عيوب الناس من كان اسوأ منهم حالاً (ومن يك ذا فم مر مريض يجد
 مرّاً به الماء الزلالاً) كذا قال الشاعر الحكيم فما انت في طعنك على جنسك الا ملئم
 وان امرءاً يحسب جميع اهل بلاده دونه لجدير بان يشيعوا مفتونه ويذبعوا جنونه
 ويتجنبوا محضره ويتنكبوا منظره فيالعجب ممن يمدح وطنه ليرجع المدح الى نفسه
 مع ذم قومه وجنسه ومن لا يعجبه شيء مما يقال الا اذا كانت ذاته وصفاته محوراً
 ليقال ومع ذلك فانه يقول حب الوطن من الايمان هو لاهله شأن ويذكر عيوبهم

شكران وعن عيوب نفسه وسنان هكذا حالة اكثر الناس في هذا الزمان وهذه محبتهم
 للواطن وهي محبة كاذبة ودعوى عابثة ومنهم من يغار على وطنه و يجتهد في نفع
 سكنه واذا ذكر من قصور اهل بلاده شيئاً فانما هو لتبنيهم لا لتسويهم ولحشهم على
 الوصول الى الكمال لا للتبديد بهم لدى الاجيال ولكي يجعلهم على عظام المساعي
 لا لان يقوم بالنعي على افعالهم مقام الناعب الناعي قراه كما سميت فرصة لنفهم
 انتهزها او لبانة خيرهم تجزها فمثله كمثل المرابي الشفيق والمتعهد الرفيق الذي يحزن
 لحزن من يتعهده ويفرح لفرحه ولا يظيب له عيش الا اذا رآه مثله في غبطته
 وسرحه ولا جرم ان العيش لا يظيب الا اذا كان لكل واحد من رغبة حظ ونصيب
 فاما اذا اختص الانسان بنعمة وراى غيره في كرب وغمة فلان يهنئه وروود مشربها
 والتمتع بها وقولنا الانسان المراد به من كملت انسانيته وصفت سريرته ونمته فهو يركب
 سعادة جاره داعية بلوغ اوطاره وتشبيد داره لان من كان ذا عينين ولسان يطعن
 بلسانه طعن السنان وينظر بعينه معايب الاقران فشتان ما بينهما ثم شتان فقد
 عرفت ان بعض الناس يمدح ولا غيره له وبعضهم يغار ولا يمدح وان هذا هو
 الاصلح الاقل لمن يطرىء نفسه ويزكيها ان انت بهذه التزكية الامدكيها وان ما
 خفي عليك من شينها اكثر مما ظهر لك من زينها وانك كما تدين تدان وكما تهين
 تهان فان كان قد استخوذ عليك النقول لعمك رفع الفاعل ونصب المفعول واستهواك
 المغرور لمعرفتك بون جور فاعلم انك ما علمت شيئاً الا ما علمت ولا فهمت معنى الا ما
 فهمت فبم تفختر ومن الذي تحتقر ولم لا تعتبر فتزجر وفيك يدخل الطاهر فيستحيل
 نجساً ولست ترى الا مفراًحاً اشراً او جزعاً مبهتساً فاقن الحياء وليكن عرفانك بقدرك
 اول ما تعرفه من الاشياء ان الله عليك رقيب ولا يخفى عليه مغيب

— 3000 —

من الناس من يولد في النعمة اية ينشأ وحوله من يخف اليه بالخدمة ويكسبه
 كما يشتهي من ما كول ومشروب وملبوس ومركوب واذا نظر راعى كل شهوي
 انيق واذا استمع لم يستمع الا ما يليق فتمتلي عينه من امانى النفس ومطامح
 الخدس وتجالسها الاكابر فيطرب خطابهم وتقصده الاماجد فتعجبهم ادا بهم فاذا
 دام على هذه الحال جد في التفرد بحسن الخلال وكرم الفعال والوصول الى درجة
 الكمال واذا زاد عزاً واقبالاً زاد شيئاً وجلالاً فلا يكون صلفاً مفراًحاً ولا شرساً

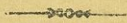
متباحاً ولا لهجاً بذكرها لذبه ولا نخوراً بما حصل عليه ووصل اليه حتى يشوي عنده الكثير والقليل والحقير والجليل وهي الحالة المستفادة من التفلسف الخاصة على التقنع والتعفف فاذا حط الدهر مرتبته وخفض منزلته كما هو شأنه في دورته وتقلبه وثورته وتغلبه صبر على الغير والقدر وتذكر انه احرز من رعد العيش نصيباً وافراً فاذا غبر فرب غابر يعود غابراً فاذا لم يعد اليه ما فقدته اكتفى بما عنده من المحامد وهي عند اللبيب خير جده فهي التي لا يعترها نقصان ولا يشترق اليها عدوان الزمان وهي ذخر للذخر ونخر للفتخر فكما خاض الناس في ذكر المآثر وعددوا المنائب والمفاخر افتتحووا الذكر باسمه واطنبوا في مدح يذوه وتاسفوا على تقلص ظله من رفع الى خفض وتغير حاله من وفر الى برض ورجواله العود الى شأنه الاول وتفاءلوا له بالخير بكل ما وقع وحصل حتى كانوا مشاركون له في احواله او انهم من بعض عياله ولا يخفي ان اقبال الناس على من دهاه الزمان سلوان وان سلوان وان بقاء الحمد والثناء عليه تسلية له عما شمله من المصائب وتطليب لنفسه مما اعرضه من النوائب اذ الانسان ما دام عائشاً بين الناس وله بهم اتصال لن يستغني عن ايناسهم له ولو بالمقال وكثيراً ما نغني فوائد اللسان عن فرائد الجمان وفلائد العقيان فاما من لم ييال بما يقال فيه ولا يكثر لزم ذاميه ومدح مادحيه فعليه ان يعتزلم ويعيش في فنن الجبال وحينئذٍ فاعليه من القيل والقال والا فانه يستهدف لالسنة هائرة صادرة باترة تصيب منه الحز وتبلغ منه مبلغ البرز ولقد رأينا كثيراً ممن ذهب عنهم السعادة والجد لم يذهب عنهم الفضل والجد لم يبرحوا قدرة للناس في افعالهم وكالمثل السائر في كلامهم وكالمعنى الى هذا المعنى اشار الشاعر وهو قول حكيم ماهر * ان الامير هو الذي يغدو اميراً يوم عزله * ان زال سلطان الولاية لم يزل سلطان فصله * جبر ان من كان في السيادة اصيلاً ليس من كان فيها دخيلاً وانك اذا توسمت طلعه وتفرست في احواله حلت الرئاسة من خلال افعاله واقواله فتلك خلة ترافقه وصفة لا تفارقه ومنهم من يولد في البؤس والشقاء وينشا في الخمول والضعمة والخفاء فان ساعده الدهر على تبديل هذه الحالة بجالة هي فوق السفالة ودرن النبالة فاحرز من الدنيا بعض حطامها وجالس بعض كرامها فرح و بطر وتاه واشر وظن انه ارفع الناس قدراً واجلهم شاناً وذكرنا فقال انا الذي نتودد اليه الامراء وتهاب مقامه الكبراء فلوشئت لنقيم من البلد كل من عاداني وحرمت

الرزق كل من جافاني وانا منار العلم ومداره ومرجع الفضل ومحاره ومعدن الفضائل
 ومحدثها ومصدر الاداب وموردها وقبلة المعالي ومقصدها قد ذاع صيتي كالمسك نشرًا
 وتارج عبير مدحي فملا الارض قطراً قطراً وان كنت لم اصل بعد الى درجة
 الوزراء فالتما هو لعة مني تاجي الا السراء فان الوزارة تعب والامارة نصب او ليس ان
 الناس جميعاً يقولون انك امامنا ونعم الامام ولا نطبق بعدك يوماً من الايام لا جرم
 انهم لا يستغنون عني ولا يسمعون الا مني وهذا شأن في كل بلد سكنته وقطر استوطنته
 فمن ودعتهم فهم الخاسرون ومن سلمت عليهم فهم الظافرون واذا خلع عليه احد الكرماء
 جبة او فرواً جاب الناس وتاه عليهم زهواً فظن انه الكاسي وكل الناس عراة وانه
 المنعم على من انعم عليه سواء بلباسه وقراه اذ يزعم ان مجرد ذكره لانسان احسان له
 وامتنان وان جحد صنيعه وكرم دسيعة وما درى ان الكفر مخبئة لنفس المنعم وانه
 اذا التهم طعام غيره لم يقل فيه الا انه شر ملتهم واجشع ملتهم واشنع من منهم
 كذلك شان من هو حديث النعمة وتقيذ البوس فانه يتية على الجلوس ويدهمهم من
 القول بما تشتمز منه النفوس فلا تراه الا فخوراً متمدحاً وجسوراً متبجحاً وعقوراً
 مؤذياً وزنبوراً مدمياً لا يشكر منعماً ولا يحمد مكرماً لاعتقاده ان اكرامه ضربة
 لازب وفرض واجب فويلي على حديث النعمة القديم الهمة الفاسد الشئمة السافط
 المروءة والهمة الذي لا يرى لاحد حرمة ولا ذمة واهون شيء عليه نقض العهود
 وصرم الودود ونسيان المعروف وهجران الالوف وما ذلك الا لانه اخصب بعد الخل
 ورطب بعد اذ هو قحل فياحسرة على من يقتر بالدنيا الغرور وهو يراها في كل
 يوم بالاحرار تدور وعلى الاخيار تجور ولو دامت لاحد لم تصل اليها ولو استقامت
 في سيرها لما عاجت عاينا فلا يركن اليها الا الغافلون ولا يحرص عليها الا الجاهلون

من الناس من يكلف بعلم واحد او فن واحد او صنعة واحدة فيقتصر عليها
 ويشغل بها طول عمره فلا بد من ان يفوق بها على اقرانه ويضير بها علماً مشهوراً
 حتى انه لو قصر فيها مرة او اخل بها من وجه من الوجوه لوجد من يعتذر عنه
 ويغضي عن قصوره فيجوز على الناس ما اخل به كما جاز عليهم ما احكمه على حد
 سوى لانهم قد القوا منه الاحسان والاتقان وهذا على حد قولهم من عرف بالصدق
 جاز كذبه ومنهم من ينتف من كل علم تنفة ولا يتمكن من شيء من الفنون فترى

عنده مشاركة فيها بحيث لا توهله للرئاسة ولا باس بكلا النوعين وانما الباس في
العجاب بها والتوصل بها الى الدعوى والمطالبة فان من يقتصر على فن واحد اذا
غلب عليه العجب به اخذ في احتقار سائر العلوم فيرى انها فضول بالنسبة الى فنه وصاحب
الفنون المتعددة متى جالس احداً وعرف انه من المقتصرين على فن واحد باغته في
الفنون التي يجملها يريد بذلك تفضيل نفسه عليه ونسبة الجهل والعجز الى جليسه
وكثيراً ما تودي هذه الحالة المحبب بنفسه في انواع شتى من الفنون الى ان يتوق الى معرفة
الصنائع ايضاً لانه يزعم ان تحصيله لمبادئ الصنائع اهن عليه من تحصيله لمبادئ
الفنون فرى عنده آلات التجارة والحداة والصيغة فاذا سأله زائر ماذا اردت
بهذه الآلات قال اني اوتيت من كل شيء علماً ثم تتوق نفسه ايضاً الى شراء اشياء
كثيرة من قبيل الاثاث والفرش فكما زاره احد اخذ يصف له خاصيتها واحوالها
ويبين المواضع التي صنعت فيه والرجال الذين اخترعوها حتى يقال انه خبير باحوالها
فضلاً عن كونه قادراً على شرائها فاذا خرج من داره ولقي بعض معارفه افرد له
بالذكر متاعاً واحداً من تلك الامتعة واخذ في اطنا به بان يقول مثلاً قد ملكت
بساطاً لم يملك نظيره احد غيري ثم يلاقي آخر فيقول له ان في داري حقنة لم تصنع
الافرنج لها مثيلاً وهلم جراً الى ان يعدد جميع ما عنده من البيات فان لم يجد في
الطرق من السامعين قدر ما عنده منها قصد الناس في منازلهم واتم عليهم ذكر الباقي
فاذا انتهى من الافتخار بانائه رجع الى الافتخار والتمدح بقنونه وخصاله وسيرته
في الناس واطراء الناس عليه فيقول اني في اليوم الفلاني من الشهر الفلاني اجبت
عن مسألة في النحو وبعد هذا التاريخ بشهر اجبت عن مسألة في الصرف وفي
كذا من شهر كذا زرت فلان فجاءني بخوان الطعام على رأسه وفي ليلة كذا زارني
فلان مساء بغتة فقدمت بين يديه شربة الوان من الطعام فلما كان اليوم القابل
خرجت الى السوق واذا بالناس يضربون المثل بتلك الالوان والامراء يرتاحون الى
لقائي وهمشون لقدومي والحكام لا تفصل امرأ دون مشاورتي والتجار ياتمنوني
على جميع اموالهم ويود احدهم لو اشترى منه شيئاً ولو نسيتاً وان اهل البلدة لا
يستغنون عن وجودي ما بينهم حتى انهم لما بلغهم ذات مرة اني مفارقهم اقبلوا الي
جميعاً وحكموني في اموالهم وذلك من فضل ربي فانه حببني الى الناس اجمعين وجعل
قلوبهم في قبضة يدي وهو الذي يرزقني بغير حساب ويهديني الى طريق الصواب

فلم اعلم من نفسي اني ضللت يوماً عن محجة النجاح ولم ابته ايلة الا وانا موقن باليسر والفرج عند الصباح وكل ما يسمعه من كلام الناس في غير مدح نفسه فهو عنده سدّي وكل ما يجده مسطوراً في الكتب على غير هواه فهو باطل فاذا كان التمدح بنفسه على هذه الصفة مضطهماً بجميع العلوم والفنون وخبيراً بسائر الصنائع والحرف فهل يطبق احد معاشرته وهل تغني عنه فنونه في ادب المجالس شيئاً مع انهم شبهوا العالم بالغصن المثمر فكما زاد علماً زاد تواضعاً وانما يحرص على التمدح الجاهل الذي لا يشعر بقصور نفسه وعيب كينته فقسول له الغواية والضلال ان جميع مساوئه محاسن ومحاسن غيره مساوىء واذا سمعته يمدح احداً على شيء فانما يكون المدح راجعاً الى نفسه لانه مبني على ان ذلك الممدوح قد اجله واكرمه او وصله ببعض دراهم فهذه صفة العالم المعجب بنفسه سواء كان علمه مقصوراً على فن واحد او فنون متعددة فخير منه الجاهل المتواضع والفر المودع والله يهدي من يشاء



اني كثيراً ما فكرت في فن البديع الذي هو من بعض الادلة على فضل اللغة العربية على سائر اللغات فاحببت هذه المرة ان انشيء مقالة برمتها من نوع الترضيع ومثاله في الكتاب العزيز ان الينا اياهم ثم ان علينا حسابهم فيها انا ادعو جميع من على وجه الارض من الافرنج لمعارضة هذه المقالة وهي

من الناس من تخلج فكره من فنون الاقتراح خوالج وتلعج صدره من شجون الاجترار لواعج وتزعجه المآرب الى اقصى الرامي وترعجه المطالب الى اعصى المواهي وتستفزه وتستهو به وتستبزه وتستغويه لكنه يفتح لها صبره ويشرح صدره ويحتمل منها بوارح الغصص ويرتقب لها سوانح الفرص ويتحين انتجاعها ويتبين اتفاعها ويحبر مشروعاتها ويسبر موضوعها فلا يبغيتها الاحذراً ولا ياتيها الا ظفراً ويرى ان الانتظار احسن معين على تحصيل الامل والاصطبار ايمن قرين لتسهيل العمل ورب عجل اهب الاجل ولا يخلو ابصار عن انهيها ولا تجلو اوطار مع اخطار ولا يعلو منار في مغار واذا دانت نيه او هانت ثنيه او حانت امنيه لمن غادر التبصر ويادر التهور فطال طلباً ونال ارباً فانما يكون من قل النوادر ولا يهون لكل مخاطر فالبيب الحازم ما تأنى فيما تمنى والاريب العالم من لا يتعنى الا لما به يتقنى اذ ليس الاستكثار مظنة للرفاهة والا الاستهتار مئة للنباهة ومن تبصر في العواقب وتدبر

في النوائب ايئن ان الرزق قدر على مقدار لا يتعداه والرفق حصر في مضمار
 لن يتخطاه فلا وفور التردد يكوره ولا ندور التعهد يحوره ولا ملازمة الارق تعجله
 ولا مداومة الشفق توجهه ولا شيء من الاشياء يفقده ولا حي من الاحياء يوجد
 جبر ان الرزق محدود كما ان الحق موجود واخلق معدود الا انه من الراتب المتبين
 ادائه والواجب المتعين قضاؤه على من اتصف بالسداد واعتمكف على الرشاد وكلف
 بالخلال وانف من الحرام وعزف عن الجدال ووزف الى السلام وصان وجهه عن
 الابتذال وزان كنهه بالاعتمال ان يكد قاصداً ويجد راشداً كيلا يكون كلا على
 غيره او علا لميره فيقل لقاوه ويتلي هجاؤه وتشنأ لهجته وتبدأ بهجته وتبدو محاسنه
 مساوي وتعدي ميامنه مغاوي وحينئذ فما جاء من اثر عاد عليه وبالاً وما شاء من
 وطر فاد لديه تبالاً ومنهم من اذا طلب بغية او خطب منية امهرها عرضاً مباحاً
 واصدرها عرضاً متاحاً واعد لها صدغاً لا تعمل فيه المعاول واجدها نزعاً لا ترسل
 عليه المقاول بين اقبال وادبار وابطال واصرار فكر وهم وعروغر وبربر وثرثر
 وصرصر وقرقرهزمة لمزه نبرة نغزه لمزمة نشبه حطمة تقبه ملح ملحف بيجع مجحف
 لا يصيك به كلام ولا يبيك فيه ملام ولا تقمعه المقامع ولا ترده الروادع وما من
 جابه يحمله على الهيبة ولا من ناهه ينقله الى الخيبة فلا يزال يغدو ويروح ويندو ويروح
 ويشدو وينوح حتى يمتص مار به ويهضم مطلبه فهذا في عصرنا يعرف بالحول الماهر ويوصف
 بالزبل الظافر بل الاول الاخر اذ العمدة في حوز ما قام بالنفس والعهدة في فوز
 ما حام على الحدس كيفما كان من وسائل الاتجماع وهان من وسائل الانتفاع ذلك داب
 اولي الجشع وطب ذوي الطمع فلا يانفون من سوال ولا يصدفون عن محال ولا يعرفون من
 محال وما لهم بالعواقب من مبالاة ولا في المناقب من مغالاة سواء جاروا عن الام او حاروا
 في الدم او لبسوا الفضائح او تقسوا في القبائح حتى اذا هتاهم الادم ومرأهم المدام
 سنحروا بمن نولهم بطرا ونفروا عن خولم اشرا ونسبوا بذله الى الاضطرار وحسبوا
 فضله من الاعترار وهو كفران مبين وخسران مهين ومنهم من يقر على الكسل ويفر
 من العمل ويقول ان الله جل سلطانه وهل احسانه خالق الاسباب ورازق النعاب
 فهو يرزقني بغير حساب ويرمقني من ضير الذهاب والاياب اذا لزم معاني فهو
 يغنيني وان اقمته اتاني لا يعنيني فحدي ان ابتهل اليه داعياً وجددي ان اتكل عليه
 راجياً فلا اجري ولا اسعي ولا اسري ولا اشقي واذا كان قد تميز عن امثاله يرسم

من العلم وتمييزه عن اشكاله بوسم من الفهم راد في سرفه وزاد في صلفه فصادرهم
 بمؤنته وناظرهم على معونته اعتماداً على فضائله واستناداً الى شمائله وانه اكرم منهم
 وافضل واعلم وامثل واحلم واكمل وهذه محنة اخرى ومهنة خسرى بل فتنة كبرى
 لا جرم ان الله هو الخلاق العليم والرزاق الكريم وانه قدر كل سبب فاحسن تقديره
 ويسر كل طلب فانقن تيسيره وانه ياهم خلقه صنيع النعم ويقم رفقه على جميع
 الامم وان منهم الحاكم والمحكوم والخدام والمخدوم والقاصد والمقصود والحمد والحمد
 والجلادي والمستجدي والهادي والمستهدي الا ان الاليق بمن صفت سمجته ووفت
 مروته وزكاصله وذكانبه ان لا يكون وكلاً عاجزاً وفشلاً عاشراً متناوماً عن
 المعالي متشامكاً بالليالي متودداً الى المائح والمائح متردداً في البارح والسائح اسير
 الوسوس حسير الهواجس اليف الظنون حليف الشجون قرين الاوهام خدين الاحلام
 فان ذلك من عوائق النجاح ومغاليق الفلاح وان ذا الاحسان من هذا وعى ان ليس
 للانسان الا ما سعى

من عاشر الناس وقام فيهم مقاماً مشهوراً وحل منهم محلاً مذكوراً وجب عليه
 ان لا يقول لهم الا الحق وان كان في ذلك العبء الاشق فان الحق ثقيل بالطبع
 على سامعه وقائله وراويه وناقله وما تكاد تجد واحداً من الف من الناس يرتاح
 اليه او يعوج عليه فقد الف الخلق منذ التقديم التلهي بالاكاذيب فلم يبق لهم من
 دونها خلاق من الصدق ولا نصيب ومعلوم ان ما جاء مخالفاً للطبع تشتمز منه
 النفس وينبو عنه السمع ولست اعني باصحاب هذا المقام المشهور من فلد امور الجمهور
 من اصحاب السيادة والرئاسة والحكومة والسياسة فان براعة هؤلاء انما هي في كتم ما
 في ضميرهم واخفاء الظاهر من امورهم على ما يقتضيه منصبهم ويوجبها ماربهم وانما
 اعني الوعاظ والخطباء والمولفين وكتاب صحف الانبياء فهؤلاء مكلفون من قبل
 الباري تعالى الذي فاض عليهم فضله وتوالى بما اتاهم من الحكمة وفصل الخطاب
 واهلهم للاطلاع على الحقائق من دون حجاب بان يبلغوا الناس اجمعين كلام الحق
 المبين فان سمعوه فقد نالوا اربهم الى قصواه وان تولوا عنه فاجرهم على الله وبيق ما
 قالوه وما كتبوه شاهداً لهم فواهاً على انهم ادوا الامانة حق موداها ولا غرابة في ان
 من اخلدوا الى اللذات وتشاغلوا بالترهات يعرضون عن سماع انذارهم ويظنون

عاكفين على اوطارهم وانما الغرابة في ان ينكر كلامهم من قام مقامهم ورام مرامهم
 وهو كشف نقاب الغواية عن افهام الناس واطلاعهم على الحقائق من دون التباس
 وقد كان ينبغي لهم ان يكونوا جميعاً كالعازفين بألات الطرب فانهم يتواطون مع
 اختلاف الآتهم على ضرب واحد ونغمة واحدة وبذلك تمام الارب فاذا رأى رئيسهم
 من احدهم خروجاً نبيه الى المتابعة وارشده الى المواضع والا حكم عليه بالجهل او
 العصيان واخرجه من زمرة ذوي الالخان لكن من عساه يكون رئيس هؤلاء الكتاب
 الذين يهدون الناس الى الصواب او زعيم اصحاب الخطب الذين يأمرون باتباع ما
 وجب وينهون عن مجاوزة حد الادب وكيف السبيل الى ابلاغ الحق وارضاء الخلق
 ام هل يجب السكوت في مثل هذه الحال والاضياء عن فشو الضلال وهل يظن من
 فعل هذا وانفرد عن الناس في قلة جبل انه يسلم من العذل (جمع عاذل) ولا يقبض
 له من عين الجماد ما يكون له ضدًا من شر الاضداد وحينئذٍ فما احد يسمع شكواه
 ولا يرثي لما دهاه مع انه لا بد في المحنة من بث الدعوى ونث الشكوى ولو لم يعقب
 ذلك سوى اظهار التوجع واشعار التفجع لوفى وكفى فلا بد للانسان من صديق
 يشكوا اليه وحميم يعتمد عليه ولهذا يحرص على ان يكون له اهل وذرية واخوان فانهم
 في المحنة خير سلوان ثم افكر واقول ان من كثرت اخدانه كثرت اشجانه وان مخالطة
 الناس توجب البوس والباس فان الماء الصافي المورد متى كثرت عليه الورد تكدر
 والثرثرة الناصجة متى لمستها الايدي الكثيرة فانها المذر وقد قالوا ان السلامة في الوحدة
 والمخالطة مفسدة للصفاء اي مفسدة ولقد طالما فكرت في امر النساء والزهاد والرهبان
 واعتقدت انهم اغبط نوع الانسان لانهم قطعوا علائقهم من الدنيا وتركوا همومها
 لذي القينة والقنوة وعاشوا عيشة اهناً وارضى فليس لهم هم في المكاثرة والمنافسة
 والمفاخرة فكل ما اتاهم من رزق شكروا عليه وما باتهم الا ما تمنح النفس اليه
 ثم افكر واقول انه حينما اجتمع بشران انفق شران وانه لا يمكن لاحد من هؤلاء ان
 يعيش منفرداً وحده ا يلزم حالة حرده فعيشتهم اذا نكده وصفتهم صفة الحيوانات
 المتاعدة وقد فاتهم الاجر العميم والثواب الصميم في ارشاد الناس الى الصراط المستقيم
 وفي تعريفهم المعوج من القويم وتلك لذة لا يدريها الا من مارسها وغبطة لا يقدرها
 الا من لابسها ثم اعود وافكر ان الخلق اعداء للحق فلا يسمعون النصيحة ولا يتلعون
 عن النصيحة فلا فرق عندهم بين من ضرهم ونفعهم ووضعهم ورفعهم وانما يحبون

التماق الكاذب والاطراء على المعاييب وتحسين القبيح وتشويه المبيح واذا قلت لهم يا قوم
 ما كان لكم ان تحوضوا في هذا الحديث وتبدلوا الطيب بالخبيث فقد وردت به النواهي
 وقد خاض به اناس من قبلكم فنوا بالدواهي ولا قاتوا ذلك الامر فان موارد وخيمة
 ومصادره غير سليمة قالوا اجئتنا اليوم لتجملنا من العجاوات فما نراك الا ذاهنات فانت
 واحد ونحن جماعة فاي سلطة لك علينا واي استطاعة اعانت وحدك على الهدى ونحن
 جميعاً سدى فان لم ترجع عن الفتن لنباونك بالحن ان هي الا بدعة وان انت الا
 حجة فما ظنك بهذا الجواب لمن تحرى لقومه وجه الصواب وظن انهم يشكرون له
 صنيعه ويحسبون نصيخته صنيعه فياليت شعري اي الخطئين اولى واي العدالتين من
 العدل ادنى ايعتزل الناس طرّاً ويعيش في البراري والجبال حرّاً ويتخذ له من اهل
 الشفري اهلاً وينسى ما وجب عليه من وظيفة الارشاد فرعاً واصلاً ام يظل بين
 قومه هدفاً لليلام طبيياً لاسقام الافهام فما احد منهم على سعي يشكره او على هفوة
 يعذره بيد اني اعلم امراً واحداً ورايه اتخرى عامداً وهو ان الله لا يضيع اجر
 المحسنين وانه تعالى قال فاصدع بالحق والمراد في كل حين وانه قدماً مني المرشد
 بالتكذيب ورموا بالمعيب لكن الباري تعالى قيض من براهم ولو بعد مماثمتهم واظهر
 صدق كلامهم وصالح اعمالهم ونياتهم فاصبح الساعون يستنيرون بهديهم وسنتهم
 ويسلكون على سنتهم وامتلأت الصحف من اقوالهم ولهجت بحميد افعاظهم لا جرم ان
 من يغرس في ارض شجرة لا يترقب ان يجني منها في الحال ثمرة وما جدير بمن قرا
 ودرى وقدر الامور ويرى ان يكف عن البلاغ اذا علم ان ليس له عند سامعه
 مساع فرب كلمة اثمرت نعمة ورب محنة انقلبت مئمة وضحك عاد ندحة فما يقلب الايام
 الا من صبر وما يستوجب النعم الا من شكر وعلى هذا وطلت نفسي واسكنت حدسي
 عالماً ان رضى المتعنت صعب وان لزوم جانب الحق لا يضيره ثلب فاما من اثر رضى
 المخلوق على رضى الخالق وظن ان الشقاشق تغلب الحقائق فانه لا يلبث ان يرمى به
 من حائق فيقال له يومئذ لقد اذقت نفسك وغيرك ايضاً في الثمر وعميت عن القول
 الماثور فيها ان من حالفك على الضلال صار لك خصماً يرميك بالاضلال ويقول ان
 تظاهرك بالحمامة عن زيد وعمرو لم يكن الا عن غش وختر ومداهنة ومكر وان
 مدحك من لا يستحق المدح لم يكن في الحقيقة سوى عين الدم والقروح فابتدر لاصلاح
 ما افسدت واعتذر الى من اضللتهم الى ما اردت فما عساه ان يجيب به ويدفع عن

حسبه الا ان يقول ان متاع الدنيا انساني حساب الآخرة وما هذه الحال من الاحوال
 النادرة فياويج من اضله هواه عن اتباع الرشد وظن ان لن يقدر عليه احد وقد راى بعينه
 ما صارت اليه الفتوة من قبله وما حاق بالضليل من سوء فعله وخطل قوله وخطا رايه
 وخطر جهله ولكن كيف يدعى لاتباع الهدى من طمس الله على قلبه وبصره فلم
 يبصر قصداً ولم يذكر امداً ولا حداً ومن زعم الموارية ارباً والرياء طلباً فحسب قائل
 الحق ان يبقى كلامه لمن بعده حجة ودليلاً ودستوراً يرجع اليه في ملات الامور
 جيلاً فجيلاً فيذكرون اسمه بالرحمة ويسمون ذكره كأنه لهم للمكرمات ممة وحسب
 قائل الزور اذا كبابه جده وافل سمعه ان يقال له فضح الله حاله وما قاله وكفى
 الناس اضلاله فهوذا قد جزى بعمله وخاب من امله ومهما يكن عند امرء من
 خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم

من تبصر الامور وتدبر المقذور وتقلب في حالات الدنيا وذاق منها البومى
 والنعمى وراقب الناس في معاملتهم وتصرفهم وتفرقهم وتالفهم وقاصدهم ومساعيتهم
 وظواهرهم وخوافيهم ونفعمهم وضرهم وخيرهم وشرهم تاه عن الصواب وراه في
 الارتياب ومد على فهمه حجاب فانك ترى الانسان من وجهه خالفاً شريفاً ونوعاً لطيفاً
 لا بل قيل انه اشرف المخلوقات واكمل المبروات لكونه عاقلاً بصيراً سمياً خبيراً
 قادراً على اعمال حواسه واعضائه وبها يدني كل ارب لحوائه يستخرج من السماوات
 والارضين ما خفي علمه وعز رومه ويستخر جميع الحيونات لما ربه المخترة ويصور الجراد
 على اشكال مختلفة مبتدعة واذا شاء جعل البر بجرأ والبحر برأ والحر عبداً والعبد
 حرأ والبرد حرأ والحر قرأ والظلام نورأ والمغمور معموراً والحزن سهلاً والبور
 حقلاً والوعر نجاً مسلوكاً والنفل ملكاً مملوكاً والسم دواء والسقم شفاء والزعاق
 فراتاً والارق سباتاً والبعيد دانياً والمريد عانياً وبالجملة فان كل شيء في الوجود
 كأنه لخدمته موجود وعلى ارادته مرصود ومن جهة اخرى تراه عتلاً زنياً شريراً
 ثيمياً مريداً عنيداً حسوداً حقوداً شرساً شكساً ضسباً طفساً قدراً مذراً ذعراً
 دغراً يفكر في السوء على جاره الخدين ويخاصمه على شفرة سكين فاذا تمكن منها بها نخره
 نخرأ وعاد وهو يجر عظمه تيباً ونخرأ ويحسب انه قد احرز بذلك ذكراً وتراه غير قانع
 بالكفاف ولا راجع عن الخاف ولا مقلع عن هوى ولا سالك طريقاً سوى ولا يزال ينكت

في الارض حتى يجد له سبباً للخصام وذريعة للانتقام فيقول لقد شهد لي شاهد من
 الارض مقنع مسجل عادل معدل على اني الحق وغيري المبطل فاني لي خلقت هذه
 المراتب وبي اختصت فوائد المخلوقات فما كان لاحد ان يشاركني في منافعها او يسابقني
 الى مطامعها فهذا الانسان الذي هو مصدر التمدن ومورد التفتن يفعل ما لا تفعله
 الضبع في وجارها اذ يريد ان يشرف الدنيا الى اصبارها ويبتلعها بمخادفها ولا يرى
 لآخيه معه شركة في قليلها فضلاً عن كثيرها وكثيراً ما فكرت في هذا التمدن الباطل
 والمخلوعه عند الاوائل فوجدت انه صار سبباً للشرور والعدوان وشغل النفس بالهموم
 والاشجان وباعتها على الاسراف والتبذير والعداوة والتوغير والحاسدة والمنافسة والمعاندة
 والمشاكسة وتحميل النفس ما لا يطاق من النفقات والتعرض للهلكات فصار من
 عنده غنى لا يقف على حد من المنى فكل شيء تاقت نفسه اليه حام قلبه عليه وظل
 لسانه به لهجاً وصدوره به ملتجماً فلا يقر له قرار ولا يهدأ له عرار حتى يناله ويقصر
 عليه باله ثم يزهده فيه ويرغب في حاجة اخرى يرى حوزها اولى واحرى فيزيد بها
 ولوعاً ويسعى اليها سريعاً فيصبح وهو اسير الشهوات صريع اللبانات لا يصحو من
 التشهيه ولا يصح من التلهي ولا ينهض لمكرمة ولا يبالي بمندمة وصار من دونه درجة
 يحرص على ان يكون مثله ويفعل فعله فتراه يتهور في المهالك وينشب في المراكب
 ويرد الغدرة والصلف ويتهافت على الخطر والتلف حتى يعد من المثرين المكثرين
 ويحسب في جملة الموسرين اذ يرى القناعة دون مقامه الاعلى ولا يتصف بها الا
 من كان وغلاً نذلاً اما الغنى فلا ريب في انه نعمة من الله تعالى بحيث يكتسب
 حلالاً لا بالتجار والاحتكار ولا بالمخادعة والمصانعة ولا بالانميمة والجريمة ولا بالظلم
 والعسف ولا بالخلس والخطف بل بالسعي والكد والاجتهاد والجد فانه نعم العون على
 اعانة المعتر واغاثة المضطر وجبر الكسير وانعاش الفقير وعلى اداء المساعي الجليلة
 واسداء الخيرات الجزيلة ولكن هيئات فانك لا تكاد ترى غنياً الا وقد جمع في
 السرف وخبث الى الصلف فيرى ان جميع الخلق دونه وانهم محتاجون منه الى المونة
 والمعونة فيترفح عنهم قدراً وبتيه عليهم كبيراً وقد فاته ان حاجته الى الفقير اشد
 من حاجة الفقير اليه وانه لو ترك وغناه لما نفعه شيء مما بين يديه اذ لولا الحارث
 والزارع لهلك جوعاً ولم تنح نائمة عليه ولولا الخياط والتاجر لما لبس خزا ولا ديباجاً
 ولولا الاسكاف لما سلك منهاجاً ولولا الفعلة لما تبوأ داراً فيحاء ولولا غارس الكرم لما

شرب الصهباء فما فضل الغني بلي التقير وما بون الكثير على اليسير والمرء يكفيه
 في الدنيا القوت الزهيد والثوب الكسيد بل المقلون اصح ابداناً من المكثرين واطول
 اعماراً ولهم طاقة على تحمل المشاق لا تبارى ويهتتمهم الرقود أكثر مما يهتئ البطن
 المجدود والرغيب المعمود كأنما هو على فراشه زق منفوخ او بوم سلوخ يتقلب بينة ويسرة
 وبنفخ عليه كأن في احشائه حجرة حتى اذا اصبح دعا بالطيب وخاف شر ذلك اليوم
 العصيب فانهدوه وسندوه ودلكوه ووسدوه ثم جأزوه بماء الورد فنضحوه على جبينه
 ومسحوا عن فمه ما سال من عرينه وساح من ذنبنه ودعوا له بالسلامة والعافية واستبشر
 بان مداواتهم له كانت شافية وعما سواها كافية واذا بالاسي وافاه وهو آس اواه ومعه
 زجاجات شتى مذهبة متنوعة المياد من بين اصفر فاقع واحمر ناصع واخضر ناضر
 وازرق زاهر فسقاه من احداها واسمه من اشداها حتى ايقن بآوال الباس وسرى
 عنه ما كان يقلقه من الوسواس اذ ظن ان تقعع به الكاس ويقادر ثروته للناس
 واذا بالعرف اقبل ومعه صحف استاجرها من عند الصحاف ففتح احداها وقرأ اسطرا
 من انلاها وقال له ابشر بالسعد والاقبال وغبطة الخال مع العمر الطويل والسودد
 على كل جيل فما كان الله ليحرم هذا الكون من وجودك وامثالي من كرمك
 وجودك واذا بالمطربين وافوه بالزف والتخزين فادربوه وحبروه وهنأوه
 وبشروه ثم قام ونظر وجهه في المرآة وقال انه بعينه ما علاشي مما شان وشاه
 تلك ثمرة الغنى والايثار ولو هموا ما عراه ذا اعسار خللت منه الدار فويلي على الرجال
 المتأثنين وويلي على هذا الثمن في هذه الاحايين فقد كاد يسقط المروة والفتوة
 ويطوي الهم تحت الارائك المحشوة فاصبح كل مشغلاً بنعيمه حتى قيل ان سمته
 في اديمه ومن العجب ان هؤلاء المترفين مع اعتقادهم ان سلامتهم سلامة الناس اجمعين
 وحرصهم على صحتهم حرص الجنيل على الرقين لا يزالون في الالتهام منهومين وعلى
 اللذات متهاوتين وهو مجلبة للاسقام وداعية للآلام فهلا كانوا يقتصرون على الكفاف
 ويلزمون العفاف اذا كانوا حراساً على سلامتهم وعلى تعبيرهم وكرامتهم لا جرم انا
 رأيت من يؤمن بالآخرة يحرص على ان يبق له بين الناس ذكر حسن ومآثره وهذا
 الحرص هو عين الدليل على خلود النفس من دون لبس فاما من كان همه في بطنه
 وعقله في صحته فليس له من هذا الاعتقاد نصيب وهو في خسران وتنبيب الا ان
 مثل الدنيا كمثل الماء الاحاج كلما شرب منه الانسان زاد ظمأه او كالشجرة الشائكة

كلما زاد فيها توغلاً زادته ارتباكاً وادماً فمن يرد ان يراها حتى رويتها فليبعدها عن
عينه والا فتدخل فيها وقتنيه بجينه فطوبى لمن تناء عنها وتبرا منها

من عرف الدنيا ثم ركن اليها كان من احمق الحمقى ومن لم يعرفها بعد ان راى
ثقلها فهو اعمى حقاً الم تر ان فرداً من الناس قد خرب وحده مملكة قديمة كانت ثابتة
الاساس وجلب على اهلها وهم ثمانية وثلثون مليوناً ذلة وانكسارا وهونا بعد ان اهلك
من جيوشهم مئآت الوف وعرضهم لبلاء غير معهود ولا مأوف فابح العدو
يتحكم فيهم تحكماً ويقترح عليهم اشياء لم تخامر خاطراً ولا وهماً فيشكون وليس من
يسمع شكواهم ويدعون وليس من يجيب دعواهم وقد ارملت نساؤهم ويمت اطفالهم
وتضورت شيوخهم وتعطلت اعمالهم وبارت اراضيهم ودكت صياصبيهم وثلت معاقلمهم
وانتهكت موائلهم ونضب ايسارهم واقل اكثرهم وغلت ايديهم وخلت نواديهم وتقطرت
منهم الاكباد ونقطعت بهم اسباب السداد فكانهم لم يكونوا امة متالفة ولا دولة
ذات انفة وكان مغايبهم لم تكن محتداً للقصاد ومعالمهم لم تكن مورداً للارشاد فصار
من يراهم ينكرهم ويهجرهم ومن كان مشغولاً بنعمتهم يكفرهم ولا يشكرهم والدول تنظر
اليهم نظر الشامت وتعظم قدر عدوهم وكلهم عن نصرتهم قاعد ساكت او في لومهم
صائت وقد طالما هابوا ذلك الفرد الذي سمي في خرابهم وتوصل الى تبايهم وكانوا
ياتونه زائرين ويحرصون على ان يكونوا له مجاورين بل الملوك ايضاً كانت تننافس في
مصاحبته وتهيافت على مصادفته اذ كان يده الحل والربط الضبث والضبط والسلم
والحرب والامن والرعب وكان اذا ناجى احداً بكلمة عدها منه نعمة واقتربها على
الاقربان واتخذها ذخراً لصروف الزمان فلم يكن في زمنه من يعصى له امراً او يضر
عليه شراً اذ كان يقال ان الله تعالى كان حارساً له وساتراً لاله فكان اذا اخطأ في
امر او قصر فيه قيل ان السياسة كانت تقضي عليه واذا اعتراه القرس فالزمه الفراش
قيل ان الارض اهتزت وشمل اهلها الارتعاش وكانت حركاته وسكناته قسطاساً توزن
به الاحوال واسطرلاباً يوخذ عليه تقويم الحال والمآل وهو الذي كبح الصقالبة الروس
فغنت له منهم الرؤس واخف اهل الصين وانفذ في محافل الملوك رايه الرصين وكان
اذا ركب كرم واذا مشى عظم واذا عطس سميت وياحسن النعموت نعت واذا نظر
شزراً ملاً القلوب ذعرا حتى اذا اطقت النعمة وظن انه وحده امه وان القدر يليه

والسعد موقوف على شرفه فاراسه بالوساوس وسولت اليه نفسه ان يلتمهي حينما
 يجز الرؤس الشواخس اذ راي بعض رؤس قومه صغيراً و بعضها كبيراً و بعضها
 مستطيلاً و بعضها ممطولا فنادي بجمع الجيوش وقال اني ليمجيني ثل العروش وحشد
 العجول الجيوش الذي يضرب القرن و يشفي منه غليل الضغن ان لنا لضغائن مخبأة
 في الصدور هي لذة الجسور وشفاء المصدر وان قرنا ما وراء النهر وانا نفاجته وبقهره
 اي قهر ثم نرجع وفي صحبتنا العز والنصر والسعد والفخر فاذا صبغنا ماء النهر بدمه كان
 ذلك عبرة في التواريخ تسطر وعلى مدى الاحقاب تذكر فن كان منكم متحمساً
 متوعداً او متهوساً معربداً فوعده غدا فاني ارى بطالتكم عارا واخلادكم الى الراحة
 شنارا فان من شرط من تقلد الحسام ان يكون ضارباً به على الدوام ولا يغمده على
 احد من الانام فهذا وقت الانتقام وكسب الثناء من الخاص والعام انظروا اليّ والى
 ابني المترعرع فكلنا بالحرب ولع والى النزال متترع فقالوا يعيش مولانا المحارب انا
 معك نحارب ونضارب وانا بسعدك تهر الخاصم والمشاغب وان هو الا اسبوع ثم نعود
 الى اوطاننا فائز بن غانمين فنتسع لنا الربوع ويهتئنا الهجوع ويصفو لنا الرتوع فزحفوا
 متكئين وبالسلح متلبين وجالوا جولة واحدة وشدوا شدة جاهدة واذا بالعدو
 انبعث عليهم كالسيل الهامر وفاجاهم كالاسد الزائر اذ كان قد استعد لهم حين كانوا
 يرقصون في المغاني ويرحون مع الغواني وكان اكثر منهم ضعفين فقابل كل صف
 منهم بصنين فابلوا جهدهم وتذكروا رشدهم فراوا ان الرجوع اولى وان للعدو عليهم
 صولا وطولا وياله من رجوع قرن بالنشل وبخيبة الامل وبالها من خطة مكنت المعقب
 لهم من بلادهم اي تمكين فدخلها وتبوأها وشد وطأته عليها فكنا هي تحت قدمه
 جرين وكان حصونها وقلاعها كانت مبنية من ماء وطين فما ترك حصناً الا وفتحها
 ولا سترها الا وفضحه ثم صادرهم بالاموال وكاثرهم بالسلح والرجال حالاً بعد حال
 اما اميرهم ذاك الغضنفر فانه كان قد حصر في واقعة منته بالفشل والخور فغاب فيها
 رشده وبطل جهده فلم يسهه الا الاستسلام فاخذ اسيرا وصار امره عبرة للانام وتبعه
 من قومه العذل والملام فقالوا انه هو الذي اذلهم ووقعهم فيما اذلهم ففقدوا بسببه اكثر
 من تسعماية الف اسير صاغر ومن ستة الاف مدفع داسر ومن مئات الالوف من
 البنادق والسيوف البواتر وما لا يحصى قدره من المهمات والذخائر ما عدا القتلى
 الجرحى وما حرق من المدن والقرى بغيا وبرحاحي قيل ان العدو كان اذا احرق

دارا قفل بابها على ساكنيها حتى لا يستطيعوا فراراً فكم من نساء واطفال هلكت في هذه الحال ولم يعلم احد بخبرهم ولم يشعر باثرهم الا وكم من عزيز اذل ومصون اذيل ومستور فضح وبريء مني بالتسكيل وكم من مخدرات ابتذل ماء وجههن الناضرة وكم من دموع اسلن كأنها هي امطار هامة فيا من رأى امة فحمة ذلت ودولة ضحمة اضمحلت وبلداناً عديدة صارت بلقماً وكتائب فرسان لافت باجمعها من الحمام مصرعاً وحيوشاً جراحة عنت باسرها خضعاً وكبت ولم يقل لها احد لعاماذا ترجي بعد من الزمان وكيف تامن من غوائل الحدثن وانى للدول الوضيعة الشان ان تستبد بامرهما وتتمتع بحقوقها التي ورثتها منذ ازمان فان الحقوق الان قد نيطت بحمد الحسام لا بتعريف الكلام فما عسى ان يجدي الكتاب عند اقتضاض الكتائب او يهدي الخطاب عند اعتراض المضارب فكيف تكون الحال اذا ضمت هذه الدول كلها الى دولة او دولتين او ان يذهب بالجنسية التي هي علة الضم بلا مين وعند بعضهم ان الجنسية مبنية على وحدة اللسان فاذا كان لقبائل شتى لسان واحد عدوا جميعهم قبيلة واحدة ولم يبق على ذلك برهان فانا نرى لساناً واحداً مستعملاً بمملكتين مستقلتين متغايرتين في الاحكام والسياسة منفصلتين وانما هو ان اليد الطولى هي التي تناول الحقوق قسراً وطولاً وعلى ذلك دارت مسألة تلك المملكة العانية والامة الوازية الا ان ايدى غدار شيمته ارهاق الاخيار وابناق الاشرار ورفع الخسيس ووضع النفيس وانه كثيراً ما يدخل البريء في السجن ويخرج منه اللص الخؤون ويجرى السفيد على الحليم ويولع اللئيم بعرض الكريم الا ان ذلك من البراهين الساطعة والدلائل القاطعة على عقوبة المجرمين في الآخرة وعلى انه تعالى انما يمهل العبد ويستدرجه بحكمته الباعرة اذ يستحيل انه يسوي الابرار بالفجار وينزلهم منزلة واحدة في تلك الدار فيومئذ يجزى الحسن باحسانه والمسيء بظفانيه فلا ينبغي ان نفيس هذه الدار الفانية على تلك الديار الباقية فلا يفرحن الاشر باشره ويظنن ان الله غافل عن قدره فقد قدر له مصرعاً ويميلاً وعداباً طويلاً وانما تجرى الامور هذا المجرى لتكون لنا عبرة وذكرى فطوبى لمن اعتبر بما مضى واستسلم للقتل

اذا اعتبرنا الثقلان الصنائع دايملاً على جودة العقل وحدة الذهن وصفو القرية وسلامة الذوق واستقامة الطبع كان لا بد لنا من ان نحكم بان الافرنج هم اجود

الناس عقلا واحدهم ذهنًا واصفاهم قريحة واسلهم ذوقًا وطبعًا لانا نراهم قد اتقنوا جميع الصنائع فلان لهم الحديد سائر ما صلب من جواهر الارض واتقنوا التجارة والنساجة واخياطة والصبغ والنقش والتصوير والطبع والبناء وكل ما يمكن للانسان ان يعطاه من اسباب المعاش كالحرانة والزراعة والتجارة ونحوها فما وضعوا ايديهم على شيء الا واستخرجوا منه مرافق ومنافع حتى انهم ليبرزون النحاس في رونق الذهب والتصدير في بهجة الفضة وان يكونوا قد تصروا في بعض اشياء عنم تقدمهم من الامم او عاصروهم منها مثال ذلك صنعة البناء فاني ارى ان الاولين قد احرزوا قصب السبق فيها فلا يمكن للافرنج ان يجاروهم فيها وان بذلوا غاية اجتهادهم وطاقتهم اذ لا يمكن الان لدولة من دول اوربا ان تبني شبه اهرام مصر غير ان الافرنج يتذرون عن هذا بقولهم ان ما فعلونه فانما يريدون بها النفع لا مجرد الفخر والاقدمون انما كانوا يفعلون للتفاخر اذ لم يظهر لهم في بناء الاهرام نفع يساوي ما انفق عليهم من الاموال وما تحمّل فيها من الاتعاب والمشاق ويقولون ايضا ان الملوك الاولين كانوا يسخرون رعيتهم في عمل ما يريدونه ولا يبالون بما يقاسونه في انقاذ امرهم وهذا لا يجوز عندنا الان ثم لا بد لنا من ان نستعج من بناء الاهرام ونحوها اشياء اخرى وهي ان بناها لم يتم على هذه الصورة البديعة مجرد كثرة الذين كانوا يعملون فيها او بطول الزمن او بعظم النفقات بل لا بد من ان نعلم ايضا انهم كانوا بارعين في الرسم والهندسة وجر الانتقال واصطناع الآلات حتى امكن لهم اتقان العمل وبذلك نحكم ببراعتهم على الافرنج في هذه الفنون ايضا ومثال ما قصرت فيه الافرنج عن الامم المعاصرة لهم صنع الشيلان الكشميرية والزرايبي المجمية واشياء اخرى كثيرة تصنع في الهند والصين مما يبهر الابصار ويحير الافكار ويمكن ان يتمحل للافرنج بان يقال ان الباري عز وجل قد خص كل بلاد بمزية ما فضلت به عن غيرها من نحو الماء والهواء والتراب وبعضه متوقف على التراب وبعضه متوقف على الماء والهواء فلا يمكن ان يوتى بهذه الخصائص من بلادها الى بلاد اخرى ومن الغريب هنا ان الافرنج يدعون بانهم اخترعوا اشياء كثيرة وهي كانت معروفة عند اهل الصين فهل يحسب ذلك من توارد الخاطر على الخاطرام نقول انهم لما سمعوا بوجودها اتخذوها واتقلوها لانفسهم وفي الجملة فان للافرنج فضلا عظيما في تجويد الصنائع واتقان الآلات وان يكونوا قد اخذوا بعضها عن اهل الصين وبعضها عن العرب ولا سيما عرب الانداس واعظم ما

اخترعوه استخراج متافع البخار الذي مكبهم من اتخاذ البواخر وسكك الحديد وضع
 آلات الحليج والنسج وغير ذلك واذا اعتبرنا العادات والكلام والاخلاق دليلاً على
 تلك المزايا التي تقدم ذكرها كان لنا ان نقول ان الافرنج لم نزل تغلب عليهم حالة
 التوحش والهجمية كالزمن الذي كانوا يلبسون فيه جلود الحيوانات ويمولون في مناكب
 الارض بلا صنعة ولا عمل اما العادات فانهم الفوا اكل الحيوانات القذرة فكل ما
 ساغ منها في مزاردهم فهو طاهر والانكليز ياكون اللحم المنين الذي تشم رائحته
 الخبيثة من مسافة بعيدة ويتنافسون في اكل الجبن المدود فكما كثر دوده عندهم
 غلا ثمنه ولا يخفى ان عادة الانسان في طعامه وشربه هي اول علائم التمدن والتطرف
 وبلي ذلك عاداته في لباسه ورقاده ومن اقبج عاداتهم حلقهم شواربهم ولحاهم فترى
 الشيخ الهرم منهم كالقرد مجرداً عن الهيبة والوقار كتجرده عن الشعر وما كفاهم هذا
 حتى شغفوا بالنساء اللائي هن شوارب او عنافق او عوارض يخالفوا الطبيعة في
 الحالتين ولو كانوا من ذوي اللحمي ورأوا غيرهم على هذا المرأى الشنيع لكان اول
 ما يصفونه به ان يقولوا انه اقرب الى الوحش من الانسان وهناك عادات اخر كثيرة
 قد تلبسوا بها تلبساً ذمياً مما لا يمكن استيفائه في هذا المحل لضيق المجال عنه اذ
 ليس المراد هنا سوى ذكر الاموذج دون الاستقراء والاستقصاء وكذا نقول في
 كلامهم واصطلاحهم في التخاطب والتمفاهم فان استقراءه ينبغي ان يكون في سفر
 على حدته وانما نقول هنا قولاً مجملاً وهو ان احدهم اذا اراد ان يعبر عن معنى وان
 يكن من اوضح المعاني وابسطها وافرئها رأته قد اشط فيه وربكه وعقده بالاستطراد
 والحشو واللغو من الكلام حتى لا تعود تعرف له راساً من ذنب ولا شرقاً من سرب
 ومع ذلك فانهم يقولون انهم يعلمون في مدارسهم المعاني والبيان فاي معنى بالله لقولهم
 ما دامت هذه البلدة لم تفتح فانها لم تفتح واي بيان في قولهم سقط فلان عن ظهر
 دابته فاخذ عضواً مكسوراً يعني فكسر عضو من اعضائه وغير ذلك من التعبير
 السخيف وهذا مبحث طويل ينبغي ان يفرد له تاليف مخصوص ليعلم منه فضل اللغة
 العربية على جميع لغاتهم وان ما يدعيه الافرنج من التمدن في جميع الاحوال المعاشية
 لا تقوم به حجة ومن الحدس فتح الانكليز معرضاً للمضوعات في هذه الايام على حين
 يرون جيرانهم الفرنسيين منوا بحسن ومصائب غلت ايديهم عن العمل ورمت براعتهم
 بالركساد مع ان من حقوق الجوار ان يفرح الانسان لفرح جاره ويحزن لحزنه فما معنى

هذا المعرض في هذه الايام وذلك يتحاشاه العرب احتراماً للجوار ومراعاة للولاء
والاخاء غير ان الافرنج لا يفكرون الا في منافع انفسهم فقط فلو اهمهم تهذيب
اخلاقهم قدر ما بهمهم ملء اكياسهم لكان اولى فسيحان من يرضي الناس بقولهم

— — — — —

من اعجب العجب ان الانسان لا يدرك حقيقة حاله وهو مع ذلك يتطلع الى
معرفة احوال غيره فيترك شغله وعمله وياخذ في الاستقصاء عن حال زيد وعمرو اما
كونه لا يدرك حقيقة حاله فقد يتوهم احياناً انه اشقى الناس اذ يرى نفسه مقيداً
بخدمه ما او عمل ما ويرى بعض الناس مطلقي العنان ينتقلون من مكان الى مكان
ويصرفون اوقاتهم في اللعب والمزح والقصف والبطالة فيود لو كان نظيرهم ولكن اذا
سمع بان احدا منهم هلك لانهما كاه في الشهوات او لتحويله الليل نهاراً والنهار
ليلاً او لعلبة الهوى علي عقله حتى ترك طريق القصد والرشد واتبع طريق الزيف
والاسراف رجع الى الحزم وراى ان التقيد بالعمل خير من البطالة بل حمد الله تعالى
على انه ليس من تلك الزمرة وقد يخطر بباله انه كان في الوقت الفلاني سعيداً مغبوطاً
اكثر مما هو عليه حالة الذكر ضرورة ان كل انسان يستطيب الماضي ثم يرى انه كان
في ذلك الزمن قاصر المعرفة لم يكن له علم باحوال الناس وادارة الامور كما هو الان
وعند ذلك يتذكر ما كاده به زيد وعمرو في اوقات متعددة ويحمد الله تعالى على
سلامته منهما وعلى ان ذلك الكيد قد زاد في فهمه وفطنته بحيث انه اتجد جنة
للتوقي من امثاله فاغناه مزيد العقل عما حرمه من حظ تلك الايام فان العقل سيفي
الحقيقة كنز لصاحبه وما اخال احدا من الناس يجهل قدره ولذلك ترى كل واحد
من الناس يدعي ان له منه النصيب الاكبر واذا كان يقر بان غيره ازكى منه حالاً
وانعم عيشاً واكثر نفقة واقل همماً وعناءً فلا يكاد يقر بان ذلك لكونه اوفر منه عقلاً
وانما ينسبه الى بعض الحوادث والعوارض فيقول ان القدر ساعد فلاناً ولم يساعدني
او ان الزمان قد فسد فلا يسعد فيه الا الكذاب والحتمال وربما يخطر في باله
انه غير متمتع بالصحة التامة اذ لا يقدر على اجتناء الملذات واتباع الشهوات كما
يقدر غيره ثم يرى انه يمرئه الطعام والشراب ثلاث مرات في اليوم ويهتئه النوم عدة
ساعات في الليل وانه قادر على عمل يركز به حاله ويطيّب به عيشه وانه لو كان
مريضاً لكان ملازماً للفراش وهكذا يبقى فكرة متردداً في معرفة احواله فلا يتجه له

وجه منها الا اذا قاسها على احوال غيره وفي الواقع فان اتفح شيء لمن اتعبته افكاره
 في معرفة حاله ان يفكر في حال غيره على وجه المطابقة فاذا كان وضعاً وجب عليه
 ان يفكر في من هو اوضح منه لا في من هو ارفع وان كان غير تام السعادة يفكر في
 من هو محروم منها بالكلية على اني اقول انه ما من احد يكون سليم العقل والبدن الا
 ويكون له حظ من السعادة عظيم وان كان غير تام الصحة يفكر في من اسقمته
 العلل واعلمته الاسقام حتى اعجزته عن تحصيل معاشه وان كان مريضاً على هذه الحالة
 يفكر في من هلك فقد نقرر اذا ان الانسان لا يعرف نفسه حق المعرفة وانما هي
 وساوس تعرض له فتخيّل اليه مرة انه من السعداء ومرة من الاشقياء ومع ان كل
 واحد من الناس يقول بلسانه ما عليها مستريح اي على الارض فكل يحاول في
 قلبه ويتقنى في لبه ان يكون حاصلاً على الراحة التامة وهي في عرف الاكثرين كناية
 عن كثرة المال والاكثر من الخدم والحشم والخييل والديار والفرش والمتاع واحتمق
 الحمقى من ظن ان حظه ونعيمه ولذته في كثرة النساء ولا يخطر بباله ان هذا الاكثر
 هو عين التعب لان كلاً من هذه الاشياء التي يملكها يقضي عليه بتوجيه همه اليه
 وصرف فكره فيه ولا شك في ان كثرة المهوم والافكار سبب للتعب لا للراحة
 وانما توجد الراحة الحقيقية في القناعة وفي عزف النفس عن المطامع البعيدة فمَن
 عرف الانسان كفايته من حطام الدنيا فقد استراح نعم ان الغني يقدر صاحبه على
 اتخاذ ما يستطيعه من الماكول والمشروب ويستكرمه من المركوب ويستعتمه من
 الملبوس ويستعديه من البلاد وفي ذلك رفاهية له وتقوية لبدنه الا انك اذا قست اعمار
 الفقراء باعمار الاغنياء وجدت ان الفقراء يعمرن اطول من الاغنياء لان الغني كما انه باعث
 على الترفه والتنعم كذلك هو باعث على الاسراف والانهماك في اللذات المقصورة للاعمار
 وكل من تعمد الخدور واصابه منها خدر الشهوات فبشره بانّه لا يلبث ان يعدم
 حركته اصلاً اما من لزم القناعة واشتغل بعمل ما ينفع به نفسه وقومه فهو في الحقيقة
 سعيد هذا الذي ندبت اليه الكتب المنزلة وحشت عليه الحكماء والفلاسفة من قديم
 الزمان وهو الذي رغب فيه كل ذي عقل سليم وطبع مستقيم حتى الشعراء الذين
 لا يتحاشون من التعرض للجوائز والتعريض بها يعلمون هذا ويعتقدونه ويجرضون
 عليه ومفاد ذلك كله ان الانسان لا يدري ما ينفعه وما يضره وما يسعده وما يشقيه
 وانما هي اوهام تلوح له فيظن انها اذا تحققت صار سعيداً ولو كشف الغطاء له

عنها لما شغل بها باله ولا اضاع عليها سوا له ومن هذا القبيل مثل الذين يتصدون
 لتأليف الرسائل وانشاء الخطب ونظم القصائد وهم يهزل عن العلم قترى كلامهم يشف
 عن سخي المعاني ومستهمجن الالفاظ وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا فهلا عرضوا
 كلامهم من قبل ان ينشروه على اهل العلم ليروا ما فيه من الخطأ والخطل فيرتدعوا
 به عن ارتكاب مثله ام يظنون ان كل من قرأ شيئاً من كتب النحو والعروض صار
 مؤلفاً وشاعراً وليس عليه ان يعرف المانوس من الالفاظ والصحيح من المعاني من
 غير المانوس والصحيح ام يخالون ان كل ما يخطر ببالهم يعجب الناس او ان هذا
 الفن لم يضبط في قواعد تعصمه عن الشين وتبعده عن الخلل فلو كان امثال هولاء
 يعرفون احوالهم ويدرون حقيقة انسابهم لما عرضوا انفسهم للهزء والسخرية فان غاية
 كل واحد من الناس ان يكتسب المدح على ما يقوله ويفعله ويدخر الثناء الجميل
 عليه ولو ان احداً حضر محفلاً وعرف انه متى تكلم سخر السامعون منه واحتقروه
 افساه كان يجسر على الكلام ام يرى السكوت اجمل به فما الفرق بين المتكلم والكاتب
 فارى من ذلك كله ان الحياة نفسها هي سكر للانسان يغطي الحقائق عن بصره
 وبصيرته فيجهل حاله وقدره وياخذ ان يخبط في الامور خبط عشواء واذا بقي
 الانسان بمد بلوغه على هذه الحالة فما ظنك بالاولاد الذين لم يجربوا الامور ولم يعرفوا
 النافع منها من الضار والصواب منها من الخطا ولهذا كان من الواجب على من اقتدبوا
 لتعليمهم وتربيتهم ان يعتنوا بكفهم عن الرذائل على صغر وبارشادهم الى ما ينفعهم
 في المستقبل بان يبينوا لهم مساوى الصبوة والشباب والكهولة والشيخوخة ومحاسنها
 ومحامدها ومذامها وطوارئها وعوارضها ولا سيما فيما يتعلق بصحتهم ويديم عليهم عافيتهم
 على انا نرى المعلمين يلزمون الاولاد ان يعرفوا قدر ما في الارض من الجبال والاكام
 والاطام والانهار والعيون والجداول والبطاح والسهول المحروثة والبقاع العظلة وغير
 ذلك ولا يعلمونهم شيئاً يوول الى صحتهم كالنهي مثلاً عن شرب الماء في التعب
 والتكشيف للريح وكالاضطجاع في مكان ندي والاكثر من اكل الفاكهة وارتقاء
 الشجر وعدم المبالاة بعواقب البرد والحر ونحو ذلك مما لا بد منه وبودي لو ان
 بعض اطباء يولف رسالة في هذا الموضوع فتجبر الاولاد على تعلمها وحفظها كما
 تجبر على تعلم كتب الجغرافيا وغاية الكلام ان ارى اهمال تربية الاولاد اصلاً
 لمعظم الشرور والفساد الملازمة للانسان حال حياته فينبغي بذل العناية التامة في

حسن تربيتهم وتهذيبهم حين يكون بهم صلاحية واستعداد لذلك والا فانهم متى
ربوا على الفساد ومروا على الطلاح فقراءة الكتب لا تجديهم نقاً

تأبين

١

« لاديب بك اسحق في تأبين المعلم بطرس البستاني »

كذا فليجل الخطب وليفدح الامر وليس لعين لم يفض ماوها عذر
ان هذا المصاب مصاب جسيم . ان هذا الخطب خطب عميم . انها المصيبة وطنية
يقبل في مثلها بذل الدموع . انها لنائبة عمومية لا يكثر في نظيرها تميز الضاوع . اجل
ان المصيبة فيك مصيبة الوطن يامن انفتت العمر في خدمته . مقدماً مجتهداً صابراً
متجلاً متعقفاً مستقيماً . فلا بدع ان تبكيك العيون . ولاغرو ان تنفطر لفقذك القلوب
او لم تكن فينا مثال الفضل والاجتهاد . ونموذج البراعة والادب . وعنوان التجلد
والثبات في خدمة العلم . بذلت في هذه الخدمة شبابك . ووقفت على هذا السبيل اتعابك
وجعلت العلم غايتك القصوى من دنياك فكان لروحك روحاً وكنت لذاته قواماً
فاي اثر ادبي رأيناه ولم تكن انت البادي به او الداعي اليه . واي مشروع
مفيد شهدناه ولم تكن انت الشارع فيه او المعين عليه . اولست اول من خط على
صفحات القلوب ورسم على صحف الجنان « حب الوطن من الايمان » واول من اقدم
على المشروعات الجسيمة العلمية بهمة لا تخاف المصاعب والعقبات ولا تألف الا
صدق العزيمة والثبات

باي آثارك لا تذكر . وبايها اذا ذكرت لا تشكروا به عين ترى اعمال يدك
ولا تفيض دمعاً بل دماً حزناً عليك وما الذي نذكره من آثار اجتهادك في استمرار
ارتدادك ولا نحمد عظيم امواظبتك على خدمة العلم والادب اربعين عاماً او تزيد
تأليفك وتصانيفك الغنية بشهرتها عن الوصف المحيط محيطك . ام قطر محيطك . ام
مدرستك الوطنية التي ملأت بها الوطن انواراً . ورفعت فيها للادب الصحيح مناراً .
ام جناتك التي غرست فيها اغصاناً من العرفان . من كل فاكهة بها زوجان . ام جنتك

الزاهرة الدانية القطوف . ام دائرة المعارف التي . . . كدنا نخاف ان تدور الدائرة عليها
لولا الامل فيمن أقيمت لها خلفاً كريماً . يحقق رجاء المحبين ويتم أمنية المستفيدين .
اجل يتم الامنية ويحقق الرجاء فيكون به للوطن عزاء
في الاثر الماثور يا سادتي « من علمني حرفاً كنت له عبداً » فمن منا لم يعلمه هذا
الفقيد حروفاً من منا لم يستفد منه فوائد صنوقاً . تصانيفه في كل فن . من مدرسته
الوطنية . من جرائده الزاهرة . من آثار معارفه في كل موضوع ومن منا لم يدفع الملل
في اوقات الفراغ . ويغلب الضجر في ساعات الراحة . وينزه الفكر بعد تعب الاشغال
بتلاوة ما كان فقيدنا يحبي لانشائه الليالي الطوال . فكيف لا نرثيه وكيف لا نبكيه
وكيف لا نستعظم المصيبة فيه

اي هذا الراقد تحت ظلال الرحمة والرضوان لقد عشت سعيداً مفيداً وقضيت
حميداً فقيداً . وان كان عموم الاسف وشمول الحزن بما يبرد ثري ويحلب غفراناً فقد جادتك
سحب الرضوان والغفران مسوقة الى ثراك من كل مكان مستمطرة على ضر يحك بكل لسان
نم سعيداً يامن قضيت فقيداً يجميل قدّمت بين يديكا
انت احسنت في الحياة الينا احسن الله في المات اليكا

٢

« لاسكندر افندي العازار في تأبين اديب بك اسحق »

قال .

ما طلعت على ادينا شمس الخميس وما عرف في صباحه وجه انيس استحكمت منه
علة الصدر فما دفع الاطباء عنه مقدوراً وما محاً الاحياء ما كان مسطوراً وما راقب
الموت فيه اهلاً ولا عشيراً فغلاشى نفساً في نفس وقبضت روحه عند الغلس فمات
وعيناه البرقيتان منفتحتان نرسلان نوراً كأنهما محددتان الى فضاء الابدية
قضى في سفح لبنان حيث التمس العافية من الهواء والماء ومن امين للداء العياء
دواء فاتصل نعي وفاته ببيروت الاسبغة فلا تسل القلوب عما تمزق ولا الصدور عما
توقد ولا العيون عما جرى انك تكاد لا تجد الا رأساً فلقاً وصبراً مفترقاً ودمعاً مستبقاً
وقلباً محترقاً فيا لله ما هذه البلية

كان رايتنا في علم اللسان وآيتنا في صناعة البيان وغايتنا في حب الانسان
 كان والله فتي ولا كالفتيان جريئاً في الحق ما اخذته فيه لومة وما رهب فيه وعيداً
 بل ما كان له شعاراً في هذه الحال او مثلها من الاحوال الا قول من قال
 واذا لم يكن من الموت بدء فمن العجز ان تموت جبانا
 فعاش حر الضمير فكراً وقولاً وفعالاً ومات حر الضمير فكراً وقولاً وفعالاً ييكيه
 ضمير الاحرار وتذبده الحربة نشأ وطنياً خالصاً صحيحاً وعاش جندياً لاشرف الاصول
 واسمى الغايات وانفق في خدمتها من روحه ما كان ينفخ في القلم من الروح وجاهد
 جهادا جنسياً بنفس كبيرة اعيت بدنه وقوضت اركانه فصح فيه
 واذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الاجسام
 فمات شهيدا حميدا فقيدا وحق لاسمه ان يخلد الى الذرية

كان زهرة الادب في الشام وريحانة العرب في مصر فلا عجباً اذا الفيت بنسيانته
 احشاء السأم شحاحاً او لفقده امتلأت نواحي ارض مصر نواحاً اي والانسانية
 كان للانسانية نصيرا ولاعدادها نذيرا وبالانسانية بشيرا فلتبكه الانسانية
 ويا اخوان اديب المنتشرين في الارض مات اديب وادرج في كفته واصابت
 الديدان مقيلا في بدنه واخرسه الموت في ترابه وحيل بيننا وبين خطابه فابكوا ما
 وجدتم في العيون دموعاً ولا تسالوا قبلته الوداع فقد قبلته عنكم جميعاً وقد
 ودعته وبودي لو يودعني طيب الحياة واني لا اودعه
 دفناه وتركناه ولو اقمنا ما نفعناه وهو من قبل قد نزعتم اليكم روحه شوقاً
 فاوصاني بالقاء التحية

وانت يا شقيق الروح يامن اوحشت الدار ومن فيها وانست القبور وساكنيها
 يا مؤين الامراء وراثي العلماء وباكي الادياء والكبراء والفقراء يا ايها الراقد بلا حراك
 ولا يجدر بتاينك سواك ببيك القلم يا اميره والحق يا اسيره ببيك الاهل والاحباء
 فقد كنت ودوداً حبيباً وبيك الشعراء والكتاب والخطباء فقد كنت شاعراً
 وكاتباً وخطيباً . تبكيك المجالس ياخير جلس تبكيك محاضر الانس ياخير انيس
 تبكيك صحف بعبراتها وتريثك صحف بعبراتها ولا تسل عمن استرهن الامور
 باوقاتنا فترجمة حالك ستفصح ما كان مستورا تبكيك افاضل الكهنوت الحق
 انك كنت للافاضل عضداً كريماً تبكيك الجمعيات الادبية تبكيك بكاء اندروماك

انك زهرة الآداب باغصنا نضيرا وتسقيك الذكري في كل عشية
 واما الكتيب الكاسف البال رقيق صباك واعمالك واخوك في جهادك فاجتو
 بالذلة والاكتئاب عند ذلك التراب واستمطر دمع العين لطفًا واستوقد نار الصدر
 اسفًا وابيك وارثيك ما بقي لي من الحياة بقية
 واقسم بوحشتك آنسها الله وبغربتك رحما الله اني مقيم على ولائك محب لاجباتك
 عدو لاعدائك لا عزاء لقلبي ولا سلوان الا التاسي بان تجمعي واياك ظلمة الابدية
 فحسي شجواً ان ارى الدار بلقما خلاء واشلاء الحبيب ترابا

— — — — —
 ٣

« لسليم افندي نقاش في تايين اديب بك اسحق »

كذا فليل الخطب وليفدح الامر وليس لعين لم يفض ماؤها عذر
 امن حد الاقلام ان تجري بعد فقد الاديب من المخابر امن واجب الدموع ان
 تبقى بعد هذا المصاب مصونة في المحاجر . امن العدل ان نغاف اليوم من اثواب الحداد
 امن الغرابة ان نفقد بهذه الفاجعة الهدى والرشاد . لا والاسف وحر نار اللفف
 فقد ثل عرش الفضل ودك طود الذكاء والنبل وغاض معين البراعة وشوه وجه البراعة
 وبدد شمل البلاغة واختل نظام الانشاء وكان لا ياخذ محاسنه العد والاحصاء
 وانقبضت الصدور واضطربت القلوب وانذهلت البصائر وشخصت الابصار فعمت
 الاحزان واستولت الاكدار وحات الافكار

وغاضت يتابع المسرة وانقضت ليال بها كم كان للانس اوقات
 واصبحت الآداب تندب حظها نقول مضى سعدي واهلي قد ماتوا
 كيف لا

والدهر قد فوق نحو العلي مهما وهذا السهم كان المصيب
 تعسا لهذا الدهر من خائن لم ينج منه فاضل او اديب
 اجل لقد ارسلت المنية وسلها فاختطفت زهرة الفضل الزاهرة وفغرت الداهية الدهاء
 فاما فابتلعت درة الآداب الباهرة
 والموت تقاد على كفه جواهر يختار منها الفوال

ومن ذا الذي يسمع بافول بدر المعارف وغروب شمس اللطائف
 ولم يسلم من عينه ادمعاً تساجل السحب وفيض البحار
 ولم ترزع قلبه خسرة تلون الوجه بلون البهار
 مضى الاديب الذي كان للعلم حرزاً وللبلابة كنزاً وللفصاحة ركناً
 وللصاحبة حصناً

هيات ان يأتي الزمان بمثله ان الزمان بمثله لينيل
 مضى فكان الهول هولاً صير بياض العيش سواداً ورحل فكان الخطب
 خطباً جعل نور الحياة ظلاماً

واني لا بكيه واني لصادقٌ عليه وبعض القائلين كذوبٌ
 مضيت واي مقلة ايها الاديب لا تذرف الدمع عليك صبيها واي امرءٌ من
 مفتوني ادبك لا ينفع عليك بكاءٌ ونحيباً فارقتنا وتأتيت وما اصعب نأيك وفراقك
 ورحلت عنا ومضيت فجمعت برحيلك احبابك وعشاقك وقد اطعمتهم يوم وداعك
 بامل اللقاء ووطدت رجاء الاجتماع يوم لثموك في السفينة لثمة الاخاء فما كان العهد
 بهجرك ان يكون اليوم مزيل الصفاء مذهب الهناء لا صبر بعده ولا عزاء
 ولو قسم الحزن على فقدك اعشاراً لاصاب عشرٌ منها والديك والك وعشرٌ
 اصدقاءك وخالنك والادباء الذين عرفوا قدرك وشانك وعشرٌ كل من سمع بك
 وراك او علم برفعة مقامك واصابي انا السبعة الاعشار وما ارضاها قسمة ضئلي
 اكون بها اقل من الجميع حزناً عليك لا سيما انك غبت عن العين ولم اتمك لثمة
 الوداع قبل ان تغمض واسفاه عينيك

ولو جمعت في رثاءك ما قيل في الدنيا من رثاء لما جاء واقياً يجرء من الواجب
 وهيات ان يوفيك حقلك منه الا من هبطت عليه اسرار بلاغتك واعطي منحة
 براعتك وكان لك في البراعة قريباً وفي سرعة الخاطر ندأً ومثيلاً

وقد شهدناك في ابان شبابك تاخذ بتناصر المبادئ الحرة وتؤيد شأن
 القواعد الصحيحة فدلنا ذلك على انك لست من ابناء هذا الجيل وليس اهل اقربانك
 بل انك سابق بمئات من السنين في الوجود اوانك وانه سيأتي على الاعصار
 القادمة زمنٌ يذكرك اهلها بما نشأت عليه في زمانك فينادونك ثم ايها الاديب
 هذا عصرك الخليلي بك فقد وجد فيه رجالك وهم بك حريون ثم وانشر فيهم

مبادئك وتعاليمك فهم لك مصفون ولشأنك معظمون

فقدناك يافتي النباء بالغاً مبلغ الكهول من الحكمة ولم تبلغ الثلاثين من عمرك
ولكنك ابقيت لك ذكراً يؤبددهور اواثراً يخلد من بعدك اجيالاً فلم بهما الفضلاء
كيف يحيا الذكر ويبقى الاثر

وهم تذكرك تذكيراً بادبك ابطلاقة لسانك وقد كنت واسطة عقد الخطباء
ام بتوقد جنانك وكنت خيرة الالباء ونجبة الازكياء

فكم رأيتك على المناير تجيل عينيك ملتفتاً نحو ملتقطي دررك يمنة وشمالاً
فصيحاً بليغاً قوي التصور حاد الذهن حاضر الفكر سريع الخاطر متين الحجة صحيح
البرهان ثابت الجنان

وكم عرفناك في مكاتب الصحف منقلباً بين فنون البراعة بما هو بادي الآثار
في جرائدنا شاهداً على سعة معارفك وطول باعك في السياسة والمباحث العلمية
والمناقشات اللغوية والمنافسات الادبية والمدح والهجاء والتابن والثناء وحسن الرواية
واحكام طرق الاخبار والحكاية والتفنن في اساليب الجدل والهزل والعذل والرجاء
واللوم والعتاب والتوصل منهما بمناصحة اعلان الاحباب والمغازلة والمداعبة والحزن
والطرب وسائر فنون الادب وكليات الامور وجزئياتها على اختلاف احوالها وصفاتها
وهم نستوفي ذكر محاسنك ونستجمع بقية اوصافك واحاسنك انفس القريض
وقد كنت ابن بجدته وقائد نجدته مقتبساً مبتكراً مجيداً مؤثراً مرقصاً مطرباً
مخزناً مبكياً تلعب بالعقول بين الرقة والانسجام وتأخذ بالالباب على ابداع نظام في
نظم الكلام ام برقة جانبك في المعاشرة ولطف محاضرتك في المصاحبة ام بحسن
وفائك وجميل ولائك وبشاشة وجهك وكرامة طبعك

وهم نمثلك لدى العين في سجاياك ومناقبك ومزاياك ابالاداب وقد كنت
صحيحها من غير تصنع ولا رياء ام باخلاقك وطباعك وقد كنت حاد الطبع سريع
التاثر والانفعال غير حقود او حجود طيب القلب سليم النية عنبري الصيت مسكي
السمعة مستقيم الشأن رضي الخلق لا يتولاك الحسد ولا يملكك الطمع ملتئبها غيره على
ابناء جنسك عزيز النفس ايبها ظاهر السريرة نقيها انوفاً من غير كبرياء مقداماً
جسوراً لا ياخذك العجب ان الفوز واخيلاً حكماً ذكياً منبسط اليدين مهنياً
محسوداً على ما كان فيك من النباهة مشكوراً على ما كنت مفطوراً عليه من النزاهة

وهمَ نَحْنُ بعد ذلك من اثار حياتك سبباً للسوان وموجباً للعزاء اخطبك
واقوالك التي ذكرنا او صفات كمالك التي عددنا . نعم هذه اثارك في الادهار
تشهد على سعة علمك بغير بيان وهذه باريستك الحسنة ننتطق بحسن بيانك بغير
لسان وهذه رواية اندر وماك التي لو علم واضعها بما لبناك عليها من فضل التعريب
لا نبعت مطاطماً في موقف الاجلال لمقام الكاتب الاديب وهذه جرائد مصر
والتجارة والعصر الجديد والمحروسة والنقدم وغيرها مما جاء مطوقاً بقلائد فصاحتك
السجانية محلى بفرائد حكمتك اللقمانية وجاء معلناً انك لم تكن فيما اجدت به وابدعت
الا ايامي الذكاء اخطي الادب وهذه المؤلفات العديدة والمشورات المفيدة التي
اشتركت مع اربابها في التاليف والتصنيف فكانت دليلاً على اجتهادك وسعيك في
نفع بلادك . وهذه سوربة نفتخر بكونها مسقط راسك ومطلع شمسك وهذه مصر
تنافس بك الامصار وتفتخر بكونها مظهر فضلك ومحلى افكارك

وكيف يسلك اهلها وقد كتبت اليّ منذ سنة في احدى رسائلك تقول .
آه لو اري مصر نظرة اخرى في حياتي . وقد نك اربك وبلغت منك فحشيتها
ورايتها فاكرم امرأها وفادتك ماهلين بك مرحبين ثم نابت عنها على امل العود
اليها بعد الشفاء فخال واحسرتاه بينها وبينك الداء فكانوا عليك آسفين وبما ذكرناك
به ذاكرين

وكيف اسلك يارفيق الشباب وكنت ان نمت رايتك في منامي وناجيتك في
احلامي وان صحت رايتك الى جانبي وامامي وان تكلمت كنت موضوع كلامي
وان كتبت سبقتني الى ذكرك اقلامي

فمن اين لي بعد ذلك ان اصبر على عظم هذه المصيبة فيك ومن اين لي ان
ارى بعدك مثل الدرر التي كانت نثناثر من فيك قوا اسفاه على اوقات نقضت
بقربك وواحسرتاه على زمن كان به قضاء نجبك الزمن الذي كان يتوقع فيه ابنا
بلادك زيادة النفع باقدامك واجتهادك فتق وانت تحت الثرى اناديك حياً بذكرك
اني لا اسال بعد هذا الخطب صبراً قليلاً كان او جزيلاً فقد رايت به عين الحقيقة
امراً مستجيلاً ولكني اساله لوالديك واخوبك والك وسائر محبيك وخالناك

وكفى لتعزيتي ان لا اجد على فقدك من
يظن ان فؤادي غير ملتهب وان دمع جفوني غير منسكب

« للدكتور سليم افندي جليخ في تأييد نقولا افندي نقاش »

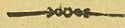
لقد وجدت مجال القول ذا سعة فان وجدت لساناً قائلًا فقل
 نعم وجدت مجال القول ذا سعة وارى المادة غزيرة ليخطب فيك الخطباء ايها
 الشيخ الجليل والفقيد الكريم . ولكن ارى بالوقت نفسه ان عامل الحزن سطا على
 الفؤاد فاضحي اللسان قاصراً عن ان يفيك حقه انت الذي عشت مدافعاً عن
 حقوق العباد

لما وفت منذ نحو ثلاث سنوات على اسف مني لتأبين فقيدكم العزيز يا آل
 نقاش الكرام بكيناه اوانثذ شاباً في زهرة العمر وبيع الحيوه * وبكينا في موته
 مستقبلاً منيراً كان ذلك الهلال يوماً ملنا به * واما الان فانا نبكي معكم شيئاً معمرًا
 او بدرًا كاملاً ونبكيه لانه كذلك * نبكيه لاننا فقدنا بفقدته رجلاً فاضلاً
 اذا عدت رجال الدهر يوماً فيحسب واحداً بمقام الفد

نعم قضى النقاش باقوم فنقش حزنه على صفحات القلوب كما سينقش ذكره على
 صفحات التاريخ * — قضى من كان مثلاً حياً للذكاء والقهم والعلم والهمة
 والنشاط والخيرة والاقدام * قضى من كانت نتطاول الاعناق لاستماع درر الفاظه
 عند وقوفه بين ايدي القضاة يدافع عن حق او يؤيد حقاً * قضى من كان
 خادماً اميناً لدولته ورجلاً عظيماً في امته

ايها المتوسد الان امامنا لا تبدي حراكاً مغلولاً بسلاسل الموت بعد ان
 كنت بقوة جنائك وسديد برهانك تحل قيود المعتقلين انسا نبكيك * نعم نبكيك
 ولسنا في النواح عليك بمفردين * — تبكيك الانسانية لامك كنت من نصرائها *
 يبكيك الوطن لانك كنت من رجائه الفيورين * تبكيك الطائفة لانك كنت
 عين اعيانها الصادقين يبكيك اصحاب المشاكل يامهد ضباب الامور . ويبكيك
 المتداعون لانك كنت عن حقوقهم من ابرع الحامين . يبكيك الطلبة لانك
 كنت لهم استاذاً من نخبة المعلمين . يبكيك ارباب الاقلام يانبراسها . ويبكيك
 اصحاب الاقلام يامصباحها . يبكيك الخطباء من اعلى المنابر والشعراء والبلغاء
 والقصحاء لانهم فقدوا بفقدك قسهم وسجبانهم يبكيك الفقراء لانك كنت لهم في

الحاجة ملجأ كريماً . يبيكك الادياب والظرفاء لانك كنت سيد الادب والظرف .
 ومعدن الرقة واللفظ . فلا نستغرب اذا رأينا اولادك وذويك يشقون عليك القلوب
 قبل الجيوب ويزرفون عليك الدم عوض الدمع . لاننا نرى ان كل من عرف بخطبك
 يشاركهم في البكاء والنواج . على اننا نعلم بانك لم تمت حيث خلفت من بعدك من يخلد
 لك الذكر الحميد . نعم خلفت اولاداً اشربتهم العلوم والاداب وريبتهم على مثلك الكريم
 وتوكت لهم من الصيت الحسن والشهرة الطائرة ما يبقى لهم ذخراً في مستقبل الحين
 وابقيت لهم اصدقاء من خاصة القوم يشاركونهم في السراء والضراء لذلك انت خدعتهم
 مدى الحياة وبعدها مات وهذا ما يسليهم ويخفف وطأة الحزن عليهم فم آمنة مطمئناً
 ولتسكب السماء على ضريحك غيوث الرحمة والرضوان . ولتسكن روحك في فسيح
 الجنان . وليبق ذكرك خالد على كرور الزمان



« لعزير افندي صعب في تابين الشيخ خليل اليازجي »
 رنة الخطب

الموت نقاد على كفه جواهرٌ يختار منها الجياد
 حمل الدهر علينا فلا ندري انى ننقي فتكات سهامه . وماربنا الزمان فلا نعلم
 كيف ندفع عنا نوازل احكامه . وتوالت علينا الارزاء الوطنية فلا نسلو رزوا الا
 وتفاجئنا الايام برزء اشد يسيل له الجمد . ولا نصبر على خطب حتى تزوعنا يخطب
 ائتك يتفطر منه الفؤاد فانما هي الدنيا تسترد ما تهب فباليت جودها كان بخلا .
 فهي مشغوفة بالعدر لا تحفظ لنا عهدا ولا نتم وصلا . فقد سلبتنا اعلاماً ترضن بامثاله
 الاعصار . واحادا يعدون بالاف من الرجال لا يشق لهم غبار . وحرمتنا جهابذة
 كان وداعنا لهم تبا وابتزت منا افرادا كان سلام الدهر عليهم وداعا . فكم جلوا
 بكلامهم الابصار العلية وشحدوا برقيق معانيهم القرائح الكلية . وكم نهجوا لنا الطريق
 الواضح . واما طواع وجه الحقائق غشاوة العمى الفاضح . نزلت بهم المنون في معمعان
 الشباب وريعانه . وخيم عليهم الموت عند شدة افتقار الوطن اليهم وابانه . ولو امسك
 الدهر على هذا القدر من الرزايا الجسام . والبلايا العظام . لصبرنا على خطوبه

وان كانت امر من الصبر . واحر من الجمر . ولكنه انبثق علينا انبثاق السيل . واندفع
 اندفاع القضاء المنقض بصواعق الويل . فتشكلنا من نقوض لهول . مصرعه اركان العلم
 والادب . وغيضت لثغوب منهله مشارع الفصاحة والخطب . فهو خطب خفقت له
 القلوب . وشقت عليه الجيوب . وخبر تهذبت به في الافواه لسن الفصحاء . وتعثرت
 في مجال الطروس اقلام البلغاء . ومصاب استكت له المسامع . وارتجت له الاضالع
 فالدموع واكفة . والجوارح واجفة . ولو يفتدى الراحل لفتته منا الاحشاء والمهج
 ولبدلنا من دونه كل نفيس ولا حرج . كيف لا وهو سليل بيت العلم والنباهة .
 وفرع شجرة الادب والوجاهة . الشاعر المطبوع والكاتب التحرير المغفور له الشيخ خليل
 اليازجي نجل من صار صيته في الافاق . وطارت شهرته حتى كادت تبلغ السبع
 الطباق . استأثرت به المنية رطب الشباب . غض الاهاب وقد ملأ الاسماع والقلوب
 فمن الفاظ خيطة على قدود المعاني . ومعان مبتكرات قد تجلت في ابهى من السندس
 من فصيح المباني . واسفار علمية وروايات شعرية . وقصائد قامت على منابر الفتها
 خطباء البلاغة . وصدحت على اغصان سطورها حمائم الفصاحة . فكان لا يمر علينا
 يوم لا نرى له في عالم الادب وشياً جديداً . ولا يجتاز بنا حين لا نسمع له في مجالس
 العلم ذكراً حميداً

فيالك من فقيد قضيت شهيد المحابر . وعزيز مرت بك الكوارث فكنت عليها
 صابر . فهل لنا كلام يفي بتعديد رثائك . ولسان يقوم بحاسن ثنائك . فلو كنت
 في موقفنا هذا الحرج لكان لك ما نتمناه . ولكنه واحر قلباه . لقد نزلت حفرة اعظم
 من يوم الكرب . واحرج من فناء القلب . واقفر من عيشنا من بعدك . واوحش
 من انسنا بعد بعدك . فاصبحت بعد النضارة ورونق الحياة جسدا هامدا . ورفاتا
 سحيقاً ونفساً خامداً . فاحرص عليه ايها الرمس حرص الايام على اثاره وارحمه رحمة
 القلوب لشبابه . واعلم ايها الراقد رقدته الابدية بان ليلنا بعدك قص جناحه . وظفىء
 مصباحه . وذل صباحه

فكيف رياض العيش تبسم بهجة وترجو حياة بعد ما هلك القطر
 وكيف برجى الليل بعدك آخرأ وفي ظلمات الارض قد دفن الفجر
 لولا انك صبرت قبلنا على مثل ما نرتاد به صبرا جميلا لانقذنا عليك ماء
 الشؤون . واجر بنا العيون من العيون . اللهم ارحم غربته . وانس وحشته .

واجعله من منزلك مقرباً . ومن لذنك محبباً . وجلله بعفوك الكريم . واكفنه ببرد
 النعيم . انك الرؤوف الرحيم
 اما انت ايها الشيخ الفاضل (١) . والامام العلامة الكامل . فقد عرفت اليبالي فلما
 دهتك لم تزدك بها علماً وسبرت غور الايام فلا تحشى لفتكاتها سهما . اجل ان
 الخسر لعظيم عظيم ولكن العظيم على العظيم صبور . وانت اعلم الناس بان الدنيا
 غرور . ودار الشرور . ولعل هذا السهم اخر ما في كنانتها . وانكى ما في خزانتها .
 فلا اراك الله بعده سوءاً تنظر له الا كباد . وينصدع له الجمد . ولنا بك التعزية
 اذا كان لا بد من التماسي على فراق الخليل . وبجيب الرجاء الوطيد ان يقيم بعد
 ايده الذكر الجليل . والله يلهمك وايانا الصبر بمنه وفضله . وپيل ثرى الخليل
 بصيب رضوانه ووبله . انه سميع مجيب

٦

« ليوسف بك اصاف (٢) في تأييد احمد افندي فارس صاحب الجوائب »

خطب جليل

كذا فليل الخطب ويفدح الامر وليس لعين لم يفض ماؤه اعذر
 نحن اليوم في موقف حزن ورتاء . ومقام نوح وبكاء . لمصاب عظيم . وخطب
 جسم . يقل في مثله ذرف الدموع . ويكثر في نظيره تمزيق الضلوع . كيف
 لا وقد تل عرش الفضل . ودك طود العلم والنبل . وغاض معين البلاغة . وقضى
 مثال الادب ومات قس الفصاحة . فعمت الاحزان واستولت الكرب . وشملت
 الاشجان . جميع الاثدة والقلوب

جاءنا نعي وفاة « فارس الزمان » بلسان البرق منبهاً بانتفاض المنون عليه
 دون ان ترحم قلباً يتمزق . وشمل رجاء يتفرق . فاسترسلنا الى الكآبة والعتاساء .
 والحزن والبكاء . باكين ولكن بكاء الخنساء . على زوال مثال الشهامة وانهدام

(١) يريد اخاه الشيخ ابراهيم اليازجي العلامة الشهير

(٢) كان يوسف بك وقتئذ متولجاً ادارة جريدة القاهرة الحرة وتحريرها في

القاهرة وما يأتي منقول عن عدد ٥٢٣ و٥٣٤ منها

علم الكرامة

فضى « واحسرتاه » المغفور له (احمد فارس) مأسوفاً عليه . من الادب وبنيه . والفضل وذويه مات ولكن ذكره لم يميت مادامت الارض ارضاً . والسماء سماء . مات (واسفاه عليه) عند الساعة الثامنة من ليل ٢٠ سبتمبر في الاستانة العلية بين ذراعي نخله السليم وما اتصل نعي وفاته بوجهاء الاستانة وعظماؤها حتى هالهم الخطب وشملهم الكرب . وسكبوا على فقدته الدمع سخياً واي امره لا يذرف الدمع عليه صيباً . ولا ينفع بكاء ونحيباً . وقد كان شعلة الذكاء ومثال الولاة . واسع الاطلاع . طويل الباع . في العلم والادب . حر الضمير صحيح القاعدة . كاتباً مشهوراً طائر الصيت ولغوياً عالماً فاضلاً . قوي التصور . حاد الذهن . فضى العمر بين الموائد والمحابر فالف وصنف كتباً نفيسة جليلة الفائدة . جزيلة العائدة . منها (سر الليال . في القلب والابدال وهو يحتوي على تبين معاني الالفاظ وانتساق وضعها . وكتاب الواسطة في احوال مالطة . وكشف الخباء عن فنون اوروبا والجناسوس على القاموس) وكتباً كثيرة في النحو العربي والصرف . وفي اللغة الانكليزية والفرنسوية مما يضيق المقام عن سردها

وجاء القطر المصري على عهد ساكن الجنان عباس باشا فتولى تحرير الوقائع المصرية واقتن قراءها ببلاغة اقواله . وفصاحة الفاظه . فانه كان طلق اللسان . متوقد الجنان . واسع المعارف . طويل الباع في السياسة والمباحث ولما بارح القطر المصري تسوح في تونس وباريس ولندرة وجملة اقوال وصف بها اطوار الفونسيس وطباع الانكليز وشهامة العرب . وتم اقام في الاستانة العلية فانشأ فيها الجوائب عام ١٢٧٧ هجرية وتقلب في كتابتها بين ضروب البلاغة . وصنوف الفصاحة . فولع الناس بقراءتها وعلقوا بمطالعتها فتهاقوا الى الاشتراك بها . مقبلين عليها اقبال الجياع الى القصاع . فانه كتب في جميع المواضع احسن ما يحظ ويكتب . وقد كانت عبارته تنطلق بين الرقة والانجام فتفتن الالباب وتلعب بالعقول على ابداع نظام وكان العظماء والوجهاء يتباهون باقواله ويتفاخرون باشعاره و يعجبون بالفاظه واي اعجاب والحق يقال انه خدم العلم وفن الانشاء في الجوائب خدمة جليلة تجلده الاثر

الجميل والذكر الحسن ما كرت الايام . ومرت الاعوام . فكم له من الاقوال النفيسة
في اللغة والسياسة والمدح والثناء . والجد والهزل . واللوم والعتاب والحزن والطرب .
وسائر فنون الادب عدا عن قصائد غراء . ومنظومات عذراء . جادت بها قرائح
الافكار فكانت درة تيممة بين القهائد والاشعار

وجمل القول ان جميع ما فاه به ونطق وجاء مسطوراً على صفحات القرطاس كان
مطوقاً بقلائد الفصاحة . معرباً عن فرائد الحكمة . وجميع مؤلفاته العديدة وكتبه
المفيدة جاءت دليلاً على سعيه واجتهاده في نفع بلاده

وله خدمات جليلة قام بتاديتها نحو دولتنا العلية بكل صدق واخلاص فاستحق
بذلك ان يكون اهلاً لاسمى نياشينها الافتخارية وقد خدم افكار رجال الدولة العلية
في سائر كتاباته السياسة ولم يبخل بارائه السديدة عند كل ممة كانت تحدث في
الولايات (المحروسة) فكان في جميع المعضلات يصف الدواء للداء غير خاش في
الحق لومة او ملتبس بمظاهر الخداع والمخاتلة

وكانت جرائد باريس الخطيرة . وحف لندرا الشهيرة . تأتي بذكره كثيراً .
في اغلب اقوالها عن سياسة الشرق مستندة في آرائها عليه . مقدرة اياه حق قدره .
فتصفه بالسياسي المشهور . والاخباري الطائر الصيت . والكاتب اللوذعي الفاضل
وغير ذلك من الاوصاف التي لا تلبق الاله ولا تجدر الابه

وكانت منزلته عند كتاب الصحف في اوربا وعلماء الغرب والشام ومصر والعراق
ونجد وبغداد سامية جداً فمدحه جميع الشعراء . واثني على فضله جميع الخطباء . والبلغاء
من سائر البلاد العربية حتى من افاصي الهند وبلاد فارس

وكان كريم النفس ابها رضي الخلق لا تاخذه الحدة عند الغضب . ولا يتولاه
العجب . عند امتلاك الارب . لين العريكة طليق الوجه . محباً للغير وفعل المبرات
ميلاً الى المساعدة والاسعاف وما من قادم الى الاستانة كان يقصده في قضاء لبانة
ويعود خاسئاً خائباً

فوا اسفاه عليه . نعي الينا البرق وفاته فكان نعيه رنة حزين في القلوب . اورثت لنا
الكهد والكروب . فاين نوادب الفصاحة ترثيه . وعرائس البلاغة تبكيه . وتباً لموت
كبهف لم يوقر شيخنا الجليل . وعلنا النبيل . فاقترب منه واخفى عليه دون ان
تاخذه هيبة من وقاره او ترهبه هيمة اجلاله . كيف مسه باصابع الاذى . الاشلت

يداه كيف اختطفت من كان لعين البلاغة قرة . وللفضل والعلم فرحة ومسرة . على
حين ما كنا نخال انه دام عماد الفضل وانزواء الانجم الشهب

ما خلت ان عماد الفضل ينهدم حتى قضى الرجل السامي الذرى العلم
والهفاه . كيف يوارى التراب شخص الكرامة ومثال الشهامة فان واره لا
يوارى معه طبيبات اعماله المشكورة وآثار فضله وغيرته المأثورة

ما كنت اعلم قبل موت فقيدنا ان القبور منازل الاقمار
غير ان تحت الارض رجال فضل ونبل وفي القبور درر وجواهر
فالموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الحسان

✽ ولد هذا الخبر العلامة ✽ في قرية (الحدث) من اعمال لبنان ولم ينقطع
عن الرضاع حتى ظهرت عليه مخايل النجابة ولما ترعرع ادخله والده مدرسة (عين ورقه)
فتلقى العربية ونبغ فيها حائزاً لقب السبق على اقرانه وما بلغ العاشرة من سنه
حتى اشتهر في نظم القريض وكان فكره دائماً يحوم على الشعر ويتصدى لنظم كل ما
يخطر بباله من المعاني ولما حضر الى مصر تعرف بالاديب البارع نصر الله افندي
الطرابلسي الحلبي والشيخ محمد شهاب الدين فلازمهما واستفاد منهما فوائد حمة في
اللغة والادب . ومدة اقامته بمصر طالع كتاب (صحاح الجوهري) وديوان المعني
وكتب مشاهير العلماء فاقتبس منها اختيار الالفاظ وسبك العبارة . وكان ولوعاً
جداً بقراءة الشروح التي تبين ماخذ الكلام من اللغة . ووجوه التصرف فيه ومن
وفرة المطالعة استطاع في وقت قريب بما فيه من توفد الذهن على تصوير معان في الفاظ مناسبة
فانصب على الشعر وكان يستعمل في الغزل الفاظاً رشيقة فائقة . وفي الحماسة الفاظاً جزلة فخمة
وفي الرثاء الفاظاً محزنة تاخذ بمجامع القلوب وتنطوي على سبك المعاني في قوالب الفاظ تشف
عن بلاغة تخیلها انواع البديع كالجناس والترصيع والتورية دون كلفة . وقد نبغ
في جميع فنون الشعر واشتهر بالحماسة والغزل . والمدح والهجاء . والمجون . وباتي
العلوم . كالنحو . والصرف والاشقاق والمنطق وهذه مزية ما امتاز بها احد من
العلماء قبله . وله جملة قصائد في التطريز والتشطير والتخميس والتسميط وحبك الطرفين
في غاية البلاغة والانسياب فضلاً عن انه كان في النثر كاتباً لودعياً

هيئات ان ياتي الزمان بمثله ان الزمان بمثله ليخيل

بليغ العبارة فصيحها يكسب الالفاظ فخامة وطلاوة والمعاني دقة وانسياباً وقد كان

طويل الباع في احكام طرق الاخبار والتفنن في ضروب الحكاية وما من علم عرف
 في زمانه . حتى بذل فيه جهد امكانه . فجعله محور عمده . وقبلة قصده . فسهل
 حزنه . ووطأ متنه . وصاد شوارده . وقاد اوابده . وصفا مواردہ . ووفى مقاصده
 وفتح ابوابه . وراض صعا به . واكب على التأليف في الايام والليالي . متفنناً في الكلام
 ناظماً منه عقوداً كاللآلى . فيارحمه الله على رجل الفضل . وطود العلم . ونجم الادب
 الآفل . واليف المجد الراحل . فقد كان ريحانة العرب في مصر والشام . والغرب والعراق
 وسائر البلاد العربية . ولا بدع ان الشرق قد خسر بفقده اعظم عالم وافضل كاتب
 فباي لسان نقي حق رثائه . واي يراع يستطيع القيام بواجب تايينه . ام اي كاتب
 سريع الخاطر قوي التصور واسع الاطلاع ياهل الى رثاء (فارس الجوائب) . فليس
 من يستطيع على القيام بهذه المهمة الا من هبطت عليه اسرار بلاغته . واعطي منحة
 يراعه . وبرع في الترسل والانشاء . وفاق سواه في سائر الانحاء . ولكن هيهات ان
 ينبي فقيدا حقه (والهفاه عليه) خسرناه نخسرننا شخص حكمة ووقار . ورجل دراية
 واختبار . فلنبيك بكاء الخنساء وما استطعننا سبيلاً الى البكاء فليبيك الامراء والكبراء
 والعلماء والخطباء . فليبيك الشعراء والكتّاب والبلغاء والقصحاء . فلنبيك الانسانية
 وبنوها فليبيك الافاضل والادباء فكان لهم عوناً كريماً . ولنبيك بكاءً مراً كلما
 رددنا ذكر الفضل والادب . واسم الحسب والنسب . فعلى مثله يحق البكاء باستمطار
 دمع العين . وفي فقده يطلب الاثر بعد العين

وله فيه

(نثمة رثاء)

حتى مَ تمطر علينا الكروب . وبلاً مدراراً . والى مَ تضم في الاحشاء والقلوب
 ناراً وناراً . (فواسفاه) ما هذه البلية . انها ليلية ضحوك . وشر البلية . ما يضحك
 (ووالهفاه) ما هذه الززية . لا شك انها ززية سكوت وشر الززية . ما يسكت
 اختطفت منا يابيين من كانت تتفاخر به الاوطان . وتسير بذكرة الركبان وهدمت
 فينا يا موت من شاد له في صروح العلوم ذكراً وكان للمعارف والاداب ركناً الا شلت
 يدك التي ثلت عرشه وقوضت ركنة والان اي قلب لا ينفطر على عرش البلاغة
 الذي اندك . واي دمع لا ينهمر على عقد الامل الذي اتقك . فلا شك ان لا يوجد

قلب لا يتوجع وفؤاد لا يتفجع على زوال فارس الزمان الذي مضى فخلق لنا حرقة
 تذيب الفؤاد . ولوعة تغلذ الالكباد . فياعين استنزفي من جفنك الدموع . ويا بني
 الاداب الزموا النوح وهاجروا الهجوع . مات (فارس الفصاحة فبمن عدمت ثقنتون
 ومضى قس البلاغة فاقوال من عدمت نقرأون . ذهب الفارس وقضى . وكان في علو
 الهمة ومضاء العزيمة . والتهالك على حب الانسانية مثلاً به يقتدى . فيافقيدنا المحبوب
 الذي عشت عزيزاً ومت كرمياً تودعك الاداب بطرف باك والعلوم بقلب شاك تودعك
 البلاغة بعبراتها والفصاحة بعبراتها . تودعك الموائد والمحابر تودعك الصحف والتأليف
 يودعك التحرير والتجدير تودعك الاقلام بصريرها وحزن نقشاتها
 ومضى ذكرناك . نذكرك بحسن اثارك . ورقة طباعك وفصاحة الفاظك . وسحر
 بيانك . وعلو هممتك ودمانة اخلاقك . وكرامة طبعك . وحسن خلقك واتضاعك
 ودعتك وسلامة ظويتك

غير ان في القلب حسره . وهي انك مضيت ولم يعد مطمع في لقياك . فقل
 الصبر وضاعت الحيلة ولم يبق فيها مطمع . ولا في قوسها منزع
 فيا رحمة الله اهطلي على رسمه . وصبي على قبره . ويارب اسكنه فسيح جناتك
 وتغمده برحمتك ورضوانك

تهاني

« لسعيد افندي الشرتوني في تهنئة غبطة السيد يوحنا بطرس الحاج »
 « بارثقائه المقام البطريركي على الامة المارونية سنة ١٨٩٠ »

الحمد لله الذي جبر الخواطر بعد انكسارها ورد الى القلوب الاطمئنان عقب
 اضطرابها وكفكف الدموع بعد انهما لها . انعم علينا وله الحمد بحري ان يكون
 خلفاً للسلف الطيب الذكر الحميد الاثر . جذير ان يكون راس طائفة كبيرة . كفوء
 لان يجيء بما يوازن الاجماع على اختياره . وهذا الخلف الصالح هو من اشراقات

حكمة الفقيه بل صورة مشربه ومثال نزاهته الا وانه قد صعب السنين الطويلة وشاركه
 في امور جليلة وهو ممن اتاهم الله فكرة وقادة وبصيرة ثاقبة تقادة وممن محصتهم
 حوادث الايام حتى صاروا خلاصة صافية وجردهم الزمان عن تغرير الخيالات حتى
 اصبحوا حقيقة محضة وحكمة بجمته ومن ثم تناعتته الناس عوامهم وخواصهم باصالة الراي
 وتواصفه بشدة العزيمة لانه اراهم من الشهامة المكللة بالفوز في شؤون عديدة . ما
 كتب له ذلك الوصف على الواح قلوبهم ونصب له تلك الصورة امام عيونهم . فخبذا
 هو من بطريرك بعد غرض مقامه العالي قاعدة اعماله ومرمى مساعيه ووجهة عنايته
 ومن عرف غبطة بطريركنا الجديد كما عرفته علم انه ممتلىء الارادة لاجابة دواعي
 المقام شديد الميل الى ان يلبى طلب الايام بل رأى فيه رجلاً رسولياً احب ما اليه
 ان يتفانى في النهوض بما ينهض بلاده ويعزز شأنها ويجعل الصدق سيد اخلاق اهلها
 وهذا ماضيه في الاسقفية يشير الى منافع مستقبله في البطريركية . جعل الله عهده
 فيها طويلاً ذلك لان شغفه بتقدم العمران وهيامه بحب المملكة العثمانية يدعوه الى
 ان يفتح عيون قومه واهل بلاده على رعاية شرائع المملكة ونظامها ويبين لهم عظم
 النجاح المترتب على حفظها حفظاً صحيحاً لا حفظاً مموهاً فان سعادة كل مملكة انما
 هي ثمرة احترام شرائعها . ومما ينبغي ذكره بالشكر انعقاد قلوب السادات المطارنة
 الاجلاء على ايثار المصلحة واجتماع كلمتهم على معاونة غبطته وتأييد فكره في جميع
 ما يعود على الناس بالنجاح وكفى بهم عزاً وشرفاً انهم اعطوا العالم بهذا
 الانتخاب بينة قاطعة على انهم يصونون مشربهم العام ولا يتركون لاحد سبيلاً ان
 يغض منه وكان لسان حالم ينادي ان بطريرك الموارنة ومطارنته انما هم اعوان مصلحة
 واحدة ورجال مشرب واحد وليس في مكنة اعظم دهاة الارض ان يفرق بين تلك
 القلوب المجتمعة على الخير المتعاقبة على تعزيز الحق . المتعائمة على خفض الباطل ومن
 هذه الجهة صار لكل منهم نفوذ رئيس الامة برمتها بل كان كلا منهم قد صار
 بطريركاً ولا غرور فذلك ثمرة الاتحاد في الراي وتتيمة الاتفاق في المشرب وسيكون
 عهد هذا البطريرك الجديد ان شاء الله مظهر حكمة عالية ومشهد امور جليلة يحفظ
 لها التاريخ اشرف تذكور ويخلد لصاحبها واعوانه المطارنة اجل الاثار
 ففنيه مطارنة الطائفة الاجلاء واكبرها ووجهاءها وكل واحد منها . فنيه
 افاق البلاد بهذا السيد المغبوط الذي يعرف من يستعمل وكيف يميل . ثم نقول ابشر

ايها المقام العالي البطريركي فقد تصدر فيك من يحيي كرامتك ويبين علو نفوذك
ويرشد الرعية الى طريق ما يتفونونه . ثم اهنتك ايها السيد البطريرك بانك قد وجدت
مجالاً يسع هممتك ومقاماً يكافئ فخوتك وطائفة كبيرة يتفاخر رجالها باثتبار امرك .
اطال الله خير البلاد ايامك وضرب على اهلها يدعائك سرادق الامان . في باحات
الخصب مدى الزمان



٢

« وله في يوبيل سيادة المطران يوسف الدبس رئيس اساقفة »

« بيروت على الطائفة المارونية في ١٩ اذار سنة ١٨٩٧ »

« غلا . العمر ورخصه »

ليس لدى الخطباء في هذه الحفلة الشريفة الا موضوع واحد موضوع التهنئة لهذا
الحبر الفاضل باليوبيل الفضي الاسقي الذي اقترحه له علينا جلائل آثاره ونقاضته
منا بواهر اعماله فلا تحسبن من ثم ان ما يقوله الواحد هو في معنى ما يقوله كل من
عداه اقتراض اننا نخرج الكلام بصورة واحدة او بصور متشابهة حتى اذا سمع السامع
خطبة كان كأنه قد سمع سائر الخطب او أنشد قصيدة كان كأنه قد انشد سائر
القصائد فتأخذ السامة سلفاً فيصير مثله بعد الخطبة الاولى مثل من نقص عليه
قصة ثم تعادله مرة في اثر مرة او مثل من يجلس الى المطرب سمحاً بيومه ولا يسمع
منه الا نغمة واحدة فان كانت في الحلاوة كالعسل تعود في المارة كالصبر

ولكن ليس الامر يارعاكم الله بهذه المثابة بل نحن وهذا الموضوع كاصناف النبات
في الارض كل نبت يأكل من ثراها ويشرب مما يقع عليها من ماء السماء او يجري
اليها من مياه الينابيع لكن كل نبت يجيء مختلفاً عن الاخر ورقاً وثمرًا وطعمًا ذلك
ان كلا يجيل غذاءه وشرابه الى طبيعته فكيف التفت ترى الشواهد ماثلة ناطقة بما
قلت ترى العين والزيتون والصنوبر والورد والقلام والحنظل والعوسج في البقعة الواحدة
وليس منها ما يشبه الاخر بل ترى لكل ما يميزه عما عداه كذلك الخطباء والشعراء
اليوم كل منهم يجتذب هذا الموضوع السائق بما فيه من الرفعة للعلم والفضل من الجهة
التي يراها اشد تأثيراً في طبعه واقرب من سواها امتزاجاً بهواه واعلى من غيرها قيمة

في عينه واغلى مما عداها ثمتاً في نظره وكفى بهذا سداً لباب الملل وان طال عليكم
وقت الاحتفال بل ياخذنا هو من معرض فكري تعرض فيه على الاسماع بضائع
الافكار وبدائع الازهان فيكتب لشعر هذا العصر وخطبه حكم الفضل على ما كان
يعرض في سوق عكاظ ومربد البصرة من قصائد المفاخرات بما هو دون ما تفاخر
به في هذا اليوم من انتصار الفضل، والعلم وابتسام تغور المجد والجاه لها واهتزاز المنابر
وتهلل الكنائس شكر الله على ما آتى عبده الامين من النعمة حتى تقضى عليه ٢٥
سنة في رئاسة اسقفية بيروت منقطعاً للاشتغال بما يهذب الاخلاق ويصلح الاحوال
فجعل بعون الله في هذه المدة ما ينفذ الزمان ولا تنفذ منافعه وجدد بهذا الصنيع تذكرك
ما لرجال الله من فضل السبق في كل محمدة وماترة وانطق الجميع بالترحم على حجة
المورخين الطيب الذكر البطريك بولس مسعد لتقليده اياه زمام هذه الاسقفية فانه
اتم بل زاد كثيراً على ما كان في نية سالفه الحميد الذكر والاثر المطران طويبا عون
الشهير رحمه الله عداد حسناته واجزل ثوابه على مقدار مبراته من المشروعات العظيمة
وزاد في جمال ايام ذي الهمة العالية والعزيمة الماضية قطب احبارنا الاجلاء ايونا
المغبوط البطريك يوحنا الحاج الذي لا ريب انه اليوم يرتاح الى ما تقيمه ابرشية
بيروت من شواهد التكريم للديانة الكاثوليكية والمآثر العلمية والادبية وزين عندنا
ايام حبر الاحبار لاون الثالث عشر فريد هذا الزمان من حيث جرى في تعزيز
الاداب والفضل والنصح عنهما على نحو ما صدعت به المناشير البابوية واقضته
الحكمة اللاونية

وبعد فلما طالبني حق الفضل ان انتظم في سلك المهنيين رأيت ان خطبة لا
ينتفع بها بعض الجمهور انما هي خطبة يقتصر فيها على تعديد آثار سيدنا صاحب
اليوبيل التي ضارت في اشتهارها عند الخاص والعام اشهر من نار على علم ومتى كانت
الخطبة من جمهور السامعين بهذه المنزلة كان الصمت بالخطيب احرى واجدر فتخيرت
لي موضوعاً يحلو لاي من سمعه ويفيد اي من تأمله بل تغزر الخيرات لكل من عرفه
عقلاً وجرى عليه فعلاً وهو الامر الذي لا ريب ان صاحب اليوبيل يراه كشفاً
لما هو خفي من الاسباب الداعية له الى ما صنع ويضع بما لا يطالبه به مقام الاسقفية
فيرضى به رضى المنغز بل لغزه هو الامر الذي تنبه له ايام صباهه وجرى ولم ينفك
جارياً عليه كما جرى الريكايون على وصايا ابيهم يوناداب (١٨:٣٥) هو الامر

الذي استوجب له هذا العيد الفضي واجرى له فيه من غرر النثر والنظم سيولاً
كذا قام في ذهني ولا بدع فمن احب شيئاً بالضرورة يكون قد رآه الحسن الجميل
لكنه بعد ان يعرض عليه كثير من افراد ذلك النوع وانواع ذلك الجنس قد يرى
اجود مما استجد واحسن مما استحسن

فتقوا سادتي انه سيكون لبصائركم الوقادة اليوم من خطب الخطباء وقصائد الشعراء
مع تواردها على موضوع واحد مشهد بديع هو في اختلاف وجوه المعاني وصور ادائها
وتشعب طرق التشبيه والمجاز فيها بمثابة هذا المشهد الحافل في اختلاف وجوه شاهده
فتبدو لكم جنة مشتملة على افانين من ازاهير النثر والنظم طيبة العرف حسنة
الالوان قد اهديت الى من رفع قدر الادب بادابه واكرم مقام الفضل بفضيلته فتحصل
لكم بذلك لذة الاستماع وللشعر والخطابة حظ من الانتعاش بحيث يتميز الذهب من
الشبه وصهباء البلاغة من درري التبالغ سنة الله في كل ما يقبل عليه اكابر العصر
واصاغره

وان قلتم كفى فقد اطلت علينا كما اظال موسى على قومه قبل ان يدخلوا ارض
الميعاد فقد عيل صبرنا اشرع فيما تحيرت الكلام فيه اما ترى الشعراء من حولك يتزاحمون
نعم ارى منهم بقدر ما ارى من فضائل صاحب اليوبيل — واما قولكم ارض المعاد
فهو منطبق كل الانطباق على موضوعي لانه يدر لكم لبن الخير وعسل اللذة واسمحوا
لي قبل ان اصرح باسمه الحلو ان اشير اليه ايضاً اشارة تريك خطارة شانه وغزارة
نفعه منشداً بيت ابي العلاء الماري

واضيع اوقاتي بغير ندامة ويفوتني الشئ اليسير فاندم
وبقول آخر

ليس من الخسران ان ليالياً تمر بلا نفع وتحسب من عمري
وقول آخر

اذا مر بي يوم ولم اتخذ يدأً ولم استفد علماً فما ذاك من عمري

واما اسمه الحلو العذب فهو عمر الانسان اي مدة حياته في دار الدنيا
تعلمون رعاكم الله ان العمر ظرف بمظروفه يغلو ويرخص وبما وعى يطيب ويخبث
وبما حوى يشفي ويمرض وبما القى فيه يهدي ويضل حتى يقال ما ارخص عمر عمرو
وما اغلى عمر زيد وان كان من بلد واحد في عصر واحد في مقام واحد وما اطيب

حياة هذا وما اخبث حياة ذاك وما انفع حياة فلان وما اضر حياة فلان فانغى الناس
 عمراً واطيبهم فيه اثرًا واشفاهم لادواء الجهل واردهم للناس عن سبل الوبال انما هم
 الواقفون على منابر التعليم والتذكير آخر الدهر انما هم اولئك الذين بقوة ما ابقوا من
 غلات اعمارهم يسودون من على ظهر الارض وهم في بطنها ويرشدون سكان القصور
 وهم رهائن القبور الا قولوا اين سطوة الاسكندر اليوم من سطوة ارسطو واين غلة
 عمر الاسكندر من غلة عمر استاذه الفيلسوف قد ذهبت اثار ذي القرنين بذهاب
 حياته . واما اثار الفيلسوف فلم تذهب ولن تذهب بل تطاول الدهر عمراً

قولوا لي يرحمكم الله هل من احد يعدل عمر المطران جرمانوس فرحات الذي اذكي
 مصباح العاوم العربية بين اهل النصرانية وزين الكتب البيعية بحلى الفصاحة بعمر
 من عاصره من الرهبان والاساقفة في خلال القرنين ١٧ و ١٨ وهل بقي من غلة حياة
 جميع معاصري علامتنا المشار اليه ما يذكر في جنا ما ترك من كنوزه العالمية
 ومصابحه الادبية كلاكهم ماتوا واندرست اثارهم وانطوت اخبارهم ولكن جرمانوس
 حي لا يموت ولا يبرح طائر الصيت في مشارق الارض ومغاربها
 ثم اين اعمار معاصري سماعينا امير العلماء شرقاً وغرباً من عمره خصباً وطول
 امد وخلود فائدة

فاذا تقرر ذلك انكشف لكم الستار عما حمل خبرنا المفضل على الاشتغال في
 معظم ما يبقى له من الوقت بعد قضاء اشغال منصبه بالتعريب والتاليف وذلك من
 لدن كان في معية الطيب الذكر المطران بولس موسى مطران طرابلس الى ساعتنا هذه
 وعلمتهم ان الحامل له على ذلك امران احدهما معرفة ثمن الزمان الذي لا يسترد فائته
 مع النظر في عاقبة من تقدمه من اهل الفضل وارباب التاليف وما افاضوا به على
 الخلق من الفوائد التي لا تحيف بنايعها وما جلب لهم صنيعهم من علو المكانة في الصدور
 وحياة الذكر في الدنيا اذ خلفوا من نسل حكمتهم وذرية علمهم مما تنقرض امم ولا
 ينقرض والاخر اعتبار ان الامساك عن العمل محل في النفس بل موت فانما النفس
 عمل كما سماها الفلاسفة فهذان الامران هما اللذان قد صيرا هذا الخبر رجلاً كبيراً
 وعالمًا جليلاً اذا ثارت عليه نائرة حملت عليها جيوش اثاره فاخذت نارها . واطفأت
 شرارها

ايها الخبر العلامة لك اقول الان قد احسنت معرفة قيمة الزمان حتى حرصت

على فضلاته ان تذهب سدى فانقطعت فيها للتاليف تهدي الى الناس علماً ورشاداً
او يجلب لنفسك عندهم فخراً وعد الله اجراً لها قد احسن الزمان معرفة قدرك واشهد
على نفسه في هذا اليوم من في هذه المدينة الزهراء من ممثلي الدول العظيمة وممثل
من له رعية في كل مملكة وجمهور الفضلاء والعلماء والادباء انه معترف بانك بيضت
وجهه وطيبت ذكرك واجزلت فوائده ونشرت اسمه وابعدت وصمة الخمول عنه اذ قبل
جهل الفتي عارث عليه لنفسه وخموله عار على الايام

وانه مقر بانك من اشخ اهله به لتكون من اسخام على بني الانسان بما تجني فيه
من ثمار العلم وتغرس من جنة الفضل فيا لله الزمان ما انصفه اذ كانما بما يصنع في هذا
العيد يثيبك ايها الخبر الجليل على ما رفعت شأنه وميزته عن الوف من اقرانه بان
يجعلك جوهرة في تاجه وقدوة لابنائهم تعرفهم ان الزمان اغلى من كل كنز وان انفاقه
فيما يرضي الله وينفع الخلق هو الفخر والخير وصرفه في نقض ذلك هو الهوان والشر—
هذا وفي الختام اسال الله ان يعطيك من العمر على قدر معرفتك لقيمته ويجعل يوييلك
ابقاظاً اللهم النائمة واعظم صارف لادبائنا عن قضاء الزمان فيما لا ينفع الى قضائه فيما ينفع
وان يرغب طلاب المدح في صنيع ما ينطق به الناس بمدحهم عفواً بلا طلب وصدقاً
لا كذباً

م

« لسليم افندي كساب في تهنئة الدكتور فانديك »

« في الاحتفال بسنة الخمسين من خدمته البلاد الشرقية في ٢ نيسان سنة ١٨٩٠ »

ايضاح العواطف في الاقرار بالعوارف

يمثل لنا هذا المقام الجليل . عرفان الوطنية السورية قدر الجميل ويشهد هذا
المحفل الكريم . لسمو حياة العلم والتعليم . ويفصح بلسان الحال . عن ادراك قيمة
الرجال . وينطق بنخير التهاني والبشائر . في تقديره حق العوارف والمآثر . وما
انتظم عقد هذا المنتدى البديع . الا شهادة لنعم تتمتع بها الرفيع والوضيع . فقد جمعنا
على اختلاف المراتب والملل والنجل . امنن الصلات المعربة عن فضل العلم والعمل .
المعززة بالجامعة العثمانية . والعروة الوثقى الوطنية . تحت لواء سيدنا ومولانا وسطاننا

الجليل (عبدالحمد) . الفاتح لتبعته الامينة جنان المعارف في العصر الجديد .
الموجه قلبه الابوي خير عيته المخلصة الولاء . وترقية امورهم ورفاء احوالهم بلا
استثناء . والاخذ بناصر العلوم والعلماء . ايد الله معقل ملكه الحصين . وايده بالنصر
والظفر المبين . وادام درارى عدله السوافر شمساً تستضيء بها الاصاغر والاكابر .
وصان وزرائه ورجال دولته . الفخام يمين الحزم والعزم والاقدام . فنجني من خديقة
مشاورتهم ثمار الترقى وبركات السلام

فلقد قام هذا النهار شاهداً بافصح لسان . لا ياد بيضاء يحجم عن وصفها قس
ابن ساعده وشيشرون وسبحان . تلك ايد كست الاوطان باثن المطارف . المنسوجة
من ديباج المعارف والعوارف . وبنيت في القلوب افسح المنازل فحل بها ممثل الافضال
والفضائل . الفيلسوف العلامة . والدكتور الجهد الفهامة . كرنيلوس فانديك خليل
سور يا الحميم وحببها وصفها القديم . من تقضى عليه خمسون عاماً بين المدارس . يوزع
من درر علومه النفائس . وبين المنابر . يلفظ بالخطب الجواهر . وبين بيوت الرحمة
والمستشفيات . يعالج وينذل اكرم الصلات ويفرس بالحمية والجد والثابرة . اغراس
علوم زاهرة ناضرة . انت الوطن العزيز بائع الثار فبات ماثره جنات تجري من
تحتها الانهار . فخيماً التفت رايت جنة تحلب الالباب . تزهو منابتها الغناء تحت طي
محمدة له او كتاب . يستقطر منها الشيوخ والكهول والفتيان . اعذب الفوائد الراوية
صدى العقول والاذهان تلك حدائق وفرت بها الاشجار والاغصان من كل فاكهة
بها زوجان . تغرد بلابل فنونها اطرب الالحان وتلك خمائل نبرى قاطفها من داء
الجهل والحمول . وفصائل اودعت كنوز الاصول والفصول . يضمخ عبير نصبا
الشائق البهيج . عقل فارها باطيب الارجح نندفق بنايعها اندفاق السيول ونشعب
جداول تروي ظماء العقول . فلا تمثل تلك المائر والفضائل بزهور الحدائق والخمائل
لان الزهور تذوي وتذول . واما هذه فلا يعرفها الذبول . ولا بالاثمار لان الفاكهة
تقطف مرة في العام . واما هذه فجناتها غير منقطع مدى الايام . ولا بالكنوز لانه
قد يعرفها النقاد . واما هذه بالاتفاق تزداد . بل تمثلها بينابيع لا تزال تسيل . لاحياء
ميت الجهل وارواء الغليل وابراء العليل . فاي علم لم يودعه بطون الاوراق . ولم
ينمقه بوشي معانيه الدقاق واي فن لم يصنف فيه خير تصنيف . يعود على دراسته
بافضل المعرفة والتتقيف

فعلى اي مؤلفاتك نثني ايها الشهم الهام . وبذكر اي كتبك نبداً الكلام
 ابكيماتك ام بطبك النقيس . الذي فقت به ابن سينا الرئيس . ابروضك يا خليل
 المنتظم انتظام اللائيء في السموط . ام بهندستك المقومة عوج الدوائر والزوايا
 والخطوط . امبرأتك الوضية منظر عجائب الاقطار وساكنيها . الجانبية بمطالها بحار
 البسيطة وغياضها وبواديهها . ام بكتابتك الهيثة الفائق فضله شأ والسماك . والمزيح
 النقاب عن اسرار النجوم والافلاك . ابنتطقك الموسس كل مقدمة وتبيحة وقياس
 على امنن الاسس الخالية من كل التباس ام بكتاب النقش في الحجر . الناقش
 في الالباب اجمل الصور . الدائمة الاثر المغنية بالخبر عن الخبر . خزانة العلوم
 الحاوية الجواهر الصحاح . واستاذ المدارس والعيال المتكفل بالنجاح والفلاح . فلا
 نعلم ايها اجدر باسمى النعوت والادوصاف لانها كالحلقة المفرغة المتحمة الاطراف
 بان مجموعها اجل . متحف انشاء اليراع الواحد . واثنن عقد حلبي جيد الوطن بالدرر
 الفرائد . ذلك متحف كاف لان يشغل العمر الطويل . ولكن ما كان مهديه الفاضل
 ليكتفي بهذا القدر الجزيل . بل تعلمون سادتي ان من اعمال الشيخ الجليل . ترجمة
 اكثر اثار التورية والانجيل . وانشاء المرقب الاول بسورية . الراصد حركات الاجرام
 السموية . المتصل مع اشهر المرصد . والمراسلها والمراسلته بما فيه المنافع والفوائد .
 ولم يكتف علنا بهذه الاعمال . بل وقف حياته على نفع الوطن من سائر الوجوه
 والاحوال . فانفق القسم الاوفر من زمانه . في تدريس احداث الحمي وشبانه .
 دروساً حقها الرقب بماء الذهب . من علوم الدين والطب والطبيعة والفلك والادب .
 وهاكم تلامذته المنتشر بين انتشار الدراريء في الافاق يشهدون لنعائه البالغة السبع الطباق
 يتاجرون بكنوز علومه فيمكسبون ويكسبون . ويتنافسون في مضمار سبق وينالون
 بل اذا غضضنا النظر عن كل هذه المآثر والمحامد . تكفيننا اعماله الطبية القائم لها في
 المستشفيات اقطع الشواهد . فله في كل شارع وحبي . جود فاق جود حاتم طي .
 فلقد صدق عليه ما قاله عن نفسه ايوب الصديق في سالف الايام . بازه عيون للعمي
 وارجل للعرج واب للفقراء والايتم . بل يصح عليه ما قاله احد الشعراء عن معن
 بن زائده . يصف مكارمه ومجامده

اذا حال حول لم يجد في دياره من المال الا ذكره وجمائله
 تراه اذا ما جثته متهللاً كأنك تعطيه الذي انت آمله

هو البحر من اية النواحي اتيته فليجته المعروف والبر ساحله
تعود بسط الكف حتى لو انه اراد انقباضاً لم تطعه انامله
فلوان ما في كفه غير نفسه لجاد بها فليتنق الله سائله
وزد على كل ما قيل . خالقه الفتان الجميل . واحاديثه المتكررة الساحرة الخالصة لب
كل من سامره وعاشره . وكلامه السكري الجامع كل منشور ومنظوم . درياق كل
من لسعته ارقام الهموم . ونصائحه السديدة وخطبه المفيدة العديدة . فيمثلته تميد
المنابر سكرًا . وتصفق الايادي طرباً وشكرًا . ويشمل النهى سروراً وبشراً . والى
سماعه يتهافت كل خطيب مفلق . وتتكاثر الاقدام تكاثف السحاب المطبق . وزد
على هذه الفضائل والصفات . معرفته الكاملة بانفع اللغات ولا سيما بلغتنا العربية
الحسنة . حتى كانه من علماء العرب العرباء . ومحبهه المخلصة لهذا الوطن . والله
وحسبائه نفسه في سلك ابائنه ورجاله فكذا تكون الحياة مثلاً ينسج عليه . وعرضاً
يتسابق كل عاقل في البلوغ اليه . فالشكر كل الشكر للعالم الجديد . لاحتفائه
اوطاننا بهذا الكنز الفريد . المثري حمانا من كل طارف وتليد . فكم الف رجل
عدوا بواحد عند من عقل . وواحد عد بالف وفدي بالهجم فضرب به المثل . فقد
جمعت قلوب كل من نطق بالاضاد . على محبتك وشكرك ايها الشيخ الجليل من صميم
الفؤاد . فكنت اسبق من فاز بسورية بهذه المواهب . وعرف قدره الخلق على
اختلاف الضروب والمذاهب وهذا المحفل الجديد . لاوضح شاهد واقطع دليل وتلبية
كرام القوم مطالب لجنة هذا الاحتفال . اجلي بينة سامية المثال . واقبالهم على
الاشتماء بتقدمة الشكر . خبر برهان يحق له الذكر واجماع الراء على السرور
بهذا المشروع خير صلة في خير موضوع . وان قلت بالنسبة للاستحقاق . وبالنظر
لعقود المنة المطوقة الاعناق . فباي افضالك وفضائلك نعترف ومن اي بحر من مجورها
نعترف . وعلى ايها نشني ولايها نشكر . ام باي عوارفك نترنم ولايها نذكر



« نعمة افندي يافت في تهنية لداكتور فاندريك »

خلق الانسان سعيداً لا يعرف الشقاء تحفه الجنات الخصيبة والرياض الباهرة

يقطف شهى الاثمار ويشرب بارد الماء يتنفس قتي الهواء ويقترش وثير الرياض
يمشي في الجنة الهوينا يتامل في محاسنها وسمو معاني تركيبها الى ان سولت له النفس
اقتعاد غارب الشره فقطاول الى سعادة ارفع . وتطال الى مغنى اوسع . فشمر عن
ساعده وضرب في الارض فانسعت لديه بنجاحها فعمته مصاعبها وشملتة متاعبها فجلس
في الياس كليلاً ولا مناص له منه فجد في طلب الرزق بغالب الطبيعة العمياء وينازل
الفيافي والبقاع الصماء فتمسني له بما اعطي من الحكمة ان يكشف الطبيعة خباياها
فتبوح له باسرارها فامتلك ناصيتها عظام الرجال وقادوها بازمتها وذللوها لتكون لهم
لهم خادمة امينة يستعينون بها على رفع اثقالها ودفع اضرارها ولا يقل الحديد
الا الحديد

ولما كانت عقباتها صعباً كان لا يرفاها الا ذوو الهمة القعاء ولا يتسمنها الا
ذوو الحكمة النجباء ولما كان هؤلاء العظام رجال الانسانية حركتهم الشفقة ودفعم
الحنو وحشتم عوامل الالفة لدفع اعباء الحياة عن كواهل اخوانهم في الانسانية
واشقايمهم في المدنية ليصلوا بهم الى اوج السعادة . ولذلك نرى عند نظرنا في اخبار
الامم رجال العلم وابطال الصناعة يعطون الالقاب الشريفة ويوصفون بفضلاء الامة
والحسين الى الهيئة الاجتماعية وثقام لهم الانصاب ويحتفل بهم في مراكز فضلهم
اكراماً واجلالاً وايفاءً لجزء من حقوقهم وتكثيراً لذوي الفضل وارباب النبل
ونحن قد اقام علينا الدهر بكلكله واخنانا بثقله فاقعدنا في مكان قصي نستشرف
دواعي الفلاح واسباب السعادة ولكن الهم قاصرة والطبائع فائرة والاذهان خادمة
والشوق الى السعادة عظيم والتوق اليها جسيم لان الامة قديمة والعيش كان فيها رغيداً
والسعادة فيها سائدة . ولكن الانسانية لا تعدم من نصير والفضيلة لا تجرم من ظهير
فما عتمت ان اعدت لغوشها رجل العلم ومثال الفضل الفيلسوف الفاضل شيخ اطبائنا
وعلمائنا وتاج ادبائنا ورحمائنا وسلك انتظامنا الدكتور كرنيليموس فان ديك الشهير
من اضاء نور علمه امام الناس ورأوا اعماله الصالحة ومجدوا الآب الساموي الذي اظهر
حكمتة فينا واحسانه للانسانية باقتومه الجليل . ان الانسانية شاكرة فضلك لانك مجلي
بادئها العظيم ان الاحسان يفتخر بك لانك ملحمأوه المتين وركنه الجسيم فاي عمل
يوؤول خير الانسانية لم تعضده . واي فضل لم يكن لك فيه الشأن الارفع . واي
حكمة عرفت في شخصك الكلال . واي عمل لم يرفع له نشاطك وثقوب ذهنك

وحدة بصيرتك الاعلام الخافقة . واي عين لا ترى الان نشاط الشباب في شخصك
 الجليل كان القوة رحمة بهذه الامة جليبتك بنشاطها وارسلتك يشابهها نسي بك العلم
 وتعزز البر وتثمر الفضل . ليست مؤلفاتك مثالا لصدق المقال الم تضرب الامثال
 بشهرتها وكثرتها وغزارة مادتها وتباين مباحثها . الا نراك تارة تجوب الفلوات وتقطع
 الفيافي وتحرق الجبال وتمخر البحار وتستبطن الارض وتمكبد السماء فترى السدام
 والشمس والسيارات والاقمار وتمجد اباك الساموي مظهر الحكمة في هذا النظام البديع
 وطورا تلج بنا الى دقائق المادة فتكشف لنا عن جواهرها المتباينة المرتبطة
 بالالفة العجيبة التي تشرك بينها على تباين الطباع واختلاف الاقدار وتفرق المبادئ
 ذلك كله مقرون بسمو مبادئك وشرف غاياتك ان ارتباط الجواهر العمياء على تباين
 طباعها دليل على وجوب الارتباط المتين بين افراد الهية الانسانية ولو اختلفت الجنسية
 وضعفت العصبية واوتة تكشف لنا الجسم الانساني وتظهر فيه بدائع الصنعة وغرائب
 البنية ومعجائب الارتباط بين كراته المستقلة بالحياة بنفسها الخاضعة لقانون الجسم
 العام لكي يحيا بهذا الارتباط العظيم المقرون بالخضوع . كل ذلك مقرون بتعاليمك
 السامية بوجود الائتمالات ليجيا جسم الامة بالخضوع الى قانون الالفة العام
 واحيانا تميل بنا الى مؤاساة الفقراء وتعزية المحزونين وغوث المظلومين وازالة
 الام المصابين بالعلل الوييلة والنسج الضيئلة عملا بتعاليمك السامية وتيسما للقول
 الكريم كل من علم وعلم يدعى عظيما في ملكوت السماوات واي شاهد ادل على الفضل
 وايبين للنبيل واظهر للغاية من اقامتك بين ظهرانينا خمسين عاما تبعد الغرائب وتكتشف
 العجائب وترسل المعارف بيننا ارسال الرياح الفيث على الاراضي الصادية . فالعلم فينا
 يعترف لك بالابوة والخير والاحسان واللطف والشفقة والرحمة وحب الفقراء وازاحة
 اعباء الحياة بكلامك الجزل كلها نقر لك بالامومة فانت اب وام لكل عاطفة شريفة
 وانت مصدر لكل مثال سام وغاية حميدة . فاذا رمنا ان نجد نموذجا للعلم رجلا
 قضى الاعوام الطوال بين المحابر والدفاتر الا نراك خير مثال لعلماء سورية واذا طلبنا
 مثالا للعمل رجلا قرن كل علم بعمل يليق به وغاية تشرفه الا نرى ذلك المثال
 الوحيد في اقنومك الشريف . فلساني جدير بان يلقبك بفيلسوف العصر وعلامة الدهر
 وفريد النبيل ووحيد الفضل . وهذا البناء وهاته المرضي شاهدة على متابعتك الفضل
 ومثابرتك على الخير لا تبغي اجر الناس ولا اطراءهم بل تعد كل ذلك من واجباتك

نحو الانسانية . فالانسانية عموماً والطائفة الارثوذكسية خصوصاً التي غمرتها بعوارفك
واغرقتها في بحار فضائلك وفواضلك وتمترت بفضلك وتعتبر عظيم قدرك وتجل مقامك
وتحفظ اجلالك

وانتم يارجال الانسانية اوجه اليكم هذه الكلمات الاخيرة فاعبروها اذانا صاغية
وقلوباً واعية . نظرت في خلال الخمسين الماضية في شيخنا الفيلسوف الجليل رجل العلم
والعمل وشخص الانانية والفضيلة وكلكم تعلمون ان التعليم بالمثل الحسية من ابي
طرق التفهيم والسيد المسيح كان يودي مقاصده وتعاليمه الى تلاميذه بالامثال لتنجلي
لم وتوسخ في ضمائرهم فنشب في قلوبهم حمية العمل بموجبها . فاي تعليم ادبي لم يقرنه
هذا الفيلسوف بعمل يشرفه . اراد ان يعلمنا عمل الخير فاقام من ماله الخاص اول
قاعة في هذا البناء الخيري فتلاه في هذا العمل المبرور اصحاب الحمية مقتدين
به . اراد ان يعلمنا مواءمة المرضى وتعزية المصابين فعين من اوقاته قسماً مهياً يشغله
في تسليتهم وازالة ثقل امراضهم بكلام اشهى من السلسيل والطف من النسيم .
وكسلكم افصح منا في تبيان فضله وغزارة نبله وشرف غايته ونزاهة قصده . اراد ان
يعلمنا نشر المعارف بين الكبار فاشغل القسم الاوفر من العمر في تاليف الكتب
الضخام ولا حاجة لي في تعدادها لانها اشهر من ان تذكر . ثم انبرى لبث محبة العلم
في الصغار فالف لم النقش في الحجر فنقش في افئدتهم اسمى المبادئ العلمية التي
لا تتوى على محوها كروور السنين ومرور الايام

فاتخذوا سادتي اقامة هذا الشيخ الجليل والفيلسوف النبيل خير مثال واقبوا له
الانصاب في قلوبكم لكي تهيج فينا العواطف السامية عند خمودها وتحرك عوامل العمل
عند سكونها ووطنوا النفس على الجد وثابروا على العمل واعلموا ان السعادة الانسانية
بنت الحق والفضيلة بنت العمل فاطلبوا الحق في مباحثكم واعملوا بموجبه تناولوا السعادة
والفضيلة اسمى غايات الانسانية واشرفها
فدم يافر يد العصر دعامة الحلم . وركن العلم ونصير الفضيلة . وظهير الانسانية

رسائل

« للشيخ ابراهيم اليازجي كتب الى بعض اصداقائه »

مازلت ادافع النفس فيما تنقضاني من شكوى اشواقها وفي الشكوى شفاءً
وامتنزال اثر من لدنك تنعل به مسافة البين الى ان يمن الله باللقاء ومن دون اجابتها
مشاده قد شغلت الذرع وشواغل قد فرغ من دونها الوسع الى ان غلب جيش الوجد
على معقل الصبر وزاحم مناكب العدواء حتى ضرب اطنابه بين الحجاب والصدر
فالتحذت هذه الرقعة ازجيتها اليك وفيها من وقر الشوق ما ينوء برسولها ومن رقة
الصباية ما يكاد يطير بها او يخلفها فيصافح الاعتاب قبل وصولها راجياً لها ان تنلني
بما عهد في سيدي من الطلاقة والبشر وان لا يرض عليها بما عودني من تمهيد
العدر ويصلي من بعدها بانبياء الطيبة عائدة عنه بما يكون للناظر قرة وللخاطر
مسرة ان شاء الله

« وله ايضاً »

وافاني كتابك العزيز والنفس نازعة الى ما يزيل نفاها والقريحة نائمة الى ما
يشحد غرارها فكان روضة باسمه الكائم فائحة النسائم قد ردت على النفس انبساطها
واحيت البادرة فاستانفت نشاطها فانا منه ما بين وشي بنجل طراز العبقرية وزخرف
دونه نضرة السابرية تناجيني منه رشافة الفاظ تفضح قدود الحسان وغضاضة انفاس
يفار منها ورد الجنان ورقة خطاب يشف عن ود صفي ولطف خفي وكرم وفي
وعتب اعذب من الماء القراح وارق من نسائم الصبا في الصباح حتى لقد حجب اليّ
تقصيري وشفع عند نفسي في قبول معاذيري على ان ما عندي من الولا لا يعتربه
معاذ الله وهن ولا يخلقه تمادي زمن او توامي وطن ولكن صروف الاحداث
قد قصرت الجهد وصرفت جواد العزيمة عن القصد والله يعلم اني لو نزلت على حكم
نوازل الدهر ولم ادافع طلائعها بما بقي من ساقية الصبر لما كان في همتي الاكسر
اليراع وهجر المحابر والرقاع وحسي من العذر ما اعرفه من حلك المألوف وما الفتته من

كرمك المعروف والله أسأل ان ييقك لي من الدهر نصيباً ويمتعي بلفائك قريباً
بمنه وكرمه

« وله ايضاً »

بم يعتذر اليك من لا يرى لنفسه عذراً وكيف يستتر من عتبك من لا
يستطيع لذنبه سترًا بل كفاي من العتب تعنيف نفسي على ما القيت عليها من تبة
تقصيري وما حلت به مني التفريط بينها وبين معاذريه والله يعلم ما كان تقصيري
شيئاً اردته ولا كان تفريطي امرأً قصدته ولكنها الايام ان صاحبها لم تصحب وان
عاتبها لم تعتب فلقد عبرت بي هذه البرهة كلها وانا بين شواغل لا يشغلها عني شاغل
وبلايل قد اختلط حابلها بالنابل فنازعتهما هذه النهضة اليسيرة اجدد فيها صلة التذكرة
الى ان يمن الله بصلة الحبل واجتماع الشمل واستنزل احرقاً من خطك يكتحل بها
الناظر ويانس اليها الخاطر متوقفاً بعد ذلك ان ابقى بين يديه مودتك مذكوراً
وان لا يكون عجزني لديك شيئاً منظوراً وان تجري بي على عادة حلك الى ان يجمع
الله الشيعتين ويغني العين عن الاثر بالعين ان شاء الله تعالى

« وله يعزي احد اصدقائه بذيب له توفي ايام الوباء »

اشباح تروح وتجي وآجال تسمي وتفتدى وانفاس تنقطع من دونها حزناً واسقاً
وغبرات تنتظر وجداً ولفقاً وما عمدت الاقدار الى استنزاف مدمع ولا ارادت
الايام ايلام موجه انما هي سنة الخلق كون بليه زوال وعقد يسبقه الفحلل وان
لكل شيء اجلاً موقوتاً وان لكل اجل سبباً مقدوراً وان الانسان لفي كل ذلك
شاهد يسمع لاهياً ويبصر صاهياً وليس في يده ان يسترد ماضياً ولا ان يرد اثباً
ولقد وددت ان اعزيك لولا ما يغالبني على العزاء من كبد حرى ومقلة شكرى وزفرة
تثرى ثم وددت ان استبكيك لولا اني بكيت حتى لم ادع في البكاء من واد واحييت
ليالي بالنوح حتى ما بالنجم سهاد ثم لم يزدني البكاء على سقم جسدي ولم يزدني
النوح على صفر يدي الا من كبدي فان الاقدار سهام اذا انطلقت لم ترد وان المتطلع
الى الفاتت لطويل شقة الكمد وان الخطوب لهي هي وانما تفاوت عند الجلد
وان الحصى عند الجزوع ثقيلة وضخم الصفا عند الصبور خفيف

واني لارجو في عقلك وحلمك انك قد صرت من جانب العزاء ثم احمد الله على نجاتك
ان لنا في بقائك العوض والتأساء فلقد قلبت القلوب على حمرات لا تدري ايها اذكي
ضراماً ثم اوردتها من سلامتك ما رأت الشكوى بعده ظالماً والتظلم حراماً والحمد لله لا
معقب لحكمه وهو المسؤول في اظالة بقائك قرة للعيون وجبراً لمخاطر المحزون بمنه وكرمه
وكتب الى صديق له جواباً عن كتاب يعنى اليه فيه

احد انسابه ويعزيه بنسيب له

ورد كتابك يتجاذبه طرفان من نعي ونعزيه ويضرب عليه لوان من شجوة وتسليمة
فن لي بعبرتين تجري احدهما وترقاً الاخرى ومن لي بقلابين يذوب احدهما حزناً ويمجد
الاخر صبراً بل كيف يصبر جريح ضربه الدهر بسيفين وجرحه البلى بكأسين
فخرج عبرة بعبرة وتابع حسرة اثر حسرة وبات لا يجيد الى الصبر دليلاً ولا يهتدي
الى العزاء سبيلاً ولكن الامر فوق ما تجري الجفون وما تثير الشجون وامر الله واقع
لا يدفعه دافع والدمع لا يسبخ غصة والوجد لا يزيل كربه

واذا حصلت من السلاح على البكا فحشاك رعت به وخذك نقرع
فما لنا الا السعي وراء ما ند من الصبر نكره عليه النفس وان كان احد المرئين والاتجاه
الى الرضى بالمكتوب نداوي به القلب وان كان احد الداءين وحسبنا الله وكيلاً

وكتب الى صديق معزياً

من علم ان القضاء واقع وان الاعمار رهائن المصارع فلم يصحب دهره على غرة
ولم يعتر من الاقدار بفترة لم تكبر عليه الرزية اذا اغتالت ولم يطمئن الى السلامة
وان طالت فان للدهر رقدة وهبة وان لليالي كمنة وثوبة ومثلك من ادرك مبادئ
الامور ومصايرها وعرف موارد الحياة ومصادرها وانما الموت طور من اطوار الوجود
واخر اعمال الحياة في الوجود ولا ازينك عملاً بالكون وشرائعه والكائن وطبائمه انما
هي ذكرى لمن فجمته الرزة فشغله وحل بساحته القضاء فاذله وحسي من التعزية علي
بما عندك من موارد العلم المباح ومن التاسية ما تعلمه من حال من يخاطبك وهو سائل
الجراح وما اخلقني بان اقول ان رزك هذا قد زادني شجناً على اشجاني ونكأ ما
يتائل من قرحه احزاني ولكني قد صيرني الدهر الى حال لا تعمل فيها حال ولا ابالي
مها بسلام ولا فقل فكأنما اباي عني ابو الطيب حيث قال

رماني الدهر بالارزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال
 فصرت اذا اصابني سهام تكسرت النصال على النصال
 علي ان المرء اذا لم يكن له من نفسه معز لم يزد كلام العزيز على ان اذكار مصابه
 وتجديد لوعته واكتتابه . وهنا امتحان الرجال وموطن الصبر والاحتمال والمرء باعز ما
 لديه يمتحن والصبر على مقدار الهم والفظن وان الاحزان معقودة اطرافها بالعزاء
 موصولة او اخرها بالتساء فاجعل الآخرة الاولى ولا تبلغ الدهر من نفسك مامولاً
 والله اسأل ان يقيض لنا بسلامتك عوضاً كريماً ويصون بيتكم وآله من كل كارثة
 سليماً ويفرغ على قلوبكم صبراً جميلاً وعلى من فقدتم عفواً عاماً برحمته ولطفه

لاذيب بك اسحق

« كتب الى الامير عبد القادر الجزائري »

كتابنا ايد الله الامير الاعز ونحن عصبه تذكر لبس منا من لم يرحم صغيرنا
 ويامر بالمعروف وينه عن المنكر
 راينا ما لم يهذه الاقطار من الاضرار ناشئة عن تجاليف القلوب وتنافر الافكار
 حتى صار الود مداجاة والحب عدواناً قتلنا يا قوم لا تنافسوا ولا تجاسدوا ولا تباغضوا
 ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخواناً ورايينا بوادر البلاء وطلأع الشقاء نجفنا المصاب
 الاعظم ينقلب به الخير الى الضير والمنعم الى المغموم ويزول بهاء الامة ثم تفضب
 الارض التي سقاها السلف الكرام بالدم فنهضنا نروم حفظ الباقيات الصالحات بوسائل
 السلم والسلم اسلم وذكرنا خيركم المدافع عن غشيرته ما لم يأت
 ورايينا فقيرنا يتعثر باذيال ناقته وعظيمنا لا يامن على راحته او على ما في راحته
 ومثل ذلك سائر اخوان الوطن الذي ولدنا فيه او نزلنا بساحته فنزعت اقسنا الى
 اعانتهم ومن كان في حاجة اخيه كان الله في حاجته
 وراينا انوار فضل الامير على ظور تجلي الحكمة توقظ الراقد وتنبه الغافل من
 هاته الامة فتكشف عنها كل ملة فعلمنا ان لا بد من التماس مساعدته في هذه المهمة
 فرفعنا اليه الصحيفة التي هي لسان حالنا لثنوب لديه عن لسان مقالنا امل الحصول على
 القبول شأن الامير في معاملة من امه ورجاء ورود الجواب بما يراه في امر هذه الخدمة

وله في تشریفنا بذلك ربه العالی مسدداً وامره الکریم مؤیداً ان شاء الله

وكتب الى سلطان باشا

سيدي وعمادي وسندي وعمادي

كتابي اطال الله بقاء سيدي الاوحد وانا اذرف دمع الامتنان والشكر على ما اظهر لرسولي من الانعطاف اليّ والشفقة عليّ والرغبة في كشف ظلامي والميل الى اعادة كرامتي حتى لو بذلت بقية الشباب في سبيل خدمته ووقفت سائر العمر على شكر نعمته واوتيت مع ذلك عزيمة الاقوياء ومنحت بلاغة الفصحاء لما سلمت في الواجب من التقصير ولا ادركت منه غير النزر اليسير علي اني القيت بباب مولاي القلب رهن اخلاص وولاء وقليل تحت سماننا قلوب الاصفياء

ولقد بشرني الرسول بكتاب من السيد السند يجبر الخاطر ويقر الناظر ويشرح الصدر فيصفع عن هفوات الدهر فاعتقلت باسباب الاماني والامال ورجوت لسوء الحال حسن المال ثم رددت النفس عن هاوية الياس فالحمد لله ما خلت الارض من الفضل والحمد لله ما عفت في مصر آثار العدل ويمين الله ان غاية الامل رضي السيد عن عبده ونهاية الرجاء حسن ظنه يحافظ عهده فان رضي فليغضب الانام وان احسن الظن فما على الدنيا ملام

وعلمت من كتاب رسولي اسباب الابعاد وما تجمل الامر من دسيسة وفساد فما عجبت لتصديق التهمة كما في لم اندم على صدق الخدمة او ليس ان السيد اعزه الله يذكر ذلك مني ولا ينسأه وكفي بهذا جزاء وشكورا وكفي به قبلاً موفوراً ولا از يدوان كان الحال فسيماً والحق ظاهرآ صريحاً فالنتائج معقودة بمقدماتها والامور مرهونة باوقاتها ولسوف ينكشف الغطاء ويبرح الخفاء ويعلم الشك من يقين ويغلب امر الحق ولو بعد حين والله ولي الصادق الامين

هذا وقد بعثت الى مصر من يبيع اثاث المنزل بما يتيسر واتاني ان السيد حفظ الله معاليه قد رسم بتاخير ذلك الى اجل غير معلوم ولكن الحاجة مزمنة والضرورة مبرمة وللخادم على ذلك البيع باعثن الاول سد الحاجة بما يحصل منه وان قل والثاني رفع اجرة المنزل عن كاهله المتقل ومع ذلك فالامر للسيد في كل حال وما على الخادم سوى الامتثال

ثم اني مشتغل في هذه العطلة بتاريخ المسألة المصرية على ما راته العين
ووعاه الذهن وسمعته الاذن وحققه الخبر وايداه الاثر مبيناً احوالها مفصلاً اجمالها كاشفاً
اسرارها واصفاً اثارها ذاكرةً اكل امرء بما استحق منصرفاً في كل ذلك عما يخالف
الحق ليعلم منه فضل ذوي الشهامة واهل الكرامة كما يعلم نقص ارباب السفالة واهل
النذالة ممن غرهم الجهل فطفغوا ودعاهم الجبن فاطاعوا ثم اضاعوا البلاد واي نفيس
اضاعوا وساقدم لمولاي ما ابيض من هذا الكتاب ليرى فيه رأيه الموفق للصواب ان
شاء الله حفظ الله السيد السند ورعاه وادام مجده وعلاه وابقى للخادم عنايته ورضاه

وكتب الى صديقه عبد السلام بك المويلحي

وقد انقطعت عنه رسائله

لولا دلالة القلب على صفاء الوفاء وهداية النفس الى بقاء الاخاء لغالبت الشوق
في استطلاع اخبارك منك ووقفت القلم عن شكوى هجرتك اليك مخافة املاكك بما
انت غني عنه وكرهية اعنائك بما انت زاهد فيه ولكنني عهدت بين جنبيك قلباً لا
يحوله تغير الاحوال ولا يبده كرور الايام والاحوال فانا مخاطبه بما يمليه الشوق
عليّ وضيت ام غضبت وسكت ام اجبت

اي قلب من نحب ونكرم ونجمل ونعظم لقد اتصلنا منك باسباب مودة واعتلقتنا
فيك باهداب صداقة فهل انت ذاكر معاهدنا بذات الوفاء ليالي هجرتنا الرقاد اليك
وقصرنا الوداد عليك ورضيناك من الدنيا نصيباً واخترناك من العالمين حبيباً كيف لا
وقد لازمك الصفاء وصافاك الوفاء فصفوت على كدورة الايام ووفيت على خيانة
الانام فان عدلت وما عدلت فعلى الدنيا السلام

وكتب الى علي باشا مبارك يتقاضاه وعد الحكومة له بائشاء

جر يدين باسم العصر الجديد والمحروسة

انجراً على فضل الوزير غير جاهل ان وقته اثن من ان يضاع في مثل موضوعي
الحقير ولكن جرت عادة امثالي بقصد اولي الفضل وما اولو الفضل في الدنيا بكثير
فساه ان يكون الضعفي نصيراً فاقول نعم المولى ونعم النصير

ولقد صار العصر الجديد قديماً بما مر عليه من مؤثرات الانتظار واصبحت
المحروسة على قدم الياس تنجيز بالاولياء والانصار وتتلو وهي في عالم القوة بين

الخوف والاختار اذا ما الفكر حار واذا ما الزمان جار اتنسى مصر مزية البر
بالجار ام لا يسمع بين براياها صدى نداء المستجير

بل اعيد مصر ان تحيي بها الايام على البررة الصادقين وان لا يلي موعودها نالياً
أتنا بما تعدنا انك من الصادقين اقول هذا وما كنت معرضاً بسوء وما كنت من
المعارضين ولكني اسأل النجدة احساناً ولا سبيل على المحسنين والله له ملك
السموات والارض وهو على كل شيء قدير

فلا ينس مولاي امر الجريدة موعوداً فقد اجتاز الخادم في هذه العطلة عقبة
كؤوداً وعالج الصبر جهده ثم عاد عنه مجهوداً افيلوز بالياس وقد امّ قوماً جوؤداً
ام ترد اليه اشارة الفوز وروداً عتميدا فتسرولياً حقيماً وتسوء عدوؤاً لدوداً. اجل ترد
فيشكر الخادم صدرأ كما شكر وروداً ثم يحمد الله الى المولى الوزير

وكتب توطئة رسالة في مدح احد الصادقين من عمال الدولة

اذا انا لم امدح على الخير اهله ولم اذم الوعد اللئيم المذمما

فقيم عرفت الخير والشر باسمه وشق لي الله المسامع والنما

اجل فما تحرك بنان ولا جرى قلم ولا نطق لسان باحسن من الثناء الحق على
نصراء الحق فهو سبيل الوفاء ومنهج الاقتداء تجزي به الانفس الطاهرة بما كسبت
من الخير فيحسن اجتهادها ويدوم في الفضل اريادها ثم تكون قدوة في الحسنات
يسلك الناس بما تنهج سراطاً مستقيماً فيحصل النفع كاملاً عميماً

ولقد تأثرت المحسنين كشفاً واستعمالاً وما آليت المجتهدين عناية بشأنهم
واهتماماً فلم ارفين رايته احق بالشكر واولى بالثناء واخلاق بالحمد واجدر بالاطراء
من مطمح في زمان فساد ومسدد في مقام اختلال ومقوم في حالة اعوجا وعن تدوم
عفته اليوسفية بين اسباب المفساد وثبتت نزاهة نفسه الاية بين انواع المكائد
تراوده الدنيا عن نفسه فيدراً شيطانها ويقطع بسيف العفاف اشطانها ومن تعرض
له الدنيا فيعرض عن بهارجها وينكب عن مناهجها فانه لا فضل في العفة لمن يعف
اضطراً وانما الفاضل من استطاع الرغبة ثم عافها اختياراً

فكيف لا ينطق اللسان وكيف لا ينطلق البنان بمدح من استكمل تلك الصفات
واستجمع هاتيك الحسنات فاستحوذ على البابنا حبا وامتلكنا قلباً وقلبا الا وهو الخير

بشؤون السياسة البصير بامور الرئاسة النبيه الذي عرف صاحب الامر قدره فاعزّه
واعلاه وتبين فضله فقر به وادناه فلان ايدّه الله فقد ولي هذا الامر فاصلح وقام
بالحكم فعدل وسار في مسلك الحكمة فهدى حتى صار البلد به كمدينة الحكيم، تتالف
السكان على العلم والعدل والاخاء ثم صان فيه النعمة ودرأ عنه النقمة واجتلب اليه
النافعات واجتنب فيه الشبهات وكان حكماً عدلاً لا يلين حتى يطمع المسيء ولا
يخشن حتى يجزع البري فتالت القلوب على ولائه واجتمعت الالسنه على ثنائه والسنة
الخلق اقلام الحق

وكتب الى احد امراء مصر

جعلت وسيلتي الى اعتبار ولي النعمة وباب السيد السند كتاباً رفعته اثر الحادثة
الى حضرة المولى فلان ثم جاءني ان المولى المشار اليه منحرف المزاج فجرؤت بنفسي
على باب السيد الامير احمد الله اليه مؤدياً واجب الثناء عليه ثم استمنحني نعمة الجواب
عما اذا كنت اصلح لشيء من خدمة ولي النعمة في اويقات هذه الغمة فقد رايت
السنه الكاذبين طائلة بما يقصر هم الصادقين ولم اجد من مضاء في سيوف من رايت
من المدافعين فهزني واجب الخدمة لهز صمصامة الذود عن الحق فطرقت باب المولى
مستاذناً فيما دعاني الواجب اليه فان راى له محلاً وراى له اهلاً فله في الامر بذلك
رايه العالي والافحسي منه انعطافة رضى والتفاته اهتم وكلمة تنيء بوصول عريضي
اليه وان تفضل سيدي اعزه الله بذكر الخادم في الحضرة العلية داعياً بتأييد
الاربيكة السنه كان ذلك تمام الفضل وله الامر وعلي الشكر في كل حال

وكتب الى صديقه يوسف افندي جباره بالاسكندرية

جاءني كتابك مذكراً منبهاً لحفظ ودك فما اذكر ناسياً ولا نبه غافلاً ولا زادني
شوقاً لامتناع المزيد ولكنّه اتاني من انفاسك بما نفس الكربة ومن اثارك ما تمتلث
به العين فله انت من صديق في القرب والبعد والصفو والكدر والسراء والضراء
وبعد فاني مرسل اليك رسمي تذكرة وداد وتقدمة فواد يتمني لو كان حقيقة
في ذلك الرسم على انه لديك من قبله ومن بعده

ثم اسالك يا خليل الوفاء وفي الاخلاء تقديم شعائر سلامي وواجبات اكرامي
لا لك جميعاً صفوة المكرام وان نتقبل مني مثل ذلك جعلني الله فداك ولا زلت

وكتب لصديقه اديب افندي نظمي بدمشق

اشكو اليك سعة فضلك عن ان يحيط به بياني وعظم منتك عن ان يلم بشكرها
قلبي او لساني فاجعل رقتك شفيعي لديك وعفوك وكيلي في الثناء عليك
وبعد فقد وصلنا بيروت لاهجين بذكر محامدك هازجين بمحدث محاسنك فلم
تلتنا مشقة ولم نشعر بطول الشقة ثم لقينا الاهل والاخوان فكانت حفلتنا مجلس
انس ندير فيه من احاديث فضلك مداماً وتتخذ من معالي كالك ندامى ثم لا نلهو
بشكرها عن شكرها ولا نذهل بعدها عن حمدا

فاجعل ايدك الله ضعف الشكر في جنب قوة العذر وتفضل بعرض هاته
السطور في مجلس سادتي فلان وفلان وفلان تحسب صادرة الهمم بما تقصد به جنابك
الكريم من الشكر والثناء فقد اتجدتم جباً وتالفتم قالباً وقلباً حتى امتنع الاختصاص
فيما به يتخاطبون لا زلمت عصابة فضل تعقد على مدحك الخناصر وتجتتم على حبكم السرائر

وارسل اليه جواباً على كتاب

ياسيدي بل ياخي فالاخاء واجب عرفناه والسيادة حكم ما اعترفناه والادب
رحم نقطعها الكلفة والكلفة لبسة تمنعها الالفة والالفة بيننا معقودة اسبابها بالصفاء
عائقة اهداها بالوفاء

فيا الف اخي خطاباً لا امل لفظه ولا اهل حنظه لقد سمعتي بكتابتك ما لا
اطيق واستعبدتني بجر كلامك الرقيق فمن لي بالركة التي حويت والمزية التي ملكت
والفضل الذي اصبت والكمال الذي ادركت لا خاطبك بلسانك واكتبك بمثل بيانك
ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله ولكل درجات مما عملوا

فما تجود يد الا بما وجدت ولا تكلف نفس غير ما وسعت
ولست اعتذر اليك فيما كان ظهوره منك ولكن الود بخدمك من حكم عملك
واعوذ بفضلك من سهم عدلك

اما الصديق فلان فقد جعلت صحيفته البيضاء ميثاقاً عليه انه يتخذ محبته صديقاً
ورضي به خليلاً لا يله ولا يروم عنه عدواً ثم سجلته في محكمة الوفاء تسجيلاً واشهدت

عليه من اهل العهد شهوداً عدولاً^(١)

واما الصديق فلان فقد عدت سكوته خطاباً يكون لكتابي السابق جواباً لا
يوأخذني فيه على ان وحده ثلوثكم وما افردت لاقنومه كتاباً بل يعد ما صدر عن
واحد منبثقاً عن الكل بالاتفاق وان لم يكن من القائلين بكلية الايثاق^(٢)
فتفضلوا جميعاً بقبول سلام يمزج به القلب وتجد به النفس شوقاً اليكم يا احب
الناس الينا ويا اكرم الخلق على الله

وكتب من باريس الى يوسف افندي فارس بالاسكندرية
الى الله اشكو لظي في الفؤاد يسمى اصطلاحاً عذاب البعاد
وما للبلاد اشتياق الفؤاد فعهد الوداد لاهل البلاد
اجل ولكن كيف انسى مراتع انسي ومراتع نفسي في مجالس صفو وهناء بين
معاشر فضل ووفاء ام كيف لا اذكر اياماً مرت بنا كالاحلام فان لم تعد فلا
كانت الايام وعلى الدنيا السلام
فيا رسالة الود ان وقتت بباب الصديق مسلمة عليه مبينة بعض شوقي اليه فانشدي
عني بين يديه

قالوا التباعد يوجب الهجرا كذبوا ومن ذاق النوى ادري
فالجب ذكر والمحب اذا عز اللقا لم يعدم الذكر

وكتب الى عزتلو خليل افندي الخوري بدمشق

ان الذي سوّده الفضل وميزه الادب قبل ان تعلمه الرتبة ويرفعه اللقب اغني
عن التلقب في الخطاب وصدور الكتاب فان الرفعة قائمة بذاته والعزة صفة من
صفاته والسيادة لفظ وفضله ومعناه والسعادة مال سعيه ان شاء الله
وبعد فقد وصل من حضرة سيدي كتابه الذي اثبت له المزية واوجب عليّ

(١) المكني عنه بفلان في هذه الفقرة نعتان افندي الشرايبي وسر الصحيفة البيضاء
المشار اليه في الكلام عنه انه بعث الى دمشق بكتاب لا يتضمن سوى اسمه في
مكان التوقيع

(٢) المقصود بهذه الفقرة جبران افندي لويس والتكئة فيها ان الفقيد ارسل له
ولنعسان افندي واديب افندي كتاباً مشتركاً فاجابه الاخيران وامسك هو عن الجواب

الشكر وكنت في امر الجواب عنه على انتظار رقيم الولاية يرد فانهي بوصوله وانهض
بواجب الثناء ولكنه تاخر حتى اوجست ان يكون تاخير جوابي مظنة اهمال ومحل
مواخذة فكنت هذا على نية الاعتذار وقصد الازكار ملتصاً من عناية سيدي اتمام
ما بدأ من المساعدة بتعجيل ذلك الرقيم وله في تحقيق الرجاء كرم الخلق موقفاً به
للأثرة تذكر في كل مكان والحمدة تشكر بكل لسان

للشيخ سعيد افندي الشرتوني

صورة كتاب تهنئة لوالد بعيد راس السنة

اطال الله بقاء سيدي الوالد المحترم

وبعد فلا يخفى على احد ان اعلى سعادة الاولاد في دار الدنيا ان يعمر اباؤهم
تحت رواق العز والسعد والعافية كما يعلم سيدي ان اسنى المطالب . واعلى الرغائب .
عند الاولاد ان تظلمهم السنون والاعبياد . وكبير البيت في ذروة عزه وثوب عافيته
قريب العين بسلامة عياله . مسرور القلب بان بنيه من اصحاب الجد . والمضاء في
الاعمال . كلهم اعضاء صحيحة . تدبرها عقول ذكية . فلذلك فرحت في هذا اليوم
فرحاً لا يعادله فرح . حتى لقد رايت الدنيا كأنما تعاطيني كأس الصفاء . وخلت ما
انهل من ماء الغمام يومئذ شراب الهناء . حتى حسبت قصف الرعود تهديداً لآخذاث
الدهر . ان لا تفتج الحاظها على عمود سعدنا وظننت ان وجه السماء ما اكفر الا
انذاراً للمحنة . ان لا تداني من هو اساس راحتنا ورغدنا . جعل الله ظني قسماً .
وفألي صحيحاً . وان كنت ممن لا يتفأل ولا يتشأم . وابقى سيدي في كنف امه .
وظل حمايته . ممتعاً بروية اولاده كحلقة نجوم بينها البدر بمنه ان شاء الله

وله تهنئة في وزير انتصر في معركة

دولتو افندم حضر تلري

ما وجد السرور سبيلاً الى قلوب الرعايا اوسخ من الظفر بالخارجين على السلطان
المناصبين الدولة الحرب العوان . وذلك لما في الغلبة من قطع عرق الخوف والاضطراب
وقشع غائم الكرب عن الالباب . بل لما في الانتصار من كسر عادية المعتدين .
وقمع الظالمين . وكبح العادين . على قوم مطمئنين . ولو كان الامر بحيث يلوح عليه

خيال الشك لاقت ما اجرت المملكة من آثار الفرح بل من آثار الافتخار بالانتصار
يوم هزم العدو مولانا الوزير الهام . بل ليث الصدام . ومزقهم في الصحراء . وبددهم
في الفضاء . شهوداً الوقاً . وبراہین صوفاً وحيث ذلك من أكبر الواجبات على
الكتاب والشعراء . ان يركضوا قرائنهم في مضمار النهضة لمن كفاهم شر العدو ومكثهم
من ناصية العلاء فهذا اشرف موضوع تحمده الاقلام . بل ارفع موضوع يعلو به مقام
الكلام . بل احب موضوع الى جميع الانام . حتى الجبناء الطغام . لا زال النصر
معقوداً بربابة مولانا . ولا يرح الانكسار ملازماً عدانا . ولا فتئت هيبتة واقعة في
قلوب الاعداء . وسيوف جنوده قاطعة دابر الثائرين واهل الشخناء . في ظل الملك
الاعظم والامام الاكرم . مبيد الظلم ومستاصل شأفة اهله . ومحبي العدل ومكرم آلہ
بن الله الذي لا نصر الا من عنده

بندہ

وله في لوم صديق على طعنه في مخدومه بعد ترك خدمته

انهي الى جناب الاخ العزيز وفقه الله الى ما به الخير

بعد الاستعلام عن صحته . واهداء السلام مع الشوق الى رؤيته . انه جرى في
بعض منازل الافاضل ذكر خروج الصديق من خدمة التاجر فلان الى خدمة تاجر
اخر يراتب اكثر من راتبه عند التاجر الاول فحصل لي بهذا الخبر سرور عظيم
لكن قد ذكر انك تطعن عليه وتذمه في مجالس الناس ومحاضرهم فساءني ذلك من
وجوه . احدها ان الطعن لا يليق بمثلك من ذوي الاخلاق المهذبة والطباع الكريمة
والثاني انه لا يجمل بالرجل ان يقع فيمن رأى الخبر على يده وثقلب في نعمته لثلا
تكون عليه عهدة الآية (اكل خبزي ورفع علي عقبه) والثالث ان هذا يفض من
قدرك عند مخدومك الجديد لما هو قائم في النفوس من ان المعتاب لا يرعى حرمة
والكنود لا يشكر نعمة . فمن اغتتاب زبدهاً وكنند نعمته فلا يكون عمرو بامن من
غيبته وكنوده . وبالنتيجة ان ذلك يقبض نفسه عنك حتى لا يرتاح ان يهد لك
سبيل النجاح وهكذا تكون بهذا السهم صرعت اثنين وحملت وزرين فالراي اذاً ان
تعدل عن هذه الطريقة انها سيئة المصير قبيحة العاقبة وما هي بالخطة التي يرضاها
الليب لنفسه وانما هي خطة تفسد عليك تدبيرك فما يفوت عنك ان من لم يسلم
الناس من لسانه لا يسلم من سنتهم . ومن وقع فيهم وقعوا فيه . ومن ظن انه بري

من الذاام فقد كذبه ظنه فللكل انسان عيوب يسعى في سترها كما ان كل فرد من الناس يعنى حسن الاحدوثة لكن من ابتغها مع تجر بدلسانه على تمزيق الاعراض فقد طلب عنقاء مغرب ومثل الصديق تكفيه الاشارة والسلام الداعي

خاتمة

هذا ما رايت اثباته الآن من نقتات افلام الادباء . وبنات افكار الكتابة الفضلاء . وقد عقدت النية على اصداره اجزاء متعددة من ثر وشعر . كما المعت الى ذلك في المقدمة . ذلك اذا راق في اعين اصحاب النهضة العلمية وروساء المعاهد الادبية

على انني ارجو المعذرة من بعض كشتتنا الافاضل الذين اتحفوني بنفيس اقوالهم بعد ان كنت قد مثلت الكتاب للطبع فلم اتمكن من نظم دررهم في سلك هذا الجزء ولكنني اعدهم اني سادرج ما اتحفت به في الاجزاء التالية معترفاً بطول باعهم وشدة غيبتهم على تعزيز المبادئ الوطنية

ولي الامل بدوي الفضل الذين لم يتمكروا علي حتى الآن بمقالاتهم الشائقة ان لا يرضوا علي بها فيما بعد لادرجها في محلاتها راجياً غض الطرف عما فرط من اخطا وطالبا من الله ان يجعل خدمتي هذه مدرجة لاكتساب الرضى ووفاء للخدمة الوطنية وذلك خير ختام

فهرست

	صفحة
مقدمة	٣
صناعة الكتابة	٥
الانشاء	١٠
الخطابة	١٤
علوم العرب	١٨
آداب العرب (خطبة مطوّلة)	٢٠
العربية والعرب	٤٥
القرن التاسع عشر	٥١
الكون العاقل	٥٧
الحقوق والواجبات	٦٠
الجامعة العثمانية	٧٢
الاعمال بالعمال	٧٦
هل عندنا رجال؟	٨٢
من استقلت ارادته استقامت	} ٨٨
ادارته	
الامة والوطن	٩٢
الملك والرعية	٩٥
من نحن	٩٨
ماذا نحن في تاخر	١١٠
التردد	١٠٢
السياسة والاخلاق	١٠٤
خطوات الباب	١٠٤
الحرب	١١١

لا ديب بك اسحق	الحرب	١١٤
	من جرى في عنان امله عثرت	} ١١٦
سليم بك ثقلا	رجله باجمله	
لسعيد افندي الشرتوني	سعادة الحياة	١١٩
للشيخ ابراهيم اليازجي	ادب المدارس بعد المدارس	١٢٢
لا ديب بك اسحق	عيشة اخلاء	١٣١
له	التشبه	١٣٢
له	اليونان والرومان	١٣٤
لفرنسيس مراثس الحلبي	الحرب	١٤٢
له	السلم	١٤٣
	خطبه في ان الدين مقتضى	} ١٤٣
لسعيد افندي الشرتوني	الحكمة والكفر مقتضى الجهل	
لعيسى افندي اسكندر معلوف	الاقتصاد	١٤٨
	حياة البلاد في الكد والاجتهاد له ايضاً	١٥٥
لفرنسيس مراثس الحلبي	العلم والجهل	١٥٨
	الحياة واركانها الاربعة وهي :	} ١٦٠
له ايضاً	العمل والمثل	
	والصحة والامل	١٦٢
لسعيد افندي الشرتوني	خطبة في ممثلي الام والمالك	١٦٤
لا ديب بك اسحق	بعض البلاء ينتهي الى بعض	١٦٦
له	تأمل	١٦٧
للشيخ ابراهيم اليازجي	القمر	١٦٨
لاحمد افندي فارس صاحب الجوائب	جمل ادبية	
	من الناس من يتعلم العلم لينفع به نفسه وغيره . . .	١٧٥
	من الناس من يتعلم العلم وهو مجبول على صفات حميدة . . .	١٧٧
	من الناس من يكدر لمعاشه كانه لا يموت ابداً	١٧٩

	صفحة
من الناس من يتكل على حسب ابائه فيفتخر به.....	١٨١
من الناس من يتصدر في المجالس ويحدث كل مجالس.....	١٨٣
من الناس من يقسم اسنى المراتب واسمى المناصب...	١٨٥
من الناس من يعجب في شبابه لراحته في مشيه.....	١٨٧
من الناس من يبالغ في مدح وطنه ويحمن اليه...	١٨٩
من الناس من يولد في النعمة.....	١٩١
من الناس من يكلف بعلم واحد او فن واحد.....	١٩٣
اني كثيراً ما فكرت في امر البديع...	١٩٥
من عاشر الناس وقام فيهم مقاماً مشهوراً.....	١٩٧
من تبصر الامور وتدبر المقدور.....	٢٠٠
من عرف الدنيا ثم ركن اليها كان من احمق الحمقى.....	٢٠٣
اذا اعتبرنا اتقان الصنائع دليلاً على جودة العقل...	٢٠٥
من اعجب العجب ان الانسان لا يدرك حقيقة حاله...	٢٠٨

تأيين

١ لاديب بك اسحق في تاين المعلم بطرس البستاني	٢١١
٢ لاسكندر افندي العازار في تاين اديب بك اسحق	٢١٢
٣ لسليم افندي نقاش في تاين اديب بك اسحق	٢١٤
٤ للدكتور سليم افندي جليخ في تاين نقولا افندي نقاش	٢١٨
٥ لميز افندي صعب في تاين الشيخ خليل اليازجي	٢١٩
٦ ليوسف بك آصاف في تاين احمد افندي فارس صاحب الجواب	٢٢١
وله فيه تيممة رثاء	٢٢٥

تهاني

لسميد افندي الشرتوني في تهنئة غبطة السيد يوحنا بطرس الحاج بارثقائه المقام البطريركي على الامة المارونية سنة ١٨٩٠	١	٢٢٦
وله في يوبيل سيادة المطران يوسف الدبس رئيس اساقفة بيروت على الطائفة المارونية في ١٩ اذار سنة ١٨٩٢	٢	٢٢٨
لسليم افندي كساب في تهنئة الدكتور فاندك يوبيله سنة ٩٠	٣	٢٣٢
لنعمه افندي شديد يافت في تهنئة الدكتور فاندك	٤	٢٣٥

رسائل

للشيخ ابراهيم اليازجي

كتب الى بعض اصدقائه	٢٣٩
وله ايضاً	٢٣٩
وله ايضاً	٢٤٠
وله يعزى احد اصدقائه بنسب له توفي ايام الوباه	٢٤٠
وكتب الى صديق له جواباً عن كتاب ينمى اليه فيه احد انسابه ويعزى به بنسب له	٢٤١
وكتب الى صديق معزياً	٢٤١

لاديب بك اسحق

كتب الى الامير عبد القادر الجزائري	٢٤٢
وكتب الى سلطان باشا	٢٤٣
وكتب الى صديقه عبد السلام بك الموبلي	٢٤٤
وكتب الى علي باشا مبارك	٢٤٤
وكتب توطئة رسالة في مدح احد الصادقين من عمال الدولة	٢٤٥
وكتب الى احد امراء مصر	٢٤٦

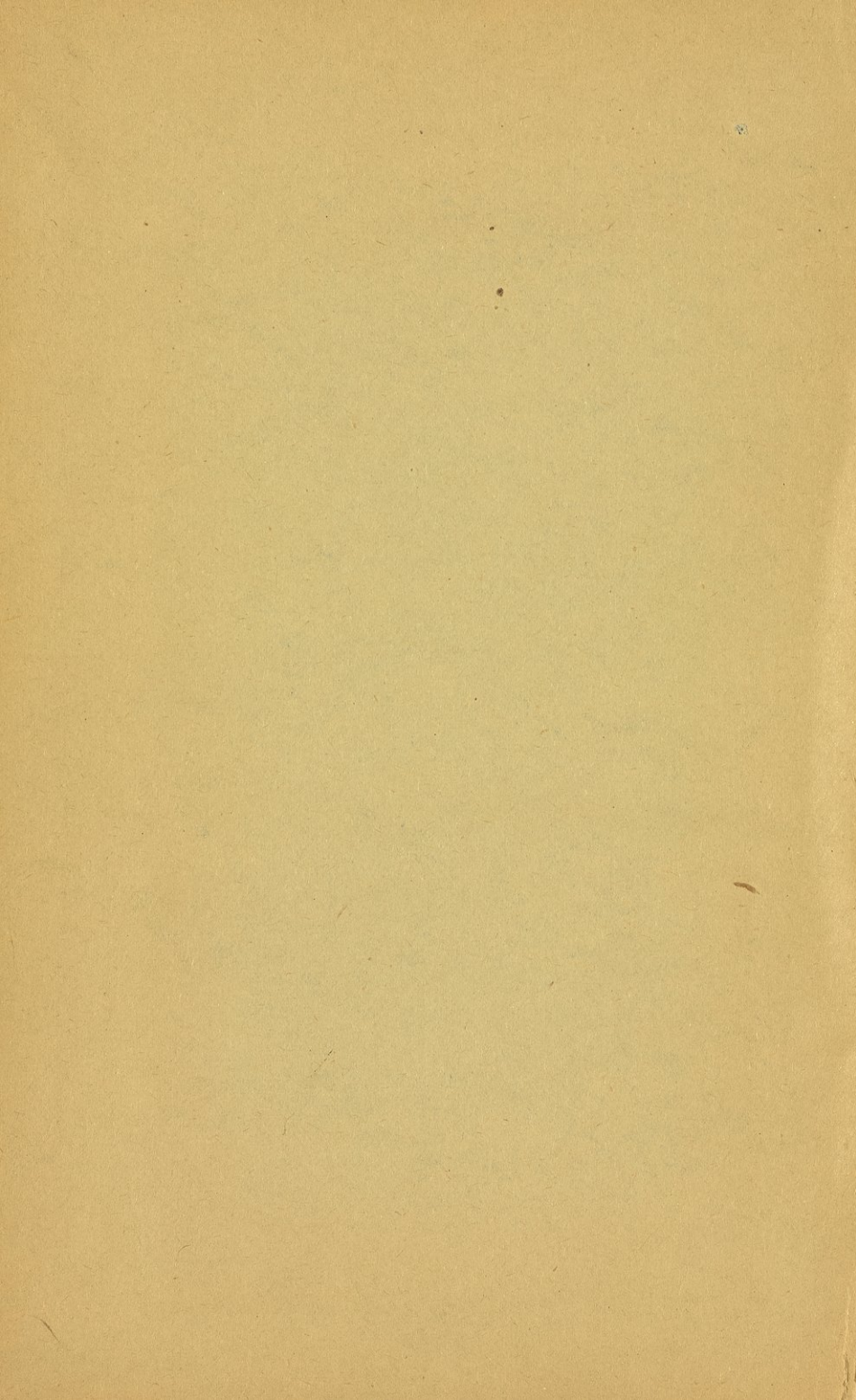
	صفحة
وكتب الى صديقه يوسف افندى جباره بالاسكندرية	٢٤٦
وكتب الى صديقه اديب افندى نظمي بدمشق	٢٤٧
وارسل اليه جواباً على كتاب	٢٤٧
وكتب من باريس الى يوسف افندى فارس بالاسكندرية	٢٤٨
وكتب الى عزتو خليل افندى الخورى بدمشق	٢٤٨

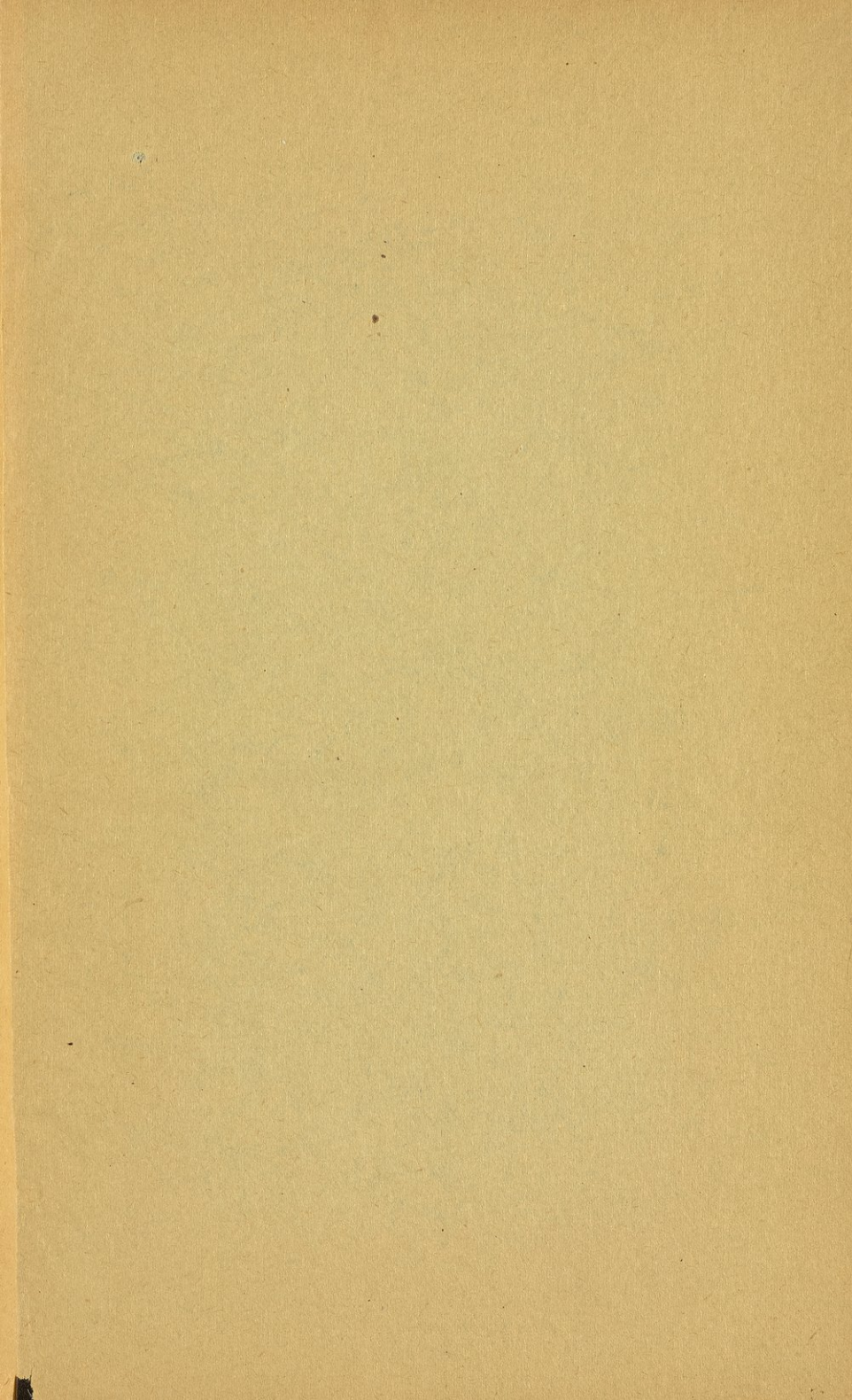


للشيخ سعيد افندي الشرتوني

صورة كتاب تهنئة لوالد بعيد راس السنة	٢٤٩
وله تهنئة في وزير انتصر في معركة	٢٤٩
وله في لوم صديق على ظعنه في مخدومه بعد تركه	٢٥٠
خاتمة لجامع الكتاب	٢٥١







COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0036760943

PJ
7677
.S9

MAY 27 1969

